مدخل إلى :

الأنثروبولوچيا

تأليف

نخبة من أعضاء هيئة التدريس

تحرير

دكتور

محمد عباس إبراهيم

أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوچيا

ووكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب

كلية الآداب . جامعة الاسكندرية

٢٠٠٣

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير . الأزاريطة ت ٤٨٧٠١٦٣

٣٨٧ شارع قنال السويس . الشاطبى ت ٥٩٢٣١٤٦

مدخل إلى :

الأنثروبولوجيا

تأليف

نخبة من أعضاء هيئة التدريس

تحرير

دكتور

محمد عباس إبراهيم

أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا

ووكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

٢٠٠٣ م

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة ت ٤٨٧٠١٦٣

٣٨٧ شارع قنال السويس ـ الشاطبى ت ٥٩٢٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

تمهيد

بقلم
أ . د . محمد عباس إبراهيم

الأنثروبولوجيا فى مفهومها العام تعد أوسع الدراسات الاجتماعية نطاقا وأشملها موضوعا وأغزرها مادة ، وأقدمها عهدا ، حيث جاءت الاهتمامات المبكرة مرتبطة بنشأة الأجناس البشرية ، والثقافات الإنسانية ، وحضارات الشعوب ، والنظم الاجتماعية ، كما جاءت بعض الآراء المستنبطة من مخلفات الكائنات الحية التى عثر عليها فى الحفريات التى ترجع إلى عود تاريخية سحيقة وعصور جيولوجية قديمة ، إضافة إلى النظريات والأفكار الشائعة عن العادات والتقاليد والأساطير الخاصة بالجماعات البدائية والمتأخرة ، وما يقال عن أساليبها فى التفكير واستعدادها للتثقف ، ووسائلها فى التفاهم والتعبير . وعلى هذا الأساس جاءت النظرة إلى موضوع الأنثروبولوجيا ومنهجها شاملة لكل المظاهر الطبيعية (الفيزيقية والحيوية والاجتماعية والثقافية) أينما وجد الإنسان .

وتمشيا مع التغيرات المجتمعية والأنماط الفكرية الموجهة لسلوك الإنسان جاءت الأهمية التطبيقية والحاجة إلى البحث العلمى الأنثروبولوجى ليشمل مجالات عدة ارتبطت فى مجملها بالبحث من أجل التخطيط لحياة أفضل للإنسان والمجتمع، حتى يمكن مواجهة المشكلات الناجمة عن التغيرات الاجتماعية والثقافية وإيجاد الحلول الجذرية المناسبة لمواجهتها حتى يواصل المجتمع مسيرته ويواصل الإنسان عطاءه الحضارى .

ومن هنا أصبحت الحاجة ماسة يوما بعد يوم إلى ضرورة التعرف على جوانب الحياة الاجتماعية ومظاهرها المتغيرة ، الأمر الذى أصبح البحث العلمى معه أمرا لامفر منه لمواجهة ذلك الواقع المتغير ، ولصياغة الطرق العلمية من أجل وضع السياسات الهادفة إلى اتخاذ القرارات فى كافة المجالات . فالتطبيق الأنثروبولوجى لايتوقف على جانب واحد دون الجوانب الأخرى التى تهم الإنسان

والمجتمع ، ويأتى هذا الشمول المعرفى والتنوع نتيجة لاتساع موضوع الأنثروبولوجيا وقدرته على تناول موضوعات أخرى فرعية تندرج تحت الإطار العام للبحث والدراسة فى علم الإنسان .

ويعد الكتاب الراهن " مدخل إلى الأنثروبولوجيا " محاولة موضوعية ومنهجية تهدف فى الأساس إلى تعريف القارئ المبتدئ والدارس المتقدم بأهمية علم الأنثروبولوجيا ودوره فى مواجهة الكثير من القضايا المجتمعية والإنسانية ، وقد توفر لهذا الكتاب دون غيره من الكتب البحثية جهود مشتركة أولاها عدد من الأساتذة والباحثين محل اهتماماتهم الفكرية والبحثية .

حيث جاء الفصل الأول بعنوان : " الأنثروبولوجيا ودراسة الإنسان " للأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية والذى ركز فيه على دراسة الإنسان دراسة أنثروبولوجية عبر العصور والأزمنة موضحا أهم الصعوبات التى واجهها علم الإنسان من أجل تحقيق الموضوعية فى تناول موضوعات الدراسة ، كما تناول مدى التقدم الذى أحرزه علم الإنسان فى شتى دراسة الظواهر والموضوعات الرئيسية محل اهتمام الأنثروبولوجيا العامة مع التركيز على دراسة الأيكولوجيا البشرية وعلم الأجنة والنمو والبيولوجيا الجزئية والوراثة والتطور الخفى والرئيسيات ، ومن ثم علاقة الأنثروبولوجيا بالنظم الاجتماعية والمجالات الثقافية وعلم آثار ماقبل التاريخ والاثنولوجيا والدراسات اللغوية .

وجاء الفصل الثاني بعنوان " الأنثروبولوجيا الفيزيقية " الذى كتبه الأستاذ الدكتور محمد عباس ابراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا ووكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب بجامعة الاسكندرية ليناقش موضوع الأنثروبولوجيا الفيزيقية ونشأتها واهتمامات الدراسة بها ، كما تناول موضوع الأجناس البشرية وخصائصها والصفات السلالية والتصنيف السلالى ، والإنسان وعلاقته بموضوع الوراثة ، ثم الهندسة الوراثية ودورها فى مجال العلم والقيم المجتمعية ، كما تناول الفصل طبيعة الأجناس البشرية ونظرتها إلى نفسها ، ونظرة الآخرين للأجناس

الأخرى ومن ثم وضع الأجناس البشرية فى ميزان النقد والتقويم الحضارى .

أما الفصل الثالث والذى كتبه السيد الدكتور/ مصطفى عوض ابراهيم الأستاذ المساعد بقسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، فجاء بعنوان " التنوع البشرى " حيث ناقش فيه الدراسات والآراء والمعالجات الفيزيقية لوجود الإنسان خصوصا من منظور البيولوجيا البشرية فجاءت اهتماماته منصبة على التصنيف الطبيعى للإنسان ، والسمات العامة للرئيسيات ، والخصائص المميزة للإنسان ، ومفهوم الجنس والنوع والسلالة ، والعوامل التى تؤدى إلى ظهور الصفات السلالية والصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية والاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية داخل المجتمع والبيئة.

وجاء الفصل الرابع بعنوان : " المقابلة والبحث الحقلى " الذى كتبته السيدة الدكتورة / مرفت العشماوى عثمان مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، ليضيف بعدا منهجيا فنيا فى مفهوم المقابلة وأهميتها واستخداماتها فى البحث الأنثروبولوجى ومزاياها وأنواعها ، ومدى قدرة الباحث على صياغة موقف المقابلة واستثماره من أجل جدوى البحث فى ضوء التساؤلات وصياغتها والقدرة على إجراء المقابلة ومدى صدق وثبات المقابلة فى البحث العلمى ، ثم أنهت ذلك بعرض نماذج البحوث الأنثروبولوجية وكيفية استخداماتها للمقابلة كأداة منهجية فنية لها أهميتها فى البحوث الميدانية والدراسات الحقلية .

أما الفصل الخامس بعنوان : " الأنثروبولوجيا والتنمية " والذى كتبه الأستاذ الدكتور/ فاروق أحمد مصطفى فجاء ليناقش دور وأهمية الأنثروبولوجيا منذ القرن التاسع عشر حين بدأ الاهتمام بتنمية المجتمعات الإنسانية والعمل على دراسة أسبابها ومقوماتها ومعوقاتها ونتائجها بين الشعوب والمجتمعات المختلفة ، حيث ظهرت أهمية الأنثروبولوجيا التطبيقية فى دراسة التغير والتنمية فى شتى المجالات مع عرض لأهم أسس التنمية الاجتماعية ومدى تطبيقها على مجتمع النوبة المصرية من خلال دراسة أجراها سيادته موضحا فيها أهمية مجتمع النوبة كحالة خاصة متمايزة ثقافيا واجتماعيا وعرقيا مع عرض وجهة نظر المجتمع نفسه فى

تلك التغيرات . كما ناقش الفصل النظرة المستقبلية لوضع النوبيين فى كل من مجتمع النوبة القديمة والنوبة الجديدة فى شمال أسوان ودور الأنثروبولوجيين فى دراسة التنمية .

وجاء الفصل السادس والذى كتبته السيدة الدكتورة/ فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية وجاء بعنوان : " البناء الاجتماعى للمؤسسات الطبية " ليناقش طبيعة العلاقات الاجتماعية فى ضوء نظرية البناء الاجتماعى باعتبارها أحد الاهتمامات الرئيسية للأنثروبولوجيا الاجتماعية ، موضحة طبيعة العلاقات التى تقوم عليها المؤسسات الطبية ، ومدى عمق تلك العلاقات وطبيعتها الدائمة والمؤقتة وذلك من خلال دراسة ميدانية أجرتها صاحبة هذا العمل العلمى فى بعض مستشفيات جامعة الاسكندرية .

أما الفصل السابع بعنوان : " الأنثروبولوجيا ودراسة العنف " للسيدة الدكتورة / هنومة محمد أنور حامد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية فجاء ليضيف بعدا جديدا فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية عامة ، والأنثروبولوجيا البيولوجية بصفة خاصة ، والتى من بين اهتماماتها دراسة ظاهرتى العنف والعدوان من خلال السلوك الفطرى الغريزى والمكتسب لدى كل من الإنسان والحيوان ، فتناول الفصل تعريف العنف والعدوان فى ضوء السلوك والفعل الاجتماعى ، وتعريف أهم أنماط وأساليب العدوان ، وصولا إلى مفهوم "الحرب " باعتباره الشكل الحتمى المتنامى للعدوان والانفعالات الاجتماعية غير المقبولة ، كما ناقش الفصل العدوان والتنظيم الاجتماعى والقرابة ونظريات تفسير العنف والعدوان ، والأسس البيولوجية والاجتماعية للعنف والعدوان فى ضوء المجتمع المتغير وعلاقة ذلك السلوك بالبيئة المحلية وموقف المجتمع الإنسانى من هذا كله .

وجاء الفصل الثامن بعنوان : " الأنثروبولوجيا الطبية " والذى كتبته السيدة الدكتورة/ مرفت العشماوى عثمان ليتناول نشأة الأنثروبولوجيا الطبية وفروعها باعتبارها من المجالات البحثية التى تهتم بالجوانب الثقافية والاجتماعية للإنسان

وارتباط ذلك بالصحة والمرض وطرق العلاج ، وجاء مفهوم الطب الشعبى من خلال خبرة الإنسان الطويلة ، مع معطيات البيئة الطبيعية فى ضوء المحاولة والخطأ وكثرة التكرار والتجربة ومدى كفاءة تلك الأساليب والوسائل العلاجية ، كما تناول أسباب الاعتلال ومدى الاعتقاد فى العوامل الطبيعية وفوق الطبيعية كمسببات للمرض ، ثم ناقش الفصل مفهوم الطب والمرض كمفهومين ثقافيين ومدى علاقتهما بالسحر والدين والعلاقة بين الطب الشعبى والضبط الاجتماعى .

أما **الفصل التاسع** والذى كتبه الأستاذ الدكتور/ محمد عباس ابراهيم فجاء بعنوان : " الأنثروبولوجيا الفلسفية " محاولا فيه مناقشة التفسير الفلسفي/ الأنثروبولوجي للظواهر سواء تلك التى كانت محل اهتمام من جانب علم الاجتماع الفلسفى ، أو تلك التى كانت مثار اهتمام من جانب علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية، وقد عرض هذا الفصل لأهم التطورات الفكرية فى مجال علم اجتماع المعرفة ، والمدخل الفكرى / المنهجي للأنثروبولوجيا الفلسفية ودورها فى تحليل الظاهرات المختلفة ، وكانت نقطة البداية والانطلاق فى المعالجة مستندة بصفة أساسية على فكر المفكر الفرنسى بول ريكور فى الحرية والإرادة وأنثروبولوجيا الحرية والحرية والطبيعة ، والحرية واتخاذ القرار ، والحرية والفعل ، والحرية وقبول الفعل ، فضلا عن مناقشة مبحث ذاتية الجوهر ، والحرية والقابلية للخطأ ، والأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية ومضمون الأسطورة .

أما **الفصل العاشر** بعنوان : " البحث الأركيولوجي " والذى كتبته السيدة الدكتورة / نادية أحمد محمد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، فجاء مؤكدا على أهمية الدراسات الأركيولوجية باعتبارها علما مستقلا ، مر بعدة تطورات أهمها أركيولوجيا ماقبل التاريخ ، والأركيولوجيا التاريخية ، والأركيولوجيا الحديثة ، أو مايطلق عليها الآن إسم الأركيولوجيا الأنثروبولوجية ، والتى لاتهتم فقط بتسجيل الثقافات وعناصرها فى الماضى ، وإنما تولى اهتماما خاصا بتسجيل ورصد الثقافات المادية فى المجتمعات

المعاصرة .

والفصل الحادى عشر بعنوان : " الأنثروبولوجيا ودراسة الصحة والمرض" للسيدة الدكتورة / هنومة محمد أنور .

والفصل الثانى عشر بعنوان : " أنثروبولوجيا الجريمة " للسيدة الدكتورة/ فادية فؤاد حميدو .

وهكذا يأتى هذا الكتاب فى عرض متكامل لجهد جماعى ليوضح للقارئ الكريم فكرة واضحة ومتعمقة لمفهوم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وطبيعة الدراسة بها والموضوعات المشتركة والبينية التى تقوم بدراستها الفروع المختلفة للأنثروبولوجيا وذلك من خلال عرض لبعض الجوانب النظرية والمنهجية والتطبيقية، والتى شملت رؤية واضحة لفروع الأنثروبولوجيا العامة ومجالاتها الفيزيقية والاجتماعية والثقافية والفلسفية .

ونأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة مفيدة للمكتبة العربية فى علوم الإنسان والمجتمع .

والله من وراء القصد ،،،

الاسكندرية في ١/١/٢٠٠٣ م

دكتور

محمد عباس ابراهيم

الفصل الأول

الأنثروبولوجيا ودراسة الإنسان*

---

* كتب هذا الفصل السيد الأستاذ الدكتور / فاروق أحمد مصطفى الأستاذ بقسم الأنثروبولوچيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

الفصل الأول

الأنثروبولوجيا ودراسة الإنسان *

ـ دراسة الإنسان :

ووجه الإنسان منذ خلق بمجموعة من التساؤلات كلها كانت تثير التعجب مثل من هو هذا الإنسان ؟ من أين أتى ؟ لماذا قام بممارسة بعض الأفعال ؟ ولماذا يترك بعض الأفعال الأخرى وغيرها من الأسئلة الكثيرة . والتى كان من نتائج الإجابة عليها أن بذل الإنسان كل جهده حتى كوّن التاريخ الإنسانى وفى بعض الأحيان كان يجد الإنسان بعض الإجابات عن بعض الأسئلة المحيرة فى الأساطير وفى الفولكلور .

ويعد علم الإنسان (الأنثروبولوچيا) العلم الذى استطاع الإجابة على تساؤلات الإنسان من خلال القرون الماضية من عمر الإنسان على الأرض وذلك لأن الأنثروبولوچيا هى دراسة الإنسان وثقافته وهو العلم الذى يهتم فى المحل الأول بدراسة الإنسان العاقل وأتباعه نظرا لأن عالم الإنسان المتخصص هو نفسه عضو فى الجماعة الإنسانية التى يقوم بدراستها وقد يكون من الصعب عليه فى بعض الأحيان تحقيق الموضوعية التى يمكن أن يحققها علماء آخرين مثل علماء النبات والحيوان وقد يتحمل الأنثروبولوچى أعباء دراسة الإنسان من وجهة نظر موضوعية وحيادية وعلمية ويهدف إلى أن يصل إلى فهم حقيقى وغير منحاز واضعا فى الاعتبار الاختلافات الإنسانية [1] .

ـ نمو وتقدم علم الإنسان :

ويعد علم الإنسان فى شكله الجديد من العلوم الحديثة نظرا لأن الإنسان سيثير دائما مجموعة من التساؤلات عن نفسه وعن أصله الأول وقد أخذ علم

* كتب هذا الفصل السيد الأستاذ الدكتور / فاروق أحمد مصطفى الأستاذ بقسم الأنثروبولوچيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

(1) William A. Haviland, Anthropology , Holt , Rinehart and Winston Inc., 1974, P.5 .

الإنسان فترة طويلة من الزمن حتى ظهر كعلم مستقل وقد ساعد تقدم الإنسان واكتشافه أساليب الإتصال ووسائل المواصلات الحديثة فى تقدم العلم ونموه .

ـ علم الإنسان والعلوم الاجتماعية (والعلم الاجتماعى) :

حاول الإنسان قبل القرن الثامن عشر معرفة سلوكه وسلوك الآخرين وقام بتحليلها . ونظرا لأن الأنثروبولوچيا كعلم لاتهتم بالإنسان بمفردها كما أنها لاتشارك العلوم الاجتماعية وإنما أيضا يشترك معها أيضا العلوم الطبيعية فهناك ارتباط دائم بين الأنثروبولوچيا البيولوچية وبين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع ، كما وأن الأنثروبولوچى يرحب بكل إسهامات هؤلاء العلماء وذلك للوصول إلى تحقيق الهدف العام لعلم الإنسان نفسه ألا وهو فهم الإنسان ويقدم نتائج بحوثه ودراساته المختلفة من أجل تحقيق صالح الإنسان .

إن نظرة الأنثروبولوچى للإنسان نظرة واقعية لأنه فى الوقت الذى ينظر إليه على أنه مخلوق اجتماعى فإنما ينظر إليه ككائن بيولوچى أيضا إنه ينظر إلى السلوك الإنسانى ولكنه لايحدد لنفسه جانبا واحدا من هذا السلوك فهو ينظر إلى السلوك الكلى والأنثروبولوچى يستطيع بما اكتسب من مهارات أن ينظر نظرة شاملة إلى هذا العضو البيولوچى الثقافى ألا وهو هذا الإنسان الذى كرمه الله على بقية المخلوقات .

ويعتبر علم الإجتماع *Sociology* من أقرب العلوم لعلم الإنسان نظرا لأن كلا من العلمين يهتم بالدور الذى يقوم به الإنسان من خلال وجوده فى محتوى اجتماعى وكل من الأنثروبولوچى والإجتماعى يحاول فهم العادات والتقاليد الخاصة بالشعوب التى تنتمى إلى ثقافات معينة لكن الأنثروبولوچى يتميز باهتمامه الخاص بالبحث عن القوانين العامة للسلوك الإنسانى وذلك عن طريق دراسة كل جوانب السلوك الإنسانى وليس كما يفعل المتخصص فى علم الاجتماع من خلال عينة أو نماذج محددة من الجماعة . كما وأن الأنثروبولوچى ينظر إلى الإنسانية ككل ولا يحدد نفسه فى دراسة ثقافية واحدة كالثقافة الغربية كما أنه يرى أنه من

الضرورى لكى يصل إلى فهم أعمق للسلوك الإنسانى يجب عليه أن يدرس الإنسان فى كل مكان ومن ثم فإن الدراسات الأنثروبولوچية امتدت إلى دراسة كل الثقافات الإنسانية الأخرى . فضلا عن أنها تركز على ميادين أخرى كثيرة كميدان ثقافة الإنسان فى مرحلة ماقبل التاريخ باعتبار أن دراسة هذه المرحلة هى أساس دراسة الثقافات الإنسانية المختلفة .

إن مايستطيع أن يتوصل إليه الأنثروبولوچى من نتائج تعد تحديات للنتائج التى يتوصل إليها كل من الاجتماعى والسيكولوچى ، والاقتصادى ومن هنا تلعب الأنثروبولوچيا دورا إيجابيا هاما .[1]

يستخدم الأنثروبولوچيون مصطلح الأنثروبولوچيا ***Anthropology*** معربا من اللغات الأجنبية إلى ***Anthropos*** بمعنى الإنسان و ***Logia*** ومعناها علم أو دراسة ومن هنا يتضح أن مصطلح الأنثروبولوچيا يعنى دراسة الإنسان .

فالإنسان هو هذا المخلوق العجيب الذى تفرد له دراستنا فى هذا العلم مجالا هاما دون تقيد بالزمان والمكان فيقوم المتخصص فى هذا الفرع بدراسة أجداده وأصوله وأسلافه منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا كما أنه يدرس الإنسان فى أى مكان من العالم الذى أصبح بفضل التقدم العلمى قريبا جدا .

قسّم الأنثروبولوچيون (علماء الإنسان) هذا العلم إلى فروع رئيسية بحسب نظرتهم إلى الإنسان على الشكل التالى :

أولا ـ النظرة إلى الإنسان باعتباره كائن حى مخلوق ضمن المخلوقات الأخرى فظهر فرع الأنثروبولوچيا الجسمية أو الطبيعية أو الفيزيقية ***Physical Anthropology***.

ثانيا ـ النظرة إلى الإنسان باعتباره اجتماعى بطبعه يعيش فى جماعات مختلفة ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوچيا الاجتماعية ***Social Anthropology*** .

---

(1) Ibid., PP. 7 - 10.

ثالثا ـ النظرة إلى الإنسان على أساس أنه حامل للثقافة وناقل لها عبر الأجيال ساعدت على ظهور فرع الأنثروبولوچيا الثقافية *Cultural Anthropology* .

وسنتناول هذه الفروع الرئيسية بالتفصيل .

أولا ـ علم الإنسان الطبيعي أو الجسمي أو الفيزيقي (الأنثروبولوچيا الفيزيقية) *Physical Anthropology* :

هى دراسة الجانب الطبيعى والفيزيقى فى الإنسان ، ودراسة جسمه وتطوره واختلافاته البيولوچية . وهذا الفرع من علم الإنسان يهتم بتوضيح أوجه التشابه والاختلاف والتباين واتجاهات التغير فى الأفراد والجماعات فى الماضى والحاضر. ويرجع الاختلاف والتباين إلى الاختلافات الوراثية وإلى تأثير عوامل البيئة الكامنة فى الوراثة .

يهتم الأنثروبولوچيون الفيزيقيون بالقيام بالبحوث والدراسات التى تلقى الضوء على كثير من المفهومات التى لم تكن معروفة من قبل والتى تميز مجالات عديدة داخل هذا الفرع الهام من دراسات علم الإنسان . ومن أهم هذه المجالات نذكر مايلى :

ـ علم العظام وعلم الأسنان *Osteology & Dentistology* :

تعد دراسة العظام والأسنان من أهم اهتمامات الأنثروبولوچيا الفيزيقية نظرا لأنها الأجزاء الرئيسية بالنسبة للحفريات ، كما وأنها تحكى قصة التطور : فالجمجمة توضح شكل الفرد وحجم المخ ، أما الهيكل العظمى فيحدد الشكل العام للجسم الإنسانى وحجمه ، وترتبط أجزاء الجسم بالعضلات التى تساعد على أداء الحركة ونستطيع عن طريق دراستنا للهيكل العظمى أن نعرف وظيفة أجزاء الجسم المختلفة .

ـ الأيكولوچيا البشرية *Human Ecology* :

تحدد الإيكولوچيا البشرية وسائل تكيف الإنسان لظروف الحياة التى تختلف

طبقا للسن ، والنوع ، والأصول العرقية ، وهذا يعنى توضيح كيفية التعامل بين الإنسان والبيئة فى ضوء العوامل الكثيرة مثل العوامل البيولوچية ، والتشريحية والفسيولوچية ، والباثولوچية ... الخ .

وتزداد أهمية التفاعل الإنسانى مع البيئة نظرا للتغير الذى يحدث بسرعة نتيجة لما يقوم به الإنسان من دور فعال فى تغيير ملامح كل مايحيط به .

- **علم الأجنة والنمو** *Embryology & Growth* :

مما لاشك فيه أن هناك تغييرات كثيرة يمر بها الإنسان عبر أعماره المختلفة لها تأثيراتها المستمرة على كل الملامح البيولوچية البشرية ، ودراسة النمو لاتبدأ بميلاد الطفل وإنما تبدأ قبل ولادته ويهتم بها علم منفصل هو علم الأجنة الذى يتابع عملية نمو الطفل والجنين داخل رحم الأم ، كما يتابع علم الأنثروبولوچيا الفيزيقية عمليات النمو المختلفة بعد الولادة وذلك بإجراء المقاييس الأنثروبومترية لمتابعة الأطفال فى جميع الأعمار لملاحظة التغيرات التى تحدث بعد الميلاد . مثل النمو الفيزيقى فى الحجم (الوزن والطول) ونمو بعض الأعضاء تحدد الملامح الخاصة بالبلوغ والقدرة على أداء بعض الأعمال وغيرها .

- **تكوين الجسم وبناؤه** *Body Composition & Build* :

يعمل الأنثروبولوچى الفيزيقى مع المتخصصين فى استخدام التحليل الإشعاعى أو عن طريق استخدام الموجات الصوتية وذلك بهدف تحديد مابداخل الجسم الإنسانى الحى من مكونات وتأثيرها فى بناء الجسم وقوته أو ضعفه .

- **البيولوچيا الجزئية** *Molecular Biology* :

يسهم الأنثروبولوچيون الفيزيقيون فى تحديد السمات الفيزيقية للبشر والمخلوقات الأخرى وتحديد أوجه الإختلاف والتشابه بين الإنسان وهذه المخلوقات باستخدام بعض التحليلات البيولوچية مثل فصائل الدم وتحديد نسبة الهيموجلوبين وغيرها .

- علم الوراثة البيوكيميائية *Biochemical Genetics* :

ترجع الاختلافات فى قدرة الجسم أساسا إلى التركيب الجزئى لخلايا الجسم والكمية التى سينتجها من الخلايا وهذا كلها ترجع إلى موروثات بيولوجية . ويهتم هذا الفرع من علم الإنسان الفيزيقى بالسؤال عن هل الأمراض التى تظهر فى بعض الشعوب سببها الإختلافات الموروثة ؟ أم ترجع إلى ماتتغذى عليه هذه الشعوب من طعام ؟ وقد اكتشفت الدراسات الفيزيقية فى هذا الصدد أن انتشار مرض البول السكرى بين بعض الشعوب لايرجع إلى عوامل الوراثة فحسب وإنما أيضا يرجع إلى عوامل أخرى مثل التغذية .

- التطور الخفي *Micro Evolution* :

يستخدم مصطلح التطور الخفي لوصف العمليات التى تؤدى إلى التباين والاختلاف بين الشعوب من نفس الأنواع خلال فترة قصيرة من الزمن . وتتدخل عمليات التباين والإيكولوچيا بصورة مباشرة فى تحديد أوجه التباين بين الشعوب كالإنحدار السلالى واختلاف المناخ والتغذية والأمراض التى تؤدى إلى حدوث هذه الاختلافات .

- الرئيسيات *Primatology* :

يهتم علم الإنسان الفيزيقى بعقد المقارنات بين الإنسان وغيره من الحيوانات الثديية الشبيهة به أو الرئيسيات غير البشرية وذلك من أجل تحديد أوجه الاختلاف من الناحية التشريحية وأيضا تحديد أوجه التباين فى السلوك .

وقد أثبتت الدراسات التى تمت على الرئيسيات بأن التماسك الإجتماعى داخل القردة يرجع إلى كل من السلوك العدوانى والسلوك التعاونى القائم على الصداقة .

- الأنثروبولوچيا الفيزيقية التطبيقية *Applied Physical Anthropology* :

يقدم الأنثروبولوچيون الفيزيقيون خبراته من أجل حل المشكلات التى تواجه الإنسان والمتعلقة بالأمراض وتحديد الجانب المتوارث من هذه المشكلات أو تحديد العوامل الإيكولوچية البيئية .

بجانب ذلك فإن الأنثروبولوچيا الفيزيقية تسهم فى موضوعات تطبيقية كثيرة تحقق الأمان والرفاهية والراحة للإنسان فهى تساعده فى اختيار الملابس المناسبة، والمفروشات والأثاثات والسيارات ، وأماكن العمل وأيضا فى تصميم كثير من المنتجات التى يستخدمها الإنسان ، ويظهر ذلك فى مجال صناعة السيارات والطائرات بوضوح .

وعلى العموم فإن الموضوع الرئيسى لعلم الإنسان الفيزيقى هو الإنسان وهو المخلوق العاقل الوحيد الذى تحدد له عوامل البيئة والوراثية تأثيرها بالتفاعل الاجتماعى والثقافى [1] .

ثانيا ـ الأنثروبولوچيا الاجتماعية *Social Anthropology* :

يعد علم الإنسان الإجتماعى الفرع الثانى من أفرع علم الإنسان ، وهذا الفرع يتعامل مع الإنسان باعتبار أنه عضو فى جماعة إنسانية ، وأنه اجتماعى بطبعه لايستطيع أن يعيش منعزلا عن الآخرين ، إلا فى حالات المرض النفسى الخطير والمرض العقلى .

وتختلف الجماعات التى ينضم إليها الإنسان بحسب نموه نفسه ومن خلال وجوده داخل هذه الجماعات فهو يكوّن علاقات اجتماعية يمكن تجريد هذه العلاقات الاجتماعية *Social Relation* فى شكل نظم اجتماعية وأنساق اجتماعية أكبر نتعرف عليها عندما ندرس الجماعات الإنسانية المختلفة دراسة مركزة ، هذه الدراسة تساعدنا على الفهم بطريقة أفضل لمكونات البناء الاجتماعى *Social Structure* لهذه الجماعات الإنسانية المختلفة .

مرت الأنثروبولوچيا الاجتماعية بمراحل تاريخية أهمها مرحلة القرن الثامن عشر الميلادى وهذه المرحلة مهدت لظهورها واستفادت من بعض دراسات المفكرين أمثال المفكر الفرنسى *Montesquieu* فى كتابه روح القوانين *L'Esprit des Lois* حيث أشار إلى أن المجتمع ونظمه الإجتماعية ترتبط بعضها ارتباطا وثيقا

---

(1) Gabril Ward Lasker, Physical Anthropology, Holt Rinehard Winstron Inc., New York, 1973, PP. 1 - 2 .

ويؤثر بعضها فى البعض الآخر ولا يمكن فهم أى نوع من القوانين إلا فى ضوء دراستنا للعلاقات القائمة بين القوانين المختلفة مثل القانون الدولى ، والقانون الدستورى ، والقانون الجنائى ، والقانون المدنى كما أنها جميعا مرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمع معين .

واستفاد التراث الأنثروبولوجى من المفكر سان سيمون *Saint Simon* الذى يعد بحق أول من فكر فى ضرورة إنشاء علم يدرس المجتمع يقوم على العلاقات الاجتماعية كما نبه إلى ضرورة دراسة الوقائع والحقائق *Social Facts* كما هى وليس التصورات عنها ، وأسهم فى ظهور الأنثروبولوجيا فى هذا القرن كل من دافيد هيوم *David Hume* وأدم سميث *Adam Smith* حيث نظرا إلى المجتمع على أساس أنه نسق طبيعى .

وقد ظهر فى القرن الثامن عشر الإهتمام بدراسة المجتمع البدائى فصدرت كثير من الأحكام العامة التى اعتمدت على الظن والتخمين نتيجة الاعتماد على كتابات الرحالة والمستكشفين وبعض الكتب الدينية كالعهد القديم .

يعد القرن التاسع عشر الميلادى قرن نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية حيث صدرت مجموعة كبيرة من الكتب الهامة فى هذا القرن حددت إلى حد كبير معالم الموضوع الأساسى للدراسة نشير هنا إلى أهمها :

القانون القديم *Ancient Law* للسير هنرى مين *H.Maine* والثقافة البدائية *Primitive Culture* للسير ادوارد تايلور *E.Tylor* ، والزواج البدائى *Primitive Marriage* لماكلينان *Mclennan* ، والمدينة العتيقة *La Cite'Antique* لفوستيل دى كولانج *Fustel de Coulanges* وغيرها .

وقد كانت هذه المؤلفات والكتب ثمرة هوايات هؤلاء العلماء ولم تصدر عن تخصصاتهم وذلك نظرا لعدم ظهور تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعد . وأهم مايميز القرن التاسع عشر ظهور إتجاه جديد فى الدراسة وهو تفسير الظواهر الاجتماعية والنظم الاجتماعية من زاوية جديدة لم تكن معروفة من قبل هذه الزاوية

هى التفسير الاجتماعى فعلى سبيل المثال فإن الزواج الخارجى الاغترابى *Exogamy* لايرجع إلى أسباب نفسية وإنما يرجع إلى أسباب اجتماعية وهى تأصل عادة وأد البنات عند بعض المجتمعات الإنسانية .

سمى علماء هذا القرن بعلماء المقاعد الوثيرة *Armchair Anthropologists* نظرا لعدم قيامهم بدراسة ميدانية واعتمادهم على أقوال الرحالة ورجال الإدارة من المستعمرين الأوربيين ، تميزت هذه الفترة من القرن التاسع عشر بظهور مدرسة النشوء والتطور وكان يبحث أصحابها عن نشأة وتطور النظم الاجتماعية كالأسرة والدين وقد أثارت نتائج الدراسات التى قام بها أصحاب هذه المدرسة الكثير من التعليقات من علماء الأنثروبولوجيا الإجتماعية اللاحقين وذلك بسبب صعوبة دراسة الأصول والبدايات الأولى واهتمام العلماء الآن بالبحث عن وظيفة النظم الإجتماعية والأدوار التى تقوم بها وتأثيرها فى البناء الاجتماعى .

يشهد نهاية القرن التاسع عشر استكمال عناصر الأنثروبولوجيا الإجتماعية حيث قام العلماء بتصنيف المجتمعات على أساس أبنيتها الإجتماعية بدلا من ثقافتها وكان لظهور هذا الإتجاه الخطوة الحاسمة لكى تستقل الأنثروبولوجيا الإجتماعية عن فروع الأنثروبولوجيا الأخرى وأصبح موضوعها الأساسى هو العلاقات الإجتماعية وليست الثقافة بجميع عناصرها المادية والمعنوية .

وكان لاستخدام منهج الدراسة الحقلية أو الميدانية *Field Work* الأثر الكبير فى بلورة هذا الفرع والهام . ويرجع الفضل فى ذلك إلى البعثة الناجحة التى قام بها هادون *Haddon* لدراسة مضايق توريس *Torres Straits* فى المحيط الهادى واستغرقت عامين من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٠٠ حيث اعتبرت الأنثروبولوچيا الاجتماعية تخصصا جديدا يقوم على أساس الدراسة الميدانية وهى العنصر الجوهرى فى تكوين هذا الفرع وتدريب الطلاب وبرغم كل ماتقدم إلى هذه الرحلة من أوجه النقد إلا أنها هيأت الأذهان إلى أهمية الدراسة الحقلية فقام علماء آخرون بمتابعة البحوث والدراسات الحقلية أمثال مورجان *Morgan* وبواس

Boas ، وريفرز *Rivers* ، وسيلجمان *Silgman* ، ومالينوفسكى *Malinowski* وغيرهم .

ومع بداية الربع الأول من القرن الحالى شهدت الأنثروبولوچيا الاجتماعية فترة التخصص والتوسع والانتشار فقام فريق آخر من العلماء بدراسات حقلية منهم رادكليف براون *Radcliffe - Brown* الذى درس الإندمان *The Andaman Islanders* كما قام مالينوفسكى بدراسة جزر التروبرياند ووضع كتابه الضخم *Argonasts of the Western Pacific* والذى استمرت دراسته لمدة أربع سنوات تعلم فيها لغة الأهالى أنفسهم فجاءت دراستهم أكثر دقة كما أصبحت الدراسات الحقلية أكثر رسوخا ووضع لها القواعد والأسس والأساليب التى يجب اتباعها .

وشهد النصف الثانى من القرن العشرين ازدهارا فى الأنثروبولوچيا الاجتماعية حيث بدأ تدريب مجموعة كبيرة من الأنثروبولوچيين الإجتماعيين وانتشرت الدراسات الأنثروبولوچية الميدانية من ميلانيزيا وبولينيزيا لتتجه لدراسة بعض قبائل السكان الأصليين فى استراليا واهتم العلماء بدراسة الجانب السياسى للمجتمعات التى سميت بالمجتمعات البدائية فى أفريقيا فدرس إيفانز بريتشارد قبائل الأزاندى والنوير ، ودرس فورتس بعض قبائل ساحل الذهب (التاليرزي *Tallersi*) ، ودرس نادل قبائل نوبى *Nobe* فى نيجيريا وغيرها من الدراسات .

كما قامت كثير من المؤسسات العلمية تساعد الباحثين الأنثروبولوچيين على القيام بدراساتهم الحقلية فى خارج أوطانهم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مؤسسة فولبرايت الأمريكية ، ومؤسسة فورد الأمريكية ، ومؤسسة ورنرجرين الأوربية وغيرها من المؤسسات العلمية فضلا عن المنح الكبيرة التى قدمتها الجامعات الأوربية والأمريكية للباحثين الأنثروبولوچيين .

وظهرت مدارس علمية فى مجال علم الإنسان الإجتماعى من أهمها المدرسة

الانتشارية *Diffusionist* التى اهتمت بالبحث عن انتشار العلاقات والنظم الاجتماعية التى كثيرا ماتستعار وتنتقل من مكان إلى آخر وبناء على رأى هذه المدرسة فإن تشابه النظم الاجتماعية والعادات فى المجتمعات المختلفة لاينشأ عن النمو التلقائى الناتج عن تشابه الإمكانيات الاجتماعية والطبيعية للإنسان بل قد ينشأ عن الاستعارة وانتشار تلك النظم الاجتماعية من مجتمع إلى آخر .

كما ظهرت أهم مدرسة فى علم الإنسان الاجتماعى وهى المدرسة الوظيفية التى تعد بحق من أقوى مدارس الأنثروبولوجيا الاجتماعية والتى ينتمى إليها معظم الأنثروبولوجيين الاجتماعيين فى العالم وهى تهتم بالكشف عن وظائف النظم الاجتماعية وينظر أصحاب هذه المدرسة إلى أن المجتمعات الإنسانية لها بناؤها وهذا البناء يتكون من جماعات وأنساق إجتماعية ونظم اجتماعية وعلاقات إجتماعية يعتمد بعضها على بعض وتتساند وظائفها داخل هذه الأبنية الإجتماعية التى لها طبيعة مستمرة ودائمة رغم التغير الذى قد يحدث داخل عناصرها .

وقد شهدت الفترة التى نعيشها الآن ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية واهتمامها بدراسة كل المجتمعات الإنسانية التقليدية والقروية والحضرية بمناهجها وأساليبها المتميزة ، كما شهدت أيضا تعاونا بينها وبين فروع علم الإنسان الأخرى بل وبينها وبين العلوم الاجتماعية والإنسانية كعلم الإجتماع وعلم النفس [1] .

ثالثا ـ علم الإنسان الثقافي (الأنثروبولوجيا الثقافية) :

Cultural Anthropology

أما الفرع الثالث من علم الإنسان الثقافى والذى يدرس الإنسان باعتباره كائن ثقافى حامل للثقافة ويعيش فى كنفها وتحافظ عليه ويحافظ عليها كما أنه ناقل لها عبر الأجيال المختلفة . ونظرا لأن هذا الفرع يهتم بالسلوك الإنسانى فإنه يهتم بماضى الإنسان وحاضره .

---

(١) راجع أحمد أبو زيد (المترجم) الأنثروبولوجيا الاجتماعية لمؤلفه أ . أ . إيفانز بريتشارد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

والثقافة ذلك الكل المركب الذى يتكون من العرف والتقاليد والمعتقدات والقيم والممارسات وكل ماأوجده الإنسان من اختراعات وابتكارات إلى غير ذلك . ويمكن تمييز جانبين هامين فى الثقافة هما : الجانب المعنوى اللامادى والجانب الآخر هو الجانب المادى الذى يشمل كل مخترعات الإنسان فى الناحية المادية من الحياة .

ويهتم المتخصصون فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ماضى الإنسان وقد عرفت هذه الدراسة بالدراسات الأركيولوجية ، كما يهتم بالوقوف على ثقافة الإنسان الحاضرة فيما يعرف باسم الأثنولوجيا ، ويبذل جهدا خاصا فى فهم الثقافة وذلك عن طريق مايعرف باسم اللغويات أو الأنثروبولوجيا اللغوية وسنتناولها بشيئ من التفصيل .

(١) علم آثار ماقبل التاريخ *Pre-history* أو الأركيولوجيا *Archaeology*:

يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافات القديمة أو الثقافات البائدة التى ليس لدينا عنها تاريخ مكتوب ، ويعرف علماء الإنسان الثقافى الأركيولوجيا بأنها دراسة الماضى ، أو دراسة الإنسان فى عهوده القديمة وهى تركز على البقايا والمخلفات الثقافية التى تركها الإنسان .

وهناك فرق واضح بين مايقوم به عالم الآثار التقليدى الذى يبحث فى الآثار التى تركها اليونانيون أو المصريون أو البابليون أو الآشوريون وغيرهم وبين الأركيولوجى لأن الأول يقوم بمحاولة تحقيق وتأكيد التاريخ المدون ، أما الأركيولوجى فإنه يعمل فى ظروف مغايرة ويستهدف مادة أكثر غموضا وإبهاما ويبحث عن البقايا المدفونة للشعوب القديمة ويقوم بإجراء الحفريات المناسبة وله أساليبه الخاصة التى يستخدمها للوقوف على الحقائق الخاصة بماضى الإنسان .

وقد استطاع الأركيولوجى تطوير أساليبه ومناهجه واستخدام العلم من أجل التوصل إلى حقيقة مايدرس فاستخدم التحليلات الكاربونية وأشعة إكس كما أقام النماذج وقدم الوصف الملائم لأهم خصائص البقايا والمخلفات وبحث وظيفتها وحاول وضع تاريخ دقيق لها باستخدام عنصر مشع هو الكربون المشع ورمزه ك١٤

وغيرها من العناصر الأخرى ثم وضع التصورات المختلفة التى تكشف عن طرق الحياة المتمايزة لهذه الثقافات وعقد المقارنة بينها أو بين الثقافات الأخرى التى عاشت فى زمن مساو لهذه الثقافة فى مناطق أخرى من العالم .

ويمكن القول بأن الأركيولوجيين قد قطعوا شوطا بعيدا من حيث مساهمتهم فى الكشف عن تاريخ الثقافة الإنسانية وأن هدفهم الأسمى هو الوصول إلى المراحل المبكرة من تاريخ الإنسان وثقافته وتحديد عمره على الأرض [١].

(٢) الاثنولوجيا *Ethnology*:

يدرس هذا الفرع ثقافات الشعوب الموجودة وقت الدراسة الآن كما يدرس الشعوب التى لديها تسجيلات مكتوبة لإخباريين عاشوا فى تلك الثقافات .

والاثنولوچى يدرس ثقافة المجتمع أو المجتمعات التى يبحثها فيدرس النظم الاجتماعية والسياسية السائدة والدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية وكذلك المثل العليا والأفكار .

وقد حدث خلط بين الأنثروبولوچيا الإجتماعية والاثنولوچيا فى الماضى أما الآن فقد تم تحديد موضوعات كل منهما بدقة .

ويجدر الإشارة إلى أن هناك فرقا واضحا بين الاثنوجرافيا *Ethnography* والاثنولوچيا ، فالاثنوجرافيا هى الدراسة التسجيلية للشعوب دون تخيل لهذه الثقافات أو عقد المقارنة بينها وبين الشعوب الأخرى . بينما الاثنولوچيا تهدف إلى عقد المقارنة بين الثقافات حتى نستطيع التوصل إلى مانسميه بالعموميات *Universals* أو إلى قوانين عامة تحكم السلوك الإنسانى . كما وأن الاثنوجرافيا مرحلة ضرورية فى الدراسات الأنثروبولوچية الحقلية . ويحاول المتخصص فى مجال الاثنولوجيا دراسة آثار الإتصال بين الثقافات المختلفة وتصنيف هذه الثقافات إلى مجموعات أو مناطق ثقافية فى ضوء مقاييس معينة توضع لتحقيق

(١) فاروق اسماعيل ، الأنثروبولوچيا الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠ ، ص ٣١ .

هذا الغرض .[١]

(٣) الانثروبولوچيا اللغوية *Linguistic Anthropology* :

فرع هام من أفرع الأنثروبولوچيا الثقافية يهتم بعنصر حيوى من عناصر الثقافة وهو اللغة ، الوسيلة الوحيدة للإتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان كما أنها أداة نقل الأفكار أو التعبير عنها بكلمات أو إشارات أو رموز أو صور أشكال وغيرها .

واللغة ليست اهتمام اللغويين فحسب بل يهتم بها بعض العلماء المتخصصين فى مجال الأنثروبولوچيا اللغوية ، وبعض التخصصات الأخرى كالفلسفة والمنطق .

والأنثروبولوچى اللغوى يهتم فى البحث عن أصول اللغات وأشكالها الرمزية ومحاولة إعادة البناء اللغوى لبعض اللغات بغرض الوقوف على المجموعات اللغوية التى تشترك وترجع إلى أصول متشابهة كالمجموعة السامية مثلا والتى تضم اللغة العربية واللغة العبرية وغيرها .

وينظر الأنثروبولوچى إلى اللغة باعتبارها كائن حى يولد وينمو ويزدهر ويكبر ويصل إلى مرحلة الشيخوخة كما أنها قد تهاجر من مكان إلى آخر بهجرة أصحابها ومحدثيها .

ودراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم وبتأثيرها على هذه اللغة ومصادر هذه اللهجات وهل هى ترجع إلى لغات انقرضت ؟ كما هو الحال فى بعض لهجاتنا المحلية التى تحتوى على بعض الكلمات من اللغة المصرية القديمة فيحاول الأنثروبولوچى اللغوى إلقاء الضوء عليها كما يدرس تأثير الحروب فى انتشار بعض اللغات وأثر التبادل الاقتصادى والثقافى على اللغة وإلى غير ذلك من الموضوعات التى تهم المتخصصين فى مجال علم الإنسان اللغوى .[٢]

---

(١) عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٢) راجع فاروق اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٣٨ ـ ٤٢ .

الفصل الثانى

الانثروبولوجيا الفيزيقية *

- مقدمة : الأنثروبولوچيا الفيزيقية : النشأة والاهتمامات .
- الأجناس البشرية وخصائصها .
- الصفات السلالية بين الأجناس .
- التصنيف السلالي .
- الإنسان والوراثة .
- الهندسة الوراثية .
- الهندسة الوراثية والقيم المجتمعية .
- خاتمة : الأجناس في ميزان النقد .
- القراءات والمراجع .

---

* كتب هذا الفصل السيد الأستاذ الدكتور / محمد عباس إبراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوچيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

الفصل الثانى

الانثروبولوجيا الفيزيقية *

ـ مقدمة : الأنثروبولوجيا الفيزيقية : النشأة والإهتمامات :

نهضت الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى بدايتها الأولى منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر بموضوع هام ـ وإن كان هو اليوم يعد من الموضوعات الكلاسيكية ـ وهو تصنيف وفهم سلالات الجنس البشرى ، وجاءت هذه البداية منبثقة على الإهتمام بعلم الحيوان ، والدراسات الخاصة بتصنيف الأحياء ***Taxonomic*** ففى عام ١٦٨٤ نشر العالم الفرنسى فرانسوا بيرنيير ***Francois Bernier*** مقالا حول تقسيم العالم إلى أنواع وأجناس بشرية ، وذلك فى مجلة ***Jornal Des Scavans*** التى تصدر فى أمستردام ، ويعد هذا المقال من المحاولات الأولى التى سعت إلى فهم التغايرات الموجودة بين الجنس البشرى فى الوقت الذى قام فيه بعض علماء الحيوان والنباتات ـ أيضا ـ بمجهودات متصلة لإكتشاف نماذج وأنواع توزيع الزهور والنباتات ومدى تكيف نموها فى المناطق المختلفة .

ثم جاءت بعد برنيير مرحلة إسهام جديدة تتصل مباشرة بتصنيف الجنس البشرى والإنسان ، حيث وضع لينيه ***Linne*** فى عام ١٧٣٥ تصنيفا رئيسيا جديدا إعتمد على الدراسات التجريبية التى قام بها بعض علماء الحيوان والنباتات، والتى أخذوا من خلالها الإنسان كعضو أساسى وهام يعيش فى المجتمع ويتكيف بدوره مع أنواع معينة من الحيوانات والنباتات ، وإن الأنسان له إعتبارات معينة تميزه ككائن عضوى بيولوجى ، ويمكن القول أنه مع نهاية القرن الثامن عشر ظهر تيار جديد من الدراسات العلمية سعى أنصاره إلى فهم واضح للتمايزات والإختلافات الموجودة بين الإنسان ، وقد نهض هذا التيار على وجه الخصوص بين كل من علماء التشريح ***Anatomists*** وعلماء الطبيعة ***Physicians*** حيث تبدأ دراستهما ـ رغم تمايزها ـ من أصل واحد متشابه

---

* كتب هذا الفصل السيد الأستاذ الدكتور / محمد عباس إبراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

Cognate Field ، فقد أشار عالم الطب والتشريح جوهان بلومينباخ *Blumen Bach* في عام ١٧٩٥ إلى ضرورة إتباع المناهج التحليلية فى فهم التمايزات والإختلافات السلالية بين الجنس البشرى ، بينما أكد عالم تشريح أخر هو بيتر كامبر *Pieter Comper* فى عام ١٧٩١ على ضرورة إدخال وإستخدام الأساليب الكمية والقياسات في مثل هذه البحوث ، وخصوصا المقاييس الخاصة بزوايا الوجه *Facial Angle* (١).

وفى ضوء ذلك يمكن القول أن الدراسات والإهتمامات التى قام بها علماء التشريح كان لها دور هام فى بلورة المراحل الأولى والتكوينية لمجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال الإسهام الذى قدمه عالم التشريح ادوارد تايسون *Edward Tyson* فى الفترة من ١٦٩٩ ـ ١٧١٥ وذلك فى مقال له بعنوان *Oragne - Outang : Sive Home Sylvestris*

والذى تناول فيه مرحلة السعلاه (القردة التى تشبه الإنسان) أو ما أطلق عليه بعد ذلك إنسان الغابة الذى سكن الأكواخ المعلقة على الأشجار ، وتعكس هذه المحاولة التى قام بها تايسون عن مدى إهتمامه بدراسة الإنسان والرئيسيات من ناحية ، فضلا عن إهتمامه بوضع مبادئ وأسس منهجية للدراسات المقارنة فى فهم التمايزات بين السلالات البشرية والأجناس ، والخصائص الفيزيقية لكل منهما من ناحية أخرى .

وقد تدعمت خلال القرن التاسع عشر العلاقة الوطيدة بين كل من الطب وعلم التشريح من جهة وبين الأنثروبولوجيا الفيزيقية من جهة أخرى ، وظهر ذلك على سبيل المثال من خلال إهتمام بعض العلماء المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية بنواحى التشريح والموضوعات الطبية ، ومن هؤلاء العلماء جوستاف ريتزيوس *Gustaf Retzius* فى عام ١٩٠٩ ، وبول بروكا *Poul Broca* فى

---

(1) Blumenbach ; Johannf, On the Natural Variety of Mankind, Schuman , New York, 1975 , PP. 25 - 39 .

عام ١٨٧٧ ، ورودلف فيركوف *Rudolf Virchow* فى عام ١٨٨٢.[1]

وقد صارت هذه الإهتمامات بعد ذلك مسلكا تقليديا بين الباحثين مؤداه أن يتناول الباحث قدرا من المهارات والتدريبات الطبية تؤهله للدخول بمقتضاها إلى العمل فى بحوث الأنثروبولوجيا الفيزيقية وربما تكون هذه العلاقة الوطيدة بين التشريح والأنثروبولوجيا الفيزيقية هى نفس العلاقة الحميمة والرابطة القوية التى قامت بعد ذلك بين فروع الأنثروبولوجيا الفيزيقية والثقافية والإجتماعية.

ولكن على الرغم من العلاقة التى كانت فى البداية تربط علوم التشريح والموضوعات البيولوجية والأنثروبولوجيا الفيزيقية بعلامات خاصة إلا أنه يمكن القول أن هذه الإهتمامات نشأت جميعها تحت رعاية وفى كنف الأنثروبولوجيا بوجه عام ، وربما كان السبب الحقيقى المدلل على ذلك هو إستعانة هذه العلوم بموضوعات أنثروبولوجية عامة مثل التطور الثقافى للجنس البشرى ، والعلاقات المتبادلة بين الجماعات الإنسانية ، ومعلومات وبيانات الظاهرة الثقافية ، فضلا عن الإهتمام بالموضوعات المتصلة بالتشريح والتمايز السلالى واللغوى والدراسات الأركيولوجية .

وقد ظلت الأنثروبولوجيا الفيزيقية لفترة طويلة من تاريخها تهتم بموضوعات عامة ، وفضفاضة حول السلالات البشرية ، ودراسات التشريح المقارن إلى أن جاءت الفترة التى نشر فيها تشارلس دارون *Darwin*[2] كتابه فى عام ١٨٩٥ عن أصل الأنواع *The Origin of Species* حيث بدأت مرحلة جديدة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية إستندت إلى التسجيل (السجل) الحفرى *Fossil Record* لبقايا الإنسان كأسلوب مميز فى تحليل وتفسير التطور الإنسانى ، ومنها على سبيل المثال تحليل حفريات جبل طارق *Gibralter* وجماجم إنسان

---

(1) Retzius, Gustaf , The Development of Race Measurements and Classification, In ; Alfred L. Kroeber & T.T. Waterman (eds.), Source Book in Anthropology, New York, (1909) , 1965, PP. 94 - 102 .

(2) Darwin , Charles, on the Origin of Species, Cambridge, Harvard University Press (1859) 1964 .

النياندرتال *Neanderthal Skulls* كما صاحبت هذه الفترة إهتمامات تخصصية فى مجال التشريح والطب وعلم الحفريات *Paleontology* والتطور البشرى .

أما فيما يتعلق بمنهج البحث فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية خلال القرن التاسع عشر فقد إعتمد على أساليب القياس التى تطورت بدورها فى القرن العشرين حيث أخذ الباحثون فى إستخدام الملاحظات والقياسات المقننة ، وقد أقر عدد من المؤتمرات الدولية هذه الأساليب المنهجية فى البحث وكان أهم تلك المؤتمرات هو المؤتمر الذى عقد فى عام ١٩١١ بمدينة موناكو *Monaco* حيث ظهرت أساليب القياس الأنثروبومترى *Anthropometry* لأول مرة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، كما تعتبر الأنثروبولوجيا الفيزيقية من أولى العلوم والتخصصات البيولوجية التى تعتمد فى أبحاثها على إستخدام الرياضيات والإحصاء والمشكلات السكانية ، ولكن بطرق منهجية خاصة بها .

ومع بداية القرن العشرين بدأت إهتمامات الأنثروبولوجيا الفزيقية ترتبط أكثر فأكثر بالنواحى البيولوجية للإنسان ، وذلك على العكس من الفترة السابقة ، وهنا يمكن القول أن الإهتمامات الحديثة والمعاصرة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية ركزت على النواحى التالية :

أولا ـ الزيادة فى معدلات التوالد أو التكاثر *Postnatal Growth* وهذه الظاهرة وإن كانت فى ظاهرها ترتبط بالدراسات السكانية إلا أنها أصبحت أكثر إتصالا بالأنثروبولوجيا الفيزيقية لأن أساليب الدراسات الخاصة بمعدلات النمو والتغاير السكانى تكون دلالاتها العلمية والعملية أقوى إذا إرتبطت باستخدام وتوظيف المقاييس الأنثروبومترية التى يستعين بها علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، هذا فضلا عن الإهتمام بتوضيح الإختلافات والتمايزات فى معدلات النمو والخصائص والسمات المتصلة بالبشر من حيث الإختلاف فى بنية الجسم نفسه ، ومرحلة ظهور الأسنان ، والتغيرات فى شكل وملامح الوجه ، وهى الخصائص والسمات التى أصبحت أساسية فى التمييز بين السلالات البشرية .

ثانيا ـ الموروثات *Genetics* البيولوجية ، وهو إهتمام حديث النشأة ظهر في الأنثروبولوجيا من أجل توضيح الإختلافات والتمايزات بين البشر على أساس الإختلافات في مجموعات أو فصائل الدم المعروفة *ABO Blood Groups* ، وهو إتجاه جديد حاول مكتشفه الأول العالم الأنثروبولوجي هيرزفيلد *Hirszfield* في عام ١٩١٩ أن يصل من خلاله إلى إثبات تمايزات واضحة بين السلالات البشرية (١) . وقد نشرت نتائج بحثه هذا في مجلة مشرط الجراح *Lancet* ، كما تطور هذا الإتجاه بعد ذلك على أيدى عديد من علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية الذين حاولوا تطوير البحث في مجال الوراثة بدءا من قانون الوراثة عند مندل *Mendel*، وحتى الجهود التي قامت بالبحث عن العناصر الوراثية المستقلة والمختلطة بين السلالات البشرية ، وهو الإتجاه الذي أخذ في الإعتماد على إجراء المزيد من البحوث العلمية في بعض مناطق إفريقيا وأوروبا وجاميكا وغيرها .

ثالثا ـ من الإهتمامات المعاصرة في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية البحث في التكوين والبنية البشرية *Human Construction* وذلك من خلال التفاعل المتبادل بين إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية وبين علوم الطب والطب النفسي *Psychiatry* وإن كانت هذه الدراسات في أساسها تسعى إلى التعرف على الأنماط المختلفة للشخصية الإنسانية ، إلا أنها تعد من الدراسات المتأصلة التي يرجع تاريخها إلى إهتمامات اليونانيين وتصوراتهم تجاه الشخصية من خلال التقسيم الذي قدموه على أساس تصنيف الأمزجة وبنية الجسم *Humors* حيث ظهر بمقتضاه تصنيفان للشخصية هما الشخصية البلغمية عديمة المبالاة *Phlegmatic* ، والشخصية الحادة دموية المزاج شديدة الإنتماء *Sanguine* وحاولت الأنثروبولوجيا الفيزيقية حديثا إدخال إهتمامات جديدة في مجالات البحث في تلك الناحية مؤداها تحليل وتفسير الروابط والعلاقات المتبادلة بين بنية الجسم ، وبين الأنماط السلوكية مستعينة في ذلك بعدد من نتائج البحوث التي أجراها علماء الطب النفسي أمثال ماك أوليف *Mac Auliffe* في فرنسا ، وبندا *Pande* في

(1) Hirszfield L. & Hirszfield H., Of Different Blood, In Lance 197, No. 2, 1919, PP. 675 - 679 .

إيطاليا ، وأرنست كريتشمر *Ernst Kretschmer* فى ألمانيا وجورج درابر *George Draper* فى الولايات المتحدة الأمريكية . (١)

وهى كلها إهتمامات ركزت على إظهار الإختلافات الجسمية من ناحية وعلى الترابط بين النواحى النفسية والفسيولوجية لأنماط السلوك الإنسانى من ناحية أخرى .

رابعا ـ من المجالات الحديثة والمعاصرة فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية أيضا الإهتمام بالدور الذى يقوم به التنظيم الإجتماعى والثقافى فى عملية التطور الإنسانى ، وأن أحد الإهتمامات الرئيسية فى ذلك هو دراسة سلوك الرئيسيات *Primates Behavior* خلال التركيز على فهم الإرتباطات البيولوجية ودورها فى ذلك السلوك ، ولاشك أن هذا الإهتمام قد تجدد على أيدى إثنين من علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية هما كاربنتر *Carpenter* وسولى نوكرمان *Solly Zuckerman* حيث قاما ومعهما عدد من تلاميذهما بإجراء دراسات تجريبية واسعة حول سلوك الرئيسيات أملا فى تحقيق فرضهما العلمى القائم على الإعتقاد بأن الخصائص الإجتماعية والسلوكية لها دور كبير فى عملية التطور الإنساني.(٢)

خامسا ـ الأنثروبولوجيا الفيزيقية والحفريات *Fossils* ويتصل هذا الإهتمام فى الدرجة الأولى بموضوع التطور البشرى من خلال فهم السجل الحفرى *Fossils record* للإنسان ، حيث قامت حديثا بعض الجهود المكثفة فى هذا المجال نذكر منها على سبيل المثال إكتشاف ديفيدسون بلاك *Davidson Black* وون شانج بى *Wenchung pei* فى الصين فى الفترة من عام ١٩٢٠

ـ للمزيد أنظر في ذلك :

(1) Kretschmer, Ernst. Physique and Character , An Investigation of the Nature of Constitution and the Theory of Temperament, Routledge, London, (1921) 1936 .

ـ أنظر في ذلك :

(2) Carpenter, C.R., A Field of the Behavior and Social Relation and Howling, Monkeys , New York, 1934 , Zuckerman Solly Functional Affinities of Man Monkeys and Apess Harcourt, New York, 1993 .

إلى عام ١٩٢٤ ، وكذلك إكتشافات كوينجز والد *Koenigs Wald* في جزيرة جاوة في الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٠ وغيرها من الإكتشافات ، وخاصة التى قام بها عالم الأنثروبولوجيا ليكى *Leakey* من خلال أبحاثه فى منطقة أولدوفاى *Olduvai* فى شرق افريقيا فى الفترة من عام ١٩٥١ وحتى ١٩٥٩ وهذه الدراسات والأبحاث رغم تعددها إلا أنها تسعى إلى إعادة إختبار تصورات قديمة، والوصول من خلالها إلى حقائق أكثر حداثة ومعاصرة حول تطور الجنس البشرى أو مايعرف بإعادة تركيب الإنسان الأول المعاصر .

إذن تتحدد إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية من البداية بأنها دراسة المظاهر البيولوجية للإنسان ، وقد قسم هذا الإهتمام الموضوعى إلى مجالين أساسيين ، أولهما دراسة الإنسان باعتباره نتاجا للعمليات والمراحل التطورية ، وثانيهما : دراسة وتحليل التجمعات البشرية من حيث الخصائص الفيزيقية والسلالية وغيرها ، كما أن هناك جانبا هاما من جوانب البحث فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية يتركز حول دراسة العمليات الفعلية ونتاجها للتغيرات البيولوجية التى حدثت وتحدث فى الإنسان ، وإن كان هذا الجانب قد ركز فى بدايته على دراسة عمليات التطور البشرى وعلاقته بالبيئة إلا أنه الآن يرمى إلى دراسة موضوع من أكثر الموضوعات حداثة وهو الموروثات البيولوجية ، وذلك من خلال التركيز على دراسة معايير وميكانيزمات الوراثة والأساليب والطرق التى يمكن من خلالها تعديل بعض الخصائص أو السمات الوراثية ، وكذلك الأساليب التى يتكيف الإنسان من خلالها بيولوجيا مع بعض الظروف الطارئة سواء على مستوى الأفراد والجماعات أم على مستوى الأماكن الجغرافية الجديدة [١]. ولهذا يمكن القول أن الباحثين فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية أخذوا فى الوقت الحاضر فى توجيه إهتماماتهم نحو

(١) أنظر في ذلك :

- محمد عباس ابراهيم ، المدخل إلي الأنثروبولوجيا الطبية ، الجزء الأول ، الثقافة والمعتقدات الشعبية، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٢ م .
- فاروق عبد الجواد شويقة ، مقدمة في الأنثروبولوجيا الطبيعية والسلالات البشرية ، الطبعة الثانية ، دار روتابرنت للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

دراسة عادات التوالد والتكاثر والموروثات وفصائل الدم والأنماط المختلفة للنمو ، بالإضافة إلى التركيز على فهم الفروق بين كل من الرجل والمرأة ، كما يسعى بعضهم نحو إكتشاف العلاقات بين الخصائص الجسمية والسلالية من ناحية ، وبين الصفات الذهنية والأنماط السلوكية والأخلاقية من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى يستلزم المزيد من البحوث والدراسات التطبيقية فى هذا الشأن .

- الأجناس البشرية وخصائصها :

تعد قضية السلالات البشرية من أهم المشكلات والقضايا البحثية التى تواجه الأنثروبولوجيا ، ذلك العلم الذى يدرس التاريخ الطبيعى للإنسان بكل تبايناته المرتبطة بالعمر والجنس والعوامل البيئية والأيكولوجية لما لها من علاقة بطبيعة السمات والصفات السلالية للبشرية جمعاء عبر التاريخ ، وإذا كان الدارسون للسلالات البشرية يوجهون الإهتمام الأكبر لعلم الأنثروبولوجيا ، إلا أنهم يستفيدون إلى حد كبير مما إنتهت إليه العلوم الطبيعية والإجتماعية الأخرى مثل علم التشريح المقارن ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الحفريات ، وعلم الآثار ، وعلم الاثنوجرافيا (الخاص بوصف السلالات البشرية وعاداتها وتقاليدها وأعرافها) وعلم النفس ودراسة اللغات .

ولم يكن موضوع السلالات ودراسته قاصرا على الدوائر والمحافل الأكاديمية فقط ، وإنما أخذه دعاة الإستعمار فى محاولاتهم لتوفير أساس تقوم عليه فلسفتهم الرامية إلى غرس الطبقية ، وقهر الشعوب الضعيفة وإستعمارها ، وتقديم " مذهب : أو " نظرية" زائفة تذهب تأكيد إنعدام المساواة الجسمية والعقلية بين السلالات البشرية ،، والتأكيد على وجود سلالات " راقية " و"أخري" منحطة" وأن ثمة سلالات قادرة وأخرى عاجزة عن تحقيق التطور والتقدم الإجتماعى والإقتصادى والثقافى لنفسها .

وتعد دراسة الأجناس *Races* فى ضوء التطور العلمى نظريا ومنهجيا ـ فرعا قائما بذاته من فروع الأنثروبولوجيا ، وهى الدراسة التى تستهدف تفهم

الأجناس البشرية من حيث نشأتها وخصائصها وصفاتها وتصنيفها ، مع التركيز على دراسة العوامل البيولوجية والإجتماعية والإقتصادية المؤثرة فى تلك الأجناس، وتختلف الشعوب فيما بينها إختلافا كبيرا من حيث لون البشرة ، ولون العينين ، ولون الشعر ونوعه وكثافته، وشكل الأنف والوجه والرأس والجفون ، كذلك الإختلافات في طول الجسم وقصره ، ودرجة البدانة وغيرها من الصفات التى تختلف بشكل ملحوظ حتى بين شعب البلد الواحد ، ولكن وجود إرتباط معين فيما بينهما ، يشكل خاصية وراثية ثابتة نوعا ما ، ويفيد كاساس لتصنيف أولئك الذين يتصفون بها باعتبارهم منتمين إلى جنس معين بالذات .

وتشكل المجموعات الإقليمية للأنماط البشرية وفقا لتصنيف كليميك *Klimik* وهو من أعلام المدرسة الهولندية فى الأنثروبولوجيا إسهاما واضحا لتوزيع السلالات فى العالم القديم قبل حركة الكشوف الجغرافية ، حيث قسم السلالات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هى :

أولا ـ المجموعة الزنجية : *Negroid*

وتشكل هذه المجموعة مايقرب من ١٠٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى ، وتوجد وتتوزع جغرافيا فى المنطقة الأفروأسيوية الإستوائية ، ومن أهم صفاتها وملامحا الرئيسية : السواد القاتم للبشرة ، العيون السوداء ، الشعر الداكن السواد الملفوف أو المبروم بشدة بعضه فوق بعض تاركا فوق فروة الرأس أو الجسم مساحات خالية من الشعر ، ضيق عظام الوجه ، الأنف القصير غير التام ، والذى يتميز بالاستدارة وإتساع الفتحتين مع إمتداد الفك العلوى إلى الأمام إلى حدما ، أما الشفتان فتميلان إلى الغلظ والسماكة ، وقد إستمدت هذه المجموعة إسمها من طبيعة الصبغة القاتمة للجلد والشعر ، والعينين ، ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من الأنماط الأنثروبولوجية تكون متباينة فى نطاق المجموعة والجنس الزنجى فلدى البعض منهم بشرة فاتحة ، وللآخرين منهم أنف مستقيم ضيق ، ولفئة ثالثة منهم شفاه متوسطة السماكة ، في حين نجد فئة رابعة قصيرة القامة وذات سيقان متوسطة الطول بالمقارنة بالجذع .

ويتواجد الجنس والسلالة الزنجية فى جنوب افريقيا (البوشمان) وإفريقيا الوسطى (الأقزام) وشرق افريقيا (الأثيوبيون) والمجموعة السودانية الجنوبية . أما الجنس الاسترالى أو الأوقيانوسى فيمثل الفرع الشرقى من الجنس الزنجى الكبير ، وفى كثير من الأحيان يكون الشبه بينهما كبير لدرجة أن علماء الأنثروبولوجيا يجدون صعوبة فى التمييز بينهم .

ثالثا ـ المجموعة القوقازية : *Caucasoid*

ويشكل مجموعها مايقرب من ٤٠٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى ، وعلى الرغم من أن هذه المجموعة سكنت حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا وشرقا ، إلا أنها تعرف فى كثير من الكتابات بالجنس الأوروبى الكبير ، وهى تحتل فى عددها مايقرب من نصف أبناء الجنس البشرى على الأرض ، وقد إنتشر الجنس الأوروبى فى أرجاء العالم بعد إكتشاف أمريكا واستراليا ومن ثم الهجرة إلى جنوب افريقيا .

أما عن الصفات الفيزيقية لهذه المجموعة السلالية فيمثل لون البشرة فيها من الفاتح إلى الغامق حتى يصل إلى البنى ، ويتميز الوجه باللون المائل إلى الإحمرار أو اللون الوردى ، ويتميز شعر الرأس بالنعومة والتموج والإستقامة وتباين لون الشعر الفاتح إلى الغامق ، كما تتميز المنطقة الوسطى من الوجه والواقعة بين جذر الأنف ونقطة " ستوميون" ـ وهى النقطة الفاصلة بين الشفتين ـ بالاستطالة والإستقامة وعدم النتوء ، أى أن هذه المجموعة تتميز بوجه معتدل ، أما الأنف فهو مدبب ويتميز باستقامة القصبة الأنفية ، وعلوها مع ضيق فتحتى الأنف ، كما تتميز الشفتان بأنهما رفيعتان أو متوسطتان ، وليس بهما إمتداد إلى الأمام كما هو الحال فى المجموعات السلالية الأخرى .

وتنقسم المجموعة القوقازية إلى سلالتين كبيرتين :

الأولى ـ الجنس الأوروبى الجنوبى ويشمل أوروبا ـ والبحر المتوسط ـ والهند.

الثانية ـ الجنس الأوروبى الشمالى وتشمل أوروبا ـ منطقة الأطلنطى ـ والبلطيق .

هذا وقد توجد بعض الفروق الطفيفة فى الصفات الوراثية بين السلالتين ، كما توجد بين السلالتين مجموعات أو فئات سلالية صغيرة لها أنماط أنثروبولوجية وفيزيقية ذات فروق فى لون الشعر والعينين وحجم الرؤوس والجماجم وطولها وعرضها ، وعموما فإن المجموعة القوقازية تتميز بطول القامة وإستقامتها .

ثالثا ـ المجموعة المغولية : *Mongoloid*

ويشكل مجموعها مايقرب من ٥٠ ٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى وتسمى أحيانا بالجنس المغولى أو الأسيوى الأمريكى ، ويوجد الجزء الأكبر من الجنس المغولى فى آسيا وخاصة فى المناطق الشرقية والشمالية والجنوبية الشرقية ، كما إنتشر الجنس المغولى عبر القارة الأمريكية ، كما تمتد الملامح الفيزيقية والأنثروبولوجية للجنس المغولى عبر الأراضى الأسيوية للإتحاد السوفيتى وفى مناطق عديدة منه .

ومن أهم الملامح والصفات الرئيسية للمجموعة المغولية الكبرى تميزها ببشرة فاتحة تميل أحيانا إلى الإصفرار أو الإصفرار المختلط بالحمرة ، كما يتميز الشعر بالخشونة والإستقامة ، واللون الأسود وكقاعدة عامة بين رجال هذه السلالة يكون ظهور شعر الشارب واللحية فى مرحلة متأخرة وبدرجة قليلة فى النمو أما الجسم فمنعدم الشعر فى كل الأحوال .

وينقسم الجسم المغولى الكبير إلى ثلاث سلالات :

الأولى ـ المغوليون الشماليون أو سكان القارة الأسيوية .

الثانية ـ المغوليون الجنوبيون أو الأسيويون الذين يطلون على المحيط الهادى .

الثالثة ـ المغوليون الأمريكيون .

وعموما فالجنس المغولى الجنوبى ينتشر فى جنوب شرق أسيا وغالبية المنتمين لهذا الجنس من الملاويون ، وأهل جاوه ، وأهل سندا ، ويتميزون بالبشرة

القاتمة ، والوجه الضيق ، والشفاه المتوسطة ، وأحيانا تكون غليظة نوعا ما ، مع إتساع فتحتى الأنف نسبيا ، وتموج شعر الرأس ، أما من حيث الطول فإنهم أقصر من المغوليين الشماليين ، وأقصر بكثير من الصينيين .

أما الشماليون من الجنس المغولى فيتميزون بالوجه العريض ، وضيق فتحتى العينين ، وميلهما إلى اللون البنى ، مع ميل الزاوية الخارجية من العين إلى أعلى من الزاوية الداخلية ، ومع وجود ثنية ملحوظة على الجفن العلوى ممتدة حتى الرموش عابرة إلى الجفن الأسفل بحيث تغطى الزاوية الداخلية من العين تماما أو جزئيا ، وتعرف بالثنية الجفنية المغولية ، ويتميز الأنف بقنطرة منخفضة .

أما الجنس المغولى الأمريكى فهم الهنود الأمريكيون الذين يتميزون بالطابع المتوسط للملامح المغولية ، مع ظهور بعض الخصائص التى تجعلهم قريبين من الأنماط الأنثروبولوجية الأوروبية ، وهم يتميزون بسواد البشرة والشعر الخشن المستقيم ، ويتميز الجلد بلونه البنى المائل إلى الإصفرار ، والعينان بنيتان داكنتان كما يتميزون بملامح الوجه العريض ، بينما تتميز أنوفهم بأنها ذات عصبة أو قنطرة متوسطة ، وأحيانا عالية مما يجعلها قريبة بالقوقازيين وخصوصا الأوروبيين.[١]

وعموما ففى هذه المجموعات البشرية الكبرى (القوقازية ـ المغولية ـ الزنجية) يوجد عدد من السلالات والسلالات الفرعية ، والبعض منها يسمى بالسلالة الرئيسية وذلك فقط لسهولة الدراسة إذ أنه لايوجد الآن أى مجموعة يمكن أن نطلق عليها سلالة رئيسية ، بينما البعض الآخر الناتج من إختلاط السلالات مع بعضها تسمى سلالات مختلطة أو مركبة .[٢] مثل السلالة الرئيسية للبحر المتوسط التى تدخل تحت المجموعة القوقازية والتى تنقسم بدورها إلى سلالات فرعية فى أوروبا وفى غرب اسيا والهند وشمال شرق افريقيا .

ومثل هذه التقسيمات مفيدة فى تتبع الخطوط العريضة لدرجات التشابه

(1) Brues : Alice M., People and Races, Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1977, PP. 109 - 140 .
(2) Sergi, G., The Mediterranean Race, Turin, London, 1908 .

والقرابة بين المجموعات المختلفة إذ يبدو أنه بدون هذا التقسيم تصبح دراسة المجموعات البشرية أمرا صعبا وذلك نتيجة لإختلاط وتداخل المجموعات البشرية مع بعضها وهنا يجب أن تلفت النظر إلى أن تقسيم المجموعات البشرية إلى سلالات أو إلى جماعات من البشر يتصفون بصفات وراثية معينة تميزهم كمجموعة، وتفصلهم عن غيرهم من الجماعات البشرية ، ففى كل بقعة من بقاع العالم نجد أن السلالات وكذلك السلالات الفرعية متدرجة مع بعضها وأن هناك فى أغلب الأحيان تداخل بين المجموعات المتجاورة ، ولايوجد حد فاصل إلا عند وجود الحواجز الطبيعية كالصحراء الكبرى مثلا ، وغالبا مايكون تقسيم البشر إلى سلالات معتمدا على الصفات الجسمية والسطحية المكونتان للمظهر الخارجى للإنسان .[١]

ويوضح الجدول التالى مدى التفاوت فى توزيع المجموعات السلالية الثلاث الرئيسية حسب الإحصاءات التى تمت فى عام ١٩٧٠[٢] وهى كالتالى :

الإقليم	القوقازيون		المغوليون		الزنوج	
	بالمليون	٪	بالمليون	٪	بالمليون	٪
أوروبا عند الاتحاد السوفيتي	٤٥٠	٢٣,٦				
الإتحاد السوفيتي	٢١٠	١١,٠	٣٥	٨,٤		
أسيا عند الإتحاد السوفيتي	٧٥٨	٣٩,٨	١٢٠٠	٨٧,٣	٦٥	١٦,٤
أمريكا الشمالية	٢٠٠	١٠,٥	٢	,٢	٣٠	٧,٦
أمريكا اللاتينية	١٩٠	١٠,٠	٥٣	٣,١	٤٠	١٠,١
أفريقيا	٨٠	٤,٢	١٠	,٨	٢٦٠	٦٥,٥
الأوقيانوسية	١٦	,٨	١	,١	٢	,٥
العالم	١٩٠٤	٩٩,٩	١٣٠١	٩٩,٩	٣٩٧	١٠٠,١

(١) يسري الجوهري ، السلالات البشرية ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٦ .

(٢) محمد رياض ، الإنسان ، دراسة في النوع والحضارة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤، ص ١٢٨ .

ومن الجدير بالذكر أن هذا التباين الواضح فى توزيع عدد أفراد سلالات الإنسان المعاصر ليس ثابتا ، إذ يتغير دائما من سنة إلى أخرى كما تتغير إتجاهات الهجرات ومواطنها الإقليمية ، ويبدو أن من أهم عوامل هذا التغير درجة رقى وتقدم أفراد كل مجموعة سلالية وإرتقائهم الحضارى ، هذا الإرتقاء الذى ينعكس على مستوى استغلالهم للبيئة الطبيعية ، مما ييسر لهم أنماطا متقدمة من الغذاء الذى يعطى هو وغيره من وسائل التقدم الثقافى الأخرى الفرصة لإستقرار الإنسان وتزايد أعداده بنسب كبيرة ، فمثلا إتضح أن الفدان المزروع أرزا (وهو الغذاء السائد بين أفراد السلالة المغولية) يمكن أن يغطى إحتياجات ٢٥ فردا من الغذاء بينما يستطيع الفدان المزروع بطاطس (وهو الغذاء الرئيسى لدى أفراد السلالة القوقازية خاصة الشعبة المستقرة فى غرب أوروبا والتى إعتمد عليها التوسع القوقازى فى العالم الجديد مع حركة الكشوف الجغرافية وبعدها يمكنه أن يغطى الإحتياجات الغذائية لنحو ٢٢٥ فردا ، وهذه الصورة والمقارنة لا تفسر فقط تباين عدد أفراد السلالات بل أيضا تفسر الكثير من أسباب هجرات وحركات بعض الشعوب والسلالات .

ـ الصفات السلالية بين الأجناس :

هى الصفات التى تشكل إلى حد ما خاصية وراثية ثابتة نوعا ما ، وتعتمد كأساس لتصنيف أولئك الذين ينتمون إلى سلالة معينة أو ينتمون إلى جنس معين ، ومنها مايلى :

١ ـ اللــون :

يتحدد بواسطة كل من البشرة ، والشعر ، وقزحية العين ، وتتوقف درجة اللون بين الفاتح والقاتم على صبغة معينة تفرز بالجلد تسمى " ميلانين" وتوجد فى الجسم على شكل بلورى وأخر محلول ، وتتوقف كثافة اللون على كمية البلورات الصبغية وحجمها داخل الجسم فمثلا الجماعات الزنجية تكون لديهم صبغة أكثر وأكبر من تلك الموجودة لدى الجماعات السلالية الأخرى ، إلى جانب أن الظروف

المناخية والعوامل الإجتماعية والحالة الصحية العامة التى يتمتع بها الإنسان كل ذلك له تأثير قوى فى تحديد لون البشرة أما عن درجات تحديد لون البشرة وفقا للمقياس الوصفى لها فهى : بشرة قاتمة اللون وهى بنية قاتمة ، أو كالحة السواد ، وبشرة متوسطة اللون ، وهى التى تميل إلى السمرة أو البنى الفاتح ، والبشرة الفاتحة اللون ، وهى الوردية أو التى تميل إلى الإصفرار .

٢ ـ طول الجسم :

يعد طول الجسم أو طول الفرد من الصفات والمقاييس والملامح العامة الهامة ، وهى درجات بين الطول والقصر تختلف باختلاف النوع (الذكور والإناث) والسن وإختلاف التوزيع السلالى الإقليمى ، كما تلعب الظروف الإجتماعية والإقتصادية وممارسة الرياضات دورا لايستهان به فى التأثير على هذه الصفة ، وعموما فإن درجات طول الجسم تتباين داخل المجموعات السلالية وتكون مقاييسها الأنثروبولوجية لطول الجسم محصورة بين ١٤٢ ، ١٨١ سنتيمتر ، بينما يصل المتوسط العام لطول الإنسان إلى حوالى ١٦٥ سنتميتر .

٣ ـ ملامح الوجه :

يلعب النمو العظمى للوجه دورا هاما فى تحديد الملامح الأساسية لوجه الإنسان ككل كما أنه من خلال تلك الملامح المرتبطة بعظام الوجه تتحدد الفروق بين الذكور والإناث ، وتعتمد كثير من التصنيفات والمقاييس الأنثروبومترية على قياس درجة بروز الفك أو البروفيل الرأسى وهو قياس المدى النتوئى إلى الأمام والخاص بالمنطقة العليا أو الأنفية ، ويساعد النتوء الفكى العلوى أو مايسمى بروز الفك العلوى إلى الأمام على تحديد درجات قياسية تتراوح بين الإمتداد القوى أو المتوسط أو الضعيف ، وهكذا يتحدد شكل بروفيل الوجه ومظهره فى ضوء درجات النتوء العلوى للوجه فمثلا لدى القوقازيين الأوروبيين يكون الوجه ضيقا ذو بروفيل ضيق ممتد إلى الأمام ، أما لدى غالية المغوليين فيكون الوجه واسعا ومسطحا ، وذو بروفيل مسطح .

أما عن تصنيف الرؤوس وفقا للنسبة الرأسية ، وهى النسبة بين عرض الرأس وطوله ويعبر عنها على النحو التالى :

$$\frac{\text{العرض} \times ١٠٠}{\text{الطول}}$$

وتعد الرؤوس ذات النسبة الرأسية التى تصل إلى ٩, ٧٥٪ قصيرة ، والرؤوس التى تصل فيما بين ٧٦٪ ، ٩, ٨٠٪ رؤوسا متوسطة ، تلك التى تبلغ ٨١٪ فأكثر رؤوسا طويلة .

وتستخدم نفس نسبة القياس فى تحديد نسب الجماجم وتكون الأرقام فيها أصغر بعض الشئ عن أرقام النسبة الرأسية ، وتمتد الجماجم المتوسطة فيما بين ٧٥٪ و ٩, ٧٥٪ أما تلك الجماجم التى تقل نسبتها عن هذا فتعتبر قصيرة ، وتلك التى تزيد عن ذلك طويلة.

٤ ـ الشعر ، أشكاله ولونه :

الأشكال السائدة للشعر بين أفراد الجنس البشرى ثلاثة : هى المستقيم أو المسترسل ، والمموج ، والمفلفل أو الأكرت ، وقد يتميز الشعر بالنعومة أو الخشونة ، كما أن درجات لونه تميل مابين الأسود ، والأسود الداكن والبنى والبنى الفاتح والمائل إلى الإصفرار ، كما يتغير لون الشعر تبعا للفروق بين الجنسين ، وتبعا للفوارق فى درجات السن والتقدم فى العمر. كما أن درجات نمو الشعر وتوزيعه على الجسم يعد ملمحا من ملامح التميز بين السلالات خاصة شعر الشارب والذقن، والكتفين ، والصدر ، وبقية أجزاء الجسم ، وفى بعض الأحيان تختلف درجات نمو شعر الجسم لدى البالغين لدى الكبار من الكثافة الشديدة أحيانا ، إلى الإنعدام الكامل أحيانا أخرى .

٥ ـ الأنف وشكل العينين :

يتحدد شكل الأنف وملمحه عن طريق إرتفاع قصبة الأنف وإتساع جانبيه والمظهر العام لشوكته ، وإتجاه فتحتيه فهناك الأنف المفلطح ، والأنف المدبب المائل

إلى الأمام والأنف المقوس أو المعكوف ، وهناك الأنف الذى يتميز بضيق الفتحتين والأنف الذى يتميز باتساع الفتحتين .

أما شكل العينين فيتوقف على درجات إنثناء كلا من الجفن العلوى وحجمه ، والجفن السفلى ، كما يتوقف شكل العينين على مدى فتحة العين أو ضيقها ، وهذا بدوره يتوقف على الطريقة التى ينثنى بها الجلد وعلى سمك اللحمة المكونة للجفن ، وهى تختلف من سلالة إلى أخرى بل ومن شخص إلى آخر ، أما لون العينين فيتدرج مابين الأزرق والأسود والعسلى .

٦ ـ الشفتان :

تنقسم الشفاه الخاصة بالجنس البشرى حسب التصنيف والمقاييس الأنثروبولوجية إلى أربع مجموعات أساسية هى : الشفاه الرفيعة والمتوسطة ، والسميكة ، والسميكة جدا أو الغليظة ، وتنطوى هذه التفرقة على أهمية الأجزاء المكونة للشفة وهى الجزء الخارجى أو الجلد ، والشفة الحقيقية والغشاء المخاطى الداخلى للشفة ، وتعد الشفة الحقيقية ذات اللون الأحمر وبعد إستخلاص قياس سمك الجلد عنها من أهم الأجزاء التى يستند عليها الأنثروبولوجيون فى تصنيفاتهم وإظهار الفروق القياسية بين الجنس البشرى .[١]

وفيما يلى نستعرض بايجاز أهم الصفات الفيزيقية للمجموعات السلالية الثلاث الرئيسية ، كما عرضها هوتون [٢] وهى :

---

(1) Brues, Alice M. , People and Races, Op.Cit., PP. 228 - 240 .
(2) Hoton, E.A., Up From the Ape, Macmillan, New York, 1964, PP. 616 - 627 .

الصفة	القوقازيون	المغوليـون	الزنـوج
لون البشرة	أبيض ـ أبيض وردى ـ بنى فاتح	أصفر ـ أصفر يميل إلى الإحمرار ـ أصفر مائل للبني	أسود داكن ـ أسود ـ بنى غامق ـ بنى مائل للإصفرار
القامة	طويلة ـ متوسطة	متوسطة الطول ـ متوسطة القصر	طويلة ـ قصيرة جدا ـ قزمية
شكل الوجه	ضيق ـ متوسط العرض ـ مسحوب يميل إلى الارتفاع ـ ليس به بروز	عريض جدا ـ استواء الوجنات وارتفاعها	ضيق ومتوسط العرض ـ يميل للارتفاع ـ به بروز واضح
شكل الرأس	طويلة ـ متوسطة الارتفاع	عريضة جدا ـ متوسطة الارتفاع	طويلة جدا ـ منخفضة الارتفاع
شعر الرأس	أشقر ـ ناعم ـ مموج ـ مستقيم	بنى ـ خشن ـ مستقيم	بنى غامق ـ أسود ـ خشن ـ أكرت ـ مفلفل
الأنف	قصبة أنفية مرتفعة ـ فتحتان ضيقتان	قصبة أنفية متوسطة الانخفاض ـ فتحات متوسطتان	قصبة منخفضة جدا ـ فتحتان واسعتان

هذا وتستخدم الكثير من الطرق والأجهزة لدراسة وقياس الملامح السلالية وهى تستخدم فى قياس طول الأعضاء وتحديد صفاتها كلون العينين والبشرة والشعر ، وشكل الجفون والعين والشفاه ، هذا وقد سجلت العديد من الملامح السلالية باستخدام الصور الفوتوغرافية والأفلام المرئية والرسم بالأيدى ، كما جمعت عينات لاحصر لها من العظام والجماجم والشعر وكان لإسهام الدراسات التشريحية لمختلف أجزاء الجسم دورا لايستهان به أدى فى النهاية إلى قيام فرع جديد فى الدراسات الأنثروبولوجية يعرف باسم علم دراسة الجماجم .

ويستخلص من المعلومات الوصفية الهائلة التى يتم جمعها معالجات إحصائية تتسم فى أغلب الأحيان بأنها على جانب كبير من التعقيد ، وتسجل نتائجها فى جداول ورسوم بيانية تسهم بدورها فى التحليل السلالى ، ومن أجل تقديم وفهم

أفضل الطرق التى تطور بها شعب ما ، ومدى مايوجد به من إختلافات فيزيقية يمكن رصدها وتحديدها .

وعلى الرغم من وجود إختلافات ملحوظة فى الصفات والمقاييس الأنثروبومترية للأجناس ، إلا أن تلك الأجناس ترتبط إرتباطا مباشرا مع بعضها على الأقل فيما يتعلق بالمظهر الخارجى لبنى البشر ، فالأجناس ترجع لأصل مشترك على الرغم من النظر إليها أحيانا كمجموعات بيولوجية مكونة من أفراد تتشابه فيما بينهم الصفات والملامح نسبيا ، ولكن لايمكن النظر إليها كمداخل مختلفة من التطور ، فكل جنس من هذه الأجناس يتميز بتركيب محدد من الملامح ولكنه متغير من الناحية الوراثية نظرا لما تقوم به ظروف الحياة الطبيعية والأحوال الإجتماعية والإقتصادية من تأثير مشترك على النواحى الوراثية .

- التصنيف السلالي :

فى الوقت الذى إتجهت فيه جهود العلماء إلى الإهتمام بتفسير وتحليل التصنيف السلالي للجنس البشرى ، والإجتهاد فى وضع السمات والخصائص المميزة لكل سلالة رئيسية على حده ، تدفق تيار الهجرة وزادت نزعة الإنسان تجاه التنقل والإختلاط بالآخرين مع وجود قدرة الجينات الواسعة على الإتحاد والتركيب، وهو أمر أدى إلى إنهيار العزلة الإقليمية ، والعزلة العرقية أو السلالية فبات الأمر أكثر صعوبة أمام واضعى التصنيفات البشرية والباحثين عن الصفات والملامح الأساسية .

وكانت أولى المحاولات فى التصنيف على أيدى العلماء الفرنسيين منذ عام ١٧٥٨م عندما قسم لينيه *Linne* الجنس البشرى إلى أربع مجموعات رئيسية هى : الأوروبى ، والأسيوى والافريقى ، والأمريكى ، ثم تبعه بعد ذلك عدد من العلماء الفرنسيين كان أكثرهم شهرة فى هذا المجال العالم الفرنسى ج . دينكر *J.Deniker* [(١)] والذى مكنته وظيفته التى يقوم بها كأمين لمكتبة متحف التاريخ

(١) أنظر فى ذلك :

- Dinker, J., The Races of Man, Macmillan , New York, 1992, PP. 43 - 61 .

الطبيعى فى باريس من الإطلاع على أكبر قدر من الكتب والدراسات مما كتب عن المستعمرات الأوروبية فى افريقيا وأسيا ، وأهم مايميز تصنيف دينكر بساطته القائمة أساسا على تصنيف الشعر ولونه حيث قسم الشعر إلى ستة أنواع رئيسية إتخذها أساسا لتصنيف السلالات والجماعات الفرعية ، وتلك الأنواع هى :

١ ـ الشعر المسترسل .

٢ ـ الشعر المسترسل الأسود .

٣ ـ الشعر المرج الأشقر .

٤ ـ الشعر المموج البنى أو الأسود .

٥ ـ الشعر المفلفل أو الأكرت .

٦ ـ الشعر المجعد الصوفى .

ثم أضاف دينكر إلى تصنيفه بعض الأسس الأخرى مثل نسب طول الوجه والرأس وإرتفاع القامة ولون العينين ووصف الأنف .

وإلى جانب المدرسة الفرنسية فى التصنيف أسهمت المدرسة السوفيتية بنصيب لابأس به على أيدى علمائها وهم ى . ى . روجنسكى *Roguinski LL* ن . ن تشيبو كساروف *Techebokasarov N.N.* ، وف. بوناك *Bounak.V* ويعد الأخير خير من قدم فى هذا المجال [1] ، ومن الجدير بالذكر أن أنصار المدرسة السوفيتية كانوا يميلون بوصفهم دعاة للمذهب الإشتراكى إلى ضرورة تدخل الإنسان وثقافته فى إذابة الفروق بين السلالات البشرية ، ولايعتقدون مطلقا بل ويحاربون فكرة نقاء الجنس دون الآخر على أساس المقومات والملامح الفيزيقية، ويرون أن التطور التاريخى كفيل بازالة الفوارق والنزعات الإنعزالية بين المجموعات السلالية .

كما أسهم البريطانيون منذ العقد الثانى من هذا القرن وعلى أيدى الأنثروبولوجى البريطانى هادون *Haddon, A.C* بدورهم فى تصنيف السلالات

---

(1) Nesturph, M.M. : The Races of Man Kind, J. Wiley, New York, 1995 .

البشرية الكبرى ، حيث استند هادون إلى شكل الشعر باعتباره أداه رئيسية للتصنيف بين المجموعات المغولية ، والقوقازية والزنجية ، ثم تبع هادون بعد ذلك الأنثروبولوجى البريطانى هوتون *Hooton* ـ والذى أشرنا إلى جهوده فى الصفحات السابقة من هذا الفصل ـ منذ منتصف القرن العشرين حيث قدم هوتون تقسيما بين السلالات الرئيسية قائما على التفرقة بين لون الشعر وطبيعته ، ولون العينين وطبيعتها ، وشكل الرأس بكل مجموعة ، ورأى أن المجموعات الرئيسية الكبرى هى البيض والزنوج والمغول ، وإلى جانب ذلك توجد سلالات فرعية أخرى جاءت نتيجة لعوامل التزاوج وظهور الطفرات الكامنة ، والتكيف البيئى والإنتخاب أو الإختيار بين الجماعات السلالية [1] .

أما أشلى مونتاجو *Montagu, A* فقد أسهم بدوره فى عرض تصنيف للسلالات البشرية ، يقوم على تحديد الجماعات السلالية وراثيا بأنها تختلف عن غيرها من الجماعات وذلك نظرا للإختلافات فيما بينها جميعا فى تردد الجينات أو تبادلها بينما هى أكثر قدرة على التبادل داخل الجماعة الواحدة رغم مايوجد أمامها من حواجز جغرافية أو إجتماعية ، هذا وقد أتخذ مونتاجو من الفروق القائمة بين لون الشعر ، وشكل الأنف وشكل الرأس أنماطا فيزيقية للتفرقة بين الجماعات السلالية الرئيسية والتى يحددها فى المجموعة القوقازية ، والمجموعة المغولية ، والمجموعة الزنجية ، والمجموعة الاسترالية أو مايطلق عليهم بالقوقازيون القدماء .

ولم تتوقف محاولات التصنيف السلالى عند مجهودات العلماء الأفراد فقط ، وإنما كان للمنظمات والهيئات الدولية إسهامها الواضح فى هذا الشأن حيث قدمت هيئة اليونسكو دعوتها لعلماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية والبيولوجيين للإجتماع فى

(1) Haddon, A.C., The Races of Man ; Cambridge University Press, 1924, PP. 163 - 169 .
- Hooton, E.A., Up from the Ape , Op.Cit., PP. 278 - 288.
- Montagu, A., An Introduction to Physical Anthropology, Third Edition, Spring Field, Charles Thomas, 1960 .

عام ١٩٤٩ وجاءت نتائج هذا الإجتماع مشيرة إلى مايعرف بتصنيف اليونسكو للسلالات البشرية على النحو التالي [١] :

أولا ـ المجموعة القوقازية : *Coucasoid Races*

وتتميز بلون البشرة الأبيض والشعر المموج ، الأنف الضيق المعتدل المائل إلى الأمام ، والجمجمة العريضة ، وطول القامة مابين ١٥٥ سم إلى ١٧٥ سم وتنقسم هذه المجموعة إلى مايلي :

أ ـ القوقازيون ، ويتواجدون في :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأرمن	أسيا الصغري
البحر الأبيض المتوسط	حوض البحر الأبيض المتوسط
الشماليون (النورديون)	في وسط أوروبا واسكندنافيا
الديناريون	شرق جبال الألب من سويسرا ، ألبانيا ، أسيا الصغرى وسوريا
الألبي	فرنسا حتى روسيا بامتداد جبال الألب
البلطيق	شرق بحر البلطيق
الهنود الشرقيون	الهند وجزر الهند الشرقية
البولينزيون	بولينيزيا

(١) كلايد كلاكهون ، الإنسان في المرآه ، ترجمة شاكر مصطفى سليم ، المكتبة الأهلية ، بغداد ، ١٩٦٤، ص ٩٦٢ وما بعدها .

ب ـ الاستراليون أو القوقازيون القدماء *Archaic Coucasoid*
وينقسمون إلى :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الاستراليون	استراليا
الفيدا الهند	جزيرة سيلان
أسلاف الدرافيدين	الهند
الأنو	اليابان (خصوصا فى جزيرتى هو كايدر وريوكيو

ثانيا ـ المجموعة المغولية : *Mongoloid Races*

ويتميزون بلون البشرة المائل إلى الإصفرار تارة والسمرة تارة أخرى ، والشعر مستقيم مائل إلى الخشونة ، والجمجمة عريضة مع ظهور بعض النتوءات فى بروفيل الوجه ، وفتحتى الأنف متوسطتان مع أنف معتدلة فى شكلها العام ، وطول القامة يتراوح مابين ١٤٥ سم ، ١٧٠ سم وتتكون هذه المجموعة من :

أ ـ الأسيويون القدماء *Palaesiatics* وهم :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
التونكسيون الأصليون	هضاب آسيا وجبال الهيمالايا
الهنود الحمر	الوسط والجنوب والشمال الغربى لأمريكا
الأسكيمو	المناطق القطبية الشمالية لأمريكا الشمالية وآسيا

ب ـ الآسيون المحدثون *Neausiatics* وينقسمون إلي :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأندونيسيون	أندونيسيا
الساميون	جزر الكولا والشمال الغربى لروسيا
الجنكجيون	مناطق سيبيريا
اليابانيون	اليابان
الصينيون	الصين
الكوريون	كوريا

ثالثا ـ المجموعة الزنجية : *Nigroid Races*

ويتسمون بلون البشرة الأسود ، والشعر الأكرت ، والأنف العريض المفلطح والجمجمة الطويلة أحيانا ، ويتواجدون فى :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأقزام والأفريقيون	أفريقيا الإستوائية
أقزام المحيط	غينيا الجديدة
أقزام آسيا	جزر الأندمان ، الفلبين ، الملايو
الزنوج الأفارقة	وسط وجنوب وغرب أفريقيا

ـ الإنسان والوراثة :

إكتسب علم الوراثة أهمية كبيرة لا فى الوقت الحاضر فحسب ، بل منذ أن بدأ الإهتمام بملاحظة مدى الإختلافات والتغييرات والفروق التى تطرأ على الجنس البشرى ، ويهتم علم الوراثة بدراسة الأسس التى تنتقل بها الصفات الوراثية للكائن الحى من السلف إلى الخلف ، ومن هنا تعتمد الوراثة على فهم القواعد البيولوجية الحاملة للصفات ، إضافة إلى عوامل أخرى تلعب دورا فى عملية الوراثة

وقد أمكن ملاحظة الوراثة فى الإنسان منذ وقت مبكر من خلال الوحدات البسيطة المكونة للجسم والتى هى عبارة عن الخلايا *Cells* الحيوانية المركبة من مادة السيتوبلازم ، والتى يغلفها غشاء رقيق ويوجد بداخلها نواة أو أكثر تسمى البلازما النووية ، وهى التى تقوم بوظيفة تنظيم نشاط الخلية ، والأكثر من ذلك أن تلك النواه هى وحدها الحاملة للخصائص والصفات الوراثية ، وعلى الرغم من صغر حجم الخلية إلا أنها تتكون من نسبة عالية من الماء تصل إلى مابين ٧٠٪ إلى ٩٠٪ من حجمها إضافة إلى عناصر أخرى أقل ولكنها أساسية مثل الأكسوجين ، والنيتروجين ، والبوتاسيوم والصوديوم ، والكبريت والماغنسيوم والفسفور والكلور والحديد ، والنحاس ، واليود ، والمنجنيز [1] وتقوم الكروموسومات *Chromosomes* وهى الخيوط الوراثية المكونة من عدد من الجينات *Genes* أو المورثات الحاملة للحمض النووى الوراثى والمعروف باسم *Deoxyribonucleic Acid* ويختصر فى الأوساط العلمية والبحثية بـ *DNA* ، وباختباره وتحليله معمليا يتم التوصل إلى معرفة الشفرة الوراثية المعقدة فمثلا يوجد فى جسم الإنسان نوعان من الخلايا ، الأولى الخلايا المكونة للجسم وهى تتكون من ٤٦ كروموسوم أو خيط وراثى ، والثانية هى الخلايا الجنسية وهى عبارة عن حيوان منوى *Sperm* يحمل ٢٣ كروموسوما للذكر ، وبويضة *Ovum* تحمل ٢٣ كروموسوما للأنثى ، وعند إلتقاء الحيوان المنوى للذكر ببويضة الأنثى يتم الإخصاب والإتحاد فيما بينهما عن طريق الجينات أو المواد الحيوية ، ومن ثم تتكون الخلية الأولى نصفها محمولا من صفات الذكر ، ونصفها الآخر محمولا من صفات الأنثى ، وهكذا تكون الخلية المتحدة بداية الطريق لتشكل وتكون الجنين فى بطن الأم .

ولكن من الجدير بالذكر أن السمات والخصائص الوراثية لدى الإنسان لا تنتقل فقط عن طريق " جين " واحد وإنما هى نتاج لإتحاد كم هائل من الجينات الحاملة للصفات الوراثية لكل من الأب والأم هذا بالإضافة إلى عدد من العوامل البيئية والإجتماعية ، وفوق كل ذلك حكمة القدر والتدخل الإلهى فى الخلق

(1) Gom . Coleman J. & Coin, Ogive, B., Man and the Natural World , Macmillan Company, New York, 1973 , PP. 17 - 20 .

والتكوين[1] .

ويرتبط بفكرة وخاصية الوراثة مايعرف بالشفرات الوراثية المتجانسة ، وكذا الشفرات الوراثية الغالبة أو المسيطرة ، ويحدث التجانس بين الجينات عندما يكون التأثير متبادلا بين الجينات المتناظرة ، أما الإنحراف أو الغلبة أو السيطرة فغالبا ماتحدث عندما تكون تأثيرات الجينات المتناظرة غير متكافئة فيغلب تأثير أحدهما على الأخرى ، وهذا فى حقيقة الأمر راجع إلى التفاوت فى عدد الكروموسومات وعدد الجينات المنتظمة إلى جوار بعضها كالعنقود أو حبات المسبحة والمكونة للحبل أو الخيط الكروموسومى ، وهذا التفاوت له إنعكاسات واضحة يمكن ملاحظتها على السمات والخصائص الوراثية الظاهرة منها وغير الظاهرة ، والتى تظهر فى حالات التزاوج والتناسل والقرابة البيولوجية .

ـ الهندسة الوراثية :

يعد التوسع الهائل فى النشاط العلمى أمراً يبعث على الرضا والغبطة ، ولكنه مع ذلك ، ليس نعمة خالصة تماما ، فالمرء قد يغتبط إذ يرى المعدل الهائل لنمو ذخيرة المعرفة البشرية التى تحدث فى فترة حياته ، ولكن مقدار هذه الذخيرة قد فاق إلى حد كبير قدرة أقوى من العقول البشرية ذاتها على إستيعاب كل المعرفة ، فلقد مضى إلى غير رجعة ذلك الوقت الذى كان يلم فيه الباحث أو العالم إلماما تاما بحالة العلم ، فهذا الأمر ليس فقط يعد مستحيلا الآن ، وإنما هو بالنسبة إلى العالم أمر غير مرغوب فيه ، ذلك لأن تقدم العلم يتحقق أساسا على أيدى المتخصصين ، وكلما إتسع العلم إزداد نطاق التخصص ضيقا ، وقد أصبح بعض المتخصصين يعملون فى مجالات ضيقة إلى درجة تبعث على الإشمئزاز والواقع أن المتخصصين فى حدود ضيقة فى البحث معرضون للخطر فى الوقت الذى هم فيه خطرون على أنفسهم ، معرضون للخطر لأن حياتهم الباطنة ذاتها تصبح عقيمة مجدبة ، وخطرون لأنهم عرضة لأن يقعوا فرائس سهلة لإستغلال أصحاب القوة والمال فى أغراض ضارة بالعلم ومصالح الجنس البشرى بصفة عامة .

---

(1) Montagu, A., Human Heredity, John Wiley & Sons, New York, 1963 , PP. 58 - 61 .

ويواجه العلم تناقضا قاسيا ، ذلك لأن نموه ذاته هو الذى يشكل أخطر تهديد، فالعلم مهدد بأن يتحول إلى نوع من الأسرار التى لايمكن تداولها مثل العلوم العسكرية والعلوم الإستراتيجية وغيرها .

علم الوراثة وميدانه يعد محاولة لتقيم عرض شامل لما يمكن أن ينصب عليه الإهتمام بالجوانب الإنسانية ، والحقائق والأفكار ذات الصلة الوثيقة بالإنسان فى أصله وحاضره ومستقبله ، وعموما فإن إدراك الإختلافات والفوارق بين بنى البشر قد يكون أيسر من إدراكه لدى غيرهم من الممالك والمخلوقات الأخرى ، ومع ذلك فإن مايجعل الناس مختلفين بعضهم عن بعض ليس أمرا قليل الأهمية ، وذلك إذا أردنا أن نفهم رفاقنا من بنى البشر كى تعيش معهم فى درجة معقولة من الإنسجام والتآلف ، ويرد تفسير الإختلاف والتباين بين بنى البشر إلى تيارين أساسيين :

الأول : يفترض أن التباين بين البشر إنما يرجع إلى تباين وراثاتهم أى طبائعهم ، أما الثانى ، فيرد التباين والإختلاف بين الناس إلى بيئاتهم المختلفة إى إلى الطرق المختلفة فى تنشئتهم أو تطبعهم .

وعلى الرغم من بساطة الفكرتين السابقتين إلا أنهما قد صيغتا فى صور عدة، بل وتشكلت على أساسهما مذاهب ومعتقدات إيمانية ونظريات علمية ، وصار للمذهب الوراثى أنصاره ، وللمذهب البيئى أنصاره ومؤيديه ، ومن الإنصاف أن نقول أن كلتا النظريتين متساويتان فى عدم صحتهما ، أما الحقيقة فتقع بين النظريتين ، أو أنهما على الأصح تشتمل على وجهتى النظر الوراثية والبيئية معا ، فالشخص ، أى شخص ، وكل مميزاته الجسدية والذهنية ، والثقافية هو فى الواقع نتاج التفاعل بين الطبع والتطبع أو بين الوراثة والبيئة (١) .

---

(١) أنظر فى ذلك :

ـ ناهد البقصمى ، الهندسة الوراثية والأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يونيو ١٩٩٣م .

ـ أشلى مونتاجو ، البدائية ، ترجمة محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب

وفيما يلي سوف نستعرض بشئ من التفصيل أراء كل من المذهبين في فهم الوراثة ، ففي عام ١٦٩٠ ميلادية عبر جون لوك *John Locke* عن الفكرة الأساسية للمذهب البيئي بوضوح تام ، حين رأى أن الكائن البشرى لايكون عند الولادة طيبا أو خبيثا ، بل يكون صفحة بيضاء تنقش عليها البيئة ، والتنشئة والتربية هذه المجموعة أو تلك من السجايا والصفات ، فعن طريق التربية الجيدة تنبت وتغرس الصفات الجيدة ، فتحفظ وتنمى ، وينتج عن ذلك شخص طيب الأخلاق، حاذق المهارات ، سليم الأفكار وقد نالت هذه الأفكار شهرة هائلة لاسيما أثناء عصر التنوير في القرن الثامن عشر .

أما أصحاب المذهب الوراثى فيرون أن الإنسان مخلوق يولد بصفاته وقدراته ، ثابتة غير متغيرة ، إذ أن مايستطيع ومالايستطيع تحقيقه في حياته تقرره وراثته وتحدده سلفا إلى حد كبير ، والواقع أن ماذكره أرسطو من قبل ـ في عبارته القائلة أن أولئك الذين ينحدرون من أصول أفضل يرجح أن يكونوا رجالا أفضل ، إذ أن النبل إنما هو عراقة النسب ، وعموما ، فإن تاريخ المذهب الوراثى وسيطرته على فكر التطور والوراثة قد شابه كثير من الغموض ، ولكنه وجد بعض التأييد في الأديان السماوية ، والفكر الدينى ، ففى المسيحية يجد المذهب بعض التأييد على الأقل في العقيدة الخاصة بخطيئة آدم الأولى ، فهذه الخطيئة التى يرثها جميع البشر ، إنما تجعل الطبيعة البشرية آثمة وفاسدة في أساسها ، كذلك فإن مذهب القدرية الذى يرجع أصله إلى القديس أوغسطين والذى تطور واكتمل علي أيدى جون كالفن *John Calvin* يفترض أن هناك أمراً إلهياً لاسبيل لنا إلي فهمه يصطفى بعض الناس فيكونوا أخيارا بينما تحل اللعنة على بعضهم الآخر .

ويبدو أن هناك هوة لايسهل عبورها بين المذهب الدينى وبين الفكرة الدنيوية التى تقول أن ثروة الشخص ومركزه في المجتمع يتقرران أيضا ويتحددان سلفا بواسطة وراثته ، وإن كان كثير من الناس إستطاعوا إجتيازها بسهولة تدعو إلى الدهشة ، فإن الله أو الطبيعة أو الوراثة هى التى جعلت بعضنا قادرا أو بعضنا الآخر قليل القدرة ، بعضنا ذكيا وبعضنا الآخر غبيا ، بعضنا مكبا على العمل ، وبعضنا الآخر كسولا .

ولكن من الجدير بالذكر أننا نقع في الخطأ في كل مرة نحاول فيها تقسيم السمات البشرية إلى فئتين متميزتين تميزا تاما ، الفئة الوراثية ، والفئة البيئية ، فهذا التقسيم الثنائي زائف ومضلل ، ذلك لأن أغلب السمات تؤثر فيها وتعدلها الوراثة والبيئة معا .

وقد شهدت حضارة الإنسان ، وتطوره التكنولوجي في العصر الحديث قفزات وطفرات وثورات علمية أحدثت تغييرا وتطورا جوهريا في الحياة البشرية ، كثير منها كان يعد ضربا من الخيال ، وبعضها لم يكن ليخطر على بال بشر ، فكانت الثورة المتعلقة بالتركيب الذرى ، ثم بزغت ثورة الالكترونيات الدقيقة ، فجاءت عنها ثورة الحاسب الآلى في المجالات العسكرية والمدنية بل وفي شتى مناحي الحياة ، ثم إحتلت ثورة الطب والبيولوجيا مكانها في زرع الأعضاء مثل الكلى والرئة والكبد والبنكرياس والقلب ، وفي كل مرحلة من مراحل التطور العلمي والتكنولوجي هذه كانت هناك مغازلة أو أقل مجادلة بين العلم والأخلاقيات الإنسانية توظف العرف تارة ، وتوظف الدين تارة أخرى .

وقبل أن يفيق العالم الإنساني من زحم المعلومات والنتائج العلمية لاحقت الإنسان طريقة الإخصاب الصناعي (١) للتغلب على إصابة أحد الزوجين بالعقم أو الضعف الذى يمنع إتمام الحمل ، وما إن جاء عام ١٩٧٨ إلا وفوجئ العالم بنبأ ولادة أول طفلة أنابيب وهى لويس براون على يد الفريق الطبى الإنجليزى " ادواردز وستبتو" وبينما لاتزال البشرية غارقة في الدهشة والخوف مما آلت إليه نتائج تحديات الإنسان بتطبيقاته المتطرفة لتقنية طفل الأنابيب ، إرتجف العالم فزعا لبدء عصر البيوتكنولوجيا بظهور الهندسة الوراثية *Genetic Engineering* أو كما يسميها البعض تكنولوجيا تطويع الجينات في أوائل السبعينات من هذا القرن، وهى بحق ثورة علمية خطيرة لأنها ترتكز على مادة الحياة وهى الجينات *Genetic* وهى ثورة تلعب فيها علوم الوراثة الدور الرئيسي لاستعمالاتها التطبيقية في الطب والصيدلة والزراعة والأمن الغذائى وتلوث البيئة ، وقد جاءت

(1) Veaatch, R.A. Theory of Medical Ethics, Basic, Books, Inc., New York, 1987 , PP. 28 - 36 .

تكنولوجيا الهندسة الوراثية كمحصلة طبيعية لثورتين طبيعتين هما ثورة إكتشاف أسرار المادة الوراثية *DAN* ، وثورة إكتشاف أنزيمات التحديد *Rectriction Enzym* والتى تقوم بقص الشريط الوراثى فى مواقع محددة وإكتشاف الحمض النووى داخل البلورات المسبحية ، والتى تعرف بالمادة الوراثية ، ثم تتابعت البحوث والإكتشافات إلى أن تم التعرف على أسرار الشفرة الوراثية ، والمقصود بها تتابع القواعد النيتروجينية الأربعة التى وهبها الله للحياة ، وهى : الأدنين ، والجوانين ، والسيتوزين ، والثايمين ، وهى عبارة عن مشتقات تقوم بتخزين المعلومات الوراثية فى لوح محفوظ مسئول عن حياة الفرد من الإنبات وحتى الممات .. وهى الجينات .

وماهى إلا فترة وجيزة حتى إستطاع الإنسان برمجة البكتريا بالهندسة الوراثية وتحويلها إلى مصانع بيولوجية صغيرة جدا تنتج مايطلبه منها الإنسان من بروتينات ، هرمونات ، وأنزيمات ، وكيماويات ، ومضادات حيوية ، أدوية ، ولقاحات، وأمصال ، وغيرها . فتسابقت مكاتب السمسرة ورجال الأعمال فى العالم لإقامة الشركات الدوائية ، فأنشئت أول شركة للهندسة الوراثية فى عام ١٩٧٧ وهى شركة جيناتك *Genetics* والتى وصل سعر السهم فيها إلى مايقرب من المليون دولار.[١]

وبفضل الهندسة الوراثية ونجاح أبحاثها أصبح الإنسان ولأول مرة فى التاريخ يمتلك الوسيلة التى تساعده على تطويع المخزون الوراثى الكامن فى جميع المخلوقات الحية بما يرضى طموحاته ، حيث أمكن للوراثيين الآن تخليق جينات جديدة معمليا وإستحداث تباينات فى الجينات المعروفة والتى هى نتيجة طبيعية لتطور الحياة ، كما أمكن للعلماء أن يضعوا على مائدة العمليات الوراثية أطقم جينية لصور الحياة المختلفة لتصبح مطوعة للجراحة والتعديل الوراثى أو مايسمى بجراحة الجينات *Gene Surgery* لتغيير وظائفها البيولوجية من أجل تبديل الإمكانات الوراثية للكائن الحى ، إما لتخليق صفات مرغوبة كالذكاء ، والنبوغ ،

---

(1) Warnock, M., A Qeustion of Life, The Wamock Report on Human Fertilisation & Embryology, Black Well, Oxford, 1984 , PP. 138-144

والمواهب ، والملكات الفائقة ، أو لإضافة خاصية أو صفة لم يكن يملكها من قبل بالتحكم فى التشكل والنمو وإنتاج الإنسان العملاق *Gigantic Man* ، وكما نرى فإن تطبيق الهندسة الوراثية على الجنس البشرى يقوم على فكرة التحكم فى الجهاز الوراثى للإنسان ، وبالتالى إمكانية برمجة الجنس البشرى وفق تصميمات موضوعة سلفا ، وبذلك يمكن القول أن علماء الهندسة الوراثية قد إقتربوا من أهم خصوصيات الإنسان ولوحة المحفوظ وهى شفرته الوراثية ، وبذلك تكون الهندسة الوراثية مثيرة للإعجاب والمخاوف فى آن واحد ، الإعجاب لأنها تقدم الحلول لكثير من المشكلات فى العالم ، والمخاوف لخطورة إستخداماتها وتطبيقاتها فى نواحى لا أخلاقية يصعب السيطرة عليها مستقبلا .

ولكن رغم ماتؤدى إليه الهندسة الوراثية من مشكلات كثيرة تحتاج إلى تكاتف الجميع لحلها والتصدى لها ، إلا أنها قدمت كثيرا من النتائج الإيجابية خاصة بالإنسان حتى الأن ، منها على سبيل المثال مايلى [١] :

أولا ـ توصلت إلى تخليق أجزاء من البرنامج الوراثى " للأنسولين" لعلاج مرضى السكر بعد أن كانت تؤخذ من الحيوانات مما كان يكلف كثيرا ، ويرفع بالتالى سعر الدواء .

ثانيا ـ توصل العلماء إلى تحويل أنواع خاصة من البكتريا إلى أنواع من الكيماويات يمكن غزلها وتحويلها إلى ألياف تستخدم فى صناعة الأنسجة وخيوط الجراحة .

ثالثا ـ تمكن العلماء من تصنيع أنزيم يوروكينيز *Urokinase* مهمته إذابة كل أنواع الجلطات التى يصاب بها الإنسان سواء جلطات المخ أو الشرايين أو الرئة .

رابعا ـ أمكن لعلماء الهندسة الوراثية تربية بكتريا خاصة تدخل فى صناعة

---

(١) عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمى ومستقبل الإنسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

أعلاف صناعية معينة لغذاء الحيوان والدواجن بديلة عن أنوا ع الأعلاف التقليدية .

خامسا ـ توصل العلماء إلى تحويل البكتريا العادية إلى بكتريا مخلقة للقضاء على التلوث البحرى وخاصة الناتج عن التسرب النفطى فى أعماق المياه .

ـ الهندسة الوراثية والقيم المجتمعية :

فى الوقت الذى إستطاعت فيه تكنولوجيا الإخصاب وعلم الأجنة *Embryology* أن يقدما حلولا مؤقتة لبعض مشكلات العقم تواجه الإنسان ، وكذا إمكانية التوصل إلى معرفة وتحليل الجزء الأكبر من الشريط الوراثى ومعرفة مكونات الشفرة الوراثية ، نجد أن هناك مخاوف كثيرة وتساؤلات غاية فى الأهمية ترتبط بها الجانب من التقدم البيوتكنولوجى ، منها ماهو مصير الأسرة ؟ أو بمعنى آخر هل سيحل الجهاز الذى سوف تخلق بداخله الأجنة محل رحم الأم ؟ وهل ستشترى وتباع الأجنة مستقبلا ؟ وما الذى يمكن أن يحدث لو توصل العلماء إلى نتائج خاطئة أدت إلى تخليق كائن غريب لايمكن التخلص منه ؟ وماذا لو أن وباءا جرثوميا إنفجر من المعامل البيولوجية ، ولم يتم السيطرة عليه ، وقضى على عدد كبير من البشر ؟ (١)

الواقع المشكلة الحقيقية فى هذا الشأن تكمن فى وجود الفجوة أو الهوة البعيدة الفاصلة بين التقدم البيوتكنولوجى وبين القيم الثقافية داخل المجتمع ، وهى مشكلة ليست وليدة التطور والتقدم التكنولوجى الآن ، إنما كانت تشغل بال الكثيرين منذ أيام تشارلز داروين *Darwin* ودعوته إلى فهم التطور على أساس النشوء والإرتقاء (٢) ، وهى الفترة التى كثر فيها الحديث عن تأكيد الحقيقة الأساسية القائلة بتطور الإنسان على أساس نوعين من الإرتقاء التطورى هما الإرتقاء البيولوجى ، والإرتقاء الثقافى ، وأن إرتقاء الإنسان رهن بالتفاعل بين النوعين من التطور.

---

(1) Veatch, R.M., A Theory of Medical Ethics, Op. Cit., PP. 74 - 77 .
(2) Darwin, C., The Origin of Species, Op.Cit., (1859) 1928, 1964 .

وقد حدثت فى تاريخ العلم والثقافة الكثير من المفارقات فى هذا الشأن فمثلا كانت أخلاقيات الكنيسة والمجتمع فى أوروبا فى بداية عصر الطب يقفان موقف المعارضة من التقدم الطبى الذى يدعو إلى تشريح الجسد والأكثر من ذلك أنهما كانا يعارضان عملية التشريح للجسد حتى بعد الوفاة ، وذلك لأن الجسد له حرمة مقدسة يجب المحافظة عليها ، والإعتزاز بها ، والأمر لايتوقف عند أوروبا فقط بل إنتقل بعد ذلك إلى كثير من الثقافات وخاصة الأسيوية ، وأن هناك بعض البلدان تمنع منعا باتا أن يتدرب طلاب العلوم الطبية بجامعاتها على تشريح أجساد بشرية والمشكلة مازالت قائمة بين إرتقاء وتقدم العلم وبين وضعية القيم الأخلاقية والثقافية داخل المجتمع . وهو نفس الموقف الذى إتخذ بعد ذلك فى مواقف وعمليات نقل وزرع الأعضاء البشرية وأطفال الأنابيب والتقليح الصناعى وغيرها .

ولكن لب المشكلة يجب أن يكون منصبا ومن البداية على توضيح الغايات أو الأغراض أو الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها الإنسان من وراء التقدم العلمى وخاصة البيوتكنولوجى والمسألة فى تقديرى هى أكبر من أن نخدع أنفسنا بإجابات سهلة ، كأيماننا بأن المعرفة الفائقة بيولوجيا الإنسان تجعلنا لانخطئ فى إختيار أفضل الخطط ومن ثم إتباعها أو كقول آخر لأن التطور التكنولوجى إنما يغرس فى الإنسان أفكارا وميولا أخلاقية تلائم هذا التطور باستمرار .

- خاتمة الأجناس في ميزان النقد :

إن أجناس البشرية وقد تطورت من أصل واحد تعد من وجهة النظر العلمية الدقيقة أقساما تقع تحت نفس النوع ، يتشابه بعضها البعض من الناحية البيولوجية ، وطالما أن الأمر يندرج تحت صلة الإنسان وتواصله من أصل واحد ، فإن أيا منها لايعد أعلى أو أقل من الأجناس الأخرى ، ولكن المسألة فتحت أمام العنصريين ، والمغالين ، والمتاجرين بإختلافات وتباينات بعض خصائص وسمات الجنس البشرى الباب على مصراعيه لتعميق هوة الخلاف والتميز بين السلالات. ومن هنا إعتبر العنصريون أن الجنس الأبيض هو الأعلى مرتبة ومكانة ، وأن الأجناس الملونة (السوداء والصفراء) هى أدنى فى المرتبة والمكانة ، وقد ظهرت

هذه التفرقة على أيدى بعض العلماء فى كل من المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، والذين يدعمون النظرية " الآرية " القائلة بتفوق الرجل الأبيض وتفرده فى إبداعات الحضارة والمدنية وقيادة التاريخ ، وأن بقية السلالات والأجناس الأخرى ماهى إلا أيدى معاونة أو أرقاء فى خدمة الرجل الأبيض .

ويمكن القول أن دعاة التفرقة بين الجنس البشرى وأصحاب النظريات العنصرية لم يفلحوا حتى الآن فى تقديم الدليل الدامغ لدعوتهم ، وذلك للأسباب التالية :

أولا – بنيت التفرقة بين الشعوب على أساس الصفات الجسمانية . فمثلا خضعت الصفات الفيزيقية للبدائيين الأفارقة لهذه النظرية ، وقيست عادة بمقياس المعيار الجمالى المأخوذ من النمط القوقازى الأوروبى ، فاعتبرت الصفات الجسمانية التي يتميز بها الزنجى كالشفتين الغليظتين والجلد الأسود قبيحة دائما ، وكلما قلت زنجية الزنجى قل قبحه ، ومايلفت النظر فى هذا الحكم طبيعته المطلقة فهو يطلق دون أدنى وعى بنسبيته ، والأكثر من ذلك أن هذا الحكم الجمالى يتخذ مع مضى الزمن صفة الحكم الأخلاقى أيضا فبعد أن أستعيض عن التفسير التقليدى للون الزنجى عن طريق الظروف المناخية ، بتفسير وراثى ، أصبح التبرير الذى يقدم عادة هو إنتساب الزنوج المزعوم " لحام" الأبن الملعون من أبناء نوح ، وهذا ما جعل لون الزنجى الأسود مكروها لا من الناحية الجمالية فقط ، بل لأنه صار رمزا لوصمة أخلاقية ونتيجة لها والحق يقال أن فى هذا المجال تختلط الحقائق بالتحيزات المفرضة على أساس خلق ذريعة التمركز العرقى حول الذات للرجل الأبيض .

ثانيا – لايقتصر العنصريون فقط على تأييد وتدعيم بل التفسير البيولوجى والذى لايستند إلى أية براهين تاريخية نجدهم يقحمون فئات أخرى مثل السلالة والأمة فى نفس مجال التفرقة ، وعلى الرغم من أن الفئة الأولى هى من إختصاص البيولوجيا ، وأن الثانية تنتمى إلى مجال الإجتماعيات والإنسانيات إلا أنهما لم يسلما من الوقوع فى براثن العنصرية وتوجهاتها ، ولكن حاول بعض

الأنثروبولوجيين لدحض هذا المفهوم والقائل بأن الحضارة لم تخلق إلا على أيدى سلالة ما من السلالات الأعلى والتى يتميز أفرادها بكبر حجم المخ، ولتفنيد هذا القول نقول أن التطور ذو المستوى العالي أو الراقى للحضارة المصرية القديمة كما ذكره الأنثروبولوجي الألمانى شمدت *Shmdt* بأن حجم طاسة المخ لدى الذكر من المصريين ١,٣٩٤ سم٣ وأن طاسة رأس الأنثى كانت ١,٢٥٧ سم٣ ، ومن هنا كان مخ المصرى المبدع أقل من المتوسط إذا ماقورن بأى مخ من الشعوب المجاورة له ، والذين كانوا فى مستوى حضارى أقل من حضارة المصرى القديم .

ثالثا ـ تعتبر بحوث ودراسات الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى مجالاتها المتعددة ذات أهمية كبيرة لأنها تخدم عدة معارف إنسانية تدخل فى نطاق تخصصات متعددة مابين إجتماعية (السلالات البشرية) وبيولوجية (الفسيولوجية) وتطبيقية (الطب) ، لذلك لم يكن غريبا أن يتزايد الإهتمام بها مع مرور الزمن وتقدم الإنسان فى مضمار الحضارة فمثلا فى عام ١٩٥٢ قام مورانت وزملائه بمشروع بحثى ممول من مؤسسة نيو فيلد وبتكليف من الجمعية الأنثروبولوجية الملكية فى بريطانيا بدراسة فصائل الدم بين جماعات الباسك ودورها فى تحديد الشخصية وتوضيح مدى الإختلافات بين المجموعات السلالية المختلفة [1] ، ولاسيما لأن الباسك يتحدثون لغة خاصة بهم ، ولهم علاقات زواجية داخلية تميزهم عن جيرانهم من الفرنسيين والأسبان .

رابعا ـ الأجناس والسلالات والهندسة الوراثية موضوعات ذات أربعة أبعاد بيولوجية إنسانية يحكمها فى عملية التطور والرقى العلمى فى جوانبها المتعددة مدى ماتقدمه من إيجابية فى البعد الإنسانى ، وهو بطبيعة الحال منصب على تكيف الإنسان مع نتائج هذه الموضوعات ومع طرق وأساليب تنشئته وتطبيعه إجتماعيا وثقافيا ، ففى مجتمع الفضيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه فى نسيج المجتمع بعد أن يروض ويعود ويطبع ، وفى مجتمع الرذيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه

---

(1) Mourant, A.T., The Distribution of the Human Blood Group Blackwell, Oxford, 1954, P. 221 .

فى نسيج هذا المجتمع بعد أن يمر بنفس المراحل السابقة ، وفى أثناء هذا التدريب والتلقين والتعويد يكون الفرد مفهومه عن ذاته كما يكون مفهومه عن ذات الآخرين وشخصياتهم كما يكتسب المعايير والأدوات التى يستطيع من خلالها الحكم على الأحداث والأشياء ويبحث الفرد دائما عن إجابة سؤال حائر يلح عليه بين الحين والحين مؤداه من أنا ومن أكون ؟ ومن هم الآخرين ومن يكونون ؟ وهنا يأتى التحامل والتعصب العرقى حاملا وفاصلا بين تداخل نسيج العلاقات الإجتماعية والإنسانية ككل فمثلا نجد أن الرجل الأبيض له علاقة من نوع خاص بالرجل الأسود ، وخاصة فى بلدان التمييز العنصرى ـ فهى علاقة صاحب السلطة والسيطرة (للأبيض) بالخاضع المستسلم (الأسود) الذى لاحول له ولا قوة ، وبالتالى يكون دور الرجل الأبيض هو الآمر الناهى وماعلى الأسود إلا أن ينفذ ، وهنا تكون الفرصة سانحة أمام الأبيض بأن يصف العبد المنفذ بالكسل وعدم القدرة على تحمل المسئولية والمراوغة والغباء ونقص القدرات الإبتكارية ، كما تكون الفرصة سانحة أمام العبيد أن يصفوا السادة البيض بالعجرفة والغطرسة والقسوة ، ونقص الأخلاقيات وإنهيار القيم وعدم التسامح وخشونة التعامل فى العلاقات الإنسانية .

خامسا ـ ليس هناك من ينكر بأن معايير التصنيف السلالى بين الأجناس فى حد ذاتها شديدة التغيرات والتنوع ويكمن السبب وراء ذلك فى إمتزاج هذا التوجه لدى كثير من المهتمين بالنزعات العنصرية البغيضة والتى تسعى إلى إعلاء جنس على حساب آخر أو الأخرين سواء على مستوى الحياة اليومية العادية والتى تتم فيها العلاقات المتبادلة بين بنى البشر أو على مستوى التوجهات والمحافل العلمية والأكاديمية والمذاهب السياسية ـ وهذا مايدعو إلى الأسف الشديد فمثلا أظهر بعض الأنثروبولوجيين الألمان العنصريين من خلال أوراقهم وأبحاثهم التى قدموها للمؤتمر الأنثروبيولوجى والأثنوجرافى الدولى المنعقد فى مدينة كوبنهاجن فى أغسطس من عام ١٩٣٨ بأن الخصائص الوراثية لاتقتصر على المظهر الخارجى بشكل جسم الإنسان وإنما هناك حسب إعتقادهم وراثة لخصائص

وسمات السلالة العقلية ، وأشاروا فى أبحاثهم إلى أن السكان الأصليين باستراليا قد إنقرضوا تقريبا بسبب " ضعف روحهم السلالية " فى حين إستطاع الموريون بنيوزيلاندا أن يستوعبوا بنجاح الثقافة الأوروبية ، فالشعوب من أى تكوين سلالى تستطيع إذا ما أعطيت ظروفا إجتماعية وثقافية مواتية أن تخلق حضارة ومدنية متقدمة ، فعقول الأفراد وطبائعهم وسلوكياتهم وخصائصهم القومية هى صفات مكتسبة وتتشكل تحت التأثير المسيطر والغالب للبيئة الإجتماعية والثقافية ، والسياسية بغض النظر عن إنتماءاتهم القومية أو العرقية .

والسوال الهام الآن والذى يحتاج إلى إجابة وإجابات ، هل يستطيع العلم والثورة التكنوبيولوجية من القضاء على النزعات والنعرات العرقية النامية إلى خلق عنصريات وتمايزات بين البشر ؟ أم أن المسألة العرقية ستزداد عنصرية ، وإنغلاقا على الهوية والذات ، لاسيما فى ظل التطورات المجتمعية والسياسية والدولية المتلاحقة ، إذن فالأمر يحتاج إلى مزيد من الترقب والدراسة والتقصى والبحث .

القراءات والمراجع

١ ـ أحمد أبو زيد ، التطورية الاجتماعية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث، العدد الرابع ، ١٩٧٣ ، وزارة الإعلام ، الكويت .

٢ ـ أشلي مونتاجو ، البدائية ، ترجمة د . محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٥٣ ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٨٢م .

٣ ـ ثيودوسيوس دوبجانسكى ، الوراثة وطبيعة الإنسان ، ترجمة زكريا فهمي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

٤ ـ عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨١م .

٥ ـ فاروق عبد الجواد شويقة ، مقدمة فى الأنثروبولوچيا الطبيعية والسلالات البشرية ، الطبعة الثانية ، دار روتابرنت للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

٦ ـ كاليد كلاكهون ، الإنسان فى المرآه ، ترجمة شاكر مصطفى سليم ، المكتبة الأهلية ، بغداد ١٩٦٤م .

٧ ـ محمد الجوهرى ، الأنثروبولوچيا ـ أسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٨ ـ محمد رياض ، الإنسان ـ دراسة فى النوع والحضارة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤م .

٩ ـ محمد عباس ابراهيم ، المدخل إلى الأنثروبولوچيا الطبية ، الجزء الأول، الثقافة والمعتقدات الشعبية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٢م .

١٠ ـ ناهدة البقصمى ، الهندسة الوراثية والأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، يونيو ١٩٩٣ م ، الكويت .

١١ ـ نستورخ ، م . أجناس البشرية ، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد ، مراجعة د . أحمد على إسماعيل ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة، ١٩٧١م .

١٢ ـ يسرى الجوهرى ، السلالات البشرية ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م .

13 - Blumenbach, Johann F.; On the Normal Variety of Mankind, Schuman , New York, (1975) 1950 .

14 - Bruse, Alice M.; People and Races, Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1977 .

15 - Carpenter, C.R.; A Field Study of the Behavior and Social Relations of Howling Monkeys, New York, 1934 .

16 - Darwin, Charles; On the Origin of Species, Cambridge, Harvard University Press, (1959) 1964 .

17 - Deniker, J.; The Races of Man, Macmillan, New York, 1912 .

18 - Draper, George & Others, Human Constitution in Clnical Medicine, Harper, New York, 1944 .

19 - Goin, Coleman, J. & Goin , Olive B.; Man and the Natural Worled, Macmillan Company, New York, 1973 .

20 - Haddn, A.C.; The Races of Man ; Cambridge University Press, 1924 .

21 - Hirszfield, L. ; & Hirszfield H.; Of Different Blood, In , Lancet, No. 2, 1919 .

22 - Hooton. E.A., Up From the Ape, Macmillan, New York, 1964 .

23 - Kertschmer, Ernst, Physique and Character, An Investigation of the Nature of Constitution and the Theory of Temperament, Routtedge, London, (1921) 1963.

24 - Montagu, A.; An Introduction to Physical Anthropology, Charles Thomas, London, 1960 .

25 - Mourant, A.T.; The Distrubution of the Human Blood Group, Blackwell, Oxford, 1954 .

26 - Nesturph, M.; The Races of Mankind, J. Wiley, New York, 1955 .

28 - Sergi, G.: The Races of Mankind, J. Wiley , New York, 1955 .

28 - Sergi, G.; The Mediterranean Races, Turin, London, 1908 .

29 - Veatch R.M.; A Theory of Medical Ethics, Basic Books, New York, 1987 .

30 - Warnock, M.; A Question of Life, the Wamock Report on Human Fertilisation & Embryology, Blackwell, Oxford, 1984 .

الفصل الثالث

التنـــوع البشـــــرى*

- مقدمة .
- التصنيف الطبيعى للإنسان .
- السمات العامة للرئيسيات .
- الخصائص المميزة للإنسان .
- مفهوم الجنس والنوع والسلالة .
- العوامل التى تؤدى إلى ظهور الصفات السلالية .
- الصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية .
- الاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية .

---

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور / مصطفي عوض ابراهيم مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

الفصل الثالث

التنــــوع البشـــــرى *

ـ مقدمة :

تدرس الأنثروبولوچيا الفيزيقية الجوانب الفيزيقية للإنسان ، فهى تدرس تركيبه الجسمانى والتغيرات التى مر بها إلى أن حصل على صورته الحالية ، وكذلك التنوع البيولوجى للإنسان وهى فى ذلك تهتم بدراسة أسباب التنوع وإتجاهات التغير فى كل من الأفراد والجماعات سواء فى الماضى أم الحاضر . ويمكن تقسيم مجالات دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية إلى عشرة مجالات ، بعضها يعود تاريخه إلى فترات طويلة والبعض الأخر يعتبر حديثا نسبيا وهى :

دراسة العظام والأسنان ـ الأيكولوجية البشرية ـ دراسة الأجنة والنمو ـ دراسة تركيب الجسم والبنية ـ البيولوجيا الجزيئية ـ الوراثة البيوكيميائية ـ الوراثة السكانية ـ دراسة التطورات الصغرى ـ دراسة الرئيسيات ـ وأخيرا الأنثروبولوجيا الفيزيقية التطبيقية وهناك علوم أخرى أكثر تخصصا تدرس مثل تلك الموضوعات ، ولكن أهم ما يميز الأنثروبولوجيا الفيزيقية من هذه العلوم هو أنها تعالج مسائل البيولوجيا البشرية فى سياق عريض وواسع ، فمدخلها يركز فى الغالب على النوع البشرى ككل ، أو على المجموعات السكانية البشرية أكثر من تركيزه على الأفراد ، وبالإضافة إلى ذلك فإن موضوع دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية هو الإنسان ، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحمل ثقافة ، ومن أجل ذلك فإن الأنثروبولوچيا الفيزيقية هى العلم الذى يهتم بتفاعل العوامل السوسيوثقافية وغيرها من العوامل البيئية الأخرى مع العمليات الوراثية والبيولوجية .

وهناك علوما كثيرة تدرس الإنسان (كالطب ـ وعلم الإجتماع ، وعلم النفس

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور / مصطفى عوض ابراهيم مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

.. الخ) ، ولكن أهم ما يميز الأنثروبولوچيا فى دراستها للإنسان عن كل تلك العلوم هو الأتى :

١ - التركيز على دراسة الجماعات البشرية ، كل الجماعات البشرية ، وليس الأفراد .

٢ - إستخدام المنهج المقارن فى الدراسة .

٣ - الإعتماد على المنظور الشمولى للإنسان (من حيث سلوكه ، وتكوينه النفسي والبيولوجى ، وثقافته المادية ، وتاريخه البشرى).

٤ - الإعتماد على مفهوم الثقافة كسمة بشرية .

ويمكن إدراك التمييز بين الأنثروبولوچيا الفيزيقية والعلوم البيولوجية الأخرى عن طريق الإهتمام بالتنوع العرقى للإنسان ، فكل ماهو مشترك بين الجنس البشرى من الناحية الفيزيقية يدخل فى مجال إهتمام البيولوجيا البشرية بإعتبارها فرعا متخصصا من البيولوجيا العامة ، فى حين يعتبر وصف التنوع الفيزيقى للإنسان وتفسيره هو العمل التقليدى للأنثروبولوچيا الفيزيقية . وهناك بعض العلماء الذين يفضلون إستخدام مصطلح البيولوچيا البشرية *Human Biology* للإشارة إلى الأنثروبولوچيا الفيزيقية ، وهى تدرس تحت هذا المسمى فى بعض الجامعات وتعتبر علم من العلوم الطبية الأساسية ، ولكن من الهام أن نؤكد أن الأنثروبولوچيا الفيزيقية *Physical Anthropology* تختلف عن البيولوجيا البشرية فى بعض النقاط المتعلقة بالمدخل والتأكيد على بعض الجوانب الخاصة . وهذا الإختلاف يوجد فى عقل عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية ، ولنضرب لذلك مثلا ، فالباحث المتخصص فى البيولوچيا البشرية عندما يدرس بعض الجماعات البشرية قد يلاحظ أن لون البشرة السمراء يتردد فى مجموعة سكانية معينة بنسبة أعلى منها فى مجموعة سكانية أخرى ، وهو يقوم فى هذه الحالة بوصف هذا الإختلاف بين المجموعتين ويحاول فى نفس الوقت أن يبحث عن

الميكانيزمات الوراثية التى أدت إلى هذا التباين ، أما عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية فبالاضافة إلى هذا فهو أيضا يحاول أن يكشف عن التقاليد والأعراف الثقافية التى ربما تمنع المجموعة السكانية ذات البشرة الداكنة من التزاوج مع المجموعات ذات اللون الفاتح ، وبكلمات أخرى ، فإن عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية عند دراسته للظواهر البيولوجية يضع فى إعتباره الحقيقة التى تقرر أن الثقافة تؤثر وتغير من الجوانب البيولوچية للإنسان .

إن مصطلح الأنثروبولوچيا الفيزيقية هو المفضل لدى العلماء الذين يرغبون فى أن يتصفوا بقربهم من الدراسات الإنسانية والإجتماعية ، وعلى ذلك فالأنثروبولوچيا الفيزيقية تحاول أن تجيب على بعض التساؤلات المتعلقة بطبيعة وجوهر الإنسان مثل : ماهو الإنسان ، وكيف أصبح كذلك ، وكيف إكتسب شكله وسلوكه الحاليين ؟ وللإجابة على مثل تلك التساؤلات فإن علماء الأنثروبولوچيا الفيزيقية يعتمدون على كل من العلوم البيولوجية والعلوم الإجتماعية لإستخلاص الأسس التى يقوم عليها علمهم لتقديم فهم أعمق وأشمل للإنسان .

وبما أن هناك مجالات لاحصر لها يمكن أن يختلف فيها البشر ، فإن الأنثروبولوچيا يجب أن تركز إهتمامها على أنواع معينة من الإختلافات البشرية ، فالأنثروبولوچيا تهتم أساسا بنوعين رئيسيين من الجوانب التى يختلف فيها البشر، الجانب الثقافى والجانب البيولوجى ، وتعتبر الثقافة هى المفهوم الأساسى فى الأنثروبولوچيا فدراسة الإنسان بدون دراسة ثقافته تشبه تماما دراسة الأسماك دون فهم لخواص الماء الذى تعيش فيه ، فالثقافة هى الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، فهى تزوده بالوسائل التى يستطيع بها مواجهة تحديات البيئة والتكيف معها .

وبالنسبة لعالم الأنثرولوچيا الفيزيقية من العملى إستخدام مصطلح الثقافة للإشارة إلى كل ما يوظفه الإنسان فى التكيف لمتطلبات البيئة التى يعيش فيها ، فالإنسان كالحيوانات الأخرى ، يستطيع أن يتكيف بسهولة للمجال المحدد من

الظروف البيئية عن طريق إستخدامه لأشياء لاتزيد عن إمكاناته البيولوجية ، ولكن على خلاف الحيوانات الأخرى هو الوحيد القادر على إستخدام مجال واسع جدا ومتنوع من الأشياء التى تزيد عن إمكاناته البيولوجية المحدودة ، فهو يضع الأدوات، ويشيد المنازل ، ويحيك الملابس ، ويعيش فى تجمعات منظمة إجتماعيا ، ويسن الشرائع والقوانين ، ويعتنق معتقدات خاصة بالحياة بعد الموت ، وهذه كلها وغيرها من الأشياء الأخرى الكثيرة ، ساعدت الكائنات البشرية على أن تتكيف لأنواع كثيرة من الظروف البيئية ، وهى مجموعة الأحداث والأشياء التى نشير إليها ككل بلفظ الثقافة ، وهى التى تشكل الموضوع الأساسى لدراسة الأنثروبولوجيا الثقافية *Cultural Anthropology* ، وتركز الأنثروبولوجيا الثقافية على دراسة الإختلافات الثقافية للبشر ، أما الأنثروبولوجيا الفيزيقية فهى تبحث فى الإختلافات البيولوجية للإنسان ، ويعالج هذا الفصل موضوعا هاما من موضوعات الأنثروبولوجيا الفيزيقية وهو نشأة الخصائص الجسمانية للكائنات البشرية وتطورها والبحث فى العوامل البيئية والثقافية والإجتماعية والوراثية التى لعبت دورا فى نشأة هذه الخصائص وتباينها بين المجموعات البشرية المختلفة ، فكثيرا ما يتساءل الإنسان ، إذا كنا جميعا ننتمى إلى أصل واحد فلماذا إذن كل هذه الفروق الجسمية والوراثية الملحوظة بين الجماعات البشرية ، وما معناها ؟ وقبل أن نستطرد فى الإجابة على هذا السؤال ، نرى أنه من المناسب أولا تقديم صورة عن الإنسان موضوع دراستنا والتعرف على مكانته فى الطبيعة وموقعه بين الكائنات الحية الأخرى .

- التصنيف الطبيعى للإنسان :

تنقسم المملكة الحيوانية التى يدخل تحتها الإنسان علميا إلى مستويات تصنيفية متعددة من المفيد أن نبدأ بذكر الفئات التصنيفية التى ينتمى إليها الإنسان ، لأن ذلك يساعدنا على فهم مكانة الإنسان فى الطبيعة وعلاقته بغيره من الكائنات الحية ، وهناك العديد من الفئات التصنيفية التى يمكن إستخدامها

الوصف الإنسانى وتحديد وضعه بالنسبة لغيره من أشكال الحياة . والمعروف علميا أن المملكة الحيوانية التى يدخل تحتها الإنسان كأحد فروعها تنقسم إلى مستويات تصنيفية متعددة تشمل المملكة وفيها عدة قبائل ، كما تنقسم القبيلة الواحدة منها إلى عدة صفوف ، ويشمل الصف عدة رتب ، والرتبة بدورها تشتمل على أكثر من عائلة ، وهذه تنقسم إلى أكثر من جنس ، والجنس بالتالى يشمل أكثر من نوع ، ويشمل النوع الواحد أكثر من تحت نوع ، وأخيرا يحتوى التحت نوع على أكثر من سلالة . ولكى نفهم ماهو المقصود بالنوع يمكن تقسيم المملكة الحيوانية إلى المستويات التالية التى توضح موقع السلالات البشرية الحالية من الشجرة الحيوانية ، وهناك إتفاق عام بين علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على إستخدام الفئات التصنيفية التسع التالية :

- المملكة : الحيوانية *Kingdom : Animalia*
- القبيلة : الحبليات *Phylum : Chordata*
- الصف : الثدييات *Class : Mammalia*
- الرتبة : الرئيسيات *Order : Primates*
- العائلة : أشباه البشر *Family : Hominidae*
- الجنس : الإنسان *Genus : Homo*
- النوع : العاقل *Species : Sapiens*
- تحت النوع : العاقل العاقل *Subspecies : Sapiens Sapiens*
- السلالة : الأجناس الحالية للإنسان *Race : Currentraces of man*
- (الزنجية ، القوقازية ، المغولية)

(Negroid, Caucasoid, Mongoloid)

والهدف من هذا التصنيف بالطبع هو إيجاد وسيلة علمية مبسطة تمكن الطلاب والدارسين من فهم ومعرفة الكائن الحى الذى يتناولونه بالدراسة على وجه

التحديد ، ومن هنا يتضح الإطار العلمي لمفهوم كل من مصطلح جنس ونوع وسلالة بحيث لايجوز أن نخلط فيما بينها ، وهذا ما سنتناوله بالشرح فيما بعد .

ـ السمات العامة للرئيسيات :

يهتم عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية بدراسة الرئيسيات *Primates* لأنها الرتبة التى ينتمى إليها الإنسان ، ورغم أن الإنسان يعتبر أحد أعضاء المملكة الحيوانية إلا أننا لا نحتاج إلى دراسة جميع الحيوانات حتى نصل إلى فهم عميق ومعرفة حقيقية بالإنسان وإنما نكتفى بدراسة الحيوانات التى تشترك مع الإنسان فى العديد من الصفات وهذه هى الرئيسيات ، والتشابه بين الإنسان والرئيسيات فى العديد من السمات يجعل من الضرورى دراسة الرئيسيات ، وكذلك الإختلافات بينه وبين الرئيسيات تفيد فى معرفة الكثير من الأشياء التى ينفرد بها الإنسان .

وتنقسم الثدييات إلى عدد من الرتب منها الرئيسيات ، وتتميز هذه الرتبة بنوع عام من التركيب المورفولوجى غير المتخصص ، وبالمرونة الفائقة فى الجوانب السلوكية والتركيب التشريحى العام أوغير المتخصص والسلوك المتخصص للرئيسيات ساعدها على إستغلال العديد من البيئات التى صادفتها وذلك على العكس من الحيوانات الأخرى الأكثر تخصصا والتى لم تستطع أن تستغل بيئات كثيرة فى نفس الوقت وذلك بسبب الحدود التى فرضتها تراكيبها التشريحية المتخصصة .

والرئيسيات اليوم تشتمل على حوالى ٢٠٠ نوع من أنواع القردة والنسانيس ، ولكن أغلبها من النسانيس *Monkeys* . والغالبية من أنواع الرئيسيات تعيش على الأشجار وتمسك الفروع بأيديها وأحيانا تستخدم أقدامها فى المسك ، ولكن هناك بعض أنواع الرئيسيات الكبيرة التى تعيش على الأرض وتمضى أغلب أوقاتها عليها ، وتتميز الرئيسيات بقوة الأبصار المتجه إلى الأمام ، وبقصر الوجوه ، وتحتفظ أفراد هذه الرتبة برؤوسها منتصبة وهى تجلس أن تتحرك بأجسامها بطريقة عمودية وليست أفقية ، وتنشط أغلب أنواع الرئيسيات نهارا ،

ولكن هناك بعض الأنواع التى تنشط ليلا ، وتعيش الرئيسيات فى عائلات أو جماعات إجتماعية كبيرة تختلف من حيث الأعمار والأجناس ، وهى حيوانات إنتهازية تأكل ما هو متاح ، وغالبا ما تتغذى على النباتات مثل أوراق الأشجار والسيقان والأزهار والفواكه والبذور ولكن بعض الرئيسيات تعيش على لحوم الحيوانات التى تصطادها ، والأنواع العليا من رتبة الرئيسيات تتميز بالبراعة والإدراك البصرى والذكاء والتنظيم الإجتماعى وكذلك لديها وعى ذاتى بنفسها وبيئتها بشكل ليس له مثيل فى الأنواع الأخرى من المملكة الحيوانية ، وهناك عدد من السمات العامة التى تتميز الرئيسيات عن غيرها من الحيوانات هى :

١ ـ الرئيسيات هى إحدى الثدييات الشجرية التى لها أطراف مرنة قابضة وليس مخالب وفى حالة وجود مخلب أو أكثر يكون على باقى الأصابع أظافر منبسطة .

٢ ـ تتميز الأنواع الشجرية من الرئيسيات بصغر الحجم وخفة الوزن كغيرها من الحيوانات التى تعيش على الأشجار ، أما أنواع الرئيسيات التى تعيش على الأرض كالبابون والغوريللا والإنسان فهى أثقل وزنا من تلك الرئيسيات الشجرية .

٣ ـ متوسط طول العمر فى الرئيسيات أطول منه فى الثدييات الأخرى التى تساويها فى الحجم .

٤ ـ الحيوانات التى تعيش دائما يجب أن تعثر على طعامها على الأشجار أيضا ورغم أن الجهاز الهضمى للرئيسيات قادر على هضم البروتينات (مثل اللحوم) إلا أن فى الحياة الفعلية نادرا ما يتأتى لها ذلك ، وهى غالبا ما تعتمد على غذاء نباتى وتلتقط الرئيسيات غذاءها بأيديها وليس بالفكوك سواء كان الغذاء نباتيا أو غير ذلك ، فهى تعتمد على اليد ذات الأصابع المرنة التى أصبحت تقوم بالعديد من الوظائف التى تقوم بها القواطع والأنياب فى الثدييات الأرضية ، وتركيب أسنان الرئيسيات بسيط نسبيا ، وهناك ميل فى الرئيسيات نحو صغر

حجم الفكوك والأسنان .

٥ ـ تعيش الرئيسيات في الأماكن الأكثر دفئا من العالم والتي تكثر بها أوراق الأشجار والحشرات ، وتقل هذه المواد الغذائية في المناطق الباردة من العالم، كما أن الأصابع تقل مرونتها مع شدة البرودة وتقل كفاءتها تبعا لذلك .

٦ ـ أكتاف الرئيسيات عريضة وتوجد بها ترقوة ، قوية تعمل كسنادة تبعد الطرفين الأماميين عن بعضهما ، كما تعطي حرية أكبر في حركة الذراع وخاصة الحركات الجانبية التي تفيد كثيرا في الحياة الشجرية .

٧ ـ تحتاج الرئيسيات إلى الوصول إلى فروع الأشجار حتى تقبض عليها وهي تستطيع أن تقوم بذلك فهي إما منتصبة القامة أو نصف منتصبة وبعضها يسير علي قدمين ، وبعض الحيوانات الأخرى يمكنها المشي على ساقين ولو لفترة محدودة ، ولكن أغلب الرئيسيات يمكنها مد الأرجل بدرجة لا تتوفر في الحيوانات الأخرى وذلك بسبب الفائدة التي تعود عليها من الوضع الرأسي .

٨ ـ تقتضي الحياة الشجرية قوة الأبصار لعدة أسباب من أهمها دقة تحديد المسافة بين فروع الأشجار وإتجاهها للإنتقال بينها وبذلك إتجهت الرئيسيات نحو تعقد جهازها البصري بينما تشجع الحياة الأرضية حاسة الشم ، أن تنقل كثيرا من المعلومات التي تمكن الحيوان من إقتفاء أثر الفريسة أو إكتشاف إقتراب الأعداء بينما يزيد الإعتماد على العينين في الحياة الشجرية ، وقد أصبح بصر الرئيسيات في أثناء فترة تطورها الطويلة حادا للغاية وذلك على حساب حاسة الشم عندها ، وففي حين تقلصت خياشيمها من حيث الحجم فإن عيونها تحركت إلى الأمام في رؤوسها ، وبمعنى أخر تطورت لها وجوه ، ويبدو أن الوجوه مثل الأيدي جاءت كتكيف لطريقة الحياة الشجرية ، ولما كانت عيون معظم الرئيسيات لايفصل بينهما أنف طويل فإن وضعهما في الجزء الأمامي من الرأس قد أعطى الرئيسيات ميزة الرؤية المجسمة أو ثلاثية الأبعاد ، أما الحيوانات الأرضية فإنها ترى عالمها مسطحا بعكس الرئيسيات التي ترى العالم في العمق .

٩ ـ تستخدم الرئيسيات حاسة اللمس عن طريق أطراف الأصابع الغير مغطاه بشعر أو مخالب وتوجد على راحتها مخدات حساسة تسمح بعمليات دقيقة وتتحسن قدرة الأيدى والأقدام فى معظم الرئيسيات بتحويل المخالب التى تميز الرئيسيات الدنيا إلى أظافر مسطحة .

١٠ ـ تتعرف بعض الحيوانات على الأشياء بأنوفها ، ولكن الرئيسيات تستخدم حاسة البصر أكثر فتدقق النظر ثم تتحسس الأشياء لزيادة لاتعرف عليها فلديها حاسة اللمس ، وربما تلتقط الشئ لتراه بدقة أكثر ، ويساعد على هذا السلوك صغر حجم الخيشوم ، كما أن الرئيسيات تأكل بيدها ، وتقوم مناطق الإحساس بالمخ بالربط والتنسيق بين وظائف الحواس المختلفة ، وبذلك تعتمد الرئيسيات على العين واليد أكثر من أى وسيلة أخرى .

١١ ـ كانت الرئيسيات الأولى صغيرة الحجم وضعيفة ولم يكن لها أى أدوات دفاعية أو هجومية مثل القرون والمخالب والأنياب التى كانت للحيوانات الأرضية ، ولكى تحافظ على نفسها وحياتها كان عليها أن تعتمد على سرعة بديهتها وبصرها الحاد ، ومما لا شك فيه أن الحاجة إلى القدرات والمكر كان أحد الأسباب التى أدت إلى الإتجاه إلى أكبر حجم المخ وتعقد تكوينه فى وقت مبكر جدا من التاريخ التطورى للرئيسيات ، كما أن تطور العيون أدى إلى تطور الجزء من المخ الذى يسيطر على حاسة البصر .

١٢ ـ يوجد فى الرئيسيات ثديين فى وضع قريب من بعضهما فى الأمام .

١٣ ـ تضع الرئيسيات مولودا واحدا .

وهذه السمات التى تميز الرئيسيات لا تتحقق بدرجة واحدة بالنسبة لجميع الرئيسيات حتى من الرئيسيات التى تعيش حاليا ، ولذلك كان من الصعب تعريف الرئيسيات بوجود خاصة واحدة مميزة لها ، ويصبح التعريف أكثر صعوبة إذا أخذنا فى الإعتبار الرئيسيات المنقرضة أيضا .

ولكن بشكل عام ، يمكنه تعريف الرئيسيات بأنها رتبة من الثدييات تتميز عن غيرها من الرتب بالميول الآتية :

الأطراف ـ الأصابع ـ الأظافر بدلا من المخالب ـ قوة الأبصار على حساب قوة الشم والجهاز الشمي ـ قصر الخيشوم ـ بساطة الأسنان ـ كبر حجم المخ وتعقده .

ـ الخصائص المميزة للإنسان :

على الرغم من اشتراك الإنسان مع الرئيسيات فى العديد من السمات العامة ، إلا أنه يتميز ببعض الخواص التى لاتوجد فى أى نوع آخر من الرئيسيات والثدييات ، فالإنسان هو الحيوان الثديي الوحيد الذى كيف جسمه للوضع التام الإنتصاب وأن يسير على قدمين ، ومن أهم الحقائق أن يقف منتصبا عادة بدون جهد متعمد ، وبذلك إنفرد بنفسه على الثدييات الأخرى . ويبدو أن هذا التمييز قد حدث أولا ثم نشأت بعد ذلك المميزات الأخرى ، ولكن الإنسان ليس الوحيد الذى يسير على ساقين ، فالطيور والكانجارو والدببة تشترك معه فى هذه الخاصية ، ولكنه الوحيد الذى يمد الساقين مستقيمين ويقف رأسيا بسهولة بحيث تكون الرأس فوق القدمين ، ويخطو والجذع منتصبا ، وقد تغير الجسم كله حتى يكون المشى بهذا الشكل وحتى يمكن أن يحتفظ بتوازنه .

ويمكن تلخيص خصائص الإنسان فى ثلاثة مجموعات من الصفات :

أ ـ وقفة الإنسان *Human Posture*

ب ـ مخ الإنسان *Human Brain*

جـ ـ صفات إنسانية غير مرتبطة بوقفة الإنسان .

وسوف نتناول هذه المجموعات من الصفات بالشرح .

أ ـ وقفة الإنسان :

١ ـ قدم الإنسان هى أكثر جزء متخصص فى تشريح الجسم من ناحية

الشكل ، فعليها أن تحمل وزن الجسم كله ، فأثناء تطورها كعضو قابض كان عليها أن تفقد حركتها مقابل زيادة ثباتها ، فقوس القدم أصبح يمتص الصدمة مع كل خطوة والأصبع الكبير فقد حركته فى إتجاه راحة القدم وأصبح وضعه فى نفس خط الأصابع الأخرى ، وقد قصرت الأصابع الأخرى التى أصبحت قليلة النفع فى القبض ، وتشبه قدم الغوريللا البالغة إلى حد ما قدم الإنسان ، ولكن هذا التشابه يظهر فى الغوريللا أثناء حياتها بينما يتميز المولود البشرى بهذا النمط منذ ميلاده .

٢ ـ إنخفاض مركز الجاذبية بحيث يوجد فى الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وهذا هام جدا لكائن يقف على قدميه الخلفيتين .

٣ ـ يبلغ طول الساقين حوالى نصف الطول الكلى للإنسان البالغ بينما يبلغ هذا الطول حوالى الثلث فقط فى القردة العليا البالغة والمولود البشرى ، وتزداد أرجل الإنسان فى الطول والمحيط أثناء الطفولة بمعدل أسرع من الزيادة فى الجذع .

٤ ـ أسطح الإحتكاك ومناطق إتصال العضلات بعظام الساق تسمح بالإستقامة الكاملة عند الركبة دون صعوبة .

٥ ـ عظمتى الفخذ منخرفتان قليلا وليستا متوازيتين حتى تقترب الركبتان من بعضهما عند الوقوف .

٦ ـ منطقة الحوض تغير شكلها الآن عن شكلها فى الأسلاف ، إذ قل عمق الحوض وضاق مخرجه ، والقاعدة أن حوض الإناث فى الإنسان أوسع منه فى الذكور ، ولما كان المخ الكبير ضرورى للإنسان فقد أصبح من الضرورى أن يولد الأطفال برؤوس تمر بصعوبة من مخرج الحوض .

٧ ـ يكون العمود الفقرى فى الحيوانات ذات الأربع قوسا واحدا بينما يوجد منحنيين فى العمود الفقرى للإنسان يتجه احدهما إلى أعلى فى إتجاه

البطن أما الأسفل فاتجاهه معاكس له ويساعد هذا فى حفظ التوازن .

٨ ـ قصر السواعد مع الإحتفاظ بطول الذراع الأعلى (العضد) فى الإنسان ، وهذا ساعده على رفع الأشياء .

٩ ـ شُدت الأكتاف إلى الخلف بعضلات وتفلطح القفص الصدرى .

١٠ ـ تغيرت اليد فقصرت وعرضت نسبيا كى يمكن ضغط الأبهام فى الإتجاه المعاكس كما فى باقى الرئيسيات ولكنه يتميز فى الإنسان بطوله ومرونته ، وقد مكن ذلك الإنسان من القبض على الأشياء جيدا وبدقة ، وعلى الرغم من بساطة هذا التغير التشريحى فى الإبهام إلا أنه يعتبر عظيم فى الوظيفة ، فنتيجة المشى على ساقين تفرغت الأيدى لمعالجة الأشياء وأعطى ذلك فرصة لحسن الأداء.

١١ ـ توازن الرأس فى الوضع المناسب أعلى العمود الفقرى وأصبح الثقب الكبير فى قاعدة الجمجمة ، ولما كان التوازن جيدا أصبحت عضلات الرقبة صغيرة.

١٢ ـ مع كبر حجم المخ إنحسر الفكين وصغر حجم الأسنان والفكين ولم يصبح الفك الأسفل فى حاجة لأن يتسع للأسنان الكبيرة ، ولو كانت الفكوك ضخمة وبارزة لما أمكن حفظ التوازن ، وتولد صغار القردة العليا ببروز قليل فى الوجه وعضلات صغيرة فى الرقبة ويتوقف نمو المخ وتلتحم عظام الجمجمة ، ويحدث العكس فى الإنسان فتبقى عضلات الرقبة ضعيفة ويستمر المخ فى النمو أثناء الطفولة ولذلك لا تلتئم عظام الجمجمة التئاما كاملا .

ب ـ مخ الإنسان :

١ ـ يفخر الإنسان بمخه رغم أنه ليس الأكبر حجما فى الحيوانات ولا يمثل أعلى نسبة مئوية من وزن الحيوانات ، ولكن لايوجد حيوان كبير مثله وله مخ فى حجم مخ الإنسان ، ويمثل المخ ٢٪ من وزن الجسم ، ويتراوح حجم مخ الإنسان بين ٩٠٠ ـ ٢,٢٠٠ سم٣ وهو فى المتوسط يبلغ ١٤٥٠ سم٣ .

٢ ـ يمثل الفص الأمامى أقل قليلا من نصف حجم المخ فى الإنسان بينما تقل هذه النسبة فى القردة العليا .

٣ ـ زيادة التعاريج وعمقها على سطح المخ ، والمخ بصرى بشكل واضح وكذلك مناطق الربط بين الأنشطة أصبحت متسعة ، وقد زادت الأجزاء الخاصة بالإبصار فى المخ على حساب نقص الأجزاء الخاصة بالشم .

٤ ـ زيادة النشاط يتطلب زيادة فى التغذية والأوكسجين ، وقد بلغ وزن الدم الذى يضخ إلى المخ كل دقيقة مثل وزن المخ نفسه ، وتتمتع قشرة المخ بكمية كبيرة من التغذية فهى التى يتم فيها التنسيق النهائى للنشاط العصبى ، وتزيد التعرجات من مساحة قشرة المخ بنسبة ٥٠٪ تقريبا عنها لو كان السطح أملس .

٥ ـ ينقسم كل من نصفى المخ إلى أربعة فصوص ، وتتماثل وظائف نصفى المخ إلى حد كبير ولكن يقع الجزء الأكبر من قشرة المخ المختص بالكلام فى الإنسان فى نصف المخ الشمالى .

٦ ـ كبر حجم الفص الأمامى بشكل ملحوظ فى الإنسان ، ويعتقد أن هذا الجزء من المخ هو المسئول عن وظيفة الإنتباه لشئ ما ، وتجنب المؤثرات التى يمكن أن تشتت الفكر وبذلك يكون السلوك الإنسانى .

٧ ـ يختلف مخ الإنسان عن غيره تشريحيا ولكنه مرتبط بنمط السلوك النابع من نشاط ومن أهم أوجه نشاط الكلام المقصود ، وهذه خاصية إنسانية ينتج عنها تفاعلا إجتماعيا بدرجة كبيرة.

٨ ـ يحدث صوت فى الكلام بالتعاون بين الأحبال الصوتية والحنجرة واللسان ، وقد سهلت بعض التغيرات فى الفم الكلام المنطوق ولكنها لم تحدثه ، ومنها زيادة عرض الفك السفلى وبروز الذقن مما أعطى حرية للسان .

٩ ـ الأذن فى الإنسان حساسة لموجات تختلف فى سرعتها فى مدى واسع وهى ليست فريدة فى التركيب ولكن فى التمييز السمعى بحيث يمكن التفرقة بين

الكلام ويرجع ذلك إلى قشرة المخ .

جـ - صفات إنسانية غير مرتبطة بوقفة الإنسان :

١ - صغر حجم الأنياب ، وهذا يرتبط باستخدام الأيدى وإنحسار الفك ، فلا يحتاج الإنسان لإستعمال الأنياب فى التهديد مثل غيره من الحيوانات ، وتظهر الأنياب الدائمة فى القردة قرب نهاية فترة البلوغ تقريبا ، إذ لو ظهرت فى الصغار ربما أصبحوا عدوانيين وهذا ضار بهم بالطبع ، والأنياب فى الإنسان تظهر مع بداية فترة البلوغ أى حوالى سن ١٢ سنة ، فهى لاتخيف الإنسان البالغ .

٢ - ظهور جزء غشائى من الشفاه ، وقد يكون هذا نتيجة ثانوية لإختزال بروز الوجه ، وعلى كل حال هذه صفة ينفرد بها الإنسان ، ويختلف سمك الشفاه فى الأجناس البشرية وفى الجنس الواحد ، ولكنها تختلف فيها جميعا عنها فى الشمبانزى مثلا .

٣ - بروز عظام الأنف ، وهذا نتيجة لإنحسار عظام الفك والأجزاء الملاصقة من الوجه .

٤ - صغر حجم الفك والأسنان التى لم تعد هناك حاجة لها مع زيادة إستخدام الأدوات .

٥ - توزيع الشعر على جسم الإنسان وعدم وجود غطاء من الفرو أو الشعر مع وجود الغدد العرقية فى الجلد مما يسهل من عملية العرق والتخلص من الحرارة الزائدة وهذا نوع من التكيف لحرارة الصيف .

٦ - لاتوجد فى الإنسان شعيرات حساسة ، ولا يخدم الشعر فى حفظ الحرارة ولايمنع خدش الجلد ، ولكن توزيع الشعر فى الجسم يساعد فى التفرقة بين الجنسين فى الإنسان ، كما يؤدى إختلاف شكل الجسم نفس الغرض ، وتصبح الفروق الجنسية فى الإنسان واضحة .

٧ - الميول الجنسية فى الإنسان دائمة وليست موسمية أو عابرة ، وتكون

الرغبة الجنسية لدى أنثى القردة العليا وقت الشبق فقط ، أما فى الإنسان فتكون فى أى وقت ،

٨ ـ البلوغ البطئ ، وليست هناك علامات ظاهرة تدل على إباضة الأنثى ، وليس هناك دورة نزوية أو جنسية واضحة كالحيوان .

٩ ـ المعيشة عادة فى بيئات غير غابية أو أستوائية .

١٠ ـ يتغذى الإنسان على أى شيء ، فهو يتناول الغذاء الناتج من عمليات الصيد والقنص أو الجمع والإلتقاط وكذلك المنقول والمخزون والمعد سلفا والمشترك ، أى الذى يشترك فى تناوله مجموعة من الأفراد ، ويبحث الإنسان عن طعامه بواسطة الطواف حول مكان مركزى يبدأ بالتحرك من مكان السكن ثم العودة إليه مرة أخرى بعد إنتهاء الدورة اليومية وبذلك تصبح أماكن السكن مراكز للأنشطة الأخرى ، والقدرة على عمل ذلك ترجع إلى درجة السيطرة على البيئة المحيطة والتى نشأت من القدرة على التحكم فى النار .

١١ ـ يتميز الإنسان بأنه يمتلك سلوك ثقافى معقد ، وهذا السلوك يتميز بأنه متعلم ومكتسب ويرتكز على الرموز ، وخاصة اللغة ، واللغة خاصية إنسانية مميزة سمحت لبنوا الإنسان بأن يرتفعوا فوق القيود التى تفرضها عليهم بيئتهم وتمنعهم بها من الإنطلاق إلى ما بعدها ، وفقد ساعدت اللغة على تطوير الثقافة تطويرا سريعا بحيث تمكن البشر فى مدى عقود فقط من غزو القمر . وذلك لأن التطور الثقافى يتم من خلال نقل المعلومات من جيل لآخر ، وبهذا تعمل اللغة على نمو المعلومات وتكاثرها باستمرار وبذا يستطيع كل جيل إنسانى أن يبدأ من حيث إنتهى الجيل السابق بدلا من أن يبدأ من الصفر .

١٢ ـ يملك الإنسان تنظيم إجتماعى معقد يقوم على الزواج وشبكات القرابة ونماذج أخرى فريدة خاصة برعاية الطفل (ويشترك فيها الوالدين) والسلوك الجنسى ، وتتسم فترة رعاية الأطفال بطول المدة .

١٢ ـ صناعة الأدوات والمهارة التكنولوجية والإعتماد على المعدات والأدوات في الحياة تعتبر من السمات الهامة المميزة للإنسان .

ـ مفهوم الجنس والنوع والسلالة :

النوع الإنساني الحالي وهو ما يطلق عليه اسم الإنسان العاقل *Homosapiens* يمثل نوعا بيولوجيا واحدا ، بمعنى أنه يمثل مجتمعا مغلقا من حيث التكاثر ، وهذا يعني أنه لايتكاثر إذا تزاوج خارج نوعه ، لأن النوع البشري يمثل وحدة بيولوجية مندلية سكانية شاملة ، وإذا ما تتبعنا الدرجات التصنيفية الخاصة بالإنسان مبتدئين من نهاية التصنيف ، أي من الصورة الحالية للإنسان الذي نحن معشر الأدميين الحاليين منها ، وهو المتعارف على تسميته بالإنسان العاقل ، فإننا نجد أنه ينقسم إلى أنماط متباينة في بعض السمات الأنثروبولوجية، هذا التباين هو الذي دعى الباحثين إلى تقسيم المجموعة البشرية الحالية إلى المجموعات المعروفة بالقوقازية والمغولية والزنجية ، أو أي مجموعات تصنيفية أخرى ، المهم أن هذه المجموعات هي التي يمكن أن يطلق عليها لفظ سلالة ، ولفظ جنس *Genus* يقصد به الفئة التصنيفية التي تشتمل على أكثر من نوع ، فالجنس البشري الذي نستخدم لفظ هومو *Homo* لوصفه هو تعبير يطلق على الجنس البشري الذي يشمل أكثر من نوع إنقرض ولم يتبق منه إلا النوع الذي نحن فيه ، أما لفظ النوع *Species* فهو الفئة التصنيفية الأقل من الجنس والتي تمثل مجتمعا مغلقا من حيث التكاثر ووحدة بيولوجية شاملة ، فلفظ سابينز *Sapiens* يطلق على النوع البشري كله الذي يشتمل على جميع السلالات الحالية، أما مفهوم التدرج السلالي فهو يمثل الإنحدار من نوع واحد وبالتالي من جنس واحد ، وبذلك يتضح الإطار العلمي لمفهوم كل من مصطلح جنس *Genus* ونوع *Species* وسلالة *Race* بحيث لايجوز أن نخلط فيما بينهما .

وعلى ذلك فإن كل الناس الحاليين على الأرض ينتمون إلى جنس *Genus* واحد هو *Homo* وإلى نوع *Species* واحد أيضا هو *Homo Sapiens* ،

ولكن نظرا لاضطرار الإنسان إلى المعيشة في بيئات جغرافية متعددة ، وجدت بعض الفروق في السمات الظاهرية المختلفة مما أدى إلى تعدد الإختلافات المورفولوجية الجسمية بين الشعوب المختلفة ، فظهرت لذلك كثير من السلالات المتباينة .

هذا وإن كانت السلالة مفتوحة وراثيا ، فإن النوع مقفول وراثيا ، بمعنى أنه إن كان يمكن للأفراد من السلالات المختلفة أن يتزوجوا بعضهم مع بعض ، فإن الأفراد المنتمين إلى أنواع متباينة يصعب عليهم التزاوج (والإنجاب) وذلك لأنه لايمكن أن تتوافق جينات نوع ما مع جينات نوع آخر لأن لكل نوع عدد وترتيب خاص من الكروموسومات ، ويعرف علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية السلالة *Race* بأنها مجموعة من الأفراد تنحدر من أصل واحد تتزاوج فيما بينها ولها سمات جسمية وراثية مشتركة وتختلف في تركيبها الجيني عن غيرها من المجموعات من نفس النوع ، أما النوع *Species* فيعرف بأنه مجموعة من الكائنات البشرية قادرة على التزاوج فيما بينها ولكن ليس بين أي من أفرادها وأفراد من نوع آخر ، وتختلف السلالات البشرية بعضها عن البعض الآخر في النمط الخارجي كلون البشرة والعيون وشكل الشعر والقامة واللغة ، كما تختلف في النمط الداخلي كفصائل الدم والأمراض الوراثية ومورفولوجية الأسنان .

- العوامل التي تؤدي إلي ظهور الصفات السلالية :

لقد جذبت ظاهرة الإختلافات الجسمانية بين المجموعات البشرية المختلفة إهتمام الباحثين والعلماء منذ فترات طويلة من الزمن ، وذلك من أجل كشف أسباب هذا التباين البشري وآثاره ، وكثيرا ما تساءل الأنسان ، إذا كنا جميعا ننتمي إلى أصل واحد فلماذا إذن كل هذه الفروق الملحوظة بين الجماعات البشرية ، وما معناها ؟

لماذا يتمتع سكان افريقيا وجنوب الهند وجزر ماليزيا على سبيل المثال بلون البشرة السوداء ، وسكان آسيا بشعر الرأس المستقيم الخشن ، ولماذا تتميز قبائل الباباجو *Papago* بالسمنة وقبائل النافاهو *Navajo* بالطول والضمور مع أن

الجماعتين من قبائل الهنود الحمر التى تعيش فى نفس المكان بجنوب غرب الولايات المتحدة ، ولماذا تتميز جماعة الباسك *Basque* بتوزيع غريب فى فصيلة دم *Rh* ، وماهو سبب القزامة بين قبائل حوض الكونغو البلجيكى فى إفريقيا وطول القامة لدى الماساى والنوير والدانوس الذين هم أيضا إفريقيين ، ولماذا يتسم الأسكيمو بالقصر والإكتناز ، ثم هناك أسئلة أخرى تتصل بعلم الوراثة ، مثلا لماذا يقتصر توزيع بعض الأمراض الوراثية على بعض الشعوب دون غيرها ، وماهو تفسير وجوب الخلية المنجلية فى افريقيا وأنيميا البحث المتوسط فى جنوب أوروبا ومرض الكورو فى غينيا ؟

ويرجع العلماء ظهور الصفات السلالية والإختلافات الفيزيقية إلى خمسة عوامل ، وهذه العوامل تحدث أو تسبب تغيرات فى التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية :

١ ـ الطفرات : *Mutations*

الطفرة هى تغير فجائى فى التركيب الكيميائى للعوامل الوراثية ، وهى عملية عشوائية تحدث بدون أى إرتباط بالبيئة ، وهى المصدر الوحيد للجينات الجديدة ، والطفرة تعتبر أساس التغير وتحدث فى كل مجموعة ، ويعتقد أن طفرة واحدة على الأقل تحدث فى فترة حياة الإنسان وتحدث الطفرة فى الخلايا الجسمية للفرد أو فى الخلايا التناسلية ، والأخيرة هى التى تنتقل إلى الأجيال التالية ، وكثيرا ما تكون الطفرة قاتلة فلا تنتقل ، وقد تكون ضارة فقط ، ونظرا لأن أغلب الطفرات متنحية فإنها قد تظهر فى الأجيال التالية ، وقليل من الطفرات صالح للكائن الحى ، وتتكاثر الطفرات بنفس شكلها إلى أن يحدث فيها طفرة أخرى، وأى تغير فى تركيب الجين يسمى طفرة ، وتؤدى الطفرات إلى تغيير التركيب الفيزيقى للجينات أى تغيير شكلها ، وتوجد عوامل عديدة تسبب الطفرات، منها التعرض للإشعاع وبعض المواد الكيميائية التى تؤثر على معدل حدوث الطفرات وكذلك الأخطاء التى تحدث أثناء عملية نسخ الـ *DNA* .

وبالرغم من أن غالبية الطفرات ضارة ، فإن هذه الطفرات يمكن أن تؤدى إلى تحسينات وتكيفات للكائن الحى ، ومن المعروف أن التركيب الجينى لكل نوع مصمم ليلائم البيئة التى يعيش فيها هذا الكائن النوع ، على أن البيئة تتغير ، فمناخ أمريكا الشمالية أو أوروبا يختلف الآن عما كان عليه فى العصر الجليدى ، والبيئات التى يعيش فيها الإنسان الآن ليست كما كانت منذ ألف عام ، بل منذ جيل واحد فقط ، وليس من الضرورى فى الواقع أن تكون الجينة ، بصفة مطلقة ، جيدة أو رديئة ، نافعة أو ضارة ، متكيفة أو غير متكيفة ، فإذا تغيرت البيئة ، فإن بعض الجينات التى كانت ملائمة فى البيئات القديمة قد تصبح غير ملائمة ، وبعضها الآخر قد يصبح ملائما ، والطفرات هى المصدر الوحيد للإختلافات الوراثية الجديدة ، وفى نشأة وتثبيت خصائص وراثية جديدة قد تستمر فى البقاء وتزداد وتنتشر إذا كانت ذات فائدة للإنسان ، أو تتلاشى فى حالة عدم مقدرتها على التكيف ، والطفرة تقدم للإنتخاب الطبيعى مادته الأساسية فى خلق الخصائص المتعدد الأشكال *Polymorphism* .

٢ ـ الإنتخاب الطبيعى : *Natural Selection*

يقوم الإنتخاب الطبيعى بعمل التغيرات التطورية من المواد الخام التى تزوده بها الطفرة ، والإنتخاب الطبيعى ، كما نراه فى الوقت الحاضر ، يحدث عندما يسهم حاملو بعض الأنماط الجينية فى الأجيال التالية بذرية أكثر من الذرية التى يسهم بها حاملوا أنماط جينية أخرى ، ففى المزرعة البكتيرية المعرضة للبنيسيللين، تتكاثر الطفرات المقاومة للبينسيللين بينما تباد البكتيريا غير المقاومة ، أما فى المزرعة الخالية من البينسيللين فإن البكتيريا غير المقاومة تتكاثر بدرجة أكبر من البكتيريا المقاومة .

لقد شبه الإنتخاب الطبيعى بشخص يبنى منزلا ، ولكن هذا التشبيه ينبغى ألا يؤخذ بمعناه الحرفى ، فالإنتخاب الطبيعى اسم يطلق على عملية لا شخصية تقوم بها الطبيعة ومن ثم فهو ليس فاعلا واعيا على أى نحو من الأنحاء ، أنه ليس

كالمهندس الذى يقوم بالعمل وفقا لخطة مرسومة ، بل إن كل مايفعله هو أنه يساعد على إستمرار الجينات الملائمة للبيئة الموجودة ، من جيل إلى جيل ، ويبطئ إنتقال الجينات الأقل ملاءمة ، إنه فى الواقع أداه تخدم البيئة ، أعنى أنه وسيلة تؤثر بها ظروف الحياة تأثيرا موجها فى تغيير الكائنات العضوية ، لقد قال " هربرت سبنسر " و" داروين " محتذيا حذوه ، أن الإنتخاب الطبيعى يؤدى إلى " بقاء الأصلح " ، والأصلح ، بل الصالح فقط ، ليس " كالسوبرمان " على الإطلاق ، بل هو فقط حامل الجبلة الوراثية التى تخلف أكبر عدد من الذرية الإحياء .

وإذا ظلت البيئة التى تعيش فيها جماعة من الأحياء ثابتة بدرجة معقولة لفترات طويلة ، فإن أغلب الطفرات النافعة تتوطد بوصفها المعيار التكيفى السوى، بينما تكون أغلب أو كل الطفرات التى تظهر ضارة . أما إذا تغيرت البيئة ، فإن بعض الطفرات قد تصبح نافعة ، وتدون بواسطة الإنتخاب الطبيعى ، وقد تحل فى نهاية الأمر محل الطفرات بشكلها الذى كانت عليه فى الأسلاف ، والانتخاب الطبيعى فى البيئة الثابتة ، يكون بصفة عامة قوة محافظة تشايع الإستقرار وتقاوم الطفرات ، أن التغيرات البيئية بشكل تحديا للنوع ، قد يستجيب لها هذا النوع بتغيير نمطه الجينى ليلائم البيئة الجديدة ، وذلك عن طريق الإنتخاب الطبيعى وبشرط أن تتوافر لديه المواد الوراثية الخام ومن وجهة نظر الإنتخاب الطبيعى يعتبر المقياس الوحيد للصلاحية داخل النوع هو عدد الذرية الناتجة ، والتى بدورها ستسهم فى إنتاج الأجيال التالية ، وهذا المنظور يمكن فهمه مباشرة على مستوى المجموعة السكانية .

٣ ـ الإنحراف الوراثى : *Genetic Drift*

يظهر أثر الإنحراف الوراثى فى المجموعات الصغيرة التى تنشق من مجموعة واحدة كبيرة فتزيد نسبة وجود جين معين فى مجموعة صغيرة عنه فى الأخرى ، وتنتقل هذه إلى الأجيال التالية ، ولكى يحدث إنحراف وراثى لابد من حدوث الهجرة ثم العزلة ، وعلى سبيل المثال مجموعة متجانسة تنقسم إلى عدد من

المجموعات الصغيرة المنعزلة عن بعضها ، وتتكاثر كل مجموعة فيما بينها ، وقد يحدث أن ينقص فى أحد المجموعات الصغيرة أو لا يوجد جين معين من الجينات الموجودة فى المجموعة المتجانسة الأصلية أو العكس وتزيد نسبة جين نادر ، وبذلك وبالصدفة المحضة قد يحدث أن تزيد نسبة جين معين فى مجموعة ناتجة بينما يوجد جين آخر أو فى مجموعة جينات أخرى بنسبة ضئيلة جدا ، وإذا لم تحدث طفرة لتعيد الجين الذى إختفى فى عملية الإنحراف الوراثى فلن يوجد هذا الجين فى المجموعة الناتجة .

ولكى نفهم المقصود من ذلك ، نفترض أن شعبا ما يسود بين ١٥٪ من أفراد نوع معين من الجينات ، ولنفترض أن ١٠٪ من هذا الشعب هاجروا وإستوطنوا مكانا آخر ، وبمحض الصدفة قد لايوجد بين هؤلاء المهاجرين شخص واحد به ذلك النوع من الجينات ، فنتيجة لذلك ينشأ الشعب الثانى مختلفا تماما عن الشعب الأول مع أنه مشتقا منه ، ومع مرور الأجيال ستزداد الفروق بين الشعبين لأن نسبة الـ ١٥٪ فى الشعب الأول ستنتشر حسب قوانين مندل للوراثة على حين أن الشعب الثانى سيظل خاليا منها ، وسبب عدم وجود مجموعة الدم B فى الهنود الأمريكيين هو أن هؤلاء الناس هاجروا فى مجموعات صغيرة من آسيا ، وحدث بالصدفة أنه لم يكن بينهم إناس يحملون الجين الخاص بمجموعة ألدم B .

ويثبت الإنحراف الوراثى بعض الخواص المتعادلة التى ليس لها علاقة بالتكيف ، وقد تكون بعض الخواص الغير مرغوبة نسبيا والتى لابد وأن تؤخذ فى الإعتبار كعامل من عوامل التغير . ويعرف الإنحراف الوراثى بأنه فقد جينات بالصدفة أو تثبيتها بالصدفة أيضا ، ويتحكم حجم المجموعة السكانية فى المعدل الذى يتم به عملية الإنحراف الوراثى ، فكلما إزداد حجم المجموعة السكانية كلما قلت سرعته ، وكلما قل أو صغر حجم المجموعة كلما زادت سرعة الإنحراف الوراثى .

ويعتبر الإنحراف الوراثى من العوامل المفيدة لحل العديد من المشكلات فى

الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، فعندما تكون هناك مجموعتان سكانيتان أو أكثر ، متشابهتان على سبيل المثال فى الترددات الجينية على الرغم من بعد المسافة التى تفصل بينهما ، فإن هذا التشابه يفسر على أنه ناتج عن الإنحراف الوراثى ، أو بكلمات أخرى وليدة الصدفة ، ويعتبر الهنود الأمريكيين والبولينيزيين مثالا على تلك الحالة ، فهاتان الجماعتان يعتقد أنهما سلكتا طرقا تاريخية مختلفة تماما ، ولكن لهما أصولا بعيدة مشتركة وهى أصول آسيوية قديمة ، وبالنظر إلى الأصول سنجد أن البولينيزيين أكثر إرتباطا من حيث الأسلاف المشتركة بالميكرونيزيين من الهنود الأمريكيين ولكن من حيث تردد فصيلة الدم *B* نجد أن البولينيزيين والهنود الأمريكيين أكثر تشابها من تشابه البولينيزيين والميكرونيزيين ففصيلة الدم *B* تعتبر نادرة بين البولينيزيين والهنود الحمر ، ولكنها أكثر شيوعا بين الميكرونيزيين ، وهذا التماثل بين البولينزيين والهنود الحمر فى تردد فصيلة الدم *B* عادة يرفض تفسيره على أساس الصلات القريبة والأصول المشتركة بينهم ، ولكنه يفسر على أنه نتاج الصدفة ، أى الإنحراف الوراثى ، وعلى العكس من ذلك يمكن إستخدام الإنحراف الوراثى لتفسير الإختلافات التى توجد بين المجموعات السكانية ذات الأصول المشتركة .

فالاختلافات بين البولينيزيين والميكرونيزيين يمكن عزوها إلى الإنحراف الوراثى ، وحيث أن الإنحراف الوراثى يؤثر فى المجموعات السكانية صغيرة الحجم فقط ، فإنه يجب أن يكون قد لعب دورا فى المراحل المبكرة من تاريخ البشرية لابد وأن يكون البشر قد عاشوا فى جماعات صغيرة منعزلة ، وهذه المراحل تمثل ٩٥٪ من ماضى البشر ، وفى ظل ظروف كتلك تعاظم دور تغيرات الصدفة التى أثرت فى التركيب الوراثى للأجيال ، ومع دخول الإنسان عصر الزراعة ، وبالذات الزراعة القائمة على الرى ، إزداد حجم وكثافة المجموعات السكانية وبالتالى قل تأثير الصدفة أو الإنحراف الوراثى .

٤ ـ التدفق الجيني *Gene flow* والهجرة *Migration* :

يؤدى التـــدفق الجـــينى الذى يطلق عليـــه أحـــيـــانا إسم التـــهـــجين *Hybridization* إلى إنتاج خصائص وراثية جديدة ، والتركيب السكانى يمكن أن يتغير نتيجة الهجرة مثلا .

وتأثير الهجرة كميكانيزم تطورى هو تأثير واضح ، فإذا إستقبلت مجموعة سكانية ذات تركيب وراثى مميز جماعة من المهاجرين لهم ترددات جينية وأنماط وراثية مختلفة ، وحدث أن تزاوج هؤلاء المهاجرين مع المجموعة السكانية ، فإن ناتج هذا التزاوج من الذرية سيكون له تركيب وراثى مختلف عن تراكيب المجموعات السكانية للآباء ، ويعتمد التأثير الوراثى للهجرة على حجم المجموعات السكانية الأصلية والمهاجرة ، وتراكيبهم الوراثية ، ومعدل التزاوج بينهم .

وفى بعض الحالات يمكن أن تكون المجموعة السكانية متحالفة داخليا ومتباينة إلى درجة كبيرة ، وهذا يعنى أن المجموعة السكانية يمكن أن تتكون من وحدات أصغر تتزاوج فيما بينها بالاضافة إلى إمكانية تزاوج هذه الوحدات الصغرى خارجيا ، وبالتالى فإنها يمكن أن ترتبط معا ، ويختلف معدل التزاوج الخارجي من وحدة لأخرى ، وفى ضوء هذه الظروف لايتطلب الأمر حدوث هجرة حقيقية لحدوث التغيير الوراثى ، ولهذا السبب يطلق على هذه الظاهرة اسم التدفق الجينى *Gene Flow* بدلا من الهجرة، والتدفق الوراثى مسئول عن مصدر التغيرات فى المجموعات السكانية وهى التغيرات التى تظهر نتيجة إنقسام المجموعة السكانية الى وحدات متكاملة أصغر والنقطة الرئيسية التى يجب التأكيد عليها هنا هى أن التدفق الجينى يغير من التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية الطبيعية ، ولكن من الصعب قياس حجم تأثيراته الوراثية بدون وجود نموذج ملائم عن التركيب السكانى ، ففهم التدفق الجينى فى أى مجموعة سكانية يعتمد تماما على معرفة التركيب السكاني، والتزاوج الداخلى ، والحركة السكانية داخل وخارج المجتمع محل الدراسة ، والممارسات الزواجية وكذلك العوامل الأخرى التى تؤدى

إلى تغيير التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية ووحداتها الأصغر .

ومن نتائج التدفق الوراثى أنه يؤدى إلى إزاحة التنوع *Varialility* الموجود بين المجموعات السكانية نتيجة العزلة ، وكلما كانت عمية التدفق الوراثى شديدة وقوية بين المجموعات السكانية ولاتحدها موانع ثقافية أو إجتماعية أو سياسية أو دينية أو إقتصادية أو أيديولوجية معينة ، كلما كانت عملية الإختلاط سهلة وهذه العملية لاتتم بنفس السرعة فى حالة وجود الحواجز اللغوية والعادات والتقاليد ، وكلما كانت عملية الاندماج والذوبان بين المجموعتين السكانيتين سريعة ، كلما زادت سرعة إختفاء هذه الحواجز ، وأدت إلى إحداث التغيرات الوراثية المتوقعة والتى تلاحظ لدى المجموعات السكانية الحالية .

وخلاصة القول أن عملية الإختلاط بين الشعوب تؤدى إلى تغيرات فى التراكيب الوراثية للشعوب ، فإذا إختلط شعبان لكل منهما خصائص جينية مختلفة ، فإن التزاوج فيما بينهما ينتج نوعا ثالثا مختلفا عن كل من الشعبين فى خصائصه الوراثية وفقا لقوانين الوراثة .

٥ ـ التزاوج العشوائي وغير العشوائي أو المنظم :

Random & Nonrandom Mating

قبل أن نقدم تعريفا للتزاوج العشوائى ، نجد أن من المفيد تقديم بعض الإيضاحات عن التزاوج غير العشوائى ونتائجه بالنسبة للأنماط الوراثية للمجموعات السكانية .

دعنا نتناول كمثال مجموعة سكانية لا تسمح للتزاوج إلا بين الأفراد المتشابهين فى بعض الجوانب البيولوجية فى داخلها ، ويجب أن نذكر هنا أنه توجد نظم تزاوج مشابهة لهذه تحدث فى مجتمعنا . فمن المعروف أن الناس غالبا ما يفضلون التزاوج مع غيرهم ممن يشبهونهم فى جوانب معينة مثل طول القامة ، والذكاء ، ولون البشرة وبعض سمات الشخصية الأخرى ، ولكى ندلل على تأثير مثل

هذا النوع من التزاوج غير العشوائى دعنا نفترض أن الأشخاص المتماثلين فقط هم الذين يسمح لهم بالتزاوج غير العشوائى دعنا نفترض أن الأشخاص المتماثلين فقط هم الذين يسمح لهم بالتزاوج داخل المجموعة السكانية ، والتماثل هنا يعنى التماثل فى الأنماط الجينية . وهذا الشكل من أشكال التزاوج غير العشوائى يسمى بالتزاوج المنظم الإيجابى *Positive assortative mating* وتأثيرات هذا النمط من التزاوج على توزيع الأنماط الجينية هى زيادة نسبة المتشابهين أى المتجانسين *Homozygotes* وإنخفاض نسبة المتخالفين *Heterozygotes* فى المجموعة السكانية . وإذا عكسنا هذا النمط من التزاوج وافترضنا عدم حدوث تزاوج بين الأشخاص المتماثلين فى النمط الوراثى ، وهو ما يسمى بالتزاوج المنظم السلبى *Negative assortative mating* فإن النتيجة تكون زيادة نسبة المتخالفين وخفض نسبة المتجانسين .

وهذه الأمثلة التى ذكرناها تعتبر أمثلة متطرفة بالنسبة للمجموعات السكانية البشرية ، فعندما نتحدث عن التزاوج المنظم فى الإنسان فإننا نعنى بذلك أن هناك ميلا للمتشابهين لأن يتزاوجوا من بعضهم أولا يتزاوجوا من بعضهم ، ولو افترضنا أن هذه الميول تتضمن ميولا لسمات موروثة ، فإن التأثير سيكون هو نفسه : فالتزاوج المنظم الإيجابى سيعمل على إنحراف التوازن الموجود فى المجموعة السكانية عن طريق زيادة نسبة المتماثلين ، وبالتالى سيعمل التزاوج المنظم السلبى على إنحراف التوازن المتوقع عن طريق زيادة نسبية المتخالفين فى المجموعة السكانية ، وهناك شكل آخر من أشكال التزاوج غير العشوائى ، يعتبر ذا أهمية خاصة لعلماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، وهو التزاوج الداخلى *Inbreeding* الذى يمارس فيه زواج الأقارب البيولوجيين من بعضهم ، والذى إذا استمر لفترات زمنية طويلة يؤدى إلى خصائص وراثية جديدة فى المجموعة السكانية ، وفى العديد من المجتمعات البشرية يكون زواج أولا العمومة وأولاد الخؤولة هو الزواج المفضل ، ولهذا السبب تعتبر نسبة التزاوج بين الأشخاص الأقارب أعلى مما هو متوقع عن

طريق الصدفة .

وحيث أن الأشخاص الأقارب يكون لهم عادة أسلاف مشتركة بنسب أكبر بكثير من الأشخاص غير الأقارب ، فإن من المتوقع أن تكون نسبة تشابههم فى السمات الوراثية أعلى من غيرهم ممن لاتربطهم ببعض أية روابط ، وعلى ذلك يجب أن نتوقع أن يكون تأثير التزاوج الداخلى *Inbreeding* كتأثير التزاوج المنظم الإيجابى وهو تزايد المتماثلين ، أما التزاوج الخارجى *Outbreeding* الذى يمنع فيه الأقارب من التزاوج من بعضهم ، فهو يماثل فى تأثيره تأثير التزاوج المنظم السلبى .

من هذا العرض تتضح لنا الآن ظاهرة التزاوج العشوائى *Random Mating* التى يمكن تعريفها بأنها الإفتقار إلى أى ميل منظم فى عملية إختيار الزوج داخل المجموعة السكانية ، فالمجموعة السكانية يقال أنها تتزاوج عشوائيا بالنسبة لأى سمة معينة إذا إختيار أفراد هذه المجموعة أقرانهم بطريقة مستقلة لاترتبط بملكية هؤلاء الأقران لهذه السمة أم لا . ونتائج هذا التزاوج العشوائى هو إحداث توازن فى توزيع الأنماط الوراثية داخل المجموعة السكانية ، وبالتالى تظل المجموعة السكانية مستقرة أما التزاوج المنظم فدوره ينحصرفى تغيير ترددات الأنماط الوراثية وبالتالى التركيب الوراثى للمجموعات السكانية .

- الصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية :

يعتمد علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى تصنيفهم للجماعات البشرية على سمات مورفولوجية عديدة ، وهذه السمات تختلف من باحث لآخر وتعتمد أساسا على هدف الباحث من الدراسة . فإذا أخذ الباحث لون البشرة على سبيل المثال لوجدنا أن سكان شمال أوروبا يتميزون بلون البشرة الفاتح أما سكان افريقيا الإستوائية فيتميزون بلون البشرة السوداء ، أما إذا تناول الباحث شكل ولون الشعر فى تصنيف السلالات البشرية لوجد أن معظم الشعوب الأسيوية وخاصة

المغولية منها تتميز بالشعر المستقيم الخشن ، أما فى إفريقيا فهو بين مجعد إلى مفلفل ، وفى أوروبا فهو مابين المستقيم الناعم واللولبى الشكل ويتراوح مابين الشقرة والحمرة، أما شعر الجسم فهو قليل متناثر ويكاد ينعدم تقريبا فى معظم الشعوب الآسيوية وسكان الأمريكتين الأصليين (الهنود الحمر) والغالبية العظمى من افريقيا ، أما فى أوروبا والشرق الأوسط إلى أفغانستان والباكستان فإن شعر الجسم أكثر كثافة ، وهناك بعض الشعوب المتميزة بغزارة شعر الجسم كسكان بابوا *Papua* فى غينيا الجديدة وسكان استراليا الأصليين الأينو *Ainu* فى شمال اليابان ، أما الصلع فهو من العلامات المميزة لبعض السلالات الإنسانية فهو ظاهرة نادرة بين الآسيويين وخاصة السلالة المغولية وهنود أمريكا الحمراء وإفريقيا ولكنه يوجد بنسبة عالية بين سكان حوض البحر المتوسط وأوروبا ، وتمثل العظام أيضا من حيث الحجم وتناسب الشكل وكمية المعادن صفات مميزة فى تصنيف السلالات البشرية ، فاختلاف تناسب طول العظام بين العنصر المغولى والعنصر الإفريقى واضح حيث يتسم المغوليون بقصر الأطراف بالنسبة للجذع ، أما السلالة الإفريقية فهم بعكس ذلك تتميز بطول الأرجل والضلوع بالنسبة للجذع، وخلاصة القول أن أفراد النوع الإنسانى الحالى يشتركون فى صفات كثيرة، ومع ذلك فإن هناك فروقا ظاهرة وباطنة تتفاوت فى الكم والكيف بين أفراده وبين جماعاته المختلفة من مكان إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى ، ومن الهام أن نذكر أنه ليس هناك إتفاق بين علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية فيما يتعلق بعدد السلالات الموجودة في النوع البشرى ، فمن الممكن تصنيف الناس تبعا للون بشرتهم ، ولكن الناس يختلفون أيضا فى أنحاء أخرى كثيرة فبعضهم ذو شعر مرسل أو مموج أو مجعد أو أكرت ، وأنوف ضيقة أو عريضة ، وبعضهم طوال القامة وبعضهم الآخر قصار ، وبعضهم رؤسه مستطيلة والبعض الآخر مستدير الرأس ، وعندما بدأت الصفات التى يختلف فيها البشر فى التزايد باطراد ، ظهر عدد من التصنيفات المختلفة يكاد يساوى عدد المصنفين . ففى عام ١٧٧٥ قام بلومنباخ *Blumenbach* وهو أنثروبولوجى رائد ، بتمييز خمسة أجناس هم : الجنس

القوقازى أو الأبيض ، والجنس المغولى أو الأصفر ، والجنس الأثيوبى أو الأسود ، والجنس الأمـريكى أو الأحـمـر ، والجنس الملايي أو الأسـمـر ، وقـام رتزيوس *Retzius* وهو عالم تشريح سويدى فى عام ١٨٥٦ بتقسيم الناس إلى مستطيلى الرأس ، ومستديرى الرأس ، وبارزى الفك أو الأسنان ، ومستقيمى الفك ، وشكل الرأس والفكين ولون البشرة لايلزم حتمـا أن يتمشى بعضهـا مع البعض ، فالأوروبيون بيض البشرة ومستقيمو الفكوك ، ولكن الناس فى أوروبا الشمالية وبعض دول البحر المتوسط طوال الرأس ، على حين أن غالبيتهم فى أوروبا الوسطى مستديرو الرأس ، وفى آسيا ، هناك ناس بارزو الفكوك ومستطيلوا الرؤس ، وأخرون مستقيمو الفكوك ومستطيلوا الرؤس ، وكان فى رأى "رتزيوس" أن الافريقيين داكنو البشرة ، مستطيلو الرؤس وبارزو الفك .

وفى عام ١٩٠٠ قام " جوزيف دنيكر " *Joseph Deniker* بتصنيف الناس إلى تسعة وعشرين سلالة وسلالة فرعية .

وفى عام ١٩٣٤ صنف اجون فون ايكشتت *Egon Von Eickstedt* ثلاثة أجناس هى " أوروبى الشكل أو أبيض البشرة ، وزنجى الشكل أو اسود البشرة ، ومغولى الشكل أو أصفر البشرة ، وهذه الأجناس الثلاثة تشتمل على التوالى على تسعة ، وثمانية ، واثنى عشر جنسا فرعيا ، بمجموع قدره تسعة وعشرون جنسا فرعيا ، أى نفس العدد الذى صنفه " دنيكر " ولكن ليس نفس الأجناس الفرعية .

هذه أمثلة تكفى لتوضيح إنعدام الإتفاق تماما بين مصنفى السلالات المختلفين .

وعامة فإن الرأى المستقر حاليا هو أن سلالات الإنسان المعاصر تنقسم إلى ثلاث مجموعات سلالية رئيسية هى كما يسميها علماء الأنثروبولوچيا : القوقازية *Caucasoid* والمغولية *Mongoloid* والزنجية *Negroid* .

وتوجد داخل هذه المجموعات البشرية الثلاثة الكبرى عدد من السلالات والسلالات الفرعية ، والجدير بالإشارة أن الإختلافات بين الأفراد وبالتالى بين الجماعات يصل أحيانا إلى ٦٥٪ بين بعض الجماعات .

والآن يمكن إستعراض أهم الصفات المورفولوجية للمجموعات السلالية الثلاثة الرئيسية :

أولا ـ المجموعة القوقازية :

من أكثر الفروض إحتمالا أن الموطن الأصلى للجماعات القوقازية هى المنطقة الشاسعة التى تضم جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا وجنوب أوروبا ، ومن هذه المنطقة إستطاعت هذه المجموعة أن تنتشر فى إتجاهات كثيرة إلى أن تم لهم بالتدريج إحتلال كل أوروبا وشمال افريقيا وجنوب غرب آسيا وإنتشروا مع حركة الكشوف الجغرافية فتوطنوا فى العالم الجديد خاصة فى أمريكا الشمالية وإستراليا وجنوب إفريقيا وأجزاء كثيرة من أمريكا اللاتينية ، وأول من إستخدم كلمة قوقازى فوصف هذه المجموعة هو عالم الأنثروبولوچيا الألمانى بلومنباخ ، الذى أطلق هذا الإسم بعد دراسته لجمجمة أمرأة من ولاية جورجيا القوقازية ،

هذا وتعتبر السمات التالية أهم ملامح وصفات المجموعة القوقازية :

١ ـ القامة : تتباين كثيرا بين القوقازيين من المتوسط إلى الى الطويلة ، ولكن الملاحظ أنه لاتوجد بينهم القامة القصيرة جدا .

٢ ـ الرأس : تتراوح النسبة الرأسية بين الطويلة والمتوسطة ، مع ميل نحو زيادة الرأس العريض عما كان عليه الحال فى الماضى ، وتتميز سلالة وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا بالرأس العريض ، أما الوجه فهو طويل فى العادة .

٣ ـ العين : فتحة العين عند معظم القوقازيين طويلة وأفقية ويندر أن تكون منحرفة ولون العين فاتح أو فاتح مختلط وهذه صفة خاصة بالقوقازيين وبالعناصر التى إختلطت بهم .

٤ ـ لون البشرية : كبير التباين حسب البيئة الجغرافية ، فهى مابين الشقرة والبياض الناصع عند السلالة الشمالية *Nordic* إلى البنى الغامق فى الهند وأثيوبيا ، مما يدل على أنه ليس من المستحسن إطلاق تعبير المجموعة البيضاء على القوقازيين .

٥ ـ الشعر : هناك ألوان عديدة للشعر عند القوقازيين ، فهو يتراوح بين الشقرة والحمرة فى شمال أوروبا ، إلى البنى بدرجاته المتعددة فى وسط وجنوب أوروبا ، ثم إلى الأسود فى باقى مناطق القوقازيين فى آسيا وافريقيا ، أما شكل الشعر فيغلب الشعر المموج ، وإن كانت توجد بعض الجماعات القوقازية ذات شعر مرسل (الأينو) وأخرى ذات شعر مجعد (الأثيوبيين) وشعر الجسم والوجه كثيف عند القواقزيين ويميل القوقازيين إلى فقدان الشعر (الصلع المبكر) وأبيضاضة فى سن مبكرة .

٦ ـ الأنف : تسود تقريبا الأنف الضيقة البارزة وتتعدد أشكال البروفيل مابين المستقيم عند الأوروبيين والبحر المتوسط والأسيويين إلى التحدب *Convex* عند السلالة الأناضولية والأرمينية ، إلى التقعر *Concove* أحيانا عند بعض الأوروبيين .

٧ ـ الشفاه : يغلب عليها الشفاه الرقيقة على الرغم من تباينها الواضح حيث أنه توجد الشفاة الرقيقة إلى المتوسطة إلى الغليظة (القرن الأفريقى) .

والملاحظ على معظم هذه الصفات عظم التباين فى درجاتها ، ويرجع ذلك فى الغالب إلى تباين البيئات التى تنتشر فوقها هذه السلالة كبيرة العدد .

والملاحظ أنه حيثما هاجرت عناصر من هذه المجموعة القوقازية كونت سلالات إقليمية خاصة نتيجة عزلتها الوراثية ولما قد تتعرض له من ظروف بيئية وأنثروبولوجية من إختلاطها بأوعية جينية أخرى ذات دماء زنجية أو مغولية ، وهذا ماحدث فعلا فى أمريكا الجنوبية والوسطى وبعض مناطق أمريكا الشمالية وإلى

حدما فى جنوب إفريقيا واستراليا بل ونيوزيلاند حيث إختلطت العناصر القوقازية مع الأهالى الوطنيين (الماورى) .

ثانيا ـ المجموعة المغولية :

تشمل هذه السلالة التى هى أكبر المجموعات السلالية من حيث العدد سكان جنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى (اليابان والصين وكوريا وفيتنام وكمبوديا وتايلان وأندونيسيا) وسكان الأمريكتين من الهنود الحمر والاسكيمو وسكان جزيرة جرينلاند (اسكيمو) وسكان جزر الأليوشن *Aleution Islands* جنوب مضيق بيرنج *Bering Strait* الذى يفصل الإتحاد السوفيتى عن ولاية ألاسكا الأمريكية، ومع أن هذه السلالة تتفرع إلى جماعات وشعوب مختلفة إلا أنها تحتفظ بصفات مجددة تميزها عن باقى شعوب العالم ونذكر منها بعض الصفات العامة التى تنطبق على معظم أفراد هذه السلالة ولكن ليس على كل الأفراد حيث أن العزلة والعوامل البيئية والإنحراف الوراثى أدت إلى ظهور بعض الصفات التى قد لاتوجد فى كل فرد من أفراد هذه السلالة .

١ ـ **البشرة :** تتركز الملامح الرئيسية للسلالة المغولية فى البشرة المشربة بالإصفرار فقد تكون فاتحة أو تميل إلى الدكانة ولكنها تتخللها دائما أطياف من اللون الأصفر أو الأصفر المشرب بالحمرة ، ويعتمد لون البشرة بالدرجة الأولى على الموقع الجغرافى حيث نجد أن سكان المناطق الإستوائية (الجنوبية) من المغوليين ممن يعيشون فى أمريكا اللاتينية يميل لون بشرتهم إلى السمرة ، بينما يميل لون البشرة عند سكان منطقة الجنوب الغربى الصحراوية من الولايات المتحدة إلى الصفرة المشربة بالحمرة ويميل سكان وسط شمال الولايات المتحدة الأمريكية إلى البياض نتيجة إختلاطهم بالأوروبيين .

٢ ـ **الشعر :** شعر الرأس فى غالبية الحالات مستقيم وخشن وهو فى العادة أسود اللون ، ونمو الشارب واللحية (شعر الوجه) يكون ـ كقاعدة عامة ـ فى مرحلة متأخرة ودرجة نموها قليلة ، أما شعر الجسم فإنه منعدم تقريبا .

٣ ـ **الوجه** : يتميز الوجه المغولى فى العادة ببروز عظام الوجنتين الوجه فى العادة مسطح .

٤ ـ **الأنف** : إتساعه متوسط وهو ذو قنطرة منخفضة .

٥ ـ **الفك** : غير بارز وحجم الأسنان كبير بالمقارنة مع السلالتين القوقازية والزنجية .

٦ ـ **الرأس** : مستدير .

٧ ـ **العيون** : العيون صغيرة على شكل لوزى ومغطاه بثنية جلدية فوق الزاوية الداخلية لفتحة العين تعرف بثنية الجفن المغولية *Epicantlic Fold* وخاصة فى المغوليين الشماليين .

٨ **القامة** : تتباين القامة بين المغوليين ولكن معظمهم من ذوى القامة المتوسطة مع ميل إلى القصر ولاتوجد بينهم القامة الطويلة ، وتتميز هذه السلالة أيضا بقصر الأطراف كما أن حجم اليد والقدم يميل إلى الصغر بالنسبة إلى حجم الجسم ككل مما يعطى الجسم المقدرة على تخزين الحرارة وعدم تسربها خارج الجسم لأن سطح الجسم أقل مساحة وهذا من الأسباب الرئيسية التى أعطتهم المقدرة على التكيف فى المناطق الشديدة البرودة .

أما الصفة الرئيسية التى تميز هذه السلالة عن غيرها من السلالات فهى وجود تقعر فى الأسنان الأربع القاطعة *Shovel - Shaped Incisors* والعكس موجود عند السلالتين القوقازية والزنجية حيث تتميز أسنانهم بالتسطح .

ثالثا ـ المجموعة الزنجية :

تتميز هذه السلالة بصفات عامة واضحة من أهمها :

١ ـ **البشرة** : يتراوح لون البشرة بين البنى والبنى المشرب بالصفرة ولكن يغلب اللون الأسود .

٢ ـ **الشعر** : لون الشعر أسود وشعر الرأس مجعد أو مفلفل أو صوفى

وشعر الجسم خفيف ومتناثر ويكاد ينعدم في بعض المجموعات واللحية خفيفة جدا .

٣ ـ الشفاه : غليظة وربما تكون مقلوبة إلى الخارج والفك واضح البروز فى معظم هذه السلالة والفم واسع .

٤ ـ الرأس : الرأس طويلة إلى متوسطة والوجه صغيرة وضيق وعظام الوجنتين غير بارزة وعظام الجبهة مقوسة وبارزة .

٥ ـ بنية الجسم : يتميز بناء الجسم بطول الأطراف (الأذرع والسيقان) بالنسبة لطول الجذع وكبر حجم اليد والقدم بالمقارنة مع السلالة المغولية ومن مميزات هذه السلالة أن الساعد أطول من العضد ، كما أن الساق أطول من الفخذ والكعب بارزة والقدم مسطحة ، أما بالنسبة للقامة فإن متوسط الطول يصل إلى ٦ أقدام ومنهم من يزيد طوله على ٢٠٠ سم كما هو الحال بين أفراد قبائل الواتوسى والنوير فى جنوب السودان والماساى فى كينيا وهم من أطول سكان العالم ، وهناك أقزام الكونغو البلجيكى وبعض أفراد قبائل البوشمان فى صحراء كلها رى بجنوب افريقيا الذين لايتعدى طولهم الخمسة أقدام .

ونظرا لانتشار المجموعة الزنجية فى مناطق واسعة من العالم ، فإنه قد نشأت سلالات فرعية تختلف في بعض السمات عن السلالات الأخرى ، وتنقسم المجموعة الزنجية الرئيسية إلى مجموعتين :

١ ـ المجموعة الزنجية الإفريقية :

وتتركز فى إفريقيا ويطلق عليها أحيانا المجموعة الزنجية الاستوائية ، وتوجد داخل هذه السلالة عدة سلالات فرعية تختلف كل منها عن الأخرى فى بعض السمات ومن أهمها :

أ ـ السلالة السودانية : وهى التى تسود فى إقليم السفانا فى شمال وجنوب وشرق القارة الافريقية ، وأهم مميزتها أن القامة بينهم تتراوح بين ١٦٥ ـ

١٧٠ سم ويدخل فى هذه السلالة قسمان أثنولوجيان واضحان هما : سلالة زنوج السودان التى تقطن اقليم السفانا فى شمال القارة ، وسلالة زنوج البانتو وهى التى تقطن إقليم السفانا والحشائش فى النصف الجنوبى من القارة والفرق بينهما أساسا لغوى أى ثقافى وليس بيولوجى .

ب ـ زنوج ساحل غينيا (الزنوج الخلص) : ويتميزون بالبشرة السوداء، والشعر المفلفل والقامة الطويلة (١٧٠ سم) والرأس المتوسط ، والأنف الأفطس العريض ، والشفاه الغليظة المقلوبة ، ولافك واضح البروز .

جـ ـ الزنوج النيليين : ويتركزون فى منطقة أعالى النيل فى جنوب السودان وشمال أوغندا ، ويتميزون بالقامة المرتفعة جدا (المتوسط ١٧٨ وهناك بعض الأفراد أكبر من ٢٠٠ سم) والرأس طويلة ، ومن أهم شعوب هذه السلالة الدنكا والشيلوك والنوير والبارى والأتشولى ، واللانجو .

هذا ويلحق البعض البوشمن والهوتنتوت والأقزام الإفريقيين فى هذه المجموعة الزنجية وإن كان من الأفضل إعتبارهم سلالات مستقلة لما تتميز به كل منها من صفات خاصة .

٢ ـ مجموعة زنوج المحيط :

وتتميز بلون البشرة الداكنة وبغزارة شعر الجسم وبأن شعر الرأس مموج وأقل تجعدا من المجموعة الزنجية الإفريقية وتسود الأنوف المستقيمة والمحدبة لدى هذه السلالة ، بل قد تظهر الأنف المقعرة كما عند الميلانيزيين .

والجدير بالذكر أن هناك من العلماء من يضمون الأقزام الآسيويين *Negritos* إلى هذه المجموعة الأفريقية ، ولكن الأفضل هو وضعهم فى مجموعة خاصة بهم .وعلى هذا الأساس يفضل تجميع هذه السلالات ذات الصفات والسمات المتميزة مثل الأقزام بقسميها ، والبوشمن والهوتنتوت والاستراليين الأصليين فى مجموعة خاصة بهم تتضمن السلالات القديمة التى تحمل سمات آخذة فى الإنقراض .

ويتضح من هذا العرض أن كل سلالة من هذه السلالات شأنها شأن كل السلالات البشرية عامة ، تتميز بسمات خاصة بها ، ويبدو أن السبب الأساسى فى هذا التميز يرجع إلى التطور طويل الأمد الذى صاحبها داخل أقاليم جغرافية خاصة بكل منها .

ـ الاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية :

يتفق علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على أن الإختلافات بين المجموعات السكانية سواء على مستوى التركيب الوراثى أو من ناحية الشكل الخارجى فى المناطق البيئية المختلفة يمكن ردها إلى عمليات التكيف مع البيئات الطبيعية المختلفة . ويمكن التدليل على ذلك من خلال ملاحظة التغير فى ترددات الجينات بين مختلف المجموعات السكانية ، وكأمثلة على ذلك الإختلافات الملحوظة بين مختلف المجموعات السكانية فى تردد الجينات الخاصة بفصائل الدم *ABO* أو الجينات المسئولة عن أنيميا الخلايا المنجلية *Sickle Cell Anemia* الواسعة الإنتشار فى المناطق التى ينتشر فيها مرض الملاريا ، أما بالنسبة للإختلافات فى الشكل الخارجى بين المجموعات السكانية فهى تشمل على لون البشرة ، وشكل الأنف والبنية الجسمية والسمات المورفولوجية التى تساعد بعض الشعوب كالأسكيمو على التكيف بسرعة للبرودة بصورة أكبر من الجماعات الأخرى ، وكذلك السمات التى تملكها الشعوب الإستوائية والمدارية والتى تساعدهم على تشتيت الحرارة بفاعلية عن غيرهم من الجماعات غير الإستوائية ، والسمات الخاصة التى تمتلكها الشعوب التى تقطن المرتفعات العالية والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى ، وسوف نتناول كل سمة من هذه السمات بالمناقشة .

١ ـ لون البشرة :

لون الجلد يعتبر مثال جيد للقيمة التكيفية للعديد من السمات المسئولة عن الإختلافات بين الأجناس البشرية ، فالجلد ذو الصبغ الداكنة له قيمة أعظم من

ناحية التكيف البيئى من الجلد ذو الصبغ الباهت ، وذلك فى المناطق التى يشتد فيها ضوء الشمس وترتفع نسبة الرطوبة ، فالأصباغ الداكنة تمتص الأشعة الضوئية التى تتحول إلى حرارة فتسبب إفراز العرق الذى يتبخر فيخلص الجسم من جزء من الحرارة ، كما أنه فى الوقت نفسه يرسب طبقة رقيقة من الملح على سطح الجسم ، وهذه الطبقة الملحية الرقيقة تعمل على إنعكاس أشعة الضوء الضارة عن سطح الجسم وعلى الحد من نفاذها الى داخله .

أما فى المناطق التى تقل فيها شدة ضوء الشمس ، فإن الجسم يكون بحاجة ماسة إلى إمتصاص أقصى ما يمكنه إمتصاص من الضوء ، ولهذا فالجلد ذو الصبغ الباهت يكون له قيمة عالية من ناحية التكيف البيئى فى مثل هذه المناطق.

وهذا التفسير يلائم توزيع لون البشرة على مستوى العالم فأغلب الشعوب الأشد سوادا تعيش فى المناطق الإستوائية أو فى مناطق غنية بأشعة الشمس ، بينما الشعوب ذات البشرة الفاتحة فى العالم القديم توجد فى المنطقة المعتدلة خاصة فى المناطق التى لاتتمتع بقدر كبير من أشعة الشمس ، أما البشرة ذات اللون الأصفر أو البنى لاضارب إلى الصفرة فهى موجودة لدى البوشمن والمغولانيين ، وقد بين ويزان هذا اللون يعكس ضوء الشمس فى الصحارى بكفاية ، أما فى العالم الجديد فلون البشرة يختلف من مكان إلى آخر حسب درجة العرض، فهى مثل لون جلد القوقازيين أعمق ماتكون حيث ذروج الاشعاع الشمسى ، أما داخل الغابات المظلمة فى أمريكا الجنوبية فإن لون البشرة فاتح ، ومن الواضح أن بشرة الهنود الأمريكيين أفضل مقاومة لآثار ضوء الشمس الباهر من بشرة الأوروبيين ، وذلك ظاهر جدا فى أمريكا اللاتينية ، حيث تمتاز جلود المستيزو (اللاسبين) باللون اللامع الضارب للصفرة .

ولكن مع ذلك توجد إستثناءات لتلك القاعدة ، فبعض الشعوب ذوات البشرة السوداء مثل الاسكيمو تعيش فى الدائرة القطبية الشمالية ، وشعوب أخرى ذات

بشرة فاتحة تعيش فى مناطق معتدلة ، ويبدو أن هناك عوامل أخرى بالإضافة إلى القيمة التكيفية تكون مسئولة عن التوزيع العالمى للون البشرة .

٢ ـ شكل الأنف :

شكل الأنف أيضا يعتبر من السمات التكيفية ، حيث أن الأنف العريض عظيم النفع فى المناطق الحارة ، إذ يبدو أنه يسمح لأكبر كمية من الهواء الساخن بالخروج من حركة الزفير ، أما الأنف الضيق فهو ذو قيمة عالية من ناحية التكيف البيئى فى المناطق ذات المناخ البارد حيث يحتاج الزمر إلى تدفئة الهواء قبل دخوله إلى الرئتين ، ولهذا إكتشف بكستون منذ حوالى نصف قرن العلاقة بين النسبة الأنفية والأقاليم المناخية حيث وجد أن أدنى النسب فى أكثر المناطق جفافا وبردا ، وأعلى النسب فى أكثرها حرارة ورطوبة ، كما يمكن إيجاد علاقة بين شكل الأنف والإرتفاع ، حيث أن الهواء فى المناطق المرتفعة معتل للبرد ورقيق معا .

ويمكن أن تتغير النسبة الأنفية *Nasa Index* نتيجة لهجرة مجموعة سكانية من بيئة إلى بيئة أخرى ذات مناخ مغاير ، فقد إكتشف بينويست *Benoist* أن سكان سانت بارثيليمى *Saint Barthelemy* (جزر الهند الغربية الفرنسية) الذين من أصل فرنسى أصبح لهم بعد مرور ٣٠٠ سنة عليهم فى هذه الجزر نسبة أنفية أعلى (ناتجة عن اعرضاض الأنف) من السكان الأوروبيين الآخرين أو السكان المنحدرين من أصول أوروبية وهذا الإكتشاف يقدم إحتمالا بأن الإنتخاب الطبيعى قد عمل على إحداث تغير فى النسبة الأنفية لهذه المجموعة السكانية ، وذلك عن طريق إقتراح علاقة بين النسبة الأنفية وضغط البخار وبين فسيولوجيا التنفس والمناخ .

خلاصة القول أن الجماعات السكانية التى تقطن المناطق المناخية الحارة والرطبة تتميز بالأنوف العريضة ، بينما تمتاز الجماعات السكانية التى تقطن فى المناطق المناخية الباردة والجافة بالانوف المرتفعة والضيقة ، أما الجماعات السكانية فى المناطق المرتفعة الجافة نسبيا مثل سكان شمال أوروبا وسكان التبت

والمنغوليين والهنود الحمر فيمتازون بالأنوف العريضة المسطحة ، وبالذات سكان مناطق الغابات الرطبة والمناطق الضحلة ، وبذلك يمكن تفسير الإختلافات بين الجماعات السكانية فى شكل الأنف وفقا للتفسير الذى أشرنا إليه سابقا .

٣ ـ البنية الجسمية :

عندما نتناول سمة كالبنية ونحاول تتبع توزيعها على مستوى العالم يمكن أن نرد مدى تأثير العوامل المناخية على توزيع بعض السمات الجسمية كطول القامة وحجم الجسم والوزن ، ففى عام ١٨٤٧ قام كارل برجمان ***Bergmann*** الفسيولوجى الألمانى بعدة دراسات عن العلاقة بين حجم الجسم ، ومساحة السطح وإنتاج الحرارة فى الحيوانات ذات الدم الدافئ ، فلاحظ أنه داخل النوع الواحد تميل الجماعات التى تسكن الأطراف الأبرد من نطاق وطنه إلى أن تكون أكبر وأثقل حجما من الجماعات التى تسكن الأطراف الأدفأ ، وهذا هو جوهر قاعدة برجمان وبعد إعلان هذه القاعدة بثلاثين عاما ، إكتشف ألن *Allen* عالم الحيوان الأمريكى الذى لم يكن قد سمع قط بقاعدة برجمان ، نفس القاعدة مستقلا ، بل وزاد عليها بأن أضخم الحيوانات لاتوجد عند الحدود الباردة لأقاليمها ، بل فى نقطة أقرب إلى المركز . كما أضاف بأن زوائد الجسم البارزة مثل الذيل ، والأذن ، والمنقار ، والأطراف ، والأجنحة تميل إلى أن تكون أقصر نسبيا فى أبرد أجزاء من الأقليم عنها فى أدفأ أجزائه وهذه الملاحظة الأخيرة تعرف بقاعدة ألن ، وهو يعرف بها أكثر مما يعرف بتعديله لقاعدة برجمان ، والقاعدتان متساويتان فى القيمة والقوة بالنسبة لتوزيع بنية الإنسان ، وتفسر قاعدة الن البناء النحيف لسكان الصحراء سواءكانوا طوارق أو تراكمانا ، والنحافة المفرطة للزنوج النيليين، والقامة القصيرة ذات الأطراف القصيرة لشعوب المناطق الباردة .

وتفسير ذلك هو أن الإنسان ـ ككل الثدييات الأخرى ـ يجب أن يحتفظ بدرجة الحرارة الداخلية لجسمه فى مستوى ثابت كثيرا أو قليلا ، وحجم الجسم والبنية يرتبطان بهذه الوظيفة ، فالطاقة الحرارية يجب أن تحفظ فى البيئة الباردة

والحرارة الزائدة يجب أن تتبدد فى المناخ الدافئ ، والحرارة تنتج من الأيض Metabolism ومن إمتصاص أشعة الشمس ، وهى تتبدد وتفقد بواسطة البخر الذى يحدث عن طريق العرق والإشعاع ، وفاعلية الإشعاع كوسيلة لفقد الحرارة يرتبط بنسبة منطقة سطح الجسم إلى كتلته ، ولتوضيح ذلك نأتى بمثالا بسيطا ، فلو قمنا بتسخين مادتين نحاسيتين متساويتين فى الوزن ، ولتكن احدهما على شكل كرة والأخرى على شكل مكعب ، بدرجة حرارة واحدة ، ثم تركناهم بعد ذلك فى الهواء ، وقمنا بقياس درجة حرارة الشكلين بعد مرور فترة من الوقت ، سنجد أن المكعب يبرد بمعدل أسرع من الكرة ، وهذا يرجع إلى أن سطح المكعب الذى تشع منه الحرارة يعتبر أكبر من سطح الكرة ، فالكرة من الأشكال التى لها أصغر نسبة سطح لكل وزن فى الأشكال البعدية الثلاثة ، وعلى ذلك فالأفراد ذوو الأجسام المكتنزة ينتجون حرارة بنسبة أكبر من الأشخاص نحاف الجسم ، ولكن مع ذلك فإن أجسامهم لها منطقة سطح أقل من نحاف الجسم يمكن أن تشع منها الحرارة، أما الأشخاص نحاف الأجسام طوال القامة فإنهم ينتجون حرارة أقل نسبيا ، ولكن منطقة السطح التى يمكن أن تشع منها الحرارة عندهم تعتبر أكبر من ذوى الأجسام المكتنزة ، ولهذا السبب يمكن أن نجد فى التوزيع التدريجى للبنية أن الأفراد الذين يتميزون بالجسم النحيف نسبيا يميلون إلى التواجد فى الأقاليم الإستوائية أما من يتميزون بالبدانة فإنهم يتواجدون فى المناطق الشمالية والجنوبية. وفى ضوء ذلك يجب أن نتوقع أن يكون قاطنو الأقاليم الشمالية قصار القامة ، ذوى أجسام مكتنزة وأطراف قصيرة لكى يقللوا من معدل فقد الحرارة ، وإذا فحصنا بنية الأسكيمو نجد أن هذا حقيقى بالمعنى العام ، أما الشعوب النيلية التى تقطن شرق افريقيا فإنها تظهر العكس ، فجزوعهم طويلة ضيقة ، وأرجلهم وأذرعهم طويلة جدا ، وهذا الشكل من الجسم يتميز بأن له منطقة سطح أكبر تسمح بالأشعاع وفقد الحرارة بسرعة ، وخاصة من الأذرع والأيدى والأصابع ، وبمعنى آخر فإن الجماعات السكانية التى تعيش فى المناطق الباردة تتميز بأن أعضاء الجسم الظاهرة البعيدة عن مركز الدفء والمعرضة لخطر التجمد ، قصيرة

وصغيرة الحجم ، مما يساعد على الحد من خطر التجمد والحفاظ على حرارة الجسم من التسرب ، وهذا يفسر ثنية الجفن المنغولية لدى الأسكيمو والمنغولين ، وصغر فتحة العين لديهم لحمايتهم من وميض الشمس المنعكسة عن المنطقة الثلجية وكذلك مايحدث لمجموعات البوشمن والهوتنتوت فى نفس الصفة تقريبا نتيجة الأشعة المنعكسة من وهج الرمال الصحراوية (صحراء كالهارى) وقد تم التحقق من صحة ذلك بدراسات ميدانية على الأسكيمو واللابيين *Lapps* وسكان منطقة التبت والمنغولين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، أما سكان المناطق الحارة فهم يتصفون بالأعضاء النحيفة والطويلة نسبيا ، ويمتلكون مساحة جسمية كبيرة نسبيا كذلك ، وهذا مايمكن ملاحظته على النيلين وأيضا الماساى والنوير وسكان استراليا الأصليين .

وتلك القضية تصدق على الحيوانات ، فالحيوانات حارة الدم عموما والتى تعيش فى المناخ الإستوائى الحار تكون أصغر حجما ، واذرعها وأرجلها وأطرافها أطول ، ولديها منطقة سطح بالنسبة لوزن الجسم أكبر من تلك الحيوانات حارة الدم التى تقطن الشمال أو الجنوب ، ولكن هذه التدرجات مع ذلك غير واضحة بالنسبة للإنسان فى العديد من المناطق ، فهناك استثناءات كثيرة لتلك القاعدة .

وإذا نظرنا إلى أقصى طول للسلالات البشرية نجد أن أقصى طول للأوروبيين يتبع بطريقة عامة خط حرارة ٢٥ ف ، أو مابين ١٤ و ٣١ ° وفى آسيا نجد أطول المغولانيين فى الشرق حول خط حرارة ١٠ ف . أما فى أمريكا الشمالية فأقصى طول فى القامة واحد عند الهنود الأمريكيين والأمريكيين والكنديين من أصل أوروبى ، أما فى إفريقيا فالموقف معقد نتيجة الإختلاط الكبير فى السلالات وقصر قامة الأقزام والبوشمن ، وأطول القوقازيين موجودون فى الصحراء ، وأطول الزنوج موجودون فى المستنقعات الرطبة الحارة ، ويعيش أطول الناس قامة فى نيوغينيا على طول ساحلها ، ويقل طول القامة حتى يصل إلى درجة الأقزام فى المرتفعات الداخلية ، وأطول الاستراليين الأصليين يعيشون فى

الشمال ويقل طول القامة كلما إتجهنا جنوبيا ، أما عن الإستراليين البيض فالعكس صحيح .

ومهما يكن أمر وجود إستثناءات لقاعدة توزيع حجم وشكل الانسان ، فإنه يمكن تفسيرها فى ضوء الهجرات التى شهدها العالم بين الشعوب المختلفة ، بالإضافة إلى إمكانية وجود خلط كبير وامتزاج بين بعض السلالات ، فهناك مناطق كثيرة جدا فى هذا العالم استقبلت أعدادا كبيرة من المستعمرين الأوروبيين والعبيد الأفارقة والعمال الصينيين ، وكل أفراد تلك الجماعات البشرية نجحوا فى الاستيطان فى العديد من أنواع البيئات وتكيفوا لها وهناك أدلة قليلة تشير إلى أن المهاجرين أقل تكيفا من الناحية البيولوجية من الجماعات السكانية المحلية ، ويرجع ذلك إلى أن التكيف البشرى قد تداخلت معه الثقافة البشرية التى إستطاعت أن تحمى الإنسان من العديد من التأثيرات المباشرة للإختلافات الجغرافية .

٤ ـ السمات الخاصة بشعوب المرتفعات :

إذا إنتقلنا إلى السمات الخاصة بالشعوب التى تقطن المرتفعات ، والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى ، نجد أنها سمات تكيفية السبيل للطعن فى صحتها ، والتكيف مع الإرتفاعات مسألة بسيطة فهى تتضمن أساسا مقدرة جسم المرأة الحامل على أن تنقل قدرا كافيا من الأوكسجين من المشيمة إلى الجنين حتى تؤمن حياته ، وهناك أدلة على وجوب حالات إجهاض تزيد بمقداريتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠٪ فى ويومنج وكولورادو عنها فى بقية الولايات المتحدة ، ويولد الأطفال صغار الحجم فى أقليم البحيرة بكولورادو ، ويموت منهم بعد الولادة مباشرة عدد يزيد ٣٠٪ عن وفيات الأطفال حديثى الولادة فى الأجزاء المنخفضة من البلاد ، وليس إرتفاع ١٠,٠٠٠ قدم بالأمر الصعب النسبة للمغولانيين ، فبعضهم يحيا حياة عادية ويتجنب أطفالا أصحاء وهم يعيشون على إرتفاع ١٤٠٠٠ قدم ، ويفعلون ذلك فى إقليمين مرتفعين فقط فى العالم ، جبال الإنديز وهضبة التبت .

وقد حاول الأسبان ابان العصر الإستعمارى أقلمة الأوروبيين والزنوج للحياة فوق المرتفعات ولكنهم أخفقوا .. فقد مات الزنوج الذين جلبو للعمل فى المناجم المرتفعة وتمكن الأوروبيون من التكيف للحياة فوق المرتفعات ، ولكن أطفالهم ظلوا نطف قرن لايتعدون دور الطفولة ثم يموتون ، أما الخلاسيون من آباء أوروبيين وأمهات هنديات فقد كانت فرصهم فى الحياة أفضل وازدادت نسبة الإنجاب مع إزدياد الجينات الهندية ، ولذلك فإن مرتفعات الأنديز فى اكوادور وبيرو وبوليفيا لاتزال مقصورة على الهنود . وسر نجاح الهنود فى الإنجاب فوق المرتفعات العالية معروف تماما ، فصدورهم ورئاتهم وقلوبهم كبيرة الحجم ، وأذرعتهم وسيقانهم قصيرة ، وحجم الدم لديهم أكبر منه لدى الناس الآخرين ، ودمهم ثقيل القوام وأحمر غامق مع إرتفاع نسبة كرات الدم الحمراء ، ورغم أن كل كرة من كرات الدم تحمل نفس كمية الأوكسجين الذى تحمله كرات الدم فى السلالات الأخرى ، إلا أن التفوق العددى فى هذه الكرات هو المسئول عن زيادة كمية الأوكسجين فى الدم اللازم للإنجاب ، ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة هذا السبب إلا بعد أن طرد الصينيون الشيوعيون آلاف التبتيين إلى الهند ، وهذه المسألة كانت محل دراسة قام بها عدد من العلماء على هؤلاء اللاجئين من التبت ، وقد أشارت التقارير الأولية لهذه الدراسة على أن نفس عوامل نجاح تكاثر الهنود فى الأنديز هى التى تعمل على نجاح تكاثر أهل التبت .

وعلى ذلك تعتبر السمات الخاصة بالشعوب التى تقطن المرتفعات والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى نتيجة قلة نسبة الضغط الجوى من الأمثلة الجيدة لفعل الإنتخاب الطبيعى الذى فضل السمات الملائمة للمعيشة فوق المرتفعات ، وعمل على نشر هذه السمات من خلال إنجاب الآباء الحاملين لهذه السمات لذرية إستطاعت البقاء فى هذه البيئة التى لم يقو فيها من يفتقر إلى هذه السمات من الذرية على البقاء .

وهناك العديد من السمات التى تتميز بها السلالات المختلفة مع ذلك ليست

لها أية قيمة تكيفية ، أو أن لها قيمة تكيفية ولكنها غير واضحة فى الوقت الحاضر، من أمثلتها شكل الشعر ولونه ، ولون العين ، وحجم كرة العين ، وصفة العمى اللونى وصفات الأسنان وعضلات تعبيرات الوجه ، وبصمات الأصابع والتنوق ، وعلى ذلك لانستطيع أن نرتكن إلى الإنتخاب الطبيعى وحده لتفسير ظهور كل الإختلافات الموجودة بين السلالات البشرية ، وعلى العموم هناك إتفاق بين العلماء على أن هناك خمسة عوامل مسئولة عن وجود السلالات هى الطفرة ثم الإنتخاب الطبيعى الذى يؤدى إلى وجود مجموعات متمايزة من النماذج البشرية كل منها مهيأ للمعيشة فى ظروف بيئية معينة ، والإنحراف الوراثى ، والتدفق الجينى والهجرة وأخيرا الزواج المنظم ، ومهما يكن من أمر فإن من الأشياء المؤكدة أن الإنتخاب الطبيعى لابد وأن يكون قد لعب دورا فى ظهور مايعرف بالسمات التكيفية والإختلافات المورفولوجية الموجودة بين الجماعات السكانية البشرية ، فطالما وجدت السمات التكيفية يجب أن نتوقع دور الإنتخاب الطبيعى فى تشكيلها حيث أن الإنتخاب الطبيعى يؤدى إلى تكيف الكائنات الحية مع البيئات التى تعيش فيها .

الفصل الرابع

المقابلة والبحث الحقلى*

- تعريف المقابلة .
- مزايا المقابلة .
- عيوب المقابلة .
- أنواع المقابلات :
  ١ ـ من حيث الغرض .
  ٢ ـ من حيث عدد المبحوثين .
  ٣ ـ من حيث درجة المرونة .
- صياغة موقف المقابلة :
  أ ـ صياغة أسئلة المقابلة .
  ب ـ كيفية إجراء المقابلة .
- اختيار القائمين بالمقابلة .
- ثبات وصدق المقابلة .
- نماذج أنثروبولوجية عن كيفية استخدام المقابلة .

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ مرفت العشماوى عثمان ، مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الفصل الرابع

المقابلة والبحث الحقلى *

- تمهيد :

تستخدم المقابلة *Interview* فى كثير من مجالات الحياة ، فالباحث الإجتماعى يستخدم المقابلة كأداة لجمع البيانات ، ورجل الأعمال والطبيب ورجل الدين والقاضى ورجل البوليس والصحفى والمدرس والمحامى والأخصائى النفسى والإجتماعى .. كل هؤلاء يستخدمون المقابلة لاستخدامها فى التوجيه أو التشخيص أو العلاج .(١)

وهى تعد من أكثر وسائل الحصول على المعلومات شيوعا وإن كانت تتفاوت فى أهميتها ونوعيتها بحسب المنهج فالمقابلة الشخصية تعتبر هى الوسيلة الأساسية للحصول على المعلومات فى كل من منهج دراسة الحالة والمنهج الأنثروبولوجى ، فى حين أن دورها يختفى نسبيا فى المنهج التجريبى والمنهج التاريخى ويكاد لايكون لها وجود فى المنهج الإحصائى الذى يعتمد على معطيات رقمية جمعت بوسائل متعددة قد تكون المقابلة الشخصية إحدى وسائلها .(٢)

وتسهم المقابلة فى المراحل الأولى من البحث فى الكشف عن الأبعاد الهامة للمشكلة ، وفى تنمية الفروض ، وفى إلقاء الضوء على الإطارات المرجعية لاستجابات أفراد التجربة ، وتمتاز المقابلة عن غيرها من أدوات البحث الإجتماعى بأنها أكثر مرونة ، وبأنها تيسر لدرجة أكبر ملاحظة المبحوث والتعمق فى فهم الموقف الكلى الذى يستجيب فيه للمقابلة ، كما يمكن للقائم بالمقابلة أن يشرح

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ مرفت العشماوى عثمان ، مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

(١) عبد الباسط محمد حسن ، ١٩٦٦ ، أسس البحث الاجتماعي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة، ص ٤٤٦ .

(٢) محمد طلعت عيسي ، ١٩٧١ ، تصميم وتنفيذ البحوث الاجتماعية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ص ٣٢٢ .

للمبحوث ماقد يكون غامضا من السؤال وأن يكشف عن التناقض فى الإجابات وأن يرجع إلى المبحوث لتفسير هذا التناقض ، وهو فوق ذلك يستطيع تغيير الجو الإجتماعى للمقابلة بحيث يكون أكثر واقعية ، وهو أقدر على الحكم على صدق الإجابات التى يحصل عليها من المبحوثين . (١)

ويمكن عن طريق المقابلة التعرف على صور النفس البشرية مستعرضة بدرجة تسمح بالإلمام بظروف تنشئة المفحوص الإجتماعية ، ومتعمقه بدرجة تسمح للباحث بالكشف عن دوافعه ومشاعره وإتجاهاته وعقائده وقيمه وهذا مايصعب الحصول عليه عن طريق الوسائل الأخرى لجمع البيانات . (٢)

ويمكن عن طريق المقابلة أيضا التعرف على الأوضاع التى كانت تسود فى فترة سابقة على إجراء البحث الميدانى وبخاصة تلك التى خضعت لكثير من التغيرات ودخل عليها كثير من التعديل أو حتى الأوضاع التى إختفت وأصبحت مجرد ذكريات فى أذهان بعض أعضاء المجتمع ، أو كما هو الشأن بالنسبة للأحداث التى تحدث فى مواقع أو مجتمعات محلية أخرى لاتدخل فى نطاق البحث الميدانى وإن كانت تساعد فى إلقاء بعض الأضواء على الملاحظات الأثنوجرافية التى يقوم الباحث بجمعها عن طريق الملاحظة فى مجتمع البحث . (٣)

وعموما فإن المقابلة تتكون من ثلاثة عناصر القائم بالمقابلة *Interviewer* والمبحوث *Interviewee* وموقف المقابلة وهناك أرتباط وثيق بين هذه العناصر على نحو يؤثر فى النتائج العامة للمقابلة ، ويتوقف نجاح المقابلة على مهارة القائم

---

(١) محمد علي محمد ، ١٩٨٣ ، علم الاجتماع والمنهج العلمي : دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٤٦٣ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٩٨ .

(٣) أحمد أبوزيد ، ١٩٩١ ، المجتمعات الصحراوية في مصر ، البحث الأول ، شمال سيناء ، دراسة اثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ص ٤٠ ، ٤١ .

بها ومبلغ وعيه وإدراكه لمختلف العوامل فى الموقف المحيط به والتى يمكن أن تدفع المبحوث إلى الوقوف موقفا سلبيا من الباحث أو إلى إعطاء بيانات محرفة لاتتسم بالصدق والثبات .(١)

والمقابلة كأداة للبحث قد تطورت نتيجة عاملين هما :

١ ـ المقابلة الإكلينيكية التى تطورت عن تقارير الأطباء والمعالجين عن الحالات التى كانت عليهم وعلى الرغم من أن الهدف كان هو التشخيص والعلاج أكثر منه تصنيف البيانات إلا أن المقابلة الإكلينيكية كان لها أثر بالغ فى توضيح قيمة المقابلة كأداة للبحث .

٢ ـ حركة القياس النفسى : تطور هذه الحركة وإهتمامها بالتقنين كان له أثر بالغ فى إكساب المقابلة كطريقة للبحث طابعا موضوعيا . (٢)

ـ تعريف المقابلة :

يعرف بنجهام *Bingham* المقابلة بأنها المحادثة الجادة الموجهة نحو هدف محدد غير مجرد الرغبة فى المحادثة لذاتها وينطوى هذا التعريف على عنصرين رئيسيين هما :

١ ـ المحادثة بين شخصين أو أكثر فى موقف مواجهة ، ويرى بنجهام أن الكلمة ليست هى السبيل الوحيد للإتصال فخصائص الصوت وتعبيرات الوجه ونظرات العين والهيئة والإيماءات والسلوك العام كل ذلك يكمل مايقال .

٢ ـ المقابلة تختلف عن الحديث العادى فهى محادثة جادة وموجهة نحو هدف محدد ، مع وضوح هذا الهدف .

ويعرف انجلش وانجلش *A.English , H. English* المقابلة بأنها محادثة موجهة يقوم بها شخص مع شخص آخر أو أشخاص آخرين هدفها إستثارة أنواع معينة من المعلومات لاستغلالها فى بحث علمى أو للإستعانة بها على التشخيص والعلاج .

وتعرف جاهودا *Jahoda* المقابلة بأنها التبادل اللفظى الذى يتم وجها لوجه

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٦٤ .

بين القائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو أشخاص آخرين .

أما ماكوبى وماكوبى *E. Maccoby and N. Maccoby* فانهما يعرفان المقابلة بأنها تفاعل لفظى يتم بين شخصين فى موقف مواجهة حيث يحاول احدهما وهو القائم بالمقابلة أن يستثير بعض المعلومات أو التعبيرات لدى المبحوث والتى تدور حول ارائه ومعتقداته . (١)

وتعرف بولين يونج المقابلة بأنها طريقة منظمة يتمكن من خلالها الفرد أن يسبر غور حياة فرد آخر غير معروف له نسبيا ، وترى بياتريس ويب أن المقابلة بالنسبة للباحث الإجتماعى فى الإستقصاء والبحث تعادل أنبوبة الإختبار التى يستخدمها الكيمائى فى معمله والميكروسكوب الذى يتخذه البكتريولوجى فى إكتشافاته.(٢)

نستخلص مماسبق أن المقابلة هى موقف للتفاعل الإجتماعى اللفظى تهدف إلى إستثارة معلومات محددة تتعلق بهدف هذه المقابلة الذى قد يتمثل فى البحث العلمى أو التشخيص أو العلاج أو التحقيق ، ويستخدم فيها بجانب التبادل اللفظى الإيماءات ، السلوك ، الشكل العام تعبيرات الوجه والعين ، وهى تتكون من ثلاث عناصر ، الباحث والمبحوث والموقف الخاص بالمقابلة ، وهى بالنسبة للباحث الإجتماعى معادلة لأنابيب الإختبار والميكروسكوب للعالم فى إكتشافاته .

ـ مزايا المقابلة :

١ ـ للمقابلة أهميتها فى المجتمعات التى تكون فيها درجة الأمية مرتفعة حيث أنها لاتتطلب من المبحوثين أن يكونوا مثقفين حتى يجيبوا على الأسئلة حيث أن القائم بالمقابلة هو الذى يقوم بقراءة الأسئلة .

٢ ـ تتميز المقابلة بالمرونة فيستطيع القائم بها أن يشرح للمبحوثين مايكون

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٩٣ .

غامضا عليهم من أسئلة وكلمات .

٣ ـ تتميز المقابلة بأنها تجمع بين الباحث والمبحوث فى موقف مواجهة وهذا الموقف يتيح له فرصة التعمق فى فهم الظاهرة وملاحظة سلوك المبحوث فيستطيع الباحث عن طريق مقابلته لأفراد الأسرة أن يشاهد حالة الأفراد السكنية والمعيشية دون أن يوجه أسئلة قد تبدو محرجة وقد يكون لها أثرها فى المبحوثين فيرفضون التعاون مع الباحث .

٤ ـ المقابلة تساعد الباحث على الكشف عن التناقض فى الإجابات ومراجعة المبحوث فى هذا التناقض .(١) فيستطيع الباحث مثلا أن يلاحظ تناقضا بين مايذكره المبحوث عن سنه وعدد أولاده وعن طريق المناقشة يمكن للباحث أن يصحح الخطأ .(٢)

٥ ـ إذا أراد الباحث أن يوجه أسئلة كثيرة إلى المبحوثين فيمكنه إقناعهم بالأهمية العلمية والعملية للبحث ومايمكن أن يستفيده المجتمع من ورائه وبهذا يكسب معونتهم ويضمن استجابتهم للبحث.(٣)

٦ ـ يمكن الحصول على تعاون المبحوثين وتجاوبهم إذا ما أحسن عرض الموضوع وهذا يتوقف على خبرة الباحث ولباقته .(٤)

٧ ـ توجيه الأسئلة فى المقابلة بالترتيب والتسلسل فلايطلع المبحوث على جميع الأسئلة قبل الإجابة عليها كما قد يحدث فى الإستبيان ، والتساؤل يجب ألا يوحى بالاجابة وأن يصاغ بطريقة مفهومه وواضحه .(٥)

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

(٤) أحمد عباده سرحان ، ١٩٦٣ ، مقدمة في الإحصاء الاجتماعي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ١٥ .

(٥) عبد الله غانم ، " البحث الأنثروبولوجي تطوره ووسائله وصعوباته " في محمد عبده محجوب وآخرون، ١٩٩٠ ، المقدمة في دراسة علم الإنسان " الأنثروبولوجيا ، مركز الشهابي للطباعة والنشر، اسكندرية ، ص ٢١١ .

٨ ـ تضمن المقابلة للباحث الحصول على معلومات من المبحوث دون أن يتناقش مع غيره من الناس أو يتأثر بآرائهم الشخصية وبذا تكون الآراء أكثر تعبيرا عن رأيه الشخصي .

٩ ـ يغلب أن تحقق المقابلة تمثيلا أكبر وأدق للمجتمع لأن القائم بالمقابلة يستطيع الحصول على بيانات من جميع المبحوثين خصوصا إذا أحسن عرض الغرض من البحث عليهم .

١٠ ـ يحصل القائم بالمقابلة على إجابات لجميع الأسئلة وإذا كانت الإجابات ناقصة يستطيع الإتصال بالمبحوثين ويقوم بمقابلة ثانية وثالثة حتى يحصل على البيانات المطلوبة .(١)

١١ ـ تسهم المقابلة فى المراحل الأولى من البحث فى الكشف عن الأبعاد الهامة للمشكلة وفى إقتراح الفروض وفى إلقاء الضوء على الإطارات المرجعية لاستجابات أفراد البحث .

١٢ ـ تفضل فى الحالات التى لايتيسر فيها إستخدام الملاحظة مثل الآمال فى المستقبل ، الحالات التى يصعب فيها التنبؤ مقدما .(٢)

ـ عيوب المقابلة :

١ ـ التكاليف الخاصة بالمواصفات والوقت اللازم لإجراء المقابلة الشخصية لعينة كبيرة موزعة فى أماكن متباعدة قد تجعل هذه الطريقة غير ممكنة عمليا .

٢ ـ قد ينجم عن تحيز الباحث لقضية ماتحريف الحقائق التى يجمعها بصورة تخدم أغراضة وآرائه الشخصية .

٣ ـ إختيار وتدريب الباحثين اللازمين للقيام بهذه العملية والإشراف عليهم يعد من الأمور المعقدة فى هذه الطريقة إذا ماقورنت بطرق أخرى .(٣)

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٠١ .

(٣) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

٤ ـ هناك التحيز الناجم عن ضعف الذاكرة بالنسبة للشخص المستجوب خاصة إذا ماتطلب البحث بيانات دقيقة عن ماضى بعيد .

٥ ـ لاتصلح هذه الطريقة وحدها فى الحصول على بيانات تحرج أو تضر المبحوث كما فى حالة البيانات الخاصة بالعلاقات الزوجية أو المبادئ السياسية التى تحرمها الدولة .(١)

ـ أنواع المقابلات :

للمقابلة أنواع كثيرة ويمكن تصنيفها عى النحو التالى :

١ ـ من حيث الغرض :

وهى تنقسم إلى الأنواع التالية :

أ ـ المقابلة لجمع البيانات :

وغالبا ماتكون هذه البيانات من النوع الذى يصعب الحصول عليه بطريق الملاحظة ، وتستخدم فى الدراسات الإستطلاعية بقصد التعرف على أهم الحقائق المتعلقة بالمشكلة ، وتحديد الفروض التى يمكن وضعها تحت الإختبار وتستخدم أيضا فى الدراسات الوصفية وتستخدم فى الحصول على معلومات متعلقة بالأشخاص والمواقف المحيطة بهم .

ب ـ المقابلة الشخصية :

يستخدمها الطبيب والأخصائى النفسى والإجتماعى فى تشخيص حالات العملاء والتعرف على العوامل والأبعاد الأساسية المؤثرة فى المشكلة التى يعانى منها العميل .

جـ ـ المقابلة العلاجية :

يقصد بها المقابلة التى تهدف إلى رسم خطة لعلاج وتخفيف حدة التوتر مع الإستفادة من إمكانيات المجتمع .(٢)

---

(١) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ .

٢ ـ المقابلـة من حيث عدد المبحوثين :

يمكن تقسيم المقابلات إلى نوعين :

أ ـ المقابلة الفردية :

وهى التى تتم بين القائم بالمقابلة وبين شخص واحد من المبحوثين وهو النوع الأكثر شيوعا فى الدراسات والبحوث الإجتماعية .[١]

ب ـ المقابلة الجماعية :

وهى التى تتم بين الباحث وبين عدد من الأفراد فى مكان ووقت واحد ، ويستخدم هذا النوع من المقابلة لتوفير الوقت والجهد وللحصول على معلومات أوفر لأن باجتماع عدد من الأفراد يساعد على تبادل الخبرات وتذكر التفاصيل التى تغيب عن أذهان بعض ممن اجريت معهم مقابلات على المستوى الفردى ، ويجب ألا يكون حجم الجماعة كبير إلى الدرجة التى يتعذر فيها على البعض الإشتراك فى المناقشات الجماعية ، كما ينبغى أن يتوفر بها أكبر قدر ممكن من التجانس سواء من ناحية النوع أو السن أو المستوى الاقتصادى أو الثقافى .

أما بالنسبة لسير المناقشة الجماعية فينبغى أن يأخذ القائم بالمقابلة فى الإعتبار جميع الأفكار التى تثار حتى التى تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن الموضوع لأنها قد تنفع فى إستثارة أفكار أخرى لدى آخرين ، وإذا كان بعض أفراد الجماعة ساكنين بطبيعتهم فعلى القائم بالمقابلة أن يخلق الحوافز التى تدفعهم إلى المناقشة وإبداء الرأى ، وإذا أراد بعض الأعضاء إبتكار المناقشة أو فرض آرائهم على المجموعة فعلى القائم بالمقابلة أن يعالج الأمر بلباقة ليسمح للجميع بالمساهمة فى الرأى ، كما يجب ألا يسمح بظهور معسكرات متضاربة فى الرأى أو وجود مناقشات جانبية حتى لاتتشتت المجموعة فلاتؤدى المقابلة أهدافها . [٢]

---

(١) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .

٣ ـ المقابلة من حيث درجة المرونة وحرية الباحث في موقف المقابلة :

تنقسم المقابلة من حيث درجة مرونتها إلى :

أ ـ المقـابلة المقننة : *Standardized Interview* هنا يتحدد شكل المقابلة قبل القيام بها فتوضع قائمة من الأسئلة يلتزم بها كل الباحثين وتوجه الأسئلة بنفس الكلمات وبنفس الترتيب لجميع الأفراد المبحوثين ، ويهدف التقنين إلى أن الأفراد يستجيبون لنفس المثير أو المنبه ، وعادة مايتم تدريب الباحثين على طريقة القاء الأسئلة وعلى المواقف غير المتوقعة التى يحتمل أن تواجههم وطريقة التخلص منها ، وتختلف درجة تقنين الأسئلة فاما أن تكون أسئلة مقفولة *Closed - ended questions* أى أن احتمالات الإجابة محددة أو أسئلة مفتوحة النهاية *Open - ended questions* . (١)

ومن مميزات المقابلة المقننة :

١ ـ أن أخطاء صياغة الأسئلة تقل فيها .

٢ ـ أنها أكثر ثباتا إذ أنه يشترط فى المقابلة المقننة إتقان الأسلوب الذى يتبعه أكثر من باحث يقومون بها وكذلك إتفاق الأسلوب الذى يستخدمه الباحث نفسه أكثر من مرة .

٣ ـ أنها تحقق مبدأ أساسيا فى القياس وهو إمكان مقارنة المعلومات التى نحصل عليها من شخص ما بتلك التى نحصل عليها من شخص آخر ، ذلك أنه إذا إتبعت طرق مختلفة من باحث واحد فى ظروف مختلفة أو فى مجموعة من الباحثين فى الحصول على المعلومات فلن يمكن معرفة ما إذا كانت الفروق بين هؤلاء الأشخاص ترجع إلى فروق فى طرق القياس أم إلى فروق فيما لديهم من سمات أو آراء أمكن قياسها ، وبهذا لايمكن للباحث أن يصل إلى مايرجوه من التفريق بين المبحوثين على أساس مجموعة من المتغيرات .(٢)

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٩ .

ب ـ المقابلة الحرة *Free interview* (غير المقننة) هى نوع من المقابلة يتميز بالمرونة المطلقة فلاتتحدد فيها الأسئلة التى ستوجه للمبحوث ولاحتمالات الإجابة ، فيترك فيها قدر كبير من التحرر للمبحوث للأفصاح عن أرائه وإتجاهاته وإنفعالاته ومشاعره ورغباته بصورة تلقائية ومتعمقة .(١)

وتصلح المقابلات غير المقننة فى الدراسات الإستطلاعية للوصول إلى الفروض التى يمكن إخضاعها بعد ذلك للإختبار المقنن وتستخدم فى البحوث الأنثروبولوجية والفحوص الإكلينيكية السيكولوجية .(٢)

ومن مميزاتها :

١ ـ تقنين المعانى بدلا من التقنين المفتعل لبعض جوانب موقف التنبيه .

٢ ـ زيادة صدقها إذ أنها تشجع على الصدق فى الإجابات .

٣ ـ أنها أكثر مرونة والباحث فى هذه المقابلات الاستكشافية *Exploratory interviews* يهتم أساسا باكتشاف الأبعاد المناسبة للظاهرة حتى يمكن قياسها قياسا منظما فيما بعد ، وفى هذه المرحلة يمكن المقارنة بين حالة وأخرى .(٣)

ج ـ المقابلة المتمركزة حول موضوع (البؤرية) : *Focused interview*

إن الوظيفة الأساسية للباحث فى هذا النوع هى تركيز الإهتمام حول خبرة معينة صاغها الفرد ونتائج هذه الخبرة ، ومعنى ذلك أن القائم بالمقابلة يعلم أن المبحوثين قد إشتركوا فى موقف معين مثل رؤية فيلم سينمائى أو سماع برنامج اذاعى أو قراءة كتاب ، ولذا فهو غالبا مايعد قائمة بالموضوعات والجوانب المختلفة التى سوف تدور حولها الأسئلة والتى يستنتجها من مشكلة البحث .(٤)

فالباحث يبدأ بتحليل الموقف تحليلا مبدئيا للوقوف على عناصره، وتحديد

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٣) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٤) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٨ .

بعض الفروض المؤقتة ثم يحدد الموضوعات التى يرغب فى دراستها وبعد ذلك يعد دليلا للمقابلة *Interview guide* يتضمن الجوانب الرئيسية التى سبق تحديدها دون تحديد للأسئلة لأن أسلوب السؤال وتوقيته يترك للباحث ، وتساعد إستجابات هؤلاء الأشخاص على إختبار الفروق ، كما أن الإستجابات غير المتوقعة تؤدى إلى فروض جديدة يمكن إخضاعها للبحث العلمى المنظم ، وكلما كان الباحث عارفا بطبيعة الموقف الذى شارك فيه المبحوث كلما إزدادت قدرته على الإعداد لموقف المقابلة وفرض الفروض المبدئية عن الموضوعات التى يتضمنها .(١)

ـ صياغة موقف المقابلة :

المقصود بصياغة موقف المقابلة متطلبات إستخدام المقابلة كوسيلة لجمع البيانات ويمكن تحديد هذه المتطلبات المنهجية فى مطلبين أساسيين ومرتبطين الأول هو صياغة الأسئلة *Questions Formulation* أى وضع أداة القياس والمطلب الثانى هو القيام بعملية المقابلة ذاتها *Interviewing* أى إستخدام هذه الأداة وتتضح هذه العلاقة الوثيقة بين هذين المطلبين حينما يقوم الباحث بالعمليتين معا دون أن تكون هناك فواصل زمانية أو مكانية بين العمليتين كما فى البحوث الأنثروبولوجية.(٢)

أ ـ صياغة أسئلة المقابلة :

هناك طريقتان أساسيتان فى صياغة أسئلة المقابلة الطريقة الأولى إستخدام الأسئلة المفتوحة أو الأسئلة المقفلة والطريقة الثانية هى إستخدام الأسئلة المباشرة والأسئلة غير المباشرة . أما الأسئلة المفتوحة فهى الأسئلة غير المحددة النهائية والتى يطلب فيها إلى المبحوث أن يتحدث على النحو الذى يشاء ولايقوم القائم بالمقابلة سوى بتوجيه مسار المقابلة توجيها عاما وتبدو هذه الطريقة فى المقابلات الحرة.(٣)

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

ومن عيوب الأسئلة المفتوحة أن كثيرا من البيانات المطلوبة قد لايتيسر الحصول عليها ذلك أن المبحوث قد يغفل الإجابة عن بعض النقاط الهامة بالنسبة للبحث فيستحيل فى هذه الحالة المقارنة بين المبحوثين ومن عيوب الأسئلة المفتوحة أيضا أن هذه البيانات يصعب تحليلها إحصائيا. (١)

أما الأسئلة المقفلة أو المحددة أو المقيدة فهى الأسئلة المحددة النهاية (٢) ويتطلب فيها الإستجابة بأحد المتغيرات المحددة مثل نعم أو لا (موافق) أو (غير موافق) أو (لا أعرف) وتسمى هذه الأسئلة فى بعض الأحيان بالأسئلة الإنتخابية لأنها تستخدم فى التنبؤ بنتائج الإنتخابات ، ومن مزايا هذا النوع أنها توجه ذهن المبحوث وجهة معينة بحيث تتفادى الإستطرادات التى لامبرر لها ، كما أنها تجعل الإجابة سهلة على المبحوث دون أن تحتاج الى تفكير طويل كما أنها تيسر عملية الإجابة وعمليات التحليل الإحصائى للبيانات ، ومن عيوبها أنها لاتسمح للمبحوث بأن يعبر عن نفسه تعبيرا حرا .(٣)

أما الأسئلة المباشرة *Direct qustions* والأسئلة غير المباشرة *Indirect questions* فإن الاختيار بينها يتحدد فى ضوء طبيعة موضوع البحث وأهدافه ، ففى الحالات التى يتعذر فيها الحصول على معلومات عن طريق السؤال المباشر يلجأ الباحث إلى الأسئلة غير المباشرة والتى تكون فى الغالب ذات طبيعة اسقاطية أو تكون مقنعة حتى يستطيع الباحث أن يتغلب على الصعوبات التى تتمثل فى إحساس المبحوث بالحرج بحيث نستطيع الحصول على معلومات تتعلق بالدوافع والموجهات الداخلية للسلوك.(٤)

- الأسئلة من حيث الصياغة والمضمون :

من أهم محددات الأسئلة فى المقابلة اللغة إذ ينبغى توجيه الأسئلة فى لغة

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٧٧ .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٤٧٧ .

(٤) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

تجعل عملية الإتصال ممكنة بحيث تصل الأفكار مباشرة إلى المبحوث بالاضافة إلى اللغة يهتم القائم بالمقابلة بالتعرف على الإطار المرجعى للمبحوث *Frame of reference* فمن الخطأ أن نفترض أننا فى عملية المقابلة نحصل على صورة مماثلة للإطار المرجعى ، وإنما يتعين أن تصاغ الأسئلة من أجل معرفة الإطار المرجعى للمبحوث فهو يستجيب للمثيرات (الأسئلة) على أساس هذا الإطار الذى يشمل الظروف الأسرية والأوضاع الإقتصادية والطبقية والخبرات الشخصية الخ . ويجب عند وضع الأسئلة تجنب الغموض من خلال صياغة أسئلة لاتنطوى على أكثر من فكرة واحدة فالسؤال الواحد يقيس شيئا واحدا ، ويجب عدم إستخدام الأسئلة الإيحائية التى توجه إلى إجابة يرغب فيها الباحث ، فالسؤال هو مثير متحرر من التحيز يوجه لكي يحدث الأثر دون تدخل من الباحث ، كذلك يجب تنظيم الأسئلة وتتابعها وترتيب الأسئلة بحيث تكون للمقابلة بداية وفترة حوار ونهاية .(١)

ب ـ كيفية إجراء المقابلة :

نعرض هنا لبعض المبادىء التى يجب أن يراعيها الباحث وليس من الضرورى أن يلتزم بها الباحث التزاما حرفيا بل ليختار منها مايتناسب مع ظروف المقابلة التى يجريها وطبيعة البحث الذى يقوم به .

١ ـ أن أول مايسعى إليه القائم بالمقابلة هو إستثارة الدافع لدى المبحوث للإستجابة ، فالمبحوث يواجه شخصا غريبا عنه ويطلب إليه أن يدلى ببيانات تتصل بشئون حياته الخاصة أو مرتبطة بتقاليد راسخة ، ونجاح المقابلة ودقة الحصول على البيانات المطلوبة يتوقفان إلى حد كبير على مدى فهمه للأشخاص الذين يواجههم وقدرته على تطوير رابطة شعورية حميمة *Rapport* بينه وبين المبحوثين فيبدأ بمقدمة مختصرة يشرح فيها الغرض من المقابلة كما يبين لأفراد البحث أن البيانات المطلوبة لن تستخدم الا لغرض البحث العلمى . (٢)

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٧٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٦٥ .

٢ ـ يصف الطريقة التى تم بها إختيار الشخص المبحوث .

٣ ـ يعرف بالهيئة التى تقوم بهذه الدراسة .[١]

٤ ـ أن يدع المبحوث يتأكد بأن كل مايدلى به سيظل فى طى السرية وأن الدراسة تبغى الوقوف على مجموع الإتجاهات دون البحث فى المسائل الذاتية .

٥ ـ أن تبدأ المقابلة بالموضوعات التى ليس لها طابع شخصى ثم التدرج فى الحديث الى أن يبدأ المبحوث فى الإحساس بالإطمئنان والثقة وعندئذ يمكن الإنتقال إلى الموضوعات ذات الطابع الشخصى .

٦ ـ أن يحرص الباحث على استهلال المقابلة بالموضوعات التى يدور حولها إهتمامات المبحوثين وأن يتحدث باللغة التى يجيدها المبحوث وإستخدامه لهجاته كلما أمكن ذلك بدون إفتعال حتى لايتحول إلى نوع من التقليد الذى يعنى السخرية [٢].

٧ ـ تهيئة جو المقابلة بأن يخصص للمقابلة الوقت المناسب والظروف الملائمة وفى كثير من الأحيان تكون المقابلة مقصورة على الباحث والمبحوث لأن وجود أفراد آخرين قد يثير مخاوف المبحوث مما يدفعه إلى الإحجام عن الأدلاء بالبيانات الصحيحة ، وأن إشاعة جو من البساطة وعدم الكلفة فى الحديث يؤدى إلى إختفاء الخوف والقلق لدى المبحوث ويحسن أن يقوم القائم بالمقابلة بدور الخبير الذى يحاول إستكمال معلوماته من شخص يستطيع أن يقدم له المعلومات .

٨ ـ ينبغى أن يكون الباحث مستعدا للإجابة على أى أسئلة توجه إليه من المبحوث ويجب أن يحدد موعدا معه لإجراء المقابلة مع إشعاره بأن هذا الوقت مخصص له بالذات ويجتهد فى التواضع والظهور بمظهر اللياقة .[٣]

---

(١) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠١ .

(٢) محمد طلعت عيسي ، المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

(٣) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٥ .

٩ ـ توجيه الأسئلة : لاتلقى الأسئلة بطريقة جامدة املائية وإذا كانت الأسئلة معدة من قبل فى إستمارة أو دليل عمل على الباحث أن يقرأها جيدا ويتدرب عليها ويعرف ترتيبها المنطقى فيبدأ بالبسيط متدرجا إلى مستويات أعمق ، كما لايجب توجيه أكثر من سؤال حتى يستطيع المبحوث أن يستجمع أفكاره بالنسبة لكل سؤال وينظم إجاباته تنظيما دقيقا ، وأن يظل القائم بالمقابلة ممسكا بزمامها ويوجهها إلى الناحية التى تحقق أهداف البحث دون أن يترك الأمر للمبحوث يوجهه كيفما يشاء ، ويستحسن توجيه الأسئلة بنفس الأسلوب لكل الأفراد وتوضيح معانى الكلمات الغامضة أو إعادة السؤال عدة مرات .[١]

١٠ ـ الحصول علي الإجابة : يجب أن يسعى القائم بالمقابلة إلى الحصول على إجابات جميع الأسئلة فإذا وجد أن المبحوث قد أجاب على سؤال من سؤال سابق فلا ينبغى أن يتخلى عن ذلك السؤال فهذا السؤال يوضع للتاكد من صحة الإجابة ، أما إذا كانت الإجابة ناقصة فعليه أن يحاول إستكمال المعلومات ، وأن يحاول أن يعرف العوامل التى تدفع المبحوث إلى عدم الإجابة فقد يكون المبحوث حقا لارأى له فى الموضوع أو لايكون قادرا على التعبير عن رأيه بالألفاظ أو أن يكون السؤال غير واضح وعلى القائم بالمقابلة أن يميز بقدر الإمكان بين هذه الحالات وأن يتصرف فى كل موقف بما يناسبه ، وإذا حاول المبحوث أن يسأل القائم بالمقابلة عن رأيه فعليه أن يبتسم مصرحا بأن مهمته الحصول على معلومات لا أن يدلى برأيه الخاص ويجب أن يتجنب الإيحاء باجابة معينة ، وأن يمنحه الفرصة الكاملة ليقول كل مايريد بالصورة التى يريدها وإذا استطرد المبحوث إستطرادا خارجا عن الموضوع فينبغى أن يعيده إلى الموضوع برفق ، وينبغى ألا يظهر القائم بالمقابلة نفورا واشمئزازا من المبحوث وألا يظهر دهشة واستنكارا لما يقول وألا يظهر دهشة واستنكارا وألا يصدر عليه أحكاما خلقية [٢] ، ومن الأسئلة من يتناول بعض الحقائق الخاصة بالسن أو الدخل فيجب التاكد من صحتها فى

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٦٧ : ٤٦٩ .

ضوء البيانات التى أدلى بها المبحوثين ومحاولة الإستدلال على صحتها فمن الممكن القاء بعض الأسئلة التى لاتشتمل عليها الاستمارة (أو الدليل)(١)، كما أنه لابد من ملاحظة الأحوال الإقتصادية والإجتماعية للمبحوثين أثناء إجراء المقابلة ومطابقتها بما يحصل عليه من إجابات .(٢)

١١ ـ تسجيل إجابات المبحوثين : أن عدم تدوين إجابات المبحوثين وقت سماعها يؤدى إلى نسيان كثير من المعلومات وتشويه الكثير من الحقائق وعلى ذلك فإنه من الضرورى تسجيل إجابات المبحوثين بعد الإدلاء بها مباشرة ، ففى حالة الإستمارة التى لاتحتوى على إسئلة مفتوحة فما على الباحث إلا أن يضع علامة مميزة أمام الإجابة التى يختارها المبحوث ، أما إذا كانت المقابلة حرة فينبغى تدوين كل مايقوله تدوينا مرتب ويمكن إستخدام أجهزة التسجيل ويراعى فى ذلك موافقة المبحوث لأن إخفاء ذلك يتعارض مع الأصول التى يجب مراعاتها فى مواقف البحث فمن المستحسن تسجيل إجابات المبحوثين مباشرة وعلى مشهد منهم لتفادى الأخطاء التى تترتب على النسجيل من الذاكرة وأهمها النسيان أو التحريف .(٣) *

ـ إختيار القائمين بالمقابلة :

المقابلة عمل فنى يعتمد فى المقام الأول على شخصية الباحث وأسلوبه ومقدرته على إستهلال الحديث واثارة عوامل التشويق التى تشعر المبحوث بإيجابيته فى البحث. .(٤)

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٦ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٣) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٤) محمد طلعت عيسي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(*) إذا لم يتيسر للباحث أن يدون المعلومات من الإخباري وقت إجراء المقابلة فعليه أن يقوم بتدوينها بعد انتهاء المقابلة مباشرة وقد يستخدم أثناء المقابلة بعض الرموز أو الكلمات التي تساعد علي تذكر المعلومات بدقة .

كذلك يتطلب إجراء المقابلة أن يكون القائم بها مقبولا من المبحوثين أنفسهم ومن أجل ذلك ينبغى التدقيق فى إختيارهم فى ضوء سماتهم الشخصية ومستوى معرفتهم وخبراتهم وعلاقة كل ذلك بموضوع المقابلة وأهداف البحث ، فالمعيار الأساسى فى إختيار القائمين بالمقابلة هو أنه يمكن إعتبارهم من وجهة نظر المبحوث أشخاص لديهم المعرفة الكافية والفهم الذى يتحقق على أساسه الإتصال الفعال بين الباحث والمبحوث .

ولقد قدم نادل *Nadel* وكلاكهون *Kluckhon* تصورا لتدريب الباحثين على المقابلة يتم على أساس إختيار دقيق للقائمين بها يصل إلى حد تحليلهم نفسيا قبل تدريبهم وتستخدم طرق مباشرة وطرق أخرى غير مباشرة للتدريب مما يجعلنا نصل إلى نتائج خالية إلى حد بعيد من التحيزات الشخصية . ولقد أوضحت الدراسة التى قام بها المركز القومى لبحوث الرأى العام بالولايات المتحدة عن مصادر الخطأ فى المقابلة كوسيلة لجمع البيانات تتلخص فى مظهر وأسلوب القائم بالمقابلة وإتجاهاته وتوقعاته وطريقة توجيه الأسئلة وتباين طرق تسجيل الإستجابات والمعلومات .(١)

ـ ثبات وصدق المقابلة :

إن الباحث الكفء يمكنه إلى حد بعيد إستنتاج صدق إجابات الفرد المفحوص ومن المفيد عامة أن يظهر الباحث قدرته على إكتشاف مدى صحة الإجابات التى حصل عليها .(٢)

وأثناء المقابلة يطرح الباحث من التساؤلات مايمكنه من معرفة الفرق بين مايعتقده المجتمع ويراه مثاليا وبين ماهو واقعى بالفعل فى مختلف جوانب الحياة ففى العادة يوجد تناقض بين ماهو مثالى وماهو حقيقى ، وقد أدرك

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص٤٧١ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

الأنثروبولوجيون هذا الإختلاف من فترة طويلة بين مايفعله الناس ومايقولونه . (١)

كما تضيف بولين يونج *P.Young* أن الباحث يمكنه أن يوجه بعض الأسئلة التى تتناول تفاصيل النقاط الهامة موضوع البحث ، هذا بالاضافة إلى مراجعة الإجابات التى تحتوى على شرح الدوافع والأسباب التى يذكرها الفرد توضيحا لسلوكه ، فمن مضمون هذه الإجابات يمكن للباحث أن يستشف مدى صدق إجابات الفرد . (٢)

ويتوقف صدق المقابلة فى البحث على عدة عوامل منها موضوع المقابلة وأسلوبها وظروفها وهل هو صدق جمعى أم فردى فمن أمثلة الصدق الجمعى التنبؤ بالنسبة التى سوف يفوز بها مرشح فى الانتخابات ومن أمثلة الصدق الفردى متابعة كل فرد فى العينة (تسمى العينة فى هذه الحالة عينة الندوة *Panel Sample*) قبل وبعد الإنتخاب لمعرفة الإتفاق أو الإختلاف بين سلوكه اللفظى فى المقابلة قبل الإنتخاب وبعده . (٣)

وقد إتبعت فى التأكد من صدق المقابلة عدة طرق منها :

١ ـ المقارنة بين أقوال المبحوث فى المقابلة وبين الأدلة الموضوعية المتصلة بموضوع المقابلة كأن نقارن بين أقوال المبحوث عن ممتلكاته وبين أدلة أخرى للتأكد من صدق أقواله فى المقابلة وذلك عن طريق المصادر المتنوعة مثل سجلات الضرائب والملكية ، وتشير نتائج البحوث إلى أنه إذا كانت الأسئلة تتضمن معلومات يعلمها المبحوث ولايسبب الإدلاء بها حرجا أو شعورا بالذنب يزداد إحتمال حصول الباحث على بيانات صادقة عنها وهذا يتوقف على عوامل متعددة منها العوامل الثقافية . (٤)

---

(١) عبد الله عبد الغني غانم ، البحث الأنثروبولوجي تطوره ووسائله وصعوباته ، في محمد عبده محجوب وآخرون ، ١٩٩٠ ، المقدمة في دراسة علم الإنسان " الأنثروبولوجيا " السلسلة الأنثروبولوجية ، الكتاب الأول ، مركز الشهابي للطباعة والنشر ، اسكندرية ، ص ٢٨٤ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

(٣) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٠٩ .

(٤) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

٢ ـ التنبؤ عن السلوك فى المستقبل على أساس تعبير المبحوث وتوقعاته غير أن إستخدام هذه الطريقة تقابله بعض الصعوبات مثل تلك التى تتصل باختيار العينات حيث يصعب التأكد من درجة تمثيل العينة المختارة للمجتمع ، كما أن كثيرا من المبحوثين قد يغيرون من مواقفهم نتيجة لعدد من الأحداث والعوامل .

٣ ـ التناسق الداخلى : يغلب أن يعتبر التناسق الداخلى مقياسا للثبات فاذا وجهنا السؤال عن نفس الموضوع فى صورتين مختلفتين وفى نقطتين مختلفتين فى المقابلة ووجدنا إرتباطا مرتفعا بين الإجابات بين السؤالين أمكن أن نعتبر ذلك مقياسا يتسم بالثبات ، إلا أننا إذا سألنا عددا من الأسئلة يتناول كل منها جانبا مختلفا من نفس الموضوع وتنبأنا بإرتباطها منطقيا وسيكولوجيا ثم وجدنا فعلا من واقع الإجابات عنها أنها ترتبط إرتباطا وثيقا ، أمكن الإطمئنان إلى أنها تقيس فى الغالب إتجاها أو إتجاهات مشتركة وأنها تقيس مايفترض قياسه عن طريقها .[١]

٤ ـ الإرتباط بين بيانات المقابلة وبيانات أخرى يمكن التنبؤ عن إرتباطها بها : فمثلا قد يتنبأ الباحث على أساس نظرى أو على أساس البحوث السابقة عن وجود علاقة بين أساليب الإشراف على جماعة من العمال وبين مستوى إنتاجهم ، فإذا أجريت مقابلات بقصد التعرف ووجدانها تميز بين الجماعات ذات المستوى الإنتاجى المنخفض وتكررت هذه النتيجة فى أكثر من موقف أمكن الإطمئنان نوعا ما إلى أن المقابلة تقيس فعلا أساليب الإشراف .

وفى أى صورة تتخذها المقابلة تكون نتائجها معرضة لنوعين من الخطأ ، فبالاضافة إلى أخطاء القياس الراجعة إلى عيوب فى الأسئلة أو الإستمارة أو الإختبار ، تتعرض النتائج أيضا إلى أخطاء شخصية راجعة إلى نواحى التحيز *Bias* نتيجة التقديرات والتفسيرات الشخصية إذا كانت خطة البحث تقتضى إصدار مثل هذه الأحكام .[٢]

---

(١) غريب محمد سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

ـ نماذج أنثروبولوجية عن كيفية إستخدام المقابلة :

يذكر أ.د أحمد أبوزيد فى كتابه " المجتمعات الصحراوية فى مصر " أنه لايمكن الإستغناء عن المقابلة والاخباريين الذين يعتبرون هم الأداه الرئيسية للحصول على المعلومات والبيانات المتعلقة بالأوضاع الإجتماعية التى يصعب إخضاعها للملاحظة المباشرة ، كما تساهم المقابلة فى القاء بعض الأضواء على الملاحظات الاثنوجرافية التى يقوم الباحث بجمعها عن طريق الملاحظة فى مجتمع البحث مثل وصف مجالس القضاء العرفى التى أتيح للإخبارى المشاركة فيها أو تتبع أشجار النسب وفى تقويم مشروعات التنمية وتعرف رأى الأهالى ونظرتهم إليها والى القائمين عليها .(١)

ويوضح أ.د عبد الله غانم فى كتابه " إغتصاب النساء " أن إستمارة مقابلة المغتصبين وهى الاستمارة التى صممها وتم ملؤها عن طريق المقابلة مع المغتصبين ولقد تمت المقابلات مع ١٠٣ مغتصب فى سجون مصر المختلفة عبر فترة البحث التى استغرقت ٣ سنوات ، وكان الباحث يتحرىماينشر بالصحف بالذات مايرتبط بقضايا المبحوثين الذين قابلهم بالسجون .(٢)

وتذكر د. مرفت العشماوى فى رسالتها للماجستير أن الدراسة الأنثروبولوجية للطب الشعبى فى منطقة برج العرب إعتمدت على الإخباريين حيث تسنى للباحثة مقابلة بعض مجبرى الكسور والقائمين بعمليات الكى والخزم والخرق وبعض القائمين بالعلاج الرومى كالفقهاء والنزلاء والشيوخ بالاضافة إلى بعض المطببات الشعبيات والنزيلات ، كما تم إجراء المقابلات مع العديد من الأسر فى المنطقة للتعرف على مدى إستخدامهم للعلاج الشعبى وكذلك اجريت مقابلة مع طبيبة الوحدة الصحية للتعرف على أكثر المرضى ترددا عليها أما بالنسبة لاستخدام العلاج الشعبى فى منطقة رأس التين فلقد قمت باجراء المقابلات مع بائعى

---

(١) أحمد أبو زيد ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) عبد الله عبد الغني غانم ، ١٩٩٧ ، اغتصاب النساء : دراسة اجتماعية للجاني والضحية في مصر ، مركز سرويات للأبحاث ، الاسكندرية ، ص ٣١ .

الأعشاب والعطارة بسوق الخراطين والعطارين وحلاقى الصحة بالإضافة إلى مقابلات مع بعض القابلات كذلك إجراء بعض المقابلات مع بعض الصيادين وأسرهم للتعرف على إستخدامهم للعلاج الشعبى وأثر البيئة على تحديد نوعية هذا العلاج .[١]

---

(١) مرفت العشماوي ، ١٩٨٤ ، دراسة أنثروبولوجية الطب الشعبي في مجتمعين محليين في مصر ، إشراف أ . د . علي أحمد عيسي ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، ص : ش ، ت .

الفصل الخامس

الأنثروبولوجيا والتنمية*

- مقدمة .
- الأنثروبولوجيا والتكنولوجيا .
- بعض الاعتبارات المنهجية .
- خطة البحث وإجراءاته .
- الدراسات السابقة .
- مجتمع الدراسة بين العلاقات العرقية ومشاعر الأقلية .
- الجماعات العرقية وجماعات الأقلية .
- النوبة والتنمية .
- وجهة نظر النوبيين فى التنمية .
- مشروعات التنمية .
- الدور الحكومى فى تنمية بحيرة السد العالى (النوبة القديمة) .
- النظرة المستقبلية للنوبة القديمة .
- الجهود الفردية لتنمية النوبة القديمة .
- النوبة والتغير .
- الخاتمة .

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور / فاروق أحمد مصطفى أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا والتنميـــــة *

ـ مقدمة :

إرتبطت الأنثروبولوجيا منذ القرن التاسع عشر بتنمية المجتمعات الإنسانية التى تم دراستها ويرجع ذلك إلى أن دراسة مايعرف فى التاريخ الأنثروبولوچى بالمجتمعات البدائية والتى نفضل تسميتها بالمجتمعات البسيطة أو التقليدية ، حيث كان الهدف الأساسى هو السيطرة على تلك المجتمعات وقد إتخذت التنمية الإجتماعية كأحد الأساليب التى إستخدمتها الحكومات لتحقيق هذا الهدف وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر وفى بداية القرن العشرين .

ولكن مع العقود الأولى من القرن الماضى بدأت تظهر الحاجة إلى التعرف على مشاكل المجتمع الحالية وقد لجأت كثير من الحكومات إلى أخذ الرأى والإستعانة بعلماء الأنثروبولوچيا لأنهم أكثر قدرة على تفهم مشكلات المجتمع ووضع الحلول لها .

وبدأ التفكير بطريقة علمية لوضع السياسات العلمية وإتخاذ القرارات الإدارية فى كافة مشكلات الحياة ، وعندما ظهرت الأنثروبولوچيا التطبيقية *Applied Anthropology* كأحد الفروع العامة للأنثروبولوچيا والتى تهدف إلى الإستعانة بالدراسات الأنثروبولوچية النظرية فى ضبط التغير الإجتماعى وتوجيهه فى المجتمعات التقليدية . وتجدر الإشارة إلى وجود فروق بين الأنثروبولوچيا التطبيقية وفروع الأنثروبولوچيا الأخرى أهمها :

١ ـ أن الأنثروبولوچيا التطبيقية تدرس الثقافات المعاصرة حاليا وكذا الشعوب الحالية ودراستها لكيفية مواجهة الجماعات المختلفة للمشكلات

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور / فاروق أحمد مصطفى أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الإجتماعية.

٢ ـ تهتم الأنثروبولوچيا التطبيقية بالبحوث التى تعالج المشكلات والتى تنبع من حاجات أساسية لدى أعضاء المجتمعات المختلفة .

٣ ـ الأنثروبولوچيا التطبيقية تبحث وتستخدم نفس الأساليب والمناهج العلمية للأنثروبولوچيا إلا أنها تتخطى حدود علم الأنثروبولوچيا وقد تستعين بالعلوم الإنسانية فى حل المشكلات التى تواجه الإنسان .

وقد حددت الأنثروبولوچيا منذ ظهورها مجالات رئيسية من أهمها مجال الإدارة ، ومجال التنمية ، والمجال الطبى ، ويهمنا فى هذا الفصل التركيز على المجال الهام للأنثروبولوچيا التطبيقية وهو مجال التنمية حيث أن تنمية المجتمعات عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الإجتماعى والإقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته وإستغلال إمكانياته وهذه العملية ليست عملية حديثة فى نوعها فمنذ زمن بعيد يتعاون أفراد المجتمعات الإنسانية فى مواجهة إحتياجات مجتمعاتهم ، فكثيرا ما تعاون أبناء القرية الواحدة فى بناء السدود لمواجهة الفيضانات أو حفر الآبار أو الترع والمصارف أو بناء وإنشاء دور العبادة والمدارس، والأمثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى فى الهند وباكستان ومصر فالأهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم وإحتياجاتهم ويعملون متعاونين على تنمية مجتمعاتهم .

وقد شاركت فى دراسات كثيرة للتنمية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تنمية القرية المصرية " قرية أبى صير " بالاشتراك مع وزارة الشئون الإجتماعية ، وكذلك دراسة لتنمية النوبة بعد إقامة مشروع السد العالى والمشكلات التى تواجه التنمية كما قمت بدراسة للتنمية فى المجتمعات الحدودية فى مجتمعات (حلايب ـ أبى رماد ـ شلاتين) ثم أخيرا تنمية مجتمعات شمال سيناء وجنوبها وفى هذا الفصل نعرض لإحدى تجارب ومشروعات التنمية الاجتماعية وهى النوبة والتنمية والتغير .

- الأنثروبولوجيا والتكنولوجيا :

يشير *R.Bernard* ، وبلتو *P.Pelto* في كتابهما القيم " التكنولوجيا والتغير الإجتماعي : إلى أن البحوث الأنثروبولوجية إلى عهد قريب قد أهملت الإهتمام بالإبتكارات والإختراعات التكنولوجية وتأثيرها على الأنساق الإجتماعية والثقافية نظرا لأن قليل من الدراسات هي التي قد ركزت على تحليل أثر الإختراعات والإبتكارات والتغيرات من خلال الأعمال الحقلية التي تركز على معرفة وإدراك أهمية الجوانب المادية كالطرق ، والسدود ، ووسائل السفر بالطائرات ، والأنماط الجديدة من السيارات ، والنظم الطبية ، وتكنولوجيا الزراعات الحديثة ، والوسائل والأساليب التكنولوجية الأخرى وتأثيرها في مناطق ومجتمعات لم يسبق دراستها(١) .

وقد يرجع إهمال المعلومات التكنولوجية إلى الإفراط الزائد من قبل الأنثروبولوجيين والإثنولوجيين بالإهتمام بالقيم الإجتماعية ، والأبنية الإجتماعية وكل ماهو متعلق بالجوانب المعنوية أكثر من الإهتمام بالجوانب المادية في الحياة الاجتماعية والثقافية وهو تحيز مثالي لدى الأنثروبولوجيين على حد تبير مارفن هاريس(٢) .

ومما لاشك فيه أن التكنولوجيا تحدث تغيرات إجتماعية كثيرة أهمها التغيرات الكبيرة وهذه هي المصاحبة لإقامة السدود ، وإنشاء المصانع ، والمدن الجديدة وغيرها وقد يكون للمخططين الحكوميين دور كبير عند تصميم هذه المشروعات والإشراف على تنفيذها ، أما التغيرات التكنولوجية الأخرى فهي تغيرات صغيرة تشمل إحداث تغيرات في أنماط الإستهلاك المختلفة بإدخال سلع جديدة وإنشاء قنوات تجارية قد لايهتم بها المخططون الحكوميون .

ومن التغيرات التكنولوجية الكبيرة إقامة السدود على الأنهار في العالم ، وهذه تحدث تغيرات كبيرة على الإنسان الذي يعيش في منطقة إقامة السدود فنجد أن إقامة سد الكاريبا *Karibe / Dam* في زامبيا الذي أنشئ على نهر

الزامبيزي) *Zambezi* فى إقليم (كاريبا جورج) وإضطر مع إنشائه إلى أن يتم نقل ٥٧٠٠٠ نسمة من قبائل الجويمب تونجا *Gwemb Yonga* تاركين أرض الأجداد ليقيموا فى مناطق جديدة مواجهين مجموعة كبيرة من الصعوبات والمشكلات رغم ما أحدثه السد من تغيرات بنائية كثيرة [٢] .

ويمكن أن نستنتج من دراسة السدود أنه يجب أن نهتم ليس فحسب بالجوانب التكنولوجية والفنية لمشروعات تنمية الموارد المائية وبناء السدود بصفة خاصة وإنما يجب أيضا النظر إلى التاثيرات المصاحبة فى البيئة وعلى الشعوب والجماعات الإنسانية التى تبنى هذه السدود من أجل تحقيق الرفاهية لهم ، وهذا يؤكد فكرة النظرة التكاملية عند الأنثروبولوجيين فإنهم يهتمون بكل الجوانب المتعددة فى المشروعات التكنولوجية الضخمة سواء أكانت هندسية أو فنية وبيئية وإجتماعية وإقتصادية وإنسانية وغيرها وذلك فى إطار الإحتياجات القومية وخطط التنمية لأن بناء السدود فى الحققة يؤدى إلى تغيرات جذرية فى جوانب عديدة من الحياة الإقتصادية والإجتماعية لعدد كبير من الناس على أساس ما تتيحه من طاقة وتخزنه من مياه الشرب والرى مما يؤدى إلى زيادة الإنتاج الزراعى والصناعى .

ويرى حسين فهيم ـ فى دراسته عن السد العالى ـ أن السدود تبنى من أجل تحقيق هدف من أهداف التنمية فى المنطقة ، وهذه الأهداف تتضمن : توليد الطاقة الكهربائية ، وتخزين المياه للرى ، أو للصناعة ، أو للإستخدام الإنسانى اليومى مع العناية بالسيطرة على الفيضانات العالية وضبطها وتنظيم انسياب المياه من أجل الملاحة النهرية ، وفوائد أخرى كثيرة منها إنشاء وإقامة مراكز حضرية جديدة ، وتنمية صناعة الأسماك ، والصناعات الأخرى ، والزراعة حول شواطئ البحيرة وزيادة الدخل القومى من المشروعات السياحية والترويحية وقد تظهر كثير من الفوائد بعد التنفيذ كما قد تظهر أيضا بعض التاثيرات على البيئة وعلى الإنسان وهذا يؤكد فكرة أن السدود تمثل ضرورة أيكولوجية ، وإقتصادية من

أجل خدمة الأهداف الإجتماعية والقومية خاصة فى بلاد العالم الثالث والتى تعتمد إقتصادياتها على إستخدام التكنولوچيا الحديثة [٤] .

ومهما قيل بالنسبة للسد العالى من إيجابيات أو سلبيات فإن أى دراسة تحليلية منصفة تستطيع أن تستنتج الحقائق التالية :

ـ إن السد العالي عمل هندسى رائع يهدف إلى تحقيق إحتياجات ومتطلبات شعب يتزايد عدده باستمرار (حوالى ٥٥ مليون نسمة الآن) .

ـ إن كل السدود لها مشاكلها الخاصة والتى قد يدركها بعض المخططين أو قد يغفلون عن ادراك بعضها الآخر .

إن الدرس المستفاد من السد العالى هو أن السدود تبنى من أجل تحقيق أهداف قومية تحظى بحماس كبير ولكن قد ينقصها التخطيط المتكامل والمتابعة العملية .

ـ لمعالجة شئون السد أجريت ولاتزال تجرى الدولة مجموعة من الدراسات لمواجهة الآثار الجانبية لبناء السد [٥] . (وسنشير فى هذه الدراسة إلى بعض جوانب هذه الجهود) .

إن السد العالى كان ضرورة قومية وإن علاج المشاكل التى صاحبت الإنشاء ونتجت عن إقامته يجب النظر إليها على أنها ضرورة قومية أيضا يجب المشاركة فيها من جانب كل المتخصصين الإجتماعيين الأنثروبولوچيين وغيرهم ، وليست الآثار الجانبية للسد العالى هى الآثار الجانبية الوحية فإن كل السدود الأخرى لها آثارها الجانبية التى تؤثر على الأفراد والجماعات نظرا لتكوين المسطحات المائية الهائلة خلفها فتغمر الأراضى وتجبر سكان هذه الأراضى على الرحيل إلى أماكن أخرى كما حدث بالنسبة للنوبيين فقد تم تهجيرهم إلى منطقة كوم أمبو سنة ١٩٦٤ فى مصر وأما بالنسبة للنوبيين السودانيين فقد تم توطينهم فى منطقة " خشم الجربة " فى شرق السودان .

وإعتبرت الحكومة المصرية أن عملية إعادة التوطين للنوبيين مناسبة لتحسين أوضاعهم الإجتماعية وإحداث تغيرات إقتصادية جذرية للمجتمعات النوبية المحلية التى كانت تعانى من العزلة والحرمان من الخدمات التعليمية والصحية .

وقد ظهرت فكرة هذه الدراسة " النوبة ، والتنمية ، والتغير " فى عام ١٩٨٨ فقد تم دعوتى للمشاركة فى الإحتفالات النوبية باليوبيل الفضى لتهجير أبناء النوبة وذلك عن طريق الأندية النوبيـة بالاسكندرية وعلى وجـه الخـصـوص نادى توشكى الرياضى ، وقد إستمرت هذه الإحتفالات حتى نهاية شهر اغسطس ١٩٨٨ ، وفى هذه الإحتفالات واللقاءات والندوات تم تبادل الآراء حول السد العالى وحول النوبة الجديدة ومستقبل النوبة القديم والتنمية وخرجت من هذه المقابلات واللقاءات والاجتماعات بقناعة تامة بضرورة القيام بدراسة حقلية تشمل مجتمعى النوبة الجديد ، والقديم بعد التحولات التى أحدثها السد العالى .

- بعض الإعتبارات المنهجية :

يرى الدكتور أحمد أبوزيد أن المدرسة البريطانية فى الأثروبولوچيا البنائية قامت منذ البداية على أساس إجراء الدراسات الحقليـة فى المجتمعات التى أصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية ، وقد وضع الأنثروبولوچيون البنائيون لأنفسهم تقاليد وشروطا لاتزال تحكم هذه الدراسات والبحوث الحقلية وتتحكم فيها وتعتبر الآن من أهم العلامات التى تميزها عن غيرها من المدارس وهذه التقاليد والشروط تتعلق بحجم المجتمع موضوع الدراسة اذ لا يتعدى سكانه فى الأغلب بضعة ألوف قليلة والمدة الزمنية التى يجب أن يمضيها الباحث فى ذلك المجتمع مهما صغر حجمه حتى يمكن تنفيذ الدراسات المتعمقة ويحيط بكل جوانب ومظاهر الحياة الإجتماعية وكل الأنساق والنظم التى تؤلف بناء ذلك المجتمع كما تشترط أن يقوم الباحث بنفسه بجمع المعلومات الإثنوجرافية عن طريق معايشة الناس وملاحظة أنشطتهم المختلفة بل والمشاركة فى كثير من هذه الأنشطة حتى يمكن فهم المجتمع من الداخل وعن طريق التجربة الشخصية والممارسة الفعلية .

وقد يمضى الباحث الأنثروبولوجى المتأثر بتعاليم المدرسة البنائية البريطانية سنة واحدة كاملة على الأقل فى مجتمع محلى صغير(٦) .

إلا أنه قد حدث تطور فى المناهج الأنثروبولوجية فى العقود الأخيرة من هذا القرن نظرا لصعوبة وجود باحث أنثروبولوجى واحد يمضى فترات طويلة ينقطع فيها لدراسته الحقلية فى مجتمع واحد صغير ويترك كل أنشطته العلمية الأخرى من تدريس وإشراف وغيرها من أعباء علمية كثيرة ، لذلك ولكى تحافظ الدراسات الأنثروبولوجية على تقليد الإلمام التام بالمجتمع محل الدراسة فقد لجأ الأنثروبولوجيون إلى إحداث تطويرا جديدا هو الإعتماد على فريق البحث الذى يتعاون أعضاؤه معا حتى يستطيع أن يغطى تغطية تامة وكاملة وفعالة كل العلاقات الإجتماعية والنظم والأنساق والقيم والعادات والتقاليد والأعراف الخاصة بالمجتمع محل الدراسة.

ويعمل هذا الفريق تحت قيادة باحث أنثروبولوجى آخر لديه الخبرة الكافية والإلمام التام بمجتمع الدراسة أو الثقافة محل الدراسة ، ويتعاون الفريق فيما بينهم بعد تقسيم العمل وبعد التعرف على دائل العمل المستخدمة والمناهج والأساليب الأنثروبولوجية الأخرى فى جمع المادة الحقلية بعد إقامتهم فترة مناسبة يتم خلالها الإتصال فيما بينهم لمناقشة الصعوبات التى تواجههم أو المشكلات المختلفة والإتفاق على الحلول التى يتم التوصل إليها فى وجود الباحث الأنثروبولوجى الذى يتولى الإشراف على الدراسة .

وقد لاحظ بلتو *Pelto* فى كتابه البحث الأنثروبولوجى *Anthropological Research* أن وجود فريق البحث فى مجتمع واحد أو ثقافة واحدة له أهمية فى التأكد من صحة الملاحظات الحقلية ليس فقط من حيث الكيف وإنما أيضا من حيث الكم كما أنه عن طريق فريق العمل نستطيع أن نصل إلى تعميمات تكون إلى حد ما بعيدة عن التحيزات الشخصية ، كما وأن الفريق فضلا عن تغطيته لكل الوقائع الموجودة فى المجتمع فإنه عن طريق تعاون أعضائه

يستطيعون الإلمام بكل الأفعال الإجتماعية الكبيرة فى فترة زمنية قصيرة (٧) .

ويقوم فريق البحث الجماعى بتقديم التفسيرات المختلفة لبعض الظواهر الثقافية وهذه التفسيرات قد تكون إسهاما منهجيا فى البحث عن العوامل والأسباب التى أدت إلى هذا الإختلاف ويرى أوسكار لويس *Lewis* أن فريق البحث الجماعى يكون مفيدا فى الإسهام وتحقيق الأغراض المنهجية لوجود شخصيات مختلفة ولكل منهم خلفية ثقافية مختلفة عن الآخر كما يختلفون أيضا فى أنساق القيم وفى علاقاتهم الشخصية أثناء العمل الحقلى ، ولأهمية فريق البحث الجماعى إهتمت الأقسام العلمية للأنثروبولوچيا فى جامعات الولايات المتحدة بالتدريب الجماعى (٨) .

وقد قام كثير من علماء الأنثربولوچيا بالاشتراك فى فريق البحث الحقلى ونعطى بعض الأمثلة على ذلك كالدراسة التى أجريت فى الولايات المتحدة عن الإقتصاديات الزراعية وكان فريق البحث يضم فضلا عن الأنثروبولوچيين بعض السوسيولوجيين والسيكولوجيين وقد عمل هؤلاء العلماء تحت إشراف الدكتور كارل تايلور *Carl Tylor* وذلك عند التخطيط للبحث وأثناء مراحل البحث الحقلى كما إستخدمت جامعة هارفارد نمط البحث عن طريق الفريق فى الدراسات التى اجريت عن دراسات مقارنة عن القيم فى خمس ثقافات " وكذلك الدراسة التى أجريت عن النافاهو *Navaho* تحت اشراف وتوجيه كلاكهون *Kluckhohn* وقد اشترك فى هذه الدراسة فريق البحث المكون من عدد من الباحثين يمثلون الفروع المختلفة من التخصصات العلمية (٩) .

وقد قام قسم الأنثروبولوچيا منذ إنشائه بمجموعة كبيرة من الدراسات الحقلية فى المجتمعات المحلية المصرية بالتعاون مع بعض الهيئات العلمية المصرية والأجنبية وقد إعتمد على الفرق البحثية الحقلية المدربة حيث يتكون الفريق من باحث مسئول يساعده بعض الباحثين الحقليين المدربين ، ويقيم الفريق فى مجتمع الدراسة فترة مناسبة يتم خلالها جمع المادة الحقلية ونشير هنا إلى بعض هذه

الدراسات التى تمت مع الجهاز الإقليمى لتخطيط أسوان ، وإلى دراسة إعادة بناء الإنسان المصرى حيث كانت تنتشر الفرق البحثية فى كل المجتمعات المحلية للمجتمع المصرى وغيرها فضلا عن دراسة العمل اليدوى الذى تم بواسطة فرق البحث الحقلى التى إنضم إليها بعض السوسيولوجيين والتخصصات الأخرى .

وهذا يؤكد أنه بالرغم من التقاليد الأنثروبولوجية الراسخة فقد إستطاع قسم الأنثروبولوجيا أن يطورها ويستخدم نمط فرق العمل البحثية حتى يستطيع أن يختصر فترة الإقامة الطويلة فى المجتمع الصغير والذى كان يحتاج إلى أن يقيم فيه باحث واحد لمدة عام أو يزيد ، فقد كان يقوم بالعمل فريق الباحثين الأنثروبولوجيين المكون من أربعة باحثين بدراسة هذا المجتمع لمدة ثلاثة شهور وكلما زاد عدد أعضاء الفريق وتضافرت جهودهم أمكن إختصار هذه الفترة مع توفير العدد المدرب من الباحثين .

وهذا النمط من الدراسة الحقلية تم عند دراستنا عن " النوبة والتنمية والتغير " فقد اخترنا موضوعا واحدا لمجتمع واحد صغير نسبيا لايزيد عدد سكانه عن ٧٤٠٠٠ نسمة وذلك حسب الإحصاءات الرسمية التى قدمت من مركز مدينة نصر فى النوبة الجديدة (١٠) .

ـ خطة البحث وإجراءاته :

فى ضوء مجموعة اللقاءات والمقابلات مع القيادة الرسمية النوبية التى وفدت إلى الإسكندرية خلال شهر اغسطس ١٩٨٨ لحضور الإحتفالات واللقاءات التى أقامتها الأندية النوبية بمناسبة مرور ربع قرن على التهجير وبالرغم من المعرفة الوثيقة لى بمجتمع النوب الجديدة إلا إننى قمت بزيارة إستطاعية خلال شهر اكتوبر ١٩٨٨ عن الجوانب الإجتماعية والعناصر الثقافية الأخرى المتعلقة بالحياة اليومية والإستفادة من خبرة فريق الباحثين الحقليين المقيمين بالفعل فى النوبة منذ أوائل شهر يناير ١٩٨٩ لوضع الترتيبات الخاصة بالدراسة الحقلية وللوقوف على أهم المشروعات التنموية التى تمت فى قرى النوبة الجديدة فزرت مركز مدينة نصر

النوبة وبعض القرى النوبية القريبة ، وفي ضوء هذه الدراسة الاستطلاعية تم وضع دليل عمل وتدريب الفريق على هذا الدليل وعلى المقابلات المختلفة كما تضمن تدريب فريق البحث على شرح الخصائص السيكولوجية والإجتماعية والثقافية لمجتمع الدراسة والتعريف بأهم السمات المميزة للنوبة وكيفية تحقيق أهداف المقابلة العملية والحصول على المعلومات والتأكد من صحتها وإعطاء أكبر قدر من الدقة العلمية (١١) . مع مراعاة إستخدام المناهج والأساليب الأنثروبولوجية الأخرى كالملاحظة والملاحظة بالمشاركة وغيرها ، وعندما تكونت لدى فريق البحث فكرة واضحة عن النوبة الجديدة " المجتمع محل الدراسة " وبعد الإختيار الجيد لفريق الباحثين المدربين تدريبا أنثروبولوجيا تحت إشرافي في القسم والذين سيتولون القيام بجمع المادة الحقلية تم إختيار الفريق من المعيدين والمدرسين المساعدين وطلاب المنح والدراسات العليا والباحثين .

وقد وصل الفريق أول يناير ١٩٨٩ وقد انضم الى هذا الفريق في النصف الثاني من شهر يناير ١٩٨٩ طلاب السنة الرابعة بالقسم تحت إشراف كل من الدكتورة لبيبة محمد مرسي والدكتور مصطفى عوض لتدريبهم على الدراسة الحقلية في المجتمعات وكان عددهم أربعين طالبا وطالبة وإنحصرت مهمتهم في التدريب على الدراسة الحقلية في المجتمعات وكان عدهم أربعين طالبا وطالبة وإنحصرت مهمتهم في التدريب على جمع المعلومات وكان كل إهتمام أعضاء الفريق منصبا على جمع المعلومات عن التنمية ومشروعاتها ومدى المشاركة فيها والمعوقات المجتمعية التي تواجه النوبيين أنفسهم مع التركيز بصفة خاصة على النظرة المستقلية لدى النوبيين في العودة إلى النوبة القديمة .

وكان الفريق يقوم بجمع المادة تحت إشرافي المباشر كما كنت أقوم بنفسي بجمع المادة المتعلقة بالتنمية والتغير ولم أكتف بمجرد التوجيه والإرشاد والمراجعة اليومية للمادة التي جمعت والتي كانت تأخذ فترة من الليل سواء في عملية التسجيل بالنسبة لي وللباحثين والحقليين أو المراجعة اليومية لي لكل ما سجله

الباحثون من معلومات .

وبعد عودة الفريق إلى الإسكندرية فى نهاية شهر يناير ١٩٨٩ تم مراجعة المادة العلمية التى رجع بها الفريق بحثا عن أى فجوات تكون قد ظهرت حتى يمكن إستكمالها فى المرحلة التالية .

وضعت خطة المرحلة التالية من الدراسة على أساس التركيز على دراسة النوبة القديمة (أبو سمبل) والوقوف على المشروعات الجديدة وقام الفريق فور وصوله يوم ١٩٨٩/٢/١٨ وإقامته فى أبى سمبل فى النوبة القديمة حيث أقاموا فى ضيافة النوبيين الذين عادوا إلى النوبة القديمة ، وزار الفريق هذه القرى وتمت عدة مقابلات مع النوبيين أنفسهم فى القرى التى أنشئت حديثا على ضفاف بحيرة السد العالى ، كما تمت عدة مقابلات مع المسئولين بهيئة تنمية بحيرة السد العالى بمعرفتى وبعض أعضاء الفريق .

وإستمرت الدراسة فى منطقة النوبة القديمة حتى يوم ١٩٨٩/٢/٢٤ قمت بعدها والفريق بالتوجه إلى مركز مدينة نصر النوبة لدراسة المعلومات الناقصة فى المرحلة السابقة وإستكمال دراسة الفريق فى منطقة قرى الكنوز والقرى الجنوبية وقد إستمرت إقامة الفريق فى النوبة الجديدة خلال هذه المرحلة حتى ١٩٨٩/٣/٢ . وبدأ الفريق فى العودة مرة أخرى إلى الإسكندرية .

ونظرا لحجم المادة الحقلية وكثافتها فقد تم الإستعانة بباحثين من القسم فى تفريغ المادة التى جمعت فى ضوء المعلومات الأساسية لدليل العمل سواء أكانت هذه المعلومات ملاحظات ميدانية أو المقابلات المسجلة بطريقة تقليدية أو المقابلات التى سجلت على شرائط وإستمرا فى العمل ما يزيد عن شهرين .

وقد إهتمت الدراسة الحالية " النوبة والتنمية والتغير " بنقطة مركزية أساسية ركزت على معالجتها وهى أن التنمية تحدث تغيرا إجتماعيا وثقافيا يمتد أثره إلى القيم الراسخة التى يظن خطأ بأنها جامدة وغير قابلة للتغير .

فالسد العالى كمشروع تنموى ضخم صاحبته مشروعات تنموية أخرى أحدث تغيرا إجتماعيا جذريا فى مصر لكها ولابد أنه قد أحدثت مشروعات التنمية فى النوبة الجديدة (مركز مدينة نصر وقراه) والمشروعات التى تقوم بها هيئة تنمية بحيرة السد العالى والمشروعات التى يقيمها المواطنون أنفسهم لابد وأنها أحدثت وتحدث تغيرات إجتماعية وثقافية على النوبيين أنفسهم باعتبارهم جماعات عرقية لها مميزاتها الخاصة والتى توضحها هذه الدراسة ، ووجهة نظرهم فيما يحدث من تغيرات إجتماعية وثقافية ومدى مشاركتهم فيها .

وهذا ما توضحه دراسة " النوبة والتنمية والتغير " .

ـ الدراسات السابقة :

مما يجدر الإشارة إليه أن هناك دراسات إجتماعية وأنثروبولوجية كثيرة قد تمت على مجتمع النوبة الجديدة وقد يكون من الصعب فى هذه الدراسة حصرها كلها وإنما نشير إلى بعضها بإيجاز شديد باعتبارها أمثلة ونماذج لما تم من دراسات سابقة وهى :

ـ الدراسة التى قام بها مركز البحوث الإجتماعية بالجامعة الأمريكية بمساهمة مالية من مؤسسة فورد لمجموعة من الوثائق عن الثقافة النوبية المعاصرة وتنظيمها الإجتماعى وقد عرف المشروع باسم المسح الإثنوجرافى للنوبة عام ١٩٦١ والذى تم فى عام ١٩٦٥ .

ـ الدراسات التى قامت بها وزارة الشئون الإجتماعية عن النوبة القديمة والحديثة ولكن نتائج هذه الدراسة ظهرت فى شكل تقارير رسمية تنقصها الدقة العلمية .

ـ الدراسات التى أقامها المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية والتى لم تطبع أو تنشر أو حتى تكتب فى صورتها الأخيرة .

ـ الدراسة القيمة التى قام بها الدكتور / السيد حامد لمجتمع النوبة

الجديدة والتى نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عام ١٩٧٢ وعنوانها " النوبة الجديدة دراسة فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية " وهذه الدراسة سدت نقصا فى المكتبة العربية بالاضافة إلى أهميتها العلمية والمنهجية على السواء .

ـ قام قسم الأنثروبولوجيا منذ إنشائه فى عام ١٩٧٤ / ١٩٧٥ بالإهتمام بالمجتمعات النائية ومنها مجتمع النوبة وقام طلاب الدراسات العليا بعدة دراسات عن النوبة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر دراسة الدكتور محمد عباس عن الثقافات الفرعية وقد إهتمت الدراسة بالنوبيين المهاجرين والمقيمين بالاسكندرية والإهتمام بثقافاتهم .

كما قام القسم بدراسة مشتركة مع مشروع التخطيط الإقليمى بمحافظة أسوان عن النوبة لم تنشر بعد .

ـ دراسة الدكتور حسين فهيم عن السدود والناس والتنمية باللغة الإنجليزية والذى تناول فيها النوبة القديمة فضلا عن مقالاته المختلفة عن النوبيين

Fahim, H.M. Dams, People and Development The Aswan High Dam Case, Berjamon Press New York 1981 .

ـ الدراسة التى قام بها د. محمد الجوهرى مصطحبا فريق من الباحثين والمشرفين و ٢٠ طالبا وطالبة من كلية الآداب جامعة القاهرة والتى تناولت بعض مظاهر التغير فى مجتمع غرب أسوان دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية والتى نشرتها جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ .

ـ دراسة بيتر جيزر *P.Geiser* وعنوانها :" النوبى المصرى دراسة فى " التكافل الإجتماعى " باللغة الإنجليزية ونشرتها مطبعة الجامعة الأمريكية بمصر سنة ١٩٨٦ .

Geiser P. The Egyptian Nubian, A Study in Social Symbiosis, The American Un. in Cairo Press 1986 .

فضلا عن دراسات أخرى باللغة الإنجليزية .

وإذا كنت قد أشرت فى عجالة إلى بعض الدراسات عن النوبة الجديدة والنوبة القديمة فلم يكن الهدف هو الحصر الشامل لهذه الدراسة أو التعليق عليها الأمر الذى لايتسع له مقام هذه الدراسة وإنما كان الهدف فقط هو مجرد إلقاء الضوء على بعض هذه الدراسات .

وتشتمل الدراسة الحالية فضلا عن المقدمة التى أوضحت بعض الإعتبارات المنهجية الأجزاء التالية :

١ ـ مجتمع الدراسة بين العلاقات العرقية ومشاعر الأقلية .
٢ ـ النوبة والتنمية .
٣ ـ الجهد الحكومى فى تنمية بحيرة السد العالى (النوبة القديمة) .
٤ ـ إشارة إلى الجهود الفردية النوبية لتنمية النوبة القديمة .
٥ ـ النوبة والتغير .
٦ ـ الخاتمة وإشتملت على أهم نتائج الدراسة الحقلية وبعض التوصيات .
٧ ـ ثبت بمراجع الدراسة والهوامش .

ـ مجتمع الدراسة بين العلاقات العرقية ومشاعر الأقلية :

إمتدت منطقة النوبة تاريخيا إلى الجنوب من مدينة أسوان ولمسافة تبلغ حوالى ٣٢٠ كيلو مترا حتى الحدود المصرية السودانية [١٢] . وتقع منطقة النوبة أو " نوب " أو " نوبو" القديمة أو " أرض الذهب " كما كان يسميها القدماء [١٣] شمال خط عرض ٢٢ شمالا .

ومنطقة النوبة جزء من الصحراء الكبرى تلاصق الأجزاء المأهولة منها نهر النيل قبل التهجير وتحدها شرقا وغربا الصحراء بمرتفعاتها الصخرية التى يتخللها بعض المناطق الرملية والحجرية المتموجة . والنوبة القديمة تبعا لموقعها وطبيعتها منطقة جبلية جرداء ليس بها طرق برية صالحة للإنتقال ، وقد تسبب ذلك فى عزلة النوبة القديمة النسبية حيث توزع السكان على ٦٠٠ نجع على مسافة

طولها ٣٢٠ كم تقريبا [١٤] .

وكانت النوبة القديمة تضم ٢٨ قرية وكل قرية تحتوى على مجموعة من النجوع وقد تباعدت المسافات بين هذه القرى ونجوعها وإنقسمت القرى السابقة إلى ثلاثة جماعات عرقية هى الكنوز فى الشمال ، والعرب فى الوسط ، والنوبيين فى الجنوب .

ونجد قرى الكنوز تشمل دابود ، دهميت ، الأمبركاب ، كلابشة ، أبو هور ، مرواو ، ماريا ، جرف حسين ، قرشة ، كشتمنة غرب ، كشتمنة شرق ، الدكة ، قورتة ، العلاقى ، السيالة ، المحرقة ، المضيق وعددها سبعة عشر قرية .

أما قرى العرب فشملت السبوع ، وادى العرب ، شاترمة ، السنقارى ، المالكى وعددها خمسة قرى ، أما قرى النوبة (الفاديجا) فقد اشتملت على كروسكو ، والريقة ، الديوان ، الدوروتنقالة ، توماس وعافية ، قتة ، ابريم والجزيرة والشباك ، عنيبة ، مصمص ، توشكى غرب ، تشوكى شرق ، ارمنا ، أبو سنبل ، قسطل ، بلانة ، ادندان وعددها سبعة عشر قرية [١٥] .

وقد إختار النوبيون عند التهجير فى عام ١٩٦٣ منطقة أراضى الإستصلاح الزراعى الجديدة بمنطقة كوم امبو فى محافظة أسوان ، وتقع على بعد حوالى ٥٠ كيلو مترا إلى الشمال من مدينة أسوان وتمتد على طول المنطقة شمال وشرق مدينة كوم أمبو ويتخللها طريق ممهد للمواصلات يربط جميع القرى النوبية بعضها ببعض وبمدينة أسوان وكوم امبو ، وطريق آخر من مدينة نصر النوبة ومدينة كوم امبو ، وذلك على عكس ماكانت عليه النوبة القديمة فلم يكن هناك إلا النيل كطريق للمواصفات وكانت حالة الملاحة ترتبط إرتباطا وثيقا بنظام وفترات الخزين بسد أسوان وكانت تتوقف تماما لمدة شهر ونصف إبتداء من منتصف شهر يونيو إلى أوائل شهر أغسطس ولم تكن هناك إلا فترة خمسة شهور تصلح فيها الملاحة وتبدأ من شهر ديسمبر وفيما عدا ذلك فالملاحة صالحة فى وسط النهر مع صعوبة الوصول إلى الشاطئ ، وهذا يؤكد فكرة عزلة القرى عن بعضها نظرا لصعوبة

الإنتقال بين القرى التى كانت ممتدة على طول ضفتى النيل شمالا وجنوبا وقد كانت وسيلة الإنتقال الوحيدة بين القرى والنجوع القريبة الدواب (١٦) .

وفى النوبة الجديدة يقيم الكنوز فى القسم الشمالي من المنطقة ويشمل ١٧ قرية ، ويقيم العرب فى القسم الأوسط ويشمل ٥ قرى ، ويقيم النوبيين فى القسم الجنوبى ويضم ١٨ قرية فالإقليم النوبى ينقسم إلى ثلاث مناطق وفقا للتقسيم الأصلى فى النوبة القديمة تتوسط مدينة نصر العاصمة الجديدة التى تضم ست قرى هى : كروسكو والريقة وأبوحنضل والدر والديوان وقتة ، ولم تكن نصر موجودة فى النوبة الأصلية حيث كانت عنيبة هى العاصمة وتحمل القرى أسماء نظائرها نفسها فى النوبة الأصلية وقد بلغ عدد القرى فى النوبة الجديدة ٤٣ قرية .

ويتكلم الكنوز اللغة الماتوكية ، أما النوبيون فيتكلمون اللغة النوبية وتسمى " الفيديكية" والقليل من الكنوز ومن النوبيين يعرف لغة الأخر وتسمى اللغتان" الرطان " وتنتميان إلى اللغة النوبية القديمة ولا يعرف العرب اللغتين حيث يتكلمون اللغة العربية .

ومصطلح النوبة *Nouba* يطلق أيضا على السكان الزنوج الذين يقطنون الجزء الجنوبى الشرقى من كردفان الحالية (١٧) .

وعلى الرغم مما يبديه النوبيون المقيمون بالنوبة الجديدة من إعتراضهم على المساكن التى أنشئت عند التهجير وكذلك الأراضى الزراعية إلا أننا نجدهم راضين كل الرضا عن الخدمات الكثيرة التى تقام فى المجتمع المحلى وذلك نظرا لضخامتها ولنوعيتها المتميزة عن ذى قبل .

ففي مجال الاتصالات والنقل نجد خدمات البريد ، والتلغراف ، والتليفون التي تربط القري النوبية بعضها ببعض فضلا عن ربط النوبة الجديدة كلها بمصر ودول الخارج أما بالنسبة للنقل فنجد الطرق المعبدة وخدمات النقل العام (الأتوبيس) المنظمة فضلا عن خطوط السكك الحديدية .

أما فى مجال خدمات التموين والأسواق فلم تكن موجودة فى النوبة القديمة وقد أقيمت فى النوبة الجديدة كثير من الأسواق الكبيرة فى المدن لتمد النوبيين بكل ما يحتاجون إليه وكذلك المجمعات الإستهلاكية والمخابز الآلية حيث كان النوبيون يعتمدون من قبل على خبز الخبز التقليدى فى بيوت النوبة القديمة . فضلا عن مد القرى النوبية بالمياه النقية عن طريق مايزيد عن ٢٠٠ صنبور ، وأصبحت الكهرباء متوفرة وتضئ الطرق فى المدن والقرى والمصالح الحكومية كما تم توصيلها إلى كثير من المنازل فى القرى .

وبالنسبة للخدمات الأمنية فقد توفرت خدمة فى مدينة نصر فأنشئ مركز للشرطة وأربعة مراكز أخرى لخدمة القرى النوبية ، وفى مجال التعليم توجد مدارس فى مثل المستويات المختلفة الموجودة فى المدن الرئيسية والكبيرة فى مصر ولكنها تتميز بالأداء الطيب ، ويحرص النوبيون على إقامة المدارس المختلفة بجهودهم الذاتية وعن طريق التبرعات التى تجمع من المهاجرين .

كما توفرت فى النوبة الجديدة مجموعة من الخدمات الإجتماعية والصحية التى تمثلت فى المراكز الإجتماعية والأندية الشبابية ومراكز التنمية الإجتماعية ، وهذه الوحدات الإجتماعية لاتقوم بحسب بالأنشطة الإجتماعية وإنما لها دور نشط فى تقوية الروابط الإجتماعية بين النوبيين داخل القرى المختلفة وبين النوبيين المهاجرين إلى مدن مصر وإلى خارجها .

وإذا كانت النوبة القديمة تفتقر إلى الخدمات الصحية حيث كانت توجد وحدة صحية للخدمات الصحية السريعة ومركزطبى ومستشفى لعلاج البلهارسيا دون وجود الأطباء المتخصصين والمرضين . فإن الخدمات الصحية فى النوبة الجديدة شهدت تطورا ملحوظا حيث أنشئت عشرة وحدات صحية صغيرة وأربعة وحدات صحية كبيرة تقوم بالعلاج وإجراء المهام الأخرى التى تؤديها المستشفيات وفى مركز نصر نجد المستشفى العام (٢٠٠ سرير) وكلها خدمات صحية مجانية، كما تقوم العيادات الصغيرة تقديم الخدمات الصحية للأسر وتستفيد المرأة النوبية

من الخدمات الطبية المقدمة فى هذه العيادات إلا أنها ترفض خدمات تنظيم الأسرة لأنها تهتم بزيادة النسل (١٨) .

ـ الجماعات العرقية : *Ethnic Groups*

تعد الجماعات العرقية تصنيفا محدودا إجتماعيا وسط مجموع السكان وهى تختلف ثقافيا عن المجتمع الكبير نظرا لأن أعضاء الجماعة العرقية يظنون ويشعرون بأنهم مرتبطون مع بعضهم البعض بروابط عامة من السلالة القومية أو الثقافة . وتعد علاقة الجماعات العرقية بالمجتمع الكبير ومع الجماعات الإجتماعية الأخرى واحدة من المشكلات الرئيسية عند وصف الجماعات العرقية وتحليلها .

وعلى حد قول روث بندكت عند حديثها عن الصراع السلالى إننا فى حاجة إلى فهم أسباب الصراع وليست السلالة نفسها وذلك حتى نستطيع فهم الجماعات العرقية ودورها فى البناء الإجتماعى لأنه ليست الإختلافات الثقافية أو العرقية التى تحتاج إلى التركيز عليها وفهمها عند الدراسة وإنما العلاقات الإجتماعية لهذه الجماعة(١٩) .

ويرى موريس *H.S.Morris* أن الجماعة العرقية يمكن النظر إليها على أنها طبقة إجتماعية لأن الثقافات الفرعية أساس التقسيم الطبقى نظرا لأن أعضاء الجماعة العرقية والطبقة تتميز بما يلى :

ـ قوة إنتماء الأفراد إلى الطبقة أو الجماعة العرقية بمعنى أن كل واحد منهم يشارك فى بعض الإلتزامات الخاصة بهذه الجماعة والتى تختلف عن الطبقات الأخرى .

ـ تتصف الطبقة بالشمول بحيث ينضم إليها كل أعضائها فى المجتمع وكذلك الجماعة العرقية .

ـ يجب أن يكون فى الطبقة نظام للتمايز الإجتماعى وللمكانات الإجتماعية وللدرجات الإجتماعية وقد نجد ذلك فى بعض الجماعات العرقية .

إذن يمكن النظر إلى الجماعة العرقية بإعتبارها طبقة إجتماعية فهى تجمع من الناس وهم يختلفون عن الناس الذين ينتمون إلى طبقات أخرى (٢٠) .

وعند دراسة الجماعات العرقية يجب الإهتمام أيضا بالمتطلبات الإقتصادية والسياسية والدينية لهذه الجماعات وهذه نتيجة طبيعية نظرا للإهتمام بالإتجاه البنائى عند دراسة الجماعة وأيضا نظرا للأدوار الخاصة التى تقوم بها الجماعات العرقية ، فقد إهتم الأوروبيون بدراسة الهنود عندما حكموا افريقيا بإعتبارهم جماعات عرقية غير الجماعات الإفريقية والجماعات العربية نظرا للإختلافات والتباين العرقى والثقافى ، وقد حدث ـ رغم تعاليم الإسلام ـ الصراع بين الجماعات العرقية والجماعات الوطنية وتهدف هذه الصراعات غالبا إلى السعى لدى إتحاد هذه الجماعات وتؤكد استمرار ترابطها (٢١) .

وقد تسيطر على الجماعات العرقية فكرة الإعتداد بالجنس *Ethnocentrism* فتبالغ الجماعة العرقية فى تقدير مكانتها داخل المجتمع وذلك مع الحط من شأن النظم السائدة فى المجتمعات ، فالإعتداد بالجنس هو الإعجاب بمظاهر الحياة الإجتماعية أو الثقافة السائدة عند الشعب الذى تنتمى إليه هذه الجماعات العرقية والإشادة بتلك الثقافة بشكل مبالغ فيه مما يؤدى فى الغالب إلى الحط من ثقافة السلالات الأخرى (٢٢) .

ومما يجدر الإشارة إليه ضرورة التمييز بإيجاز بين الجماعة القومية والجماعة الثقافية ، والجماعة السلالية ، فالجماعة القومية تشير إلى مجموعة من الناس يعيشون فى منطقة جغرافية محددة ويخضعون لحكومة مشتركة كل فرد فيها يحتفظ بحق المواطنة *Citizenship* وأن الأفراد فى ظل الجماعة القومية يظلهم لواء سلطة حكومية ، وبمعنى آخر فإن الجماعة القومية تتميز بالعضوية السياسية وليس بمعيار آخر ولذا نجد فى نطاق مثل هذه الجماعة أنماط فيزيقية متعددة ، أما الجماعة الثقافية فإنها تتميز بالمشابهة فى طرق التفكير وعلى نطاق ما أو أكثر من نطاقات الحياة الأساسية ، فإذا استخدمنا ما أسماه *Wissler*

بالنمط الثقافى العام *Universal Cultural Pattern* فإن الجماعة الثقافية تتميز بالمتشابهات في واحد أو أكثر من الميادين الأساسية فى الحياة كاللغة والحياة الأسرية والمعرفة العلمية والسمات المادية والميثولوجيا والحكومة والملكية ، وإن إعتبار الفرد نفسه عضوا فى جماعة ثقافية يعتمد على الدرجة التى يكتسب فيها السمات الثقافية المشاعة لدى أعضاء جماعته ، ومن هنا فإن الجماعة الثقافية قد تشتمل على أعضاء ينتمون فى الأصل إلى جماعات سلالية أو قومية مختلفة ، أما الجماعة السلالية فهى تشير إلى جماعة من الناس يمتلكون فى غالبيتهم ملامح فيزيقية ، أو هى جماعة من الناس لهم ملامح فيزيقية متوارثة مثل لون الجلد ، شكل الرأس ، ملامح الوجه ، إرتفاع القامة .. الخ حيث المشابهة يمكن ملاحظتها بين أفراد الجماعة الواحدة والتى تميزهم عما عداهم من أفراد الجماعات السلالية الأخرى .

ويمكن أن ينطبق مفهوم السلالة على الجماعة العرقية والتى تتكون من أشخاص يرتبطون معا بملامح وخصائص ثقافية وفيزيقية تحدد لهم مراكز أو وصف مختلف عن الجماعة الغالبة التى تعيش فى نطاقها الجماعة العرقية .

وباختصار فإن للجماعة العرقية بناءها ، وإن ثمة عوامل مشتركة كالأصل الواحد أو السلالة الواحدة أو الثقافة المشتركة وكذلك لدين أو اللغة تحدد الإطار الثقافى وطريقة التفاعل ومظاهر التأقلم للعمليات الإجتماعية ، وجميعها تؤثر تأثيرا بالغا فى السلوك وتجعل الجماعة العرقية لها حدودها الإجتماعية . وهذا يساعدها على أداء وظيفتها كوحدة فى تعاملها مع الغرباء أو أولئك الذين ينتمون إلى جماعات أخرى [٢٣] .

ونجد أن الملامح الأساسية للجماعات العرقية يمكن أن تنطبق على النوبيين فهم ينتمون إلى ثلاث سلالات بشرية هى (الكنوز ، العرب ، النوبيين (الناويجا) رغم أن السكان جميعا يطلق عليهم مصطلح النوبيين ، ووجود التشابه الكبير فى الملامح الخاصة بالوجه رغم إختلاف درجة " دكانة " لون البشرة ، ونجدهم

يحافظون على القيم والعادات والتقاليد الخاصة بهم ويعتزون بتراثهم المتوارث .

ـ جماعات الأقلية : *Minority groups*

يرى ينجر *J.M Yinge* أن ظهـور الأقليـات *Minorities* يرجـع إلى خمسة آلاف سنة نتيجة ظهور إقتصاديات الزراعة ووجود وفرة الغذاء التى سمحت بعد ذلك بنمو المدن والتخصص والتجارة مما أدى إلى الإحتكاك المكثف بين أعضاء من مختلف الجماعات كما أدى إلى الهجرات الجماعية أو الحروب . والهجرة إلى الوحدات السياسية الأكبر والأكثر نموا وإلى المجتمعات ذات الجماعات العديدة كما ساعدت الحروب أيضا على ظهور الأقليات نظرا لوجود جماعة إنسانية كانت أقل قدرة وقوة من الجماعات الأخرى فى المجتمع كما أنها أصبحت أقل حماية لنفسها أيضا وبالتالى فى الحصول على المساواة فى المعاملة مع الجماعات الأخرى فأصبحت من جماعات الأقلية [٢٤] .

ويصف علماء الإجتماع المعاصرين الأقلية بأنها جماعة من الناس تختلف عن الجماعات الأخرى باختلاف العرق ، أو السلالة ، أو القومية ، أو الدين أو اللغة وهى جماعة مختلفة ينقصها القوة ومن ثم فهى فى حاجة إلى الإستثناء والمعاملة المختلفة أما الذين لايدرسون جماعة الأقلية فى البناء الإجتماعى فيرون أن معنى مصطلح (الأقلية *minority*) هو من الناحية اللغوية مجرد جماعة صغيرة من الناس تعيش فى وسط جماعة كبيرة ونجد صعوبة هذا التعريف تتمثل فى الإختلافات الثقافية بالنسبة للأغلبية *Majority* والأقلية وإلى السلالات المختلفة ، والقوميات والديانات ، واللغات التى يمكن أن تستمر عبر الأجيال المختلفة [٢٥] .

إن الجماعات الصغيرة تتميز بمجموعة من الإتجاهات والسلوك ، وإن أعضاء هذه الجماعات ليست لهم أهمية عند تحديد المكانة الإجتماعية التى تعتمد على القوة ومهما كان عدد أعضاء الجماعات الصغرى كبيرا فإن الأمر ليس بالعدد ، فقد يكون عدد أعضاء الجماعات الصغرى كبيرا كما هو الحال فى جنوب افريقيا حيث أن الجماعة الصغرى هم (السكان الأصليون) وهم أكثر عددا من

الجماعة المسيطرة التى تمثل الحكام البيض ويقسم *Yinger* الجماعات كما يلى :

ـ جماعات يتشابه أعضاؤها فى الوظائف والمكانة الإجتماعية الواحدة مثل جماعات الأصدقاء .

ـ جماعات تتميز بالإختلاف فى المراكز الإجتماعية إما أن تكون مؤقتة (علاقة التلاميذ بالأساتذة) أو أن تكون دائمة مثل (أنساق الطبقات) الجماعات ذات الأغلبية ، أو أنساق الطوائف [٢٦] .

أما مارفن هاريس *M.Harris* فإنه يرى بالاضافة إلى الطبقات الإجتماعية يمكن أن تقسم معظم الجماعات وتصنف تصنيفا آخر هذا التصنيف هو الجماعات السلالية *Racial Groups* . والجماعات العرقية ، والجماعات الثقافية وقد تسمى فى بعض الأحيان جماعات الأقلية أو جماعات الأغلبية وقد أوضح وجود إختلاف بين الجماعات العرقية والطبقات فيما يلى :

ـ طريقة الحياة المتميزة والنابعة من تقاليد ثقافية ربما تكون مستمدة من مجتمع آخر .

ـ قد ينتمى أعضاؤها إلى طبقات عدة .

ـ شعور أعضائها بتمايزهم كجماعة مختلفة عن بقية سكان المجتمع [٢٧] .

وتتميز الأقلية السلالية *Racial minority* التى ترجع إلى سلالة واحدة بأنها تملك ملامح فيزيقية موروثة نتيجة الحرص والإصرار على الزواج الاندواجى الذى إستمر فترات طويلة وقد توضع بعض المعايير البيولوجية الدقيقة من أجل تحديد اندماج الشخص إلى سلالة معينة وقد يكون هذا الشرط هو النقاء السلالى[٢٨] ، وفى رأينا أن حد النقاء السلالى أكذوبة فى العصر الحديث نظرا لاختلاط السلالات والأجناس كما هو الحال بالنسبة للهنود والصينيين والفلبينيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة نظرا لقبولهم الزواج من البيض حتى أن هناك خلط بين زنوج افريقيا والبيض فى الوقت الحاضر نتيجة الزواج المتبادل بينهما .

ويحدد A. M. Rose وظيفة الأقليات فى المجتمع *The function of minorities* فى أن الأقليات تتضمن الهيمنة على المراكز الاجتماعية الدنيا فى مجال أو أكثر من مجالات الحياة الإقتصادية أو السياسية أو القانونية أو الإجتماعية مما أدى إلى إرتباط الأقلية بالمراكز الإجتماعية الدنيا والوظائف المرتبطة بهذه المراكز فقد تمنع الأقلية من ممارسة الحقوق الممنوحة للأغلبية وقد لاتعطى مكانة إجتماعية مساوية للأغلبية فى الوظائف الخاصة بالقانون والعدل وقد تمنع الأقلية هى نفسها عن طريق التنبيه بين أعضائها من المشاركة فى مجالات الحياة السابقة جزئيا أو كليا وذلك نظرا للتباين الثقافى بين الأقلية والأغلبية فضلا عن العداء المتبادل بين الأغلبية والأقلية وقد يكون هذا العداء مجرد مظهر غير حقيقى ، ومما لاشك فيه أن علاقات الأغلبية والأقلية تتضمن وجود بعض الصراع الذى قد يأخذ أشكالا مختلفة مثل الإتجاهات العدائية أو الإجحاف وغيرها ويمكن أن نميز ثلاثة إتجاهات رئيسية فى هذا الصدد :

الإتجاه الأول : هو محاولة الجماعة المسيطرة ـ نظرا لما تتمتع به من قوة (عامل القوة) ـ فى السيطرة وإستغلال الأقلية لأغراض إقتصادية أو سياسية أو إجتماعية .

الإتجاه الثانى : وهو يتعلق بالجانب الأيديولوجى فالجماعة المسيطرة تعتقد أنها تسيطر نتيجة لإحتكارها بعض الحقائق الأيديولوجية ـ وتحاول أن تقنع جماعات الأقلية بوجهة نظرها ، وقد تستخدم وسائل وأساليب العنف وتنزل بجماعة الأقلية العقوبات البدنية .

الإتجاه الثالث : هو الإتجاه العنصرى .. فالجماعة المسيطرة تؤمن بأنها أكثر تفوقا من الناحية البيولوجية من جماعة الأقلية ، وبالتالى فإنها تضع الأقلية فى مرتبة أقل أو تصفها دائما بكثير من الصفات السلبية مثل : (الكسل ، عدم القدرة على العمل .. الخ) (٢٩).

ويركز مارفن هاريس على الفكرة التى سبق الإشارة إليها وهى أن الأقلية

والأغلبية فى المجتمع لا ترتبط باعداد الجماعات التى تنتمى إليها ، فقد تكون الأقلية ذات أعداد كبيرة كسكان جنوب افريقيا بينما تكون الأغلبية ذات السلطة والنفوذ وتمثل الأقلية العددية ، وهذا ما جعل ديسبرس *Leo Des pres* يرى أن النقطة المهمة التى يجب أن تؤخذ فى الإعتبار هى أن الأقليات والأغلبيات تتباين فى المكانة السياسية والإجتماعية والإقتصادية وفى درجة الحماية والكفاح من أجل الحصول على مكانة أفضل فى النسق الإجتماعى [٣٠].

ويحدد هاريس أن الزواج الاندوجامى داخل جماعة الأقلية إما أن يكون ضمن قيم الجماعة وممارستها ويعطى أمثلة على ذلك من الهيود والصينيين واليونانيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة ، والمسلمين فى الهند ، واليابانيين فى البرازيل حيث أن الاندوجامية لها قيمة ممارسة عن طريق جماعات الأقلية وقد يحترم بقية السكان هذه القيم فى جماعات الأقلية .

وقد تفرض الاندوجامية على الأقلية ويعطى أمثلة على ذلك من الزنوج فى الولايات المتحدة والملونين فى جنوب افريقيا حيث أن الزواج المختلط مغلق عليهم بصفة عاة بسبب العداد بينهم وبين بقية السكان وبذلك فليس لهم دوافع قوية فى أن يكونوا إندوجاميين ، وهناك أقليات أخرى تعيش فى الولايات المتحدة لاتملك قيم المحافظة على الزواج الداخلى أو أن تجد مقاومة خارجية من أجل الزواج بالآخرين، هذه الأقلية هى جماعة الألمان وجماعة الاسكتلنديين *Scots* الذين يعيشون فى الولايات المتحدة وكذلك جماعة الإيطاليين الذين يعيشون فى البرازيل فإنهم يسيرون دائما نحو التماثل وفقد الذاتية الإجتماعية كجماعة أولية . [٣١]

فاستمرار التماثل والزواج المختلط يؤدى إلى وجود ذرية مختلطة لكن يجدر الإشارة أن نسبة الزواج المشترك غير مرتفعة بالقياس بالزيادة الكبيرة فى عدد السكان الأصليين ، ولكل جماعة أقلية وسائلها الخاصة والمختلفة فى التكيف ، وأيضا قدرتها على التكيف حتى تستطيع أن تبقى وتعيش وتوفق فى الوضع الاجتماعى الخاص الذى تجد نفسها فيه وهذه المقدرة ترتبط بخبرتها الأولية ،

وبالتاريخ ، واللغة ، والثقافة فتعدد القدرات على التكيف يرتبط أيضا إلى حد كبير بالمجتمع الكبير الذى تعيش فيه هذه الأقلية فقد إستطاع اليهود تحقيق مكانة كبيرة فى الولايات المتحدة بعد سيطرتهم الإقتصادية ، كما وأن اليابانيين المهاجرين إلى البرازيل إحتلوا مكانة أيضا لأنهم قد ادخلوا المهارة الزراعية ونمط الزراعة المكثفة ، والزراعة عن طريق " العقل " فى البرازيل .

وإن التركيز على الفروق والإختلافات فى اللغة والدين والجوانب الفيزيقية الأخرى يزيد من إحساس الأقلية بالتضامن ويجعل أعضائها يستمرن فى البناء الإجتماعى ويتنافسون مع الجماعات الأخرى من أجل الوصول إلى المكانة الإجتماعية الأعلى (٣٢) .

وقد خلص روجر سانجك *R.Sanjek* بعد دراسته لـ ٢٣ قبيلة فى أكرا بغانا أن مصطلحات مثل اللغة ، والسلوك ، والملابس ، الإقامة العلامات المميزة للوجه قد لا تكون أساس للتمييز بين جماعات الأقلية والأغلبية وأن الدور الذى يلعبه السياسيون وتركيزهم على الذاتية الاجتماعية القبلية هو الأساس فى الحصول على المنافسة السياسية وإحتلال المراكز الإجتماعية (٣٣) .

وإذا كنا قد تعرضنا لجماعة الأقلية بالدراسة فإن ذلك يقودنا إلى السؤال عن : إلى أى حد تنطبق مميزات جماعة الأقلية على الجماعات النوبية ؟

فى ضوء الدراسة الحقلية للنوبة الجديدة والإحتكاك المستمر مع النوبة بمدينة الاسكندرية ، قد خلصنا إلى أنه لايمكن إنكار أن هناك إتجاهات وسلوك وتقاليد وعادات ثقافية بين النوبيين وشعور بالتمايز كجماعة مختلفة عن بقية السكان من حيث القيم والمعايير والمحافظة عليها .

كما يسيطر على النوبيين دائما المشاعر المرتبطة بجماعات الأقلية فنجد مشاعر الخوف ، والإحساس بالتضحية ، وضرورة المحافظة على القيم الخاصة المتمثلة فى التراث الاجتماعى ، فضلا عن المطالبة المستمرة بالحماية من جانب

الدولة وضرورة قيامها بالتعويض عما قدمه النوبيين من تضحيات منذ بناء خزان أسوان وحتى إتمام موضوع السد العالى .

وهذا كله قد ساعد الجماعات النوبية على المحافظة على الذاتية الاجتماعية التى قد ترجع إلى الزواج الإندوجامى والتمسك به .

وإذا كان *Fernea* يرى أن التحامل المصرى على النوبيين قد شجعهم على العمل والتعاون فيما بينهم للتكيف والعيش مع تجنب الإتصال بمعظم المصريين إلا عند الضرورة (٣٤) .

ولكنا نرى أن أى باحث منصف لن يجد أى تحامل بين الشعب المصرى وبين النوبيين المصريين بل نجد كل تشجيع لهم على لاعمل ولاعيش معا وقد نلاحظ ذلك فى المجتمعات الحضرية حيث لاتوجد مشاعر التحيز إلا نادرا ولا يؤثر لون البشرة فى العلاقات بين المصريين جميعا .

بل استطاع النوبيون عن طريق الأندية النوبية والتجمعات المختلفة أن يتولون المناصب السياسية التنفيذية فضلا على أن معظم المناصب الإدارية فى مدينة نصر النوبية يتولاها النوبيون أنفسهم كما يتولون مع إخوانهم من المصريين الأعمال الإجتماعية ذا المكانة العالية فى المجتمع المصرى .

ـ النوبة والتنمية :

تعرف لوسى مير *Lucy Mair* التنمية بقولها : إن التنمية فى معناها الأساسى عملية .. ويقصد بالعملية فى السياق المعاصر أنها حركة تجاه حالة أو وضع إجتماعى يفترض أنه قد وصلت إليه بعض الدول فى العالم ، أما تلك الدول التى لم تصل إلى هذا الوضع يطلق عليها البلاد المتخلفة ***Under developed*** وهذه التسمية لاتفضلها وتفضل أن يطلق عليها ***Less developed Countries (L.d.c)*** وتضيف لوسى مير بقولها : أن التنمية هى زيادة الناتج القومى ومن ثم زيادة فى الدخل الفردى ، وأن معدلات النمو هى المقياس الذى

يمكن إستخدامه فى مجال التنمية وكلما كانت معدلات النمو مرتفعة كلما سارت التنمية بخطى أسرع ، وأن أهداف التنمية تتلخص فى تحسين أوضاع المعيشة بالنسبة لكل الناس فى مجتمع ما وتخفيف حدة الفرق والجهل والمرض [٣٥] .

وتعد الستينات من هذا القرن عقد التنمية ، وقد عرفت دول بهذا الأسم نظرا لإستقلال معظم دول العالم الثالث والدور الذى لعبته مؤسسات الأمم المتحدة المتخصصة والحكومات القومية فى تحسين الظروف الإقتصادية والاجتماعية لبلادهم ، وتنفيذ كثير من مشروعات التنمية وسياساتها فى أجزاء العالم الثالث ، فقد أوضحت السبعينات كثيرا من النتائج السلبية حيث بدأت تظهر من جراء تنفيذ المشروعات الهندسية الكبيرة وإستخدام التكنولوجيا الحديثة دون دراسات تخطيطية وبدون الأخذ فى الإعتبار إحتمال حدوث آثار عكسية أو خسارة ، لذلك فقد تعرض مفهوم التنمية لوجهات نظر أكاديمية وسياسية متضاربة خاصة من حيث منظور كل من المخططين والمؤسسات الدولية والحكومات القومية ، كما نجد أيضا للجماعات الإنسانية التى توضح مشروعات التنمية من أجلهم منظورهم الخاص وتوقعاتهم التى كثيرا ما تتعارض مع مخططات الدولة وإمكانياتها ، وقد بدأ الإختلاف فى مفهوم التنمية واضحا ، وهذا ما أوضحه مؤتمر الأمم المتحدة عن العلم والتكنولوجيا والتنمية والذى عقد فى فيينا عام ١٩٧٩ وفى هذا المؤتمر أعلن سكرتيره العام إثنى عشر خاصة للتنمية ، وأشار إلى أن كل دولة تقوم بعمليات للتنمية من خلال مصالحها التى تتضمن العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية والروحية ، كذلك أوضح أن كل من الواجب أن يكون لكل شعب من الشعوب إختيار قرارات التنمية التى تؤدى فعلا إلى التقدم والتغير ، وفى هذا الصدد نجد أن التنمية تعد عملية للتغير المباشر إنها ذات جوانب متعددة متداخلة وتهدف إلى إحداث تقدم لايقتصر على المجال الإقتصادى فحسب وإنما يؤدى إلى تحسين نوعية الحياة *Quality of Life* وهذا أمر يختلف تقديره وأولوياته من مجتمع إلى آخر ومن فترة زمنية إلى أخرى ومن ثم يمكن أن نميز بين التنمية

كمفهوم وكونها استراتيجية ويجب الإهتمام بتحليل الأنماط والعلاقات المتبادلة من البيئة والثقافة (٣٦).

ومنذ مايزيد عن ثلاثين عاما فإن عمليات التنمية التى شهدتها الدول المختلفة كانت تهتم بالنظم وبالتغير الذى يحدث لها مع الإهتمام بالجهد المطلوب لإجراء التغير داخل هذه النظم وقد أسفرت كثير من البحوث المتعلقة بالتنمية عن ضرورة الإهتمام بالعلاقات الأساسية وفهمها الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى تنمية الأنساق الإجتماعية نفسها (٣٧) .

وتنمية المجتمع عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الإجتماعى والإقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته وإستغلال إمكانياته ، وهذه العملية ليست علمية حديثة فى نوعها ، فقد أثبتت الدرسات الأنثروبولوجية أن أفراد المجتمعات المحلية منذ زمن بعيد يتعاونون فيما بينهم فى مواجة إحتياجات مجتمعاتهم فقد تعاون أبناء القرية الواحدة فيبناء السدود لمواجهة خطر الفيضانات ، كما تعاونوا فى حفر الآبار والترع والمصارف أو إنشاء دور العبادة والمدارس والأمثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى من الهند وباكستان ومصر ، فالأهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم وإحتياجاتهم ويعملون متعاونين على تنمية مجتمعاتهم (٣٨) .

وتعرف الأمم المتحدة تنمية المجتمع بأنها تدعيم المجهودات الأهلية للمجتمع المحلى وربطها بالمجهودات الحكومية وذلك لتحسين الحالة الإقتصادية والإجتماعية والحضارية لهذا المجتمع على أن تكون خطط الإصلاح بهذه المجتمعات المحلية متمشية ومنسجمة مع خطط الإصلاح التامة للدولة .

ويرى أحمد أبو زيد إن هذا التعريف يتضمن ثلاثة مبادئ هامة تعد بمثابة الأركان الأساسية لعملية التنمية والتى يجب أن تتوفر فى أى مشروع من مشروعات التنمية حتى يمكن إعتبار ذلك المشروع داخلا فى نطاق فلسفة التنمية بالمعنى الدقيق للكلمة .

المبدأ الأول : وهو ضرورة إشتراك الأهالى والحكومة معا فى مشروعات التنمية وفى كل المراحل التى تمر بها عملية التنمية ، سواء فى ذلك التخطيط أو التنفيذ وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يعتبر فى نظر العلماء مبدأ جوهريا لايمكن إغفاله ، فإن الحكومات المختلفة تحاول ـ فى الأغلب ـ وتقوم بتنفيذ مشروعات التنمية بنفسها وبدون الرجوع إلى أفراد المجتمع الذين سوف يفيدون من ذلك المشروع لإستطلاع رأيهم ومعرفة وجهات نظرهم قبل الإقدام على التنفيذ ، وكثيرا مايؤدى ذلك الإغفال إلى إرتكاب أخطاء فادحة تتمثل بأجلى صورها فى التعارض بين هذه المشروعات والقيم الإجتماعية والثقافية بل والأوضاع العامة التى تسود فى المجتمع مما يؤدى إلى وقوف الأهالى من المشروع موقفا عدائيا ولذا يهتم معظم علماء التنمية بضرورة توعية الأهالى بأهمية المشروع وفوائده بل إن البعض ذهب إلى حد القول بضرورة أن تأتى المبادأة من الأهالى أنفسهم وليست الحكومة وهذا ما يحدث فى معظم الأحوال ، وقد وجدنا فى دراستنا الحقلية فى النوبة الجديدة أن الدولة إهتمت بإقامة المساكن الجديدة التى تختلف عن نمط البيت لانوبى وبدون أن تستشير أو تأخذ رأى الأهالى أنفسهم مما أثار غضبهم وأحدث تعديلات داخل مساكنهم وهذا ما ستوضحه الدراسة .

أما المبدأ الثانى : فهو أن مشروعات التنمية يجب أن تؤدى فى آخر الأمر إلى تحقيق التكامل القومى ، بمعنى أن يهدف المشروع إلى ربط المجتمع المحلى الذى ينفذ فيه ذلك المشروع بالمجتمع القومى الكبير بل وإلى ادماجه فيه بحيث يؤلف معه وحدة عضوية متماسكة ويتمثل ذلك على وجه الخصوص فى المشروعات التى تنفذ فى المناطق البعيدة المنعزلة التى تؤلف مجتمعات مغلقة لها نظمها وقيمها وثقافتها وقوانينها الخاصة كما هو الحال مثلا بين القبائل الصحراوية فى مختلف أنحاء العالم العربى ، ووسيلة مشروعات التنمية فى تحقيق هذه الوحدة القومية هى نقل القيم الإجتماعية وأنماط السلوك والعادات والتقاليد والتراث الإجتماعى والثقافى الذى يسود فى المجتمع الكبير إلى ذلك المجتمع المنعزل .

المبدأ الثالث : هو أن عملية التنمية هى بالضرورة عملية شاملة ومتكاملة

يمتزج فيها الجوانب الإقتصادية والجوانب الإجتماعية .. صحيح أن الأساس الأول الذى ترتكز عليه معظم - إن لم يكن كل - المشروعات التنموية هو الوضع الإقتصادى إلا أن الغاية الأخيرة من المشروع هو الإنسان والعمل على إعلاء شأنه بإعتبار أن الإنسان هو الذى يستفيد فى آخر الأمر من تلك المشروعات ومن الضرورى الأخذ فى الإعتبار إحتياجات أفراد المجتمع ومحاولة تحقيقها بقدر الإمكان ، ويرتبط هذا المبدأ بما سبق ذكره فى المبدأ الثانى من ضرورة أن يراعى مشروع التنمية القيم الإجتماعية والثقافية السائدة فى المجتمع (٣٩) .

ويشير آلان ادوار ، ودورثى جونس *A.Edwards & Jones* فى كتابهما المجتمع المحلى وتنميته *Community and Community Development* إن تعريف تنمية المجتمع يشير دائما إلى العمليات التى يحاول أعضاء المجتمع نتيجة بذل مجهوادتهم المكثفة للرقى بالمجتمع ، وهذه المجهودات التى يقومون بها ترجع إلى الفعل المجتمعى *Community action* وهى تسعى إلى إحداث التغير فى المجتمع المحلى عن طريق الرأى والإقناع أو عن طريق الصراع ويجب أن يكون التغير مرتبطا بالوحدة الإجتماعية المحلية ككل ، وإن الناس الذين يتأثرون به يرتبطون بهذه الوحدة الإجتماعية كما أن هؤلاء الذين يسهمون فى إحداث التغير مرتبطون أيضا بالمجتمع المحلى (٢٧) .

وإن الهدف من تنمية المجتمع هو وضع البرامج التى تنظم اشتراك الناس أنفسهم وهذه البرامج تساعد على إحداث التنمية وى ذلك ترى جين لاجاس *Jean Lagasse* أن هناك أربعة إعتقادات يجب أن نضعها نصب أعيننا من القيام بعملية تنمية المجتمعات المحلية وهى :

- إن كل الناس لديهم الرغبة فى تحسين ظروفهم المعيشية وأن لديهم أسباب شخصية وحاجات إجتماعية وأنهم عندما لا تشبع هذه الحاجات يشعرون بالتعاسة والرغبة فى ضرورة أن يتم شيئا ما من أجلهم .
- إن الذى يمنع إشباع وتحقيق هذه الحاجات قد تكون قلة المصادر أو

الكسل أو ضعف مستويات الطموح أما إذا ما جاءت الفرصة لإظهار هذه الحاجات وإشباعها فإن الناس سيكونو أكثر نشاطا وتقدما .

ـ إن كل الجماعات الإنسانية تستطيع أن تساعد نفسها عندما تعطى الفرصة لذلك .

ـ لكى نحقق التغير المطلوب يجب أن تؤثر فى الجوانب المختلفة للسلوك الإنسانى وفى الحياة الإجتماعية والإقتصادية لأن التغير جانب سيؤثر فى الجوانب الأخرى وبالتالى فإن رفض التغير فى أحد الجوانب يكون رفضا للجوانب الأخرى (٤١) .

وإن مهمة إعادة التوافق مهمة صعبة وتحتاج إلى مهارات إجتماعية ونفسية وإقتصادية وتعليمية حتى يمكن تنفيذها وحتى يمكن حدوث التغير لذلك فإن جوردن ماكجريجور *G Macgregor* فى دراسته عن تنمية المجتمع والتوافق الإجتماعى *Community Development and S.Adapation* يرى أنه يجب الإهتمام باستخدام المنهج الكلى *Holistic* الذى يشتمل على الجوانب الصحيحة ، والنمو النفسى ، والإجتماعى ، والإقتصادى ولأفعال الديموقراطية وحتى تتحقق الحياة الإجتماعية الكريمة للإنسان يجب أن تشتمل عمليات التنمية على :

ـ مناقشة الحاجات والمشكلات عن طريق أعضاء المجتمع نفسه مع بعض المستشارين .

ـ شرح الأسباب الداخلية والخارجية المسببة للحاجات والمشاكل حتى يمكن التعرف على مصادر الصعوبات الاجتماعية والنفسية والإقتصادية .

ـ التخطيط وإتخاذ القرارات يجب أن يتم بمعرفة المجتمع نفسه .

ـ الحاجة إلى المساعدة التكتيكية والإستشارات .

ـ يجب أن نأخذ فى الإعتبار أن أى دور نشط وفعال يبذل سيؤدى إلى النمو الإجتماعى والإقتصادى (٤٢) .

مما لاشك فيه أن التنمية عملية إجتماعية .. تراكمية .. تكاملية تتم فى إطار نسيج من الروابط بالغ التعقيد بسبب تكامل وتبادل مستمر بين العديد من العوامل

الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والإدارية والإنسانية هو هدفها النهائى ووسيلتها الرئيسية والمحصلة النهائية لهدف العلمية ليس مجرد حاصل جمع التغيرات التى تطرأ على الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والإدارية وإنما هى حصيلة نسيج التفاعلات المتبادلة بينهما والتى تشكل كل منها عاملا مستقلا . وتتوقف درجة أثر وتأثير وبالتالى أهمية كل من جوانب هذه العملية المجتمعية على الظروف التى تتم فى ظلها عملية التنمية من جهة وعلى الشروط التى تتطلبها مسيرة التنمية من جهة أخرى [٤٣] .

ويرى د . محمد الجوهرى بأن عملية تعبئة موارد المجتمع من أجل التنمية تنطوى فى جوهرها على نمو سريع فى ظاهرة تقسيم العمل ومعنى هذا أنه سوف يترتب على المزيد من التخصص والتعقيد سواء فى عدد العلاقات الإنسانية الجديدة التى تنشأ أو فى نوعية تلك العلاقات وذلك فى عدد ونوعيات الوحدات الإجتماعية الجديدة التى يشارك فيها أفراد المجتمع كما يمتد التنوع والتعقيد إلى الأدوار الإجتماعية التى يلعبها أولئك الأفراد وإلى المستويات التعليمية والأداء المهنى والمصالح الإقتصادية والظروف العائلية وأساليب الحياة والفلسفات الهامة فى الحياة والإتجاهات السياسية .. الخ كما يعنى المزيد من التنمية والإنتقال من دوائر العلاقات الإجتماعية الضيقة والمحدودة ذات الطابع الشخصى غالبا إلى دوائر أرحب لامتصاص من اصطباغها بالطابع الرسمى تصبح بذلك ذات طبيعة عامة تخضع لمعايير عامة لا تتأثر بالأشخاص ولذلك ينتقل الهيكل الاجتماعى العام للجماعات الصغيرة الى الكيانات الجماعية المجردة الكبيرة ذات الأجهزة التنظيمية المعقدة بالمجتمع يتحول من النظام الإجتماعى البسيط الساكن نسبيا إلى نظام إجتماعى متميز بالتعدد والحركية بل ويتميز والمرونة كذلك [٤٤] . نستنتج أن المشكلات البنائية تتمثل فى تعبئة الموارد ، التخصص ، وتعقد العلاقات الاجتماعية ، وتنوع الأدوار الإجتماعية ، الأدوار المهنية ، والمستويات التعليمية ، والمصالح الإقتصادية والإنتقال من دائرة العلاقات الإجتماعية الضيقة إلى العلاقات الرسمية .

وإذا كان الهدف من برامج التنمية الإجتماعية والإقتصادية فى أوسع معانيها هو تحسين الظروف الإقتصادية والإجتماعية والصحية والثقافية للمجتمعات ولا يمكن أن يتم ذلك دون تخطيط شامل متكامل مبنى على الحقائق والوقائع وعلى الدراسة العلمية الموضوعية وهنا يظهر الدور الذى يقوم به المتخصص فى الأنثروبولوجيا سواء من حيث القيام بإعداد الدراسات والوصول إلى المجتمعات أو استشارة الناس أنفسهم لبرامج التنمية ومشاركتهم فيها كما أن التغير السريع الذى نعيشه الآن وبعد وفاق الدول المتصارعة وسرعة إصدار القرارات وكما ترى لورا طومسون *Loura Thomson* أن العامل الثقافي عامل مهم عند إتخاذ القرارات لأن أى تغير يحدث يتمشى مع وجهة نظرنا وإلا فشلنا فى كل المشروعات لذلك يجب أن نراعى ثقافة الجماعات وإن مهمة الأنثروبولوجى الأساسية هى الثقافة التى تتضمن تحليل التغيير الثقافى والإهتمام بتحديد مسئولية الجماعة لمواجهة المشكلات (٤٥) .

وتشير لوسى مير إلى دور الأنثروبولوجى بالنسبة للتنمية أو ماذا يقوم الأنثروبولوجى ؟ وترى أن كل مشروعات التنمية تتطلب معرفة تكنولوجية من مصادر مختلفة عديدة مثل علماء التربة ، المهندسون الزراعيون ، والرى وهى تخصصات قد نحتاج إليها فى عملية التنمية لكن نظرا لمعرفة الأنثروبولوجيين بالمجتمعات الإنسانية الصغير فإنهم يستطيعون أن يقدموا الحقائق عن هذه المجتمعات كما يستطيعوا أن يقدموا التحذيرات أكثر من النصائح عند تقييم المشروعات التنموية ، ودور الأنثروبولوجى هو الفاعل الموجه *Actor - oriented* يرى سياسات عملية للتنمية ليس من أعلى من خلال أفكار صانعى السياسات ولكن من أسفل من خلال المستفيدين الفعليين من التنمية ومشروعاتها وتؤكد لوسى مير أن كثيرا من التحذيرات التى تقدم لرجال السلطة والإدارة تذهب سدى (٤٦) .

هناك أمثلة كبيرة توضح أن الأنثروبولوجى له دورا هاما فى برامج التنمية فقد ساهم الأنثروبولوجيون فى مشروعات محلية بتجاربهم وتعاونهم مع

المتخصصين في العلوم الأخرى كما قاموا بدور قيادى فى كثير من برامج التنمية التى تناولت الجماعات العرقية وكذلك المجتمعات الفردية والدور الذى قام به المعهد الهندسى القومى للمكسيك واضح تماما وقد إشترك الأنثروبولوچيون فى رسم البرامج وتنفيذها ومواجهة المشكلات الناجمة (٤٧) .

فالأنثروبولوچيون لم يخصصوا ويوجهوا إلا مشروعات محلية فقط كمشروع فيكرس وهى مشروعات تتطلب بطبيعة الحال تعاون المتخصصين فى العلوم الأخرى وفى حالات قليلة نجد علماء الأنثروبولوچيا يقومون بدور قيادى فى تلك الجوانب من برامج التنمية التى تتناول الجماعات العرقية المحلية أو الفردية ، وتحظى بعض وجهات النظر الأنثروبولوچية بتطبيق واسع النطاق فهناك إعترافا متزايدا بالتنمية بوصفها عملية تضم النسق الاجتماعى الثقافى الكلى وهذا ينطبق على أى برنامج قومى للتنمية كما ينطبق على المشروعات أو البرامج المحلية فعلى المستوى المحلى أسهم الأنثروبولوچيون إسهاما كبيرا فى فهم مشكلات تقبل أو ترفض التغير كما أسهموا إلى حد ما فى عمليات التخطيط والتغيير والتقويم (٤٨) .

إن نظرة علماء الأنثروبولوچيا إلى التنمية بوصفها تغيرات تدريجية فى الأساليب التكنولوجية والإقتصادية بل بوصفها عملية شاملة تهتم بالنسق الإجتماعى والثقافى فى كليته ، ولقد ركزت معظم المحاولات المبكرة التى سعت إلى دفع عملية التنمية إهتمامها بالعوامل التكنولوجية والإقتصادية (٤٩) .

ويشير رالف بيلز وزملاؤه فى كتابهم مقدمة الأنثروبولوچيا مجموعة التساؤلات الخاصة بالتنمية وأهميتها وهل التنمية تتمثل ببساطة فى إتاحة الفرصة لإستغلال أفضل للموارد حتى يمكن مواجهة إحتياجات مزيد من السكان أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان ؟ كيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية الحياة ؟

مما لاشك فيه أن عمليات التنمية تتطلب مزيدا من الإستفادة والإستغلال الواسع والمركز للموارد الطبيعية فكيف يمكن إحداث هذا التغير .. وغيرها من

التساؤلات الهامة فى مجال الأنثروبولوچيا وخصوصا فى جانبها التطبيقى (٥٠) .

وفى دراستنا الحالية عن النوبة الجديدة تبرز بعض العناصر العامة بالنسبة لعملية التنمية منها وجهة نظر النوبيين أنفسهم فى مشروعات التنمية وماهى المعوقات المجتمعية التى صادفت التنمية فى النوبة الجديدة كما نتناول أيضا الإشارة إلى بعض المشروعات التنموية التى تمت بالعفل وأيضا المشروعات الأخرى المقترحة بالنسبة لمجتمع الدراسة فى النوبة الجديدة .

وجهة نظر النوبيين فى النوبة الجديدة فى فوائد التنمية ومدى المشاركة فى مشروعاتها

ووجهة نظر النوبيين الجديدة أن التنمية التى تمت فيها قد رفعت من مستويات الحياة وأحدثت تطورا فى المنطقة كما أن مشروعات التنمية تسير فى شتى المجالات فساعدت فى تحسين مستوى الحياة الإقتصادية والتعليمية والصحية والسياسية فالتنمية غيرت وجهة الحياة فى النوبة الجديدة ورغم المشروعات التنموية الكثيرة والتى يحس بها النوبيون ويذكرونها إلا أنهم يطالبون بمزيد منها .

وبالنسبة لإسهام التنمية فى حل المشكلات فى القرى النوبية فقد أثار الكثيرون من النوبيين أن جمعيات النوبة قامت بإقامة المشاغل وإهتمت بالصناعات الأولية ووفرت الحاجات الأساسية للقرية ولكن مازالت هناك مشاكل لم تحلها مثل مشكلة المهجرين وتوفير المسكن الملائم لهم .

كما وأنه مع التنمية ظهرت مشكلات لم تكن موجودة فى النوبة من قبل مثل السرقات والبطالة بين المتعلمين ومشكلات تتعلق بالزراعة كالتربة والرى .

وقد حرص الشباب على الاشتراك فى جمعيات التنمية وكذلك المعلمون الذين يعطون هذه الجمعية التنموية جهدهم وعرقهم وقد بدأ تحمس الشباب واضحا فى الاشتراك بالجهد والعمل التطوعى ، ولكن النوبيين المهاجرين الذين يعملون فى مدن مصر أو فى دول الخليج كانت مساهمتهم مادية وبمبالغ كبيرة .

وبالنسبة لتحديد المسئول عن التنمية رأينا أن الأغلبية العظمى ترى أن الحكومة هى المسئولة عن التنمية مسئولية تامة لأن مشروعات التنمية الضخمة لا تستطيع إلا الحكومة القيام بها وهذا يدل على إتكالية واضحة وإلقاء المسئولية على الحكومية فى كل شئ .

إلا أن البعض يرى أن التنمية مسئولية مشتركة بين الحكومة والأهالي، ويرون أن الحكومة تقدم الأجهزة والإمكانيات والخدمات الأساسية بينما يقوم الأهالى بالمشاركة فى المراحل التالية وعليه فإن البداية يجب أن تكون جهدا حكوميا ورغم ذلك فقد قام الأهالى بإقامة بعض المشروعات الصغيرة بالجهود الذاتية كالأندية وبناء الفصول وعمارة المساجد وإقامة المصليات .

ويبدو من الدراسة الحقلية للنوبة الجديدة حرص الجميع على الإشتراك فى الأنشطة التنموية عن طريق الإشتراك فى جمعياتها وحضور إنتخاباتها وتحديد عضوية الأعضاء .

أما بالنسبة لمعوقات التنمية المجتمعية فى مجتمع الدراسة فقد تمثلت فى الدور التى تقوم به المرأة ومدى مشاركتها ، وبالرغم من إشتراك المرأة النوبية فى كثير من الأنشطة النسائية كالأندية وخروجها للعمل فى الحقول وفى تربية الماشية والدواجن وقد تميزت المرأة النوبية بالقدرة على التحمل وعلى الصمود أمام الأعمال الشاقة التى قد يعجز الرجال فى مجتمع الدراسة عن القيام بها ، إلا أن القرى العربية النوبية رأت أن دورها الأساسى يجب أن يكون الإهتمام بالتنشئة الإجتماعية للأجيال القادمة وتترك الإشتراك فى الأنشطة التنموية للرجال .

أما بالنسبة للنوبيين والكنوز فإنهم لايمانعون من إشتراك المرأة نظرا لأنه لاتوجد قيادات نسائية بصفة رسمية وهم يرون أن تعليم المرأة كان من نتائجه حرصها على الإشتراك فى الأنشطة الإنتاجية فى الصناعات الأولية كصناعة الكليم والمشغولات الخرزية وغيرها ، وقد حدد المجتمعان المحليان السابقان أولويات المرأة منها أندية السيدات ، مشاغل البنات ، دور الحضانة ، محو الأمية ـ صناعة

الأطباق والسلال والمشغولات النوبية .

ويرى بعض النوبيين أن البرامج والمشروعات التنموية يجب أن تخصص برامج خاصة للمرأة نظرا لأن بعض مشروعات الوحدات التنموية لاتتناسب واشتراك المرأة .

ـ أما بالنسبة للعلاقات الطيبة التى تربط القبائل النوبية وأثرها فى تنفيذ مشروعات التنمية فبالرغم من وجود إختلافات فى اللهجة بين الأجناس النوبية مثل الكنوز والعرب والفاديجة إلا أن الجميع يشعر بولائه النوبى الذى يعتبرونه وحدة واحدة رغم الإختلافات ويمكن الإستفادة من العلاقات القوية فى الإعتماد على الأهالى أنفسهم فى مشروعات التنمية وهذا ما سنوضحه عند الحديث عن النوبة القديمة ومستقبل التنمية .

وبالنسبة لأثر التنافس فى مشروعات التنمية نجد أن المنافسة الموجودة بين العائلات النوبية والقبائل لاتؤدى إلى الصراع وهذا ما أكده وما يؤكده مشروع إقامة قرية السلام الذى سنتناوله بالتفصيل عند الحديث عن النظرة المستقبلية للنوبة ومما يجدر الإشارة إليه أن أى خلافات حادة تظهر يتصدى لها القيادات النوبية المحلية سواء أكانت على المستوى الرسمى أو القيادات الشعبية النوبية الممثلة فى المشايخ وكبار السن . وبالنسبة للقيادات النسائية داخل أنشطة الجمعيات التنموية وجدنا هذه القيادات فى قرية دابود والدكة ولم نجدها فى بقية القرى التى تم دراستها .

ـ مشروعات التنمية ورأي النوبيين فيها :

ويعترف مجتمع الدراسة بالمشروعات التنموية الكبيرة التى تمثلت فى مشروعات الكهرباء والمياه والمواصلات والطرق وجمعيات التنمية ومشاغل الفتيات ومشروعات الأمن الغذائى وإقامة المساكن رغم إعتراض النوبيين على المساكن المقامة لأنها تختلف عن نمط السكن (البيت) النوبى وأيضا مشروعات الخدمات الصحية وإقامة بعض الصناعات الأولية ومد النوبيين بالآلات الزراعية الحديثة .

ويرون أن إسهاماتهم تمثلت فى القيام ببعض المشروعات المحلية مثل التشجير وبعض الأعمال اليدوية التى تتطلب فضلا على إقامة مشروع سياحى هو البيت النوبى كمزار سياحى فى أسوان وفى أبى سمبل .

ويتوقع مجتمع الدراسة من الحكومة الإستمرار فى دورها فى إقامة المساكن الخاصة بالمغتربين (رغم إعتراضهم على هذه التسمية) ويفضلون تسميتهم بالنوبيين الذين يعملون خارج النوبة أو المهاجرين ، وأيضا إنشاء المصانع الكبيرة مثل مصنع للسكر وإستصلاح الأراضى وتوزيعها والقيام بمشروعات الصرف الصحى وتوفير المزيد من الخدمات مع إعفاء المشرعات الخاصة من الضرائب .

أما بالنسبة للمشروعات التنموية التى يمكن أن يقوم بها الأهالى أنفسهم فقد تمثلت فى مشروع " للحصير البلاستيك " ومشروع الأمن الغذائى ، والصناعات اليدوية كالأكلمة ، والخرز والمقاطف والتطريز وأندية الشباب وأندية النساء وإقامة بعض الصناعات الحرفية كالمنتجات الأولية ، وتربية المواشى وتربية الدواجن .

ويؤكد الجميع حرصه على مزيد من المشروعات التنموية فى النوبة الجديدة ومشاركتهم فى مشروعات تسمين الأبقار والجاموس فى ابريم وإقامة ورش لإصلاح السيارات وورش للحدادة وللبرادة ، كما أنهم إقاموا بالجهود الذاتية مكاتب البريد وأنشأوا المساجد والمصليات وأقاموا فصول للحضانة وأقاموا المدارس ومراكز الشباب .

وهم يرون أنه كلما أتت المشروعات التى يشتركون فيها بالنتائج الإيجابية فإن ذلك سيكون حافزا لهم على بذل الجهد من أجل زيادة الدخل وتحقيق مستوى إقتصادى أفضل .

ـ الدور الحكومي في تنمية بحيرة السد العالي (النوبة القديمة) :

عندما إتخذت حكومة زامبيا قرارهابإعادة إقامة شعب جومب تونجا *Gwembe Tonga* بعد إنشاء سد الكاريبا *Cariba* على نهر الزمبيرى : تم ذلك تحت ظروف خاصة فقد كانوا مواطنين من نفس المجتمع ، كما أن المنطقة التي استقر فيها الناس ذات إنتاج كبير نظرا لوجود مساحة من الأراضي الكبيرة خلف السد وقد إرتبط هؤلاء المواطنين بمشروعات الدولة للتنمية الإقتصادية (٥١) .

وقد أشار كل من *Th. Scudder* واليزابيت كولسون *El-Colson* في دراستهما القيمة عن مشروع سد الكاريبا بأن تنمية البحيرة شملت الصيد من البحيرة والعمل على زيادة كمية ، وتربية الحيوانات ، وزراعة المحصول النقدى الهام وهو القطن (٥٢) .

إذن فهناك أبعاد ثلاثة للتنمية عند إنشاء البحيرات هى " فرص الصيد المتاحة ، وتربية الحيوانات ، والزراعة ، ومما لاشك فيه أن التغيرات البيئية المرتبطة ببناء السدود وما يصنعه الإنسان من بحيرات صناعية لم تكن موجودة من قبل ليؤكد وجود تحول وتغير طبيعى تحدثه السدود ، ويمكن ملاحظة ذلك فى السد العالى لأسوان فقد حدثت تغير فى مجرى النيل وظهور الأراضى الجديدة وراء السد وقد حقق أهداف الدولة فى تخزين المياه للرى ، وللصناعات وللإستخدام الإنسانى والتحكم فى الفيضانات العالية وتنظيم إنسياب المياه للأغراض الملاحية وغيرها وأهمها توليد الطاقة الكهربائية ، والتوسع فى النمو الإقتصادى على شواطئ البحيرة سواء فى مصر أو السودان (٥٣) .

لذلك فإن الأمر إقتضى بعد بناء السد ضرورة وضع خطط التنمية ليس فى بحيرة السد فحسب وإنما أيضا فى محافظة أسوان فأنشئ الجهاز الإقليمى لتخطيط أسوان عام ١٩٦٣ وفى سنة ١٩٦٦ قامت برامج الأمم المتحدة للتنمية *UNDP* بدراسات عن البحيرات الصناعية فى افريقيا ووافقت على طلب مصر التمويل لإنشاء هيئة تتولى تنمية بحيرة ناصر ضمن مشروعات مركز التخطيط

الإقليمى لأسوان .

وقد تمت الخطة العملية للدراسة عام ١٩٦٨ واستمرت لمدة سبعة سنوات وتكلفت الدراسة الخاصة بمشروعات التنمية ٩٦٩ ٥٦٤٠٠٦٤٠ , ٣ مليون دولارا وإهتمت بالمشروعات فى ميادين الزراعة ، والصيد ، والنقل والسياحة .

ومع بداية السبعينات من هذا القرن أنشئت هيئة تنمية بحيرة السد العالى التى لا تخضع لسيطرة الأجهزة المحلية وإنما تتبع وزارة التعمير مباشرة وكان الهدف من إنشائها :

ـ دراسة وحصر إمكانيات بحيرة السد العالى وشواطئها وإجراء البحوث اللازمة .

ـ تنمية المنطقة إقتصاديا وإجتماعيا وسياحيا وزراعيا وصناعيا .

ـ تنفيذ ومتابعة هذه المشروعات (٥٤) .

والمنطقة طولها حوالى ٣٥٠ كم تقريبا وهى تمثل حوالى من ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من طول مصر .

وبدأت الفكرة فى عام ١٩٧٤ وهى إنشاء مجتمعات جيدة إسوة بما تم فى مصر مثل المدن الجديدة كالعاشر من رمضان ، العامرية الجديدة ، النوبارية وغيرها ، وكان من الصعب إقامة مجتمعات جديدة على هذه الأراضى الشاسعة التى تبلغ مساحات شاسعة ولأن تكون جيل جديد فى مجتمع يستلزم مرور ٢٥ عاما على الأقل .

فبدأت تطبيق فلسفة الإمكانيات المتاحة وفتحت كليات حصر هذه الإمكانيات فى الفترة من (٧٤ ـ ٧٧) مثل الموارد المائية ، التربة ، التصوير الجوى لعمل خرائط جديدة للمنطقة ، فكانت الثروة السمكية مستعملة بجهود فردية غير منظمة مع وجود جمعية للصيادين والذين كانوا يقيمون فى عشش ، وكان إنتاج البحيرة لايزيد عن ٠٠٠ , ١١ طن من السمك .

- في مجال الثروة السمكية :

وضع خطط لتحديد الأسطول ، والإهتمام بطرق نقل السمك ، وإنشاء مصنع ثلج بطاقة ١٦٠٠ طن يوميا ، ووصل الإنتاج من الثروة السمكية إلى ٣٢,٠٠٠ طن سنة ١٩٧٨ إنشاء لنشات ثلاجة جديدة ، وتوفير الصنادل اللازمة لنقل الأسماك المملحة ، إنشاء وحدة علاجية عائمة لعلاج الصيادين المستوطنين ، إنشاء قرى للصيادين على طول ضفاف البحيرة بنظام وحدة السكن المفككة والتى يمكن تركيبها وتدريب الصيادين على فكها وتركيبها وإذا ما إقتضت الظروف نقلهم إلى منطقة أخرى ، إنشاء وحدة للبحوث السمكية مع الجانب اليابان كان من نتيجة دراساتها إنشاء المزارع السمكية لإضافة أصناف جديدة كالمبروك ، والإهتمام بالأصناف الجيدة من البلطى وهى البلطى النيلى الذى بدأ يقل المخزون السمكى فى البحيرة منه وبدأ مع إنشاء مشرع المفرخات السمكية والذى تكلف ٣,٥ مليون جنية وتصل طاقته إلى ٢٠ مليون زريعة سنويا ، إعادة تربية السمك البلطى النيلى داخل هذه المفرخات .

كما تم تطوير ميناء الصيد ورافع السفن وقد تكلف ٧ مليون جنية وكان الهدف منه هو تحويل ميناء السد العالى إلى ميناء خاص لعمليات الصيد وحركة الوحدات النهرية .

كما أنشئت الورش العائمة التى تكلفت ٥٢٥,٠٠٠ جنية وهى عبارة عن ورش عائمة ذاتية الحركة وذلك لإصلاح وصيانة الوحدات العائمة ، والقيام أيضا بعمليات الإنقاذ والإطفاء .

كما أمكن أيضا إنشاء مشروع وحدات إنتاج ثلجى متنقلة بطاقة ٥,٢ طن مكعب يوميا وذلك لحفظ الأسماك فور صيدها وقد كان هذا المشروع نتيجة خسارة الصيادين من فساد الأسماك عندما يصطادون على مسافات بعيدة من مناطق التجمع .

ونتيجة للدراسات التى قامت بها الهيئة أمكن إنشاء شركة مصر / اسوان لصيد وتصنيع الأسماك برأس مال قدره ١٢ مليون جنية ، والهدف من قيام هذه الشركة هو تصنيع وتعليب سماك البحيرة مع الإستفادة من مخلفات تصنيع الأسماك فى إنتاج العلف .

- الزراعة :

بدأت الهيئة تنفذ فلسفتها فى ضرورة الإنتشار السريع فى أراضى البحيرة وبدأت الإستفادة من آمال النوبية فى ضرورة العودة فى إنشاء مجموعة من المزارع على مساحة قدرها ١٥٠ الف فدان صالحة للزراعة تضم المزرعة حوالى من مائة فدان إلى ٦٠٠ فدان .

- وبدأ بالفعل إنشاء مزرعة كركر التجريبية بمساحة تبلغ ١٥٠ فدان وبها قرية مكونة من ٢٠ منزلا .

- مزرعة كلابشة الشاطئية ومساحتها ٦٧ فدانا .
- مزرعة كلابشة فى المناطق المرتفعة بلغت ٣٠ فدان .
- مزرعة إسلام مساحتها ١٥٠ فدان وبها قرية مكونة من ٤٤ منزل .
- مزرعة السادات مساحتها ٥٠٠ فدان وبها قرية مكونة من ٢٠ منزل .
- مزرعة قسطل مساحتها ٣٠ فدان تروى بنظام الرى السطحى .
- مزرعة جرف حسين مساحتها ١٢٠ فدان .

- مزرعة أبو سمبل مساحتها ١٥ فدان تمد أبو سمبل باحتياجاتها من الخضر .

وقد نجح النوبيون فى بعض هذه المزارع وبدأ النشاط الزراعى والإنتاج الزرعى يزيد إلا أن إنخفضت المياه مع بداية الثمانينات وحتى عام ١٩٨٢ والذى ظهر أثره الواضح فى عام ١٩٨٣ أدى إلى جفاف هذه المزارع .

ومن المعروف أن أقل منسوب للمياه فوق سطح البحر هو ١٤٧ ـ ١٨٢ مترا

والمشروعات الزراعية تقام على منسوب ١٨٢ مترا وبالتالى عندما تنخفض المياه فى البحيرة فإن تكلفة رفع المياه لإرتفاع قدره ٢٥ مترا تكن رهيبة جدا بحيث يرفض الإقتصاديون الموافقة على مشروعاتها فإذا كان الفدان يكلف إصلاحا ٢٠٠٠ جنية فإن تكلفة رفع المياه تصل إلى ٥٠٠ جنية لريه .

لكن هذا لم يمنع الهيئة من القيام بمشروعات الرى فبدأ مشروع رى مزرعة قسطل وتوسعت فى مساحتها لتصل إلى ٢٠٠ فدان عن طريق خط مواسير عائم وثابت يقوم بنقل المياه من أدنى مستوى إلى أعلى مساتوى وهى مسافة قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٢٠ كم ، كما تم حفر الآبار الجديدة نظرا لأن الآبار الموجودة كانت لشرب الحيوان أو لزراعة مساحات صغيرة وقد يكلف البئر الواحد ١٠,٠٠٠ جنيه (ونظرا لتركيب وحدة كهربائية طلمبات ومواسير) والبئر يمكن أن يزرع ١٠ فدادين وتم حفر خمسة آبار لرى مزرعة كركر وستة آبار بمنطقة كلابشة ويثرين بوادى الأمل وسبعة آبار على الضفة الشرقية فى مناطق دهميت ، حيمور ، الترجمى .

كما وأن الحيوانات (الجمال) الآتية من السودان تشرب من مناطق بها الآبار وتستريح حولها .

ـ الزراعة الشاطئية : هى الزراعة القريبة من شواطئ البحيرة ولكن نظرا لوجود مساحة كبيرة بينها وبين القرى فقد لا يقبل عليها النوبيون لأنها تحتاج إلى بذل الجهد والإنتقال ومعظمهم موظفين وغير متفرغين .

ـ الثروة الحيوانية : إهتمت الهيئة بالثروة الحيوانية والمراعى وبدأ التوسع فى زراعة الأعلاف والمراعى الخضراء لمشروعات الإنتاج الحيوانى الأبقار ، الماعز ، والأغنام ، والجمال . مع إدخال السلالات الجديدة عن طريق التهجين مع الأصناف المحلية وإنشاء مزارع بحوث تربية الأرانب بوادى كركر وهو عبارة عن ٢٥ بطارية بملحقاته ويتم التهجين بين الإناث النيوزيلندى والذكور من كاليفورنيا ويتم بيعها حاليا فى أسواق أسوان نظرا لقلة عدد السكان الموجودين بالبحيرة.

ـ إنشاء التبانات : التبانة من التبن وهى عبارة عن سياج خشبى يوضع بداخله التبن والمياه وذلك لإقامة الجمال داخلها أثناء رحلتها من السودان إلى مصر، ونظرا لأن مسطح أراضى البحيرة يصل إلى ٧٠٠ كم ومع وجود حشائش وأشجار يعيش عليها الجمال فيمكن تحويل البحيرة إلى منتجة للجمال .

وبدأت التجربة بمائة جمل بالإضافة إلى وجود وحدة رعاية بيطرية للقوافل ومكان إستراحة " تبانة " للجمال القادمة من السودان ففى رحلات الجمال نجد الناقة الحامل كانت تترك حتى تلد ويترك وليدها ليموت ، وأيضا كانت بعض الجمال تصاب أثناء الرحلة وتترك أيضا لتموت وإن وجود " التبانة" والوحدة البيطرية سيمكن من إتمام علاج هذه الجمال فضلا على أنها قد تشجع بعض المصريين إلى التواجد فى المنطقة بصفة مستمرة لتربية الجمال نظرا لتحسين المراعى وإدخال ثلاث أنواع رئيسية من النباتات تعيش عليها الجمال ويمكن إقامة غابات رعوية تعيش عليها الحيوانات الأخرى كالأبقار والماعز والأغنام وبالفعل قامت قرية السلام بتربية الأغنام وقامت قرية قسطل ووادندان بتربية الأبقار التى توحشت بالفعل وكانت تسهم الهيئة بقرض بين ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ يرد بعد التربية وبدون فوائد .

ـ الثروة التعدينية :

تتميز المنطقة أيضا بوجود خامات الرخام ، والجرانيت بكميات كبيرة وقد قامت بعض شركات القطاع الخاص بقطعها من المحاجر ، كما أنشئت شركة مصر أسوان للرخام والجرانيت برأسمال قدره مليون جنيه وتقوم باستغلال الرخام والجرانيت والثروة المعدنية بمنطقة البحيرة وتسويق إنتاجها ، وتمت مجموعة من الدراسات الخاصة بالجدوى من الإستفادة من بعض لخامات كالذهب الموجود فى منطقة ام جرايات وحيمور بالعلاقى وكذلك صناعة الزجاج من الرمال والكوارتز التلك بمنطقة عرب ام سليمان وإمكانية عمل قوالب الطوب لأغراض البناء من الحجر الجيرى بمنطقة سن الكداب ، كما أنشئت شركة لمنتجات الخزف ومواد

البناء في وادى كركر فى إنتاج الطوب الطفلى والبـرابخ والسـراميك ، والخـزف والصينى .

- التنمية السياحية :

تتميز المنطقة بوجود معابر أبى سمبل ، ذات الشهرة العالمية كما أنها تتميز بجو معتدل وتعد مشتى عالميا لدفئها فى الشتاء ، وأنشئ بها مطار لخدمة الطيران والسياحة بأسوان وأبو سمبل ، كما قامت شركة مصر أسوان للسياحة بالتنمية السياحية على ضفاف البحيرة فأقامت قرى سياحية " توت آمون " على الشاطئ الغربى للبحيرة ، وتم تطوير فندق نفرتارتى لإضافة غرف جديدة وحمام سباحة ، وإنشاء السوق السياحى ويجرى الآن إنشاء قرية (فربالية) السياحية ومخيم سياحى وفندق على الطراز المعمارى النوبى ، وفى مدينة أبى سمبل نجد بيتا نوبيا سياحيا يستقبل الزوار والسائحين ويباع داخله المنتجات النوبية اليدوية وتتميز المدينة بالحدائق الجميلة وخصوصا حديقة رمسيس وحديقة نفرتارى .

- النظرة المستقبلية للنوبة القديمة :

ينظر المسئولون بجهاز تنمية بحيرة السد العالى الذى يتبع مباشرة وزارة التعمير أنه يجب أن تنمى المنطقة لتكون آهلة بالسكان بسرعة لأنها من الناحية الإستراتيجية لاتقل أهمية عن سيناء ولذلك يجب أن تتكاتف الجهود من أجل إنشاء المجتمعات الجديدة ومع المقارنة البسيطة لما كانت عليه مديرية التحرير وللمقومات الأساسية الموجودة فى المنطقة نجد أنه يجب توعية الشباب إلى تعمير المنطقة وتملك الأراضى بها ، وإن الوقت كفيل بتنمية المنطقة والإستفادة منها وبالنسبة لعودة النوبيين فالهيئة من جانبها لا تعترض على وجودهم مطلقا بل تشجعهم وتجد فى تنظيماتهم وجمعياتهم المسئولة مجالا طيبا للبداية ولكن هذه البداية ضعيفة جدا ولا يمكن الإعتماد عليها ومن الضرورى أن تكون مشروعات التنمية المقامة فى الهيئة وفى البحيرة ليست قاصرة على فئة أو شريحة من المجتمع المصرى وإنما لكل السكان ، ومن الطبيعى أن يكون النوبيون على رأس هؤلاء السكان نظرا لقرب

إقامتهم فى النوبة الجديدة ولحسن تنظيمهم ، ولكن لكى يتم التعمير على الوجه الأكمل من الضرورى أن يكون الدافع القوى والقدرة على العمل والعطاء وبذل الجهد العضلى لكى يتم إستصلاح الأراضى والتحمل والتفرغ الكامل والإقامة الدائمة وكلها لايمكن أن تتم إلا فى ضوء إقامة البنية الأساسية فى المنطقة (الكهرباء ، المياه ، الخدمات الأساسية للإتصال ، مشروعات توفير الغذاء ... الخ).

- القروض والمنح :

تتعاون الهيئة مع عدد من الهيئات الدولية العالمية من مساهمة فى تنمية موارد البحيرة الطبيعية وقد عقدت إتفاقات أهمها الإتفاق مع هيئة التعاون اليابان (J.I.C.A.) بهدف حصر الموارد الطبيعية للمنطقة وعمل مشروع تنمية متكاملة لجذب الإستثمار الأجنبى للإشتراك فى مشروعات تنمية الثروة السمكية والزراعية والصناعية والسياحية والتعدينية والتخطيط العمرانى والمواصلات.

وكما سبق أن ذكرت تم بالفعل إنشاء مركز للبحوث السمكية لتنمية مصايد الأسماك بالبحيرة وذلك تنفيذا لما جاء بالتقرير النهائى لمشروع التنمية للبحيرة .

كما ساهمت الحكومة النرويجية بمبلغ خمسة ملايين كرونة بهدف تحديد المخزون السمكى وتطوير معدات الصيد ووحدات تجميع ونقل الأسماك .

وأيضا تقوم هيئة كير بالمساعدة فى مجالات إستيطان الصيادين حول البحيرة وتكثيف عمليات التشجير وإعداد نظام رعاية صحية وإجراء تجارب وإستخدام الطاقة الشمسية للرى والكهرباء بالمنطقة .

أما الهيئة فلا تقوم بعقد أى قروض وإن ميزانيتها ميزانية حكومية ولا تستطيع الهيئة الإعتماد على القروض نظرا لأن الحكومة تلزم الهيئات والشركات المقترضة برد الدين وفوائده ولما كانت الهيئة لا تهدف إلى الربح وإنما مشروعاتها كلها خدمات وعندما تنتهى من المشروعات تسلمها للمحليات وهى ترفض القروض أما بالنسبة للمنح فنجد أنها إتفاقات لمساعدة الناس على الإستقرار والإقامة وقد

تتمثل فى شكل أدوات تدريب ، أجهزة تنمية المجتمع ، خبراء لوضع الخطط والدراسات الإقتصادية لإنشاء بعض الصناعات ، تساهم الحكومة بميزانية مماثلة من النقد المصرى .

والهيئة اليابانية قدمت مركز أبحاث الثروة السمكية ، وهيئة كير CARE قدمت خدمات المأوى للصيادين ومواسير المياه وبعض أدوات رفع المياه ، وقد يقوم الصيادين بزراعة شاطئية بسيطة للخضروات كى لا يعتمدون فى غذائهم على البقوليات وتقوم منظمة الغذاء العالمية (FAO) بتقديم معونة من الدقيق ، والسكر وغيرها تقدر بمبلغ ١١,٠٠٠ مليون دولار وهذه المعونة توزع على النوبيين المقيمين بصفة دائمة ولكنها مرتبطة بالزراعة وقد خصص خمسة فدادين لكل أسرة فإذا كان تم زراعتها حصل المزارع النوبى على حصته الغذائية كاملة ، أما إذا تراخى ولم يقم بزراعة المساحة كاملة فلا يعطى كمية الغذاء كاملة ، ويتم التفتيش بواسطة مندوبين من المنظمة على حسن سير العمل وعلى التوزيعات وعلى المخازن وطرق الحفظ .

إلقاء الضوء علي بعض الجهود الفردية لتنمية النوبة القديمة في قرية السلام

تعد قرية السلام من أقدم القرى التى قدم إليها النوبيون وقد تحمسوا لفكرة تعمير شواطئ بحيرة السد من خلال نداء الحزب الوطنى بأسوان ومن وزارة التعمير ، شكلت لجنة من نادى النوبة العام بالقاهرة ، وضمت بعض الوزراء منهم وزيرى التعمير والأشغال العامة وطرحت على النوبيين الفكرة وهى تعمير القرية أو " العودة إلى النوبة القديمة " فانطلقت مجموعة قرية السلام دون إنتظار وكان السبب هو الحنين لأرض الأجداد أولا كما وأن فترة ربع قرن مضت على الهجرة إلى النوبة الجديدة زادت فيها أفراد الأسرة وبدأت أسر جديدة تخرج إلى الوجود فلم تجد لها مكانا ، وأيضا بالنسبة لكثير من المهاجرين (ويفضل هذا المصطلح

على مصطلح المغتربين) الذين لم ينالوا حظا فى النوبة الجديدة فى تملك الأراضى أو المساكن وجدوها فرصة سانحة لإنشاء وتكوين مجتمع نوبى جديد حول بحيرة السد العالى وتم دراسة جدوى زراعة الشواطئ وذلك فى عام ١٩٧٨ وساعدت وزارة التعمير من أجل التوطين بإقامة٤٤ منزلا ، ومسجد ، ونادى إجتماعى وثقافى ووحدة صحية ومدرسية .

وبدأ النوبيون وكلهم من الموظفين الذين حصلوا على أجازات بدون مرتب والذين بلغ عددهم ٦٠ فى الزراعة الشاطئية فقاموا بزراعة ٢٥ فدان وقام بعض المسئولين بزيارتهم للتأكد من جديتهم وتم تخصيص مساحة بالقرية بلغت ١٥٠ فدانا مع تقديم المساعدات الغذائية المقدمة لهم بمعرفة منظمة الغذاء العالمى " الفاو " FAO ونظرا لإرتباط النوبيين بأعمالهم الأصلية نقصت جماعتهم إلى (ثلاثين) فردا نظرا لظروف المعيشة الصعبة .

وخلال الفترة السابقة تمت زراعة جميع المحاصيل الحقلية والخضر والفواكه مع زراعة شتلات الفاكهة والنخيل إما بمساعدة هيئة تنمية بحيرة السد العالى وإما بالجهود الذاتية .

وبعد إنحسار المياه وأصبحت المياه لا تصل إلى الأرض التى تم زراعتها وفى هذه الحالة تم تحرك المجموعة مرة أخرى خلف المنسوب للزراعة وهذه هى المشكلة الرئيسية التى تواجه أهالى قرية السلام ويقترحون حلا لها فى مد الأراضى المرتفعة بالمواسير المائية التى يجب أن تقوم بها هيئة تنمية بحيرة السد العالى نظرا للتكاليف الكبيرة التى لايستطيعون أن يتحملوها ، كما وأن تحركهم المستمر إلى الشاطئ من القرية لزراعته أصبحت المسافة بينه وبين القرية مسافة كبيرة جدا وبالتالى فقد فقدوا الخدمات التى تقدم إليهم من القرية مثل التعليم ، الصحة ، والترفيه وغيرها .

وبذلك فإن الأمر يحتاج إلى إقامة عوامات للمياه لرفع المياه بعد إنحسار المياه والوصول بها إلى الأراضى المرتفعة .

وبالنسبة للمشاركة فى إقامة بعض المشروعات الزراعية أبدوا أن الزراعة أصبحت الآن حرفتهم وأنهم قد زرعوا فسائل النخيل مرة ثانية وإذا ما تم إنشاء مشروعات الطلمبات العائمة بمعرفة هيئة تنمية بحيرة السد العالى فإنهم سيتمكنون من زراعة الحبوب والفواكه ويمكن زراعة المزيد من الأراضى ، الأمر الذى يمكن أن يساعد النوبيين الآخرين فى العودة وإعادة توطينهم مرة أخرى فى النوبة القديمة .

وقد ظهرت فى الفترة الأخيرة مجموعة من الجمعيات الزراعية النوبية مثل جمعية السادات ، والتكافل بقسطل وأدندان ، جمعية تلانة ، جمعية أبوسمبل التعاونية الزراعية وجمعية أرمنا وجمعية توماس وعافية وجمعية الديوان وجمعية كرسكو وجماعة مبارك الزراعية وهذه المجموعة تكونت على بعد ١٩١ كيلو بالضفة الغربية بالبحيرة حيث يوجد وادى عافية وهى مكونة من ٥٠ عضوا حيث ترك رئيسها الوظيفة فى إجازة وإستطاعت الجماعة زراعة ٢٠ فدانا من الذرة الشامية واللوبيا والكوسة والسبانخ والخيار والملوخية وغيرها من الخضروات .

إن الرغبة والحنين إلى أرض الأجداد دفع هذه المجموعات إلى التوجه إلى النوبة القديمة ولكن لكى يتم التعمير وإستصلاح الأراضى فلا بد من إتمام البنية الأساسية وهذه لايستطيع الأهالى أنفسهم القيام بها ، كما وأن هيئة تنمية بحيرة السد العالى لاتستطيع القيام بها إلا فى ضوء توفير الإعتمادات المالية الكبيرة.

ـ النوبة والتغير :

إذا كنا قد عالجنا فى الجزء الماضى ما أحدثته التنمية من أثر واضح على النوبيين سواء فى النوبة الجديدة أو الجماعات الصغرى النوبية التى بدأت فى الإستيطان على ضفاف البحيرة وتكوين قرى جديدة تعيش على الزراعة الشاطئية والزراعة فى المناطق المرتفعة مع إستغلال الموارد المتاحة الأخرى كالصيد أو السياحة وغيرها ، فهل تم تغير إجتماعى وثقافى على النوبيين إزاء ماحدث من عمليات التنمية المختلفة ؟

مما لاشك فيه أن التغير الإجتماعى نوع من التطورات التى تحدث تأثيرا فى النظام الإجتماعى أى تؤثر فى بناء المجتمع ووظائفه وهو جزء من عملية أكبر وأوسع من عمليات التطور فى المجتمع وهى تلك التى يطلق عليها إسم " التغير الثقافى " والتغير صفة أساسية من صفات المجتمع ويخضع هذا التغير لتيارات وعوامل ثقافية وإقتصادية وسياسية يتداخل بعضها فى بعض (٥٥).

ويختلف التغير الثقافى بإعتباره عملية أكبر وأوسع من عملية التغير الإجتماعى لأن التغير الثقافى قد يشمل العناصر الثقافية الموجودة فى المجتمع فضلا على التغيرات التى تحدث فى أشكال وقواعد النظام الإجتماعى (٥٦) .

ولقد زاد الإهتمام بدراسة التغير فى المجتمع إزديادا كبيرا فى السنوات الخمسين الأخيرة وبخاصة فى ميدان الأبحاث والدراسات الأنثروبولوچية نتيجة لإتصال الشعوب التقليدية بالثقافات الغربية.

ويرى الدكتور أحمد أبو زيد أن إهتمام علماء الأنثروبولوچيا بموضوع التغير يعد إنقلابا فى مجال الدراسات التى كانت تقتصر فى الأصل على دراسة النظم الإجتماعية أو الثقافية فى حالتها الإستاتيكية بحيث تكتفى بوصف مكونات البناء الإجتماعى أو مكونات الثقافة فى مجتمع محلى معين بالذات وفى فترة معينة بالذات أيضا بقصد إبراز الخصائص الأساسية والمميزات الجوهرية لذلك البناء أو الثقافة (٥٧) .

وقد يهتم كثير من الإجتماعيين والأنثروبولوچيين بدراسة التغير فى البناء الإجتماعى والذى يتم على مستويين :

ـ إحتمالات الاختراعات التكنولوجية البسيطة التى لا تخلق روح التحدى فى البيئة .

ـ التأثيرات التكنولوجية الكبيرة فى المجتمع والتى تحدث التحول الذى يمكن ملاحظته بسهولة مثل إستئناس الحيوان ، إختراع الزراعة ، إستخدام الرى ،

إكتشاف البخار ، إختراع الآلة البخارية .

ويرى ولبرت مور *W.Moore* أن الإكتشافات التكنولوجية البسيطة تحدث بعض التحسينات بينما التغيرات المصاحبة للإختراعات تكون لها آثار كبيرة [٥٨] .

ويرى *M.Park* أن التغير الثقافى يحدث نتيجة التفاعل بين الإختراع والإنتشار فى أشكاله المختلفة كما وأن التغير الثقافى مثل التغير البيولوجى فى أساسه تفاعل بين التحول والصفات الوراثية .

ويعترف بأن البحث عن إتجاه التغير الثقافى قد أدى إلى إدراك أن الثقافة والتغيرات الثقافية أمور معقدة ، هذه الأنساق الثقافية العقدة تجعل المجتمع يتواءم مع البيئات الطبيعية المعقدة ومع البيئة الثقافية نفسها ويجب عند دراستنا للتغير الثقافى أن نبحث عن الأشياء المنظمة مثل الإتصال بين النمط المادى والتنظيم الإقتصادى والقرابة والدين ، أفكار الناس ، دوائر الإنتاج، مواقف الأفراد وغيرها[٥٩] .

ويشير هوبل *E.Hoebel* إلى أهمية عملية الإنتشار *Diffusion* التى تساعد على الإكتساب الثقافى نتيجة للتغير الثقافى الذى يكون عنيفا تحت تأثير سيطرة وهيمنة أكثر ثقافية ومجتمعية وذلك فى حالة الإعتماد على الإتصال الثقافى، إنها صيغة خاصة من التغير الثقافى داخل المجتمع وتجرى عملية الإكتساب الثقافى على مستويات مختلفة وقد تحدث الأزمات الثقافية عندما لا تتحقق القيم ، ويشير إلى ضرورة التعاون بين الجوانب المادية والحيوية نتيجة الإحتكاك الثقافى فى ضوء الأنماط الأيديولوجية الموجودة [٦٠] .

ويرى الدكتور محمد الجوهرى أن التغير الثقافى يمكن أن يتم بشكل متناغم أو بشكل مختل ويتميز التغير الثقافى المختل بوجود فروق كبيرة واضحة فى السرعة التى يتم بها والمدى الزمنى الذى تستغرقه مجالات التنمية ، أو فى مجالات الثقافة المختلفة ، كما قد يتميز التغير الثقافى المختل بعمليات الإندفاع إلى الأمام والتقهقر والتمدد والجمود والدينامية والإستاتيكية .

ويصف الأنثروبولوچيون الثقافيون المحدثون هذا الموقف بأن الفرد يتعرض فى مثل هذه الحالة لإخلال بمبدأ التعامل الوظيفى الداخلى ، كما يختل التوازن الذى ينبغى أن يتحقق بين العناصر الثقافية المختلفة فى داخله ، ومن الممكن أن يترتب على هذا أن تشهد الثقافة فى المرحلة الإنتقالية ظهور ثقافات فرعية متباينة مزدوجة بحيث نجد داخل المجتمع قطاعا أكثر تقدما من الآخر أو قطاعا أكثر إرتباطا بالتراث من الآخر ، والواقع الذى حدث بالفعل أن التغير الثقافى الدينامى الذى تم حتى الآن قد حدث بشكل يختلف أو غير متوازن ، وإن مشكلات التغير المختل أو غير المتوازن سوف يتأكد لنا فى النهاية أنها هى المسئولة عن المشكلات الأساسية التى تعترض التنمية وتُحد منها (٦١) .

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل مؤداه هل من الممكن إحداث تغير فى أنساق القيم عن طريق تنمية هذه الأنساق نظرا لأن قيم المجتمع إنما تعكس طبيعة العلاقات الإجتماعية المختلفة الموجودة داخل المجتمع (٦٢) . وهذا ما لاحظناه فى مجتمع الدراسة بالنوبة خصوصا بين الشبان وما سنوضحه فيما بعد .

وإذا كنا قد أوضحنا من قبل أن السدود تحدث تغيرا فى المجتمعات الإنسانية المختلفة فإن السدود أيضا ـ كنوع من التغير التكنولوجى الكبير ـ يصاحبها عمليات تنموية تحدث تغيرا إجتماعيا وثقافيا كبيرا قد يصل ليس إلى الأنماط الثقافية التى يعيشها المجتمع وإنما قد يشمل أيضا القيم الإجتماعية والثقافية فى هذه المجتمعات .

ولقد أثبتت البحوث الأنثروبولوچية أنه من المتعذر إلغاء عوامل التغير وعملياته ويقوم الأنثروبولوچيون بدراسة التكيف الإنسانى لهذه التغيرا التكنولوجية فى الشعوب ومن ثم كما يرى كل من بيرنارد ***H.Bernard*** وبلتو ***P.Pelto*** أن التكنولوجيا لم تعد هدف الدراسات الأنثروبولوچية فى حد ذاتها وإنما هدفها يجب أن ينصب على الإنسان وكيف يتكيف معها ، وقد يرجع إبعاد الأنثروبولوچيين عن دراسة التنمية التكنولوجية إلى التغيرات التى تحدث وإلى خوفهم أن هذه البحوث

والدراسات تركز على الجوانب المادية والتكنولوجية وتبعدهم عن الجوانب الإنسانية . كما أن الإهتمام بالدراسات التكنولوجية والعمليات التكنولوجية المصاحبة ستركز على التأثيرات التكنولوجية والإقتصادية وستبتعد عن الدراسات التكاملية والكلية التى نحتاجها حتى نستطيع أن نلقى الضوء على أزمنة البنية الإنسانية (٦٣) .

وفى الدراسة الحقلية وجدنا تغيرا كبيرا قد أحدثته التنمية فى النوبة الجديدة هذا التغير دفع بعض كبار السن إلى التنازل عن القيم المتعلقة بالعودة إلى أرض الآباد والأجداد نظرا لاستقرارهم وأسرهم فى النوبة الجديدة فى عام ١٩٦٤ أما الأجيال الجديدة التى ولدت فى النوبة الجديدة ــ وفى رأينا نتيجة المشرعات التنمية الكبيرة التى تمت فى النوبة الجديدة واشتملت على جميع جوانب الحياة المادية والفكرية ــ فيرفضون رفضا باتا فكرة العودة إلى أرض الأجداد كقيمة من القيم النوبية ، ويرى بعضهم أن هذه مجرد تلميحات أو اشارات من بعض كبار السن الذين مازالوا يتذكرون أرض الأجداد ولم يروا ماحدث فيها من تغيرات ، وأن السد العالى قد غمر هذه الأرض وتحولت تحولا أيكولوجيا كبيرا .

وقد ساعد على تغير هذه القيم الهجرات المختلفة من النوبة فدعا هؤلاء النوبيون الذين يطلق عليهم مصطلح " المغتربين " وهذا المصطلح مرفوض من الناحية القيمية فى مجتمع الدراسة فمازالت الروابط الإجتماعية والثقافية قائمة بينهم وبين أقاربهم فى النوبة الجديدة ، وهو كثيرا ما يمثل مقياسا حقيقيا لما يشاهدونه عند عودتهم فى كل عام فى أجازات يشهدون ما أحدثته التنمية من تغيرات إجتماعية كبيرة ، وما يتمتع به أقاربهم من إستقرار يدفعهم إلى التقدم لمركز نصر النوبة بطلبات للإسكان سواء عن طريق الوحدات التى يبينها المركز أو عن طريق تملكهم لبعض الوحدات الصغيرة وإحداث تغييرات بها هؤلاء يعدون سببا مباشرا أمام الشباب فى عدم العودة إلى النوبة القديمة ، فإذا كان كبار السن من المهاجرين ينادون بالعودة إلى أرض النوبة ويتمسكون بأرض الأجداد فلماذا يتكالبون على إمتلاك الوحدات السكنية فى النوبة الجديدة إذن ؟

- الخاتمة :

يرى بيتر جيزر *P.Geiser* بأن الزراعة كانت بعيدة بعدا تاما عن إختيار النوبيين لها كمهنة فى البداية وكان من الطبيعى أن يهاجروا إلى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة يبحثون عن العمل حتى فى الوظائف والأعمال التى تتعلق بالخدمة فى المنازل ، وكانا ولا يزالون يستأجرون الفلاحين المصريين لزراعة الأراضى النوبية الضئيلة وأن النوبيين يتبادلون أسطورة فحواها أنه لولا بناء السد ما ترك نوبى النوبة وهذه الصيغة تعد صيغة ثقافية للحفاظ بها على لاماضى ، وإذا كانت العودة بالنسبة لكبار السن من النوبيين تعد حلما ورغبة (١) . فإننا نجد أن الشباب ممن تربوا فى النوبة الجديدة لايرون فى العودة أملا لهم وإنما أملهم فى الإستمرار على أرض النوبة الجديدة حيث تتوفر سبل الحياةاليومية والخدمات الكثيرة .

ونعرض فيما يلى أهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة وبعض التوصيات :

- أثبتت الدراسة أن هناك تغيرات فى أفكار النوبيين نحو العودة وإذا كان بعض كبار السن الذين لهم ذكريات فى النوبة القديمة فقد حدثت تغيرات إيكولوجية كثيرة فظهور البحيرة والأراضى المغمورة ، وإنشاء الطرق كلها غيرت من شكل النوبة القديمة .

- أما بالنسبة للشباب فقد رأى أن مستقبله فى النوبة الجديدة لما يقدم من خدمات تعليمية وصحية وإجتماعية وتموينية ووسائل الرفاهية المتاحة بها .

- قيام الأندية النوبية والتنظيمات النوبية الأخرى بدور كبير فى التنمية داخل النوبة الجديدة والمساهمة فى مشروعات أقيمت بالجهود الذاتية كبناء المصليات ، وإصلاح المساجد ، وبناء الفصول المدرسية ، مكاتب البريد والتليفون وغيرها .

- وإستطاعت هذه الأندية تكثيف الجهود وإثارة الحماس من أجل العودة

إلى النوبة وإستطاعت تكوين جمعيات مختلفة مثل جمعية السلام وغيرها وذلك لإرسال فرق للعودة .

ـ المساحة الكبيرة للبحيرة تحتاج إلى جهد حكومى ضخم لتنميتها لا تستطيع الجماعات المختلفة القيام به .

ـ ضرورة الإهتمام بتعمير الحدود الجنوبية من الناحية الإستراتيجية .

ـ إعطاء أولويات الإقامة وتملك الأراضى المستصلحة للنوبيين الراغبين فى العودة بشرط وجود رغبة حقيقية فى التنمية والتفرغ الكامل لعملية الإنتاج الزراعى وليس تملك الأرض من أجل أن يقوم الآخرون بزراعتها كما حدث فى معظم أراضى النوبة الجديدة بنظام المشاركة فى المحاصيل الزراعية المنتجة .

ـ ضرورة إنشاء شركات زراعية كبيرة ليس هدفها مجرد إستصلاح الأراضى وإنما زراعتها وتنميتها وخلق مجتمعات جديدة عليها .

ـ إن عملية تكوين مجتمعات جديدة على أراضى البحيرة ستتطلب فترة طويلة لا تقل عن ٢٥ سنة والموجود الآن مجرد تجمعات أو جماعات صغرى من النوبيين وغيرهم .

ـ ضررة تضافر جهود المتخصصين فى المجالات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية لوضع خطط المستقبل للبحيرة .

ـ الحاجة إلى مزيد من الدراسات المكثفة الأنثروبولوجية والإجتماعية بالنسبة للتجمعات العمرانية الجديدة ، النوبة القديمة للوقوف على طبيعة هذه التجمعات وعلاقاتها الإجتماعية ونظمها وأبنيتها .

ـ الإهتمام ببذل المزيد من الجهد لتوطين بنو العلاقى فى المنطقة ومحاولة إيجاد المستوطنة كمركز تجمع بدوى على أن تطور حرفة الرعى لمشروعات الإكثار من مشروعات الثروة الحيوانية عن طريق إدخال عناصر جديدة أما بالنسبة للزراعة يمكن أن تبدأ بزراعة البساتين حتى يتعود البدو على نمط الزراعة المكثفة فيما بعد .

ـ الإهتمام بتنمية النوبة الجديدة (كوم امبو) كمجتمع نوبى متكامل وإقامة المشروعات التنموية الجديدة فى ضوء السياسات التنموية الحديثة التى تعتمد على المشاركة الناس أنفسهم ليس فقط فى المشروعات التى تنفذ وإنما أخذ رأيهم فى هذه المشروعات قبل بدايتها وهذا يبلور فلسفة الجهد المشترك بين الحكومة والأهالى كما أنه يكون حافزا على مزيد من المشاركة سواء من الأهالى فى منطقة النوبة الجديدة وقراها أو فى مناطق أخرى كثيرة .

ـ توافق أفكار كثير من الشباب فى النوبة عن التنمية بالنسبة للنوبة القديمة عن مجموعة المشروعات الضخمة التى تتناول موضوع الزراعة والثروة الحيوانية ، والصيد ، والسياحة ، والتعدين .

ـ ضرورة إنشاء وحدات للخدمات السريعة على الطرق الجديدة التى أنشأت حتى تشجع على إستخدامها .

ـ نقل ميناء أسوان إلى أبى سمبل وجعله البوابة الجنوبية لمصر كوسيلة لتعمير وتنمية المنطقة والتخفيف عن مدينة أسوان .

ـ الإهتمام بالمشروعات السياحية التى تجذب السائحين نظرا لتوفر المنطقة الأثرية والجو اللطيف وتقديم خدمات تجذب السائحين ليس فقط فى أيام محدودة من السنة كإقامة سياحة الإستشفاء وغيرها .

ـ الإستفادة من مميزات الجماعات العرقية بالنسبة لسيطرة نسق القيم والعادات والتقاليد والتشابه الثقافى عند إختيار سكان القرى الحديثة وضرورة عدم الخلط والمزج بين النوبيين كجماعة عرقية وبين بقية الجماعات المصرية وضرورة المحافظة على التركيب السلالى داخل كل جماعة عرقية (الكنوز ، النوبيون ، العرب) .

ـ يحرص النوبيون على إقامة المدارس بالجهود الذاتية وهذا يؤكد فكرة أن الجماعات العرقية أو جماعات الأقلية تبحث دائما عن مجالات أخرى للتفوق ،

فبينما تبحث الأغلبية عن عوامل الثراء ــ على حد قول هاريس ــ فقد تحرص الجماعات العرقية على الحصول على المركز الإجتماعى عن طريق التعليم .

ــ الإعتداد النوبى بالجنس إعتدادا شديدا وحديثهم الدائم عن التراث النوبى والعادات والتقاليد النوبية والقيم المتمثلة فى الأمانة والصدق وحسن الخلق .

ــ الحاجةالدائمة فى مجتمع الدراسة إلى وجود الإستثناءات الخاصة ومعاملة متميزة للنوبيين لما قدموه من تضحيات منذ بناء سد أسوان فى بداية هذا القرن وهذا يؤكد وجود مشاعر الأقلية .

ــ إن حجم الأراضى الصالحة للزراعة فى البحيرة تحتاج إلى حملة قومية مصرية يشترك فيها الجميع من أجل تنمية النوبة القديمة بإعتبارها البوابة الجنوبية لمصر ولأسباب إستراتيجية يجب ألا تترك خالية من السكان إلا الأعداد القليلة التى وفدت سواء من النوبة أو من صعيد مصر لتجد مكانا لها على أرض مصر .

- الهوامش والمراجع :

(1) Bernard, H.R. & Pelto, P.J. Technology and Social Change, The Macmillan Company, New York, 1972, PP. 1 - 2 .

(2) Harris, M., The Rise of Anthropological Theory, Thomas Y. Crowell Company, New York, 1968, P. 2 .

(٣) قام الأنثروبولوجيان سكودرTh.Scudder واليزابث كولسون بدراسة تأثيرها مشروع سد الكاريبا وأشارا إلي أهمية المشروع في إحداث تغير ثقافي وتأثير كبير علي الشخصية في مجتمع الدراسة بزامبيا أنظر :

Scudder, Th. & Colson EL. F., " The Kariba Dam Project : Resettlement and Location and Local Initiative " in Technology and Social Change, Op.Cit.

(4) Fahim, M., Dams, People and Development the Aswan High Dam Case, Pergamon Press, New York, 1981, P.4 .

(5) Ibid., PP. 39 - 40 .

(٦) أحمد أبو زيد : " البناء والبنائية دراسة في المفهومات " المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني مايو ١٩٩٠ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦، ص ١٢٧ .

(7) Pelto, P.J., Anthropological Research, the Structure of Inquiry Harper & Row Publishers, New York, 1970, PP.264 - 265 .

(٨) أنظر :

- Kroeber in Anthrpology Today , Chicago, 1953 ,

ويقوم قسم الأنثروبولوجيا منذ إنشائه في عام ١٩٧٤/١٩٧٥ بتدريب الطلاب تدريبا حقليا مكثفا من خلال القيام بدراسة لأحد المجتمعات المحلية القريبة مثل مجتمع رشيد ، مجتمع البرج ، مجتمع الحمام ، وفي مجتمعات بعيدة مثل مرسي مطروح وسيوه والوادي الجديد وغيرها ويستخدم أسلوب فريق العمل أو التدريب الجماعي فيقسم الطلاب إلي مجموعات عمل صغيرة تكون كل مجموعة مسئولة عن تغطية المعلومات الحقلية عن أحد النظم الاجتماعية أو عن عنصر واحد ثقافي .

(9) Kluckhohn, C., : A Comparative Study of Values in Five Cultures, American Archaelogy and Ethnology, Vol. 4/No.l.

أنظر : محمد غامري ، المناهج الأنثروبولوجية ، المركز العربي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ٤٣ : ٤٩ .

(١٠) الوحدة المحلية لمركز مدينة نصر النوبة ، وقد تم حصر السكان المقيمين في النوبة عام ١٩٧٦ فبلغ عددهم ٥٧٠٦٧ نسمة ومع حساب نسبة زيادة سنوية قدرها ٢,٨٪ فإن عدد السكان يبلغ ٧٤٢٤٢ نسمة .

(١١) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٧٠ .

(12) Fernea, R.A., & Kennedy, J.G., Initial Adaptations to Resettlement : A New Life for Egyptian Nubians , In Current Anthropology, Vol. 7, No. 3, June, 1966, P.349 .

(١٣) محمد عوض ، السودان الشمالي ، سكانه وقبائله ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٠٠ .

(14) Fahim, H.M., Op.Cit., P. 59 .

(١٥) وزارة الشئون الاجتماعية ، تهجير أهالي النوبة ، دار ومطابع الشعب ، (بدون تاريخ نشر) ، ص ٢٠ .

(١٦) السيد حامد ، النوبة الجديدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ٢.

(١٧) فاروق إسماعيل ، إثنوجرافيا كارلنجا ، دراسة في التغير الثقافي في جبال تلس جنوب كردفان ، السودان ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٢ ، ص ٦ .

(18) Fahim, H.M., Op.Cit., PP. 63 - 65 .

أنظر أيضا : عز الدين محمد يس (سكوري) أضواء علي المجتمع النوبي شماله وجنوبه مطبعة السلام الجديدة ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

(19) Morris, Ethnic Groups , in I.E.S.S., Vol. 5 and 6, David L. Sills editor the Macmillan Comp. & The Free Press, New York, 1969. P. 167 .

(20) Ibid., P. 169 .

(21) Ibid., P. 171 .

(٢٢) حسن شحاتة سعفان : (اعتداد بالجنس) معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٤٩ .

(٢٣) فاروق اسماعيل : العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، دراسة في التكيف والتمثيل الثقافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ ـ ٤٩ .

(24) Yinger, J., M., Aminority Group in Society, A Berkley Medallion Student Edition Published by Berkley Publishing Corporation, New York, 1966, P.xiii

(25) Rose A.M., Minorities, in I.E.S.S., Vol. 9 - 10, P. 356.

(26) Yinger, Op.Cit., PP. 27 - 28 .

(27) Harris, M., Cultural Anthropology, Harper & Row Publishers , Second Edition, New York, 1987, PP. 245 - 246 .

(28) Rose , A.M., Op.Cit., P. 366 .

(29) Ibid., PP. 367 - 368 .

(30) Despres, Leo, Ethnicity and Resource Competition in Plural Societies, L. Despres ed. PP. 87 - 117 The Hangue Mouton, 1975 .

أنظر :

- Schermerhorn, R.A., Comparative Ethnic Relations, Random House, New York, 1960 .

- Wagley, Charles, and M. Harris, Minorities in the New World, Columbia University Press, New York, 1958 .

(31) Harris, M., Op.Cit., P. 246 .

(32) Ibid., PP. 246 - 247 .

(33) Sanjer, R., Cognitive Maps of Ethnic Domain in Urban Ghana : REflections on Variability and Change, American Ethndogist 4. PP. 603 - 622 .

(34) Fernea, R., & Gerste, G., Nubian in Egypt, Austin University of Texas, 1973, P. 37 .

(35) Mair, L., Anthropology and Development, Macmillan Press, London, 1984 , PP. 1 - 4 .

(36) Fahim, H., Op.Cit., PP. 117 - 118 .

(37) Evans, D.D., & Adler, N., Appropriate Technology of Development, West View, Press Boulder, Colardo, 1979, P. 10 .

(٣٨) فاروق أحمد مصطفى وآخر ، دراسات في الأنثروبولوجيا التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩ ، ص ٣٤ .

(٣٩) أحمد أبو زيد : التقديم لكتاب د . علية حسين ، التنمية نظريا وتطبيقيا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص : ز ، ص ، ل .

(40) Edward, A.D., & Jones, D.G., Community and Community Development, Mouton the Hague, Paris, 1975, P. 138 .

(41) Lagass, T.H., Community Development in Manitaba, in Human Organization Vol. 24 Winter 1965 , No. 4, P.234 .

(42) Macgregor, G., Community Development and Social Adaptation , in Human Organization, Vol. 24, Winter 1968 , P. 245 .

(٤٣) محمد توفيق صادق ، التنمية في دول مجلس التعاون ، دروس السبعينات وآفاق المستقبل ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١٢٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٥٦ .

(٤٤) محمد الجوهري ، علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ، ص ١٦١ .

(45) Thomson, L., Is Applied Anthropology Helping to Develop a Science of Man, in Human Organization , Vol. 24 Winter 1965, No. 4, P. 283 .

(46) Mair, L., Op.Cit., P. 10 .

(٤٧) فاروق أحمد مصطفي وآخر ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٤٨) محمد الجوهري وآخرون (المترجمون) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، جـ ٢، تأليف رالف بيلز ، هاري هويجر ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٧ .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٨٣٧ .

(50) Beals, R. & Hoijer H., Peals, A., An Introduction to Anthrpology, Macmillan Publishing Co., New York, 1967, P. 658 .

(51) Bernard H.R., and Pelto, P., Technology and Social Change , Op.Cit., P. 71 .

(52) Scudder, Th., and Colson E.F., The Kariba Dam Project Resettlement and Local Initiative, in Technology and Social Change , Op.Cit., PP. 40 - 69 .

(53) Fahim, H., Op.Cit., P. 121 .

(٥٤) قمت وفريق البحث بعقد عدة مقابلات للوقوف علي ماقامت به الهيئة من مشروعات في مجال التنمية وللبحث عن مجموعة من التساؤلات التي يثيرها مجتمع الدراسة تتعلق بالإعانات الأجنبية حيث نكر مجتمع الدراسة أرقاما فلكية في هذا المجال وأيضا أن هيئة تنمية بحيرة السد تضع العراقيل أمام الهجرة المنظمة للنوبيين إلي منطقة البحيرة أرض الأجداد ، والمادة الإثنوجرافية مصدرها المهندس حامد طلبة نائب رئيس الهيئة وقد تم تسجيل مجموعة المقابلات علي شرائط كاسيت .

(٥٥) السيد بدوي : تغير اجتماعي ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٥ .

(٥٦) السيد بدوي : تغير ثقافي ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٥٧) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعية ، جـ ١ ، المفهومات ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٣، ص ٢٥٠ .

(58) Moore, W., E., Social Change, Prentice-Hall of India , New Delhi, 1965 , P. 77 .

(59) Park, M., A., Anthropology An Introduction , Harper and Row Publishers, New York, 1986, PP. 363 - 364 .

(60) Hoebel E.A., Anthropology : The Study of Man, McGraw Hill Book Comp., Fourth Edition, New York, 1972, PP. 667 - 668 .

(٦١) محمد الجوهري ، مرجع سابق ، ص ١٨١ ـ ١٨٩ .

(٦٢) أنظر الدراسة الخاصة بالوعي الثقافي في التنمية من الداخل للمرحوم محمد علي محمد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(63) Bernard H.R. and Pelto P.J., Technology and Social Change. Op.Cit., PP. 319 - 331 .

(64) Geiser, P., The Egyptian Nubian, A Study in Social Symbiosis, The American University in Cairo Press, 1987 , PP. 319 - 220 .

الفصل السادس

البناء الاجتماعى للمؤسسات الطبية*

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

الفصل السادس

البناء الإجتماعي للمؤسسات الطبية *

ـ مقدمة :

البناء الإجتماعي هو ذلك الكل المتكامل المتماسك الأجزاء ، بحيث يظهر بين هذه الإجزاء نوع من الترتيب بين الأشخاص المكونين لذلك البناء في علاقاتهم بعضهم ببعض بطريقة منظمة ومحددة [1] .

فالأشخاص هم لبنات البناء الإجتماعي الأساسية كما يرى " رادكليف ـ براون " ـ الذى اهتدينا بنظريته في البناء الإجتماعي كأساس نظرى لهذه الدراسة ـ والذى يؤكد على أن دراسة العلاقات الإجتماعية التي تنشأ بين هؤلاء الأشخاص داخل البناء الإجتماعي ، إنما تكتسب أهميتها من خلال ما ينشأ بينهم من تفاعل إجتماعي [2] .

والتفاعل الإجتماعي يعني " التأثير المتبادل لأفعال الأشخاص والجماعات الناتج عن إتصال بعضهم ببعض " [3] كأن الإتصال هو الأساس الذى يقوم عليه التفاعل الإجتماعي ، ويأتى هذا المعنى في تعريف البعض للعلاقات الإجتماعية ، حيث تعرف العلاقات الإجتماعية بأنها " الروابط المتبادلة بين أفراد وجماعات المجتمع التى تنشأ عن إتصال بعضهم ببعض ، وتفاعل بعضهم مع بعض ، مثل روابط القرابة والروابط التى تدرب أعضاء المؤسسات الإجتماعية ، وأفراد الطبقات الإجتماعية ، والسياسية المختلفة في المجتمع " [4] .

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

(1) Ed. by : Radcliffe - Brown & Forde, African Systems of Kinship and Marriage, 1950 , P. 82 .

(2) Kupar, A., Op.Cit., P. 20 .

(٣) شاكر مصطفي سليم ، قاموس الأنثروبولوجيا ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٨٩٩ مادة تفاعل اجتماعي .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠١ ، مادة علاقات عامة .

إنطلاقـا من هذا المعنى كـان إختـيـارنا لهـذا الفـصل والتـركيـز فـيـه على الدراسة التحليلية الوافية لتلك العلاقات الإجتماعية بمستوياتها المختلفة التى تظهر داخل بناء المستشفى ، وذلك من أجل الوصول إلى فهم أعمق وأدق لذلك البناء .

والعلاقة الإجتماعية فى أبسط أشكالها هى ذلك النموذج للتفاعل المتبادل الذى يستمر فترة معينة من الزمن تؤدى إلى ظهور مجموعة توقعات إجتماعية ثابتـة[١] .

وقد تكون العلاقة الإجتماعية طويلة الأجل *Social Relation* كتلك العلاقة بين الزوج والزوجة ، أو بين الرئيس والمرؤوس ، وهى التى تستمر لفترة طويلة ، أو قد تكون العلاقة الإجتماعية محدودة *Social Relationship*، وهى أيضا نموذج للتفاعل الاجتماعى بين شخصين أو أكثر ، ويمثل هذا النموذج أبسط وحدة من وحدات التحليل السوسيولوجى ، كما أنه ينطوى على الإتصال الهادف ، والمعرفة المسبقة بسلوك الشخص الآخر ، ومثال على النوع الأخير قائد السيارة الذى يريد إقناع رجل الشرطة بأنه لم يكن مخطئا [٢] .

وسوف تركز دراستنا للبناء الإجتماعى للمستشفى على هذين النمطين من العلاقات وإن كنا نميل إلى إستخدام مصطلح " علاقة مؤقتة " لندل به على ذلك النوع المحدود من العلاقات والذى ينشأ فى أقسام إستقبال المرضى وتسجيلهم بالمستشفى ، كما نميل إلى إستخدام مصطلح " علاقة عميقة " لندل به على أنماط العلاقات الأساسية داخل بناء المستشفى الإجتماعى والتى تتسم بالدوام بمقارنتها بالنوع الأول .

أولا ـ العلاقات الموقتة :

يحدث الإحتكاك المباشر أو التفاعل الإجتماعى فى صورته الأولية بين

---

(١) د . محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مادة علاقات عامة ، ص ٤٣٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

المرضى والأطباء من ناحية ، ثم بين المرضى وبعض العاملين بالمستشفى لبضعة ساعات على الأكثر ، يتم بناء عليها إقامة علاقة إجتماعية تتسم بأنها سريعة أو مؤقتة ، وقد لاحظنا أن هذا النوع من العلاقات يظهر فى بعض أقسام المستشفى ـ المقصود هنا المستشفيات موضوع الدراسة ـ والتى نجملها فيما يلى :

١ ـ الإستقبال والطوارئ .
٢ ـ العيادة الخارجية .
٣ ـ قسم التسجيل الطبى .
٤ ـ قسم العلاقات العامة .
٥ ـ مكتب خدمة المواطنين .

وسوف نتناول كل قسم منها بشئ من التفصيل حتى يتسنى لنا الوقوف على معنى نوعية العلاقات التى تنشأ داخل هذه الأقسام .

١ ـ الإستقبال والطوارئ :

٢ ـ المستشفي الرئيسي :

يمثل الإستقبال بمستشفى الرئيسى احدى الطرق التى يدخل بها المريض إلى المستشفى ، ويستقبل هذا القسم نوعين من الحالات ، أولاها تتسم بالصفة العاجلة ، بينما تشمل الثانية حالات الحوادث ، والحالات الخطرة .

يقوم الإستقبال تجاه الحالات الأول ، وكلها إصابات بسيطة أوسطحية أو حالات اعماء ، باجراء اللازم نحوها حيث تجرى الإسعافات الأولية مع طرف بعض أنواع الدواء كالمسكنات أو المضادات الحيوة ، لكى يخرج صاحب الحالة بعد أن يقضى بضع الساعات أو أكثر داخل نطاق المستشفى . ومن الأمثلة على هذا النوع والتى لاحظناها وقت إجراء الدراسة فى وضع الضمادات السطحية والبسيطة لبعض الجروح الأولية ، أو الحياكة بالخيوط الطبية باليدين أو الرجلين أو احداهما ، وأيضا بالجبهة أو إجراء عمليات جزئية وبسيطة نتيجة لتهتك أحد

الأعضاء بأداة حادة وصرف العلاج اللازم من مسكنات ومضادات حيوية والخروج بعد قضاء ساعات قليلة بالمستفى .

وفى حالات النوع الثانى حيث تكون الإصابة عميقة وتحتاج إلى تدخل جراحى فإنه يتم حجز المريض بالمستشفى ويحول إلى قسم الجراحة المختص حسب نوع الإصابة التى يعانى منها المريض وقد يمكث المريض بالمستشفى فى هذه الحالة لبضعة أيام حيث يحتك بالأطباء الذين يقومون باجراء العملية الجراحية له ، كما يحتك أيضا بالمرضات ، بالاضافة إلى بعض العاملين بقسم شئون المرضى وقسم التسجيل الطبى ويقوم المريض الذى تم حجزه بالمستشفى بتسجيل اسمه بالمستشفى ويكتب له وقت الدخول وعدد الأيام التى قضاها بالمستشفى ثم وقت الخروج من المستشفى وهذا المريض ينشأ بينه وبين الأطباء من جهة والعاملين بتلك الأقسام من جهة أخرى نوع من العلاقة التى سرعان ما تنتهى بانتهاء الحالة وخروج المريض من المستشفى . وتميل الباحثة إلى أن تطلق على مثل هذه العلاقات " علاقات مؤقتة أو سطحية " ، فى مقابل تلك العلاقات العميقة أو التى تستمر فترة طويلة وهى موضوع القسم الثانى من هذا الفصل.

وفى بعض الأحيان يستقبل قسم الطوارئ بعض الحالات المريضة التى يفترض أن تمر بخطوات ادارية معينة حتى يتسنى تقديم العلاج لها ، إلا أنها تتطلب تدخلا طبيا سريعا مثل حالات " التهاب الزائدة الدودية " هنا يتم التدخل الطبى السريع ، مع تخطى الخطوات التقليدية المعمول بها فى المستشفى بحيث يدخل المريض على وجه السرعة إلى حجرة العمليات ويتم إجراء اللازم له . ثم يسجل بعد ذلك إسمه بقسم التسجيل الطبى ، ومن ثم نجد تخطيا وعدم تقيد بالقواعد واللوائح الإدارية المعمول بها بالمستشفى أمام مثل هذه الحالة ، كأن هناك تغليب للنواحى الإنسانية أمام اللوائح الرسمية المعمول بها بالمستشفى .

ويعمل قسم الإستقبال والطوارئ بالمستشفى الرئيسى طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويوجد به وحدة للعلاج المركز مجهزة بواسطة حديثة للعناية

والرعاية الطبية ، ويحول إليه حالات الحوادث الخطيرة أو الحالات التى يتطلب علاجها رعاية مركزة .

وقد كشفت لنا الدراسة أن هناك بعض الحالات التى تحتاج لدخول قسم العلاج المركز بالإستقبال ولكنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات العلاج المرتفعة بذلك القسم هنا يظهر عمل الخدمة الإجتماعية بالمستشفى حيث توجد أخصائية إجتماعية بقسم الإستقبال ، يتلخص علمها في تحرير إستمارات خاصة ببحث الحالة الإجتماعية لمريض ، وغالبا ما ينتهى هذا البحث بتوفير نفقات العلاج لغير القادرين عليها * .

ب ـ مستشفي الشاطبي :

تتمثل الحالات التى تدخل المستشفى عن طريق الإستقبال فى حالات النزيف والولادة ، ويستقبل هذا القسم تلك الحالات طوال ساعات اليوم كاملة ، فالعمل به طوال الأربع والعشرين ساعة لا يتوقف ، ويعمل به الأطباء المقيمون بالاضافة إلى المرضات ، ويتم حجز المريضة عن طريق الإستقبلا إذا كانت تعانى من نزيف حاد وشديد ، ثم تحول إلى أحد أقسام المستشفى لإجراء عملية . وهناك تقسيم للعمل داخل هذه الأقسام ، حيث يخصص لكل قسم أسبوع للحوادث ليشرف على الحالات التى تأتى إليه وقد تدخل بعض حالات الحوادث عن طريق الإستقبال ، والبعض الأخر عن طريق العيادة الخارجية . ويحدد مستشفى الشاطبى لكل قسم من أقسامه يوما فى الأسبوع أيضا لإجراء عملياته ، وتجهز الحالات التى سوف تجرى لها العملية فى اليوم السابق على العملية ، ويمر

(*) ينتشر الإخصائيون الاجتماعيون علي مستوي الأقسام بالمستشفي ، ويكون جزءا من عملهم الأساسي هو استقبال بعض الحالات التي تتردد علي المستشفي عن طريق العيادة الخارجية أو الاستقبال والطوارئ ويعانون من مشاكل معينة تتمثل في عدم وجود أسرة خالية وحالاتهم تستدعي الحجز بالمستشفي هنا يحاول الأخصائي الاجتماعي أن يجد حلا لمثل تلك المشاكل وأن يوازن بين رغبة المرضي وإمكانية المستشفي . ويقوم أيضا بإقناع المريض بكفاءة العلاج الذي صرف له .

الأساتذة المتخصصين للإشراف على تلك الحالات ثم تجرى لهم العمليات .

أما عن حالات الولادة فهي تدخل أيضا عن طريق الإستقبال ، وإذا لم تكن السيدة الحامل على إستعداد سريع لعملية الولادة فانها تغادر المستشفى ، على أن تعود مرة أخرى حسب قرار الأطباء الذين يقومون بالكشف على هذه الحالات بقسم الاستقبال ، إلا أن الفترة التى تقضيها المريضة بهذا القسم قصيرة للغاية ولاتوجد وحدة رعاية مركزة قسم الإستقبال بمستشفى الشاطبي على غرار الموجودة بالمستشفى الرئيسى ، بل أن هناك توسعات رأسية بمستشفى الشاطبي، وسوف ينشأ بأحد الأقسام الجديدة مركز للعناية المركزة * .

٢ ـ العيادة الخارجية :

أ ـ المستشفي الرئيسي :

تمثل العيادة الخارجية الطريقة الثانية لدخول المريض إلى المستشفى ، وتعمل العيادة الخارجية لفترتين ، الفترة الأولى صباحية من الساعة الثامنة صباحا إلى الثانية بعد الظهر ، وغالبا ما يكون العلاج فى هذه الفترة مجانيا .

ويقوم بالكشف على الحالات المترددة فى هذه الفترة الأطباء المقيمون بالمستشفى أما الفترة الثانية فهى مسائية من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الخامسة وتمثل هذه الفترة مشروع العلاج بالأجر الرمزى ، أو ما يسمى بمشروع العلاج الإقتصادى ، حيث يدفع المريض جنيها قيمة الحصول على بطاقة الدخول (تذكرة) التى تحتوى على بيانات أولية عن المريض ، وبعد أن يستوفيها ، يتم عمل اللازم تجاهه ، ثم تحفظ تذكرته بقسم شئون المرضى ، فإذا كانت حالة المريض عادية بحيث لاتتطلب تحويله إلى أحد الأقسام التخصصية ، إكتفى الطبيب المسئول بتشخيص حالته ووصف علاجه ، وبعدها يخرج المريض بحيث

(*) هذا ماصرح به مدير المستشفي وبعض الأطباء المقيمين للباحثة وقت إقامتها بالمستشفي في الفترة مابين ٢٢ يوليو حتي ١٩٨٧/٨/٣ وهي فترة المعايشة لمجتمع الدراسة .

تتوقف علاقته بالمستشفى عند حدود العيادة الخارجية والعاملين بها ، وتكون علاقته بهم علاقة سريعة ومؤقتة ، أما إذا أظهر فحص الطبيب الأولى أن حالة المريض لاتحتمل عودته إلى منزله دون مباشرة علاجه بمعرفة المختصين (اجراء عملية ـ مرض مزمن ظهرت مضاعفاته ـ إجراء اتحليلات بهدف التشخيص الدقيق .. الخ) ويحتاج إلى مدة رعاية أطول ، بأمر الطبيب المختص بدخوله المستشفى ، ويتم حجز المريض بعد أن يدفع ١٥ جنيها شاملة الرعاية والعلاج والإقامة وإجراء عملية إذا لزم الأمر * .

(*) توزع حصيلة هذا المشروع بنسبة ٥٠٪ ، ٥٠٪ للأطباء المعالجين ومن ثم فإن هذا المشروع يوفر إمكانيات جديدة لزيادة الاستقلال المالي للمستشفيات وإيجاد الوسيلة اللازمة لرفع مستوي الخدمة الطبية .

هذا عن العلاج الاقتصادي بالمستشفي الرئيسي وقد كانت المستشفيات الجامعية في الاسكندرية سباقه في هذا المجال ثم تبعتها الجامعات الأخري .

وقد كشفت الدراسة أن هناك نوعا من العلاج بالمستشفي الرئيسي يعرف بالعلاج الخاص أو بالأجر الكامل ، يدفع المريض بموجبه حوالي ٦ جنيهات في اليوم كمقابل للإقامة ، مضافا إليها قيمة التغذية ، وأيضا كمقابل لزيادة الطبيب للمريض ، بالإضافة إلي قيمة العلاج ، والعملية في حالة إجراء عملية . ويتحدد ثمن العملية علي حسب نوعيتها فهناك نوعان :

أ ـ عملية صغري . ب ـ عملية كبري .

يتراوح تكلفة العملية الصغري مابين ١٥٠ ـ ٤٠٠ جنيه ، وقد تصل العملية الكبري إلي أكثر من ألف جنيه . وبالرغم من هذا فقد صرح بعض العاملين بالإدارة المالية للباحثة بأن هذا المشروع لم يحقق الهدف منه وهو خدمة المواطنين بقدر مايحقق مصدرا طيبا للدخل للأطباء .

فالهدف الأساسي من العلاج الاقتصادي هو توفير الخدمة الطبية الجيدة التي أقيمت أساسا من أجلها المستشفيات الحكومية ـ كالجامعية موضوع هذه الدراسة إلا أنه مع الأسف لم يتحقق هذا الغرض ، حيث وحد نظام العلاج بالأجر الكامل وتحول الموقف إلي تجارة رابحة للأطباء . وقد لاحظت ـ بهذا الصدد ـ أن مستشفي الشاطبي يحتوي فقط علي قسم مجاني وآخر اقتصادي ، وليس به نظام العلاج بالأجر الكامل باهظ التكاليف .

هكذا تفاقمت مشكلة ارتفاع سعر تقدير الخدمة الطبية الجيدة حتي جدران المستشفي الجامعي . وتناشد الدراسة أن يكون لنقابة الأطباء دور قوي وفعال في السيطرة علي أجور الأطباء خارج المستشفي وداخله بحيث تقوم بالإشراف الفني علي كافة الأعضاء بما فيهم أعضاء هيئة التدريس ، وبهذا تكون النقابة هي الحكم بين فئة الأطباء والشعب .

ويحدد عدد الأسر الشاغرة بالمستشفى عدد المرضى الذين يحولون من العيادة الخارجية إلى داخل أقسام المستشفى ، على أن تكون الأولوية دائما للحالات العاجلة أو الملحة . وغالبا ما يحول مرضى الفترة الصباحية لأقسام العلاج المجانى ، ومرضى الفترة المسائية للعلاج بأجر إقتصادى ، أو أجر كامل .

وإن كنا لاحظنا - إعتمادا على منهج دراسة الحالة - إرتباط الحالة الإقتصادية للمريض بنوع العلاج الذى يتلقاه (مجانى ، إقتصادى ، أجر كامل)*.

ويقع على قسم شئون المرضى بالمستشفى - وصلته وثيقة بالعيادة الخارجية - عبء تصنيف المرضى من خلال البيانات الأولية لهم ، بالاضافة إلى ما لاحظناه من دوره فى إعداد تقارير الأطباء الخاصة بحالات الحوادث والكوارث وتوجيهها للجهات المعنية (الشرطة ، النيابة ، القضاء) .

ب - مستشفي الشاطبي :

بينما تقوم العيادة الخارجية بالمستشفى الرئيسى بنشاط وافر ومتعدد الإتجاهات ، لاحظنا أن العيادة الخارجية بمستشفى الشاطبى يقتصر عملها على فترة صباحية فقط وتتعلق بالمريضات - دون حالات الوضع التى يتلقاها قسم الإستقبال - وفى العادة يشخص المرض ويحدد ويوصف له العلاج اللازم ، وتخرج المريضة بعد أن تكون قد كونت علاقة بسيطة ومؤقتة بالأطباء والممرضات بقسم العيادة الخارجية ، وتتعمق هذه العلاقة بدرجة أكثر عندما تحجز بعض هذه الحالات بالمستشفى لإجراء جراحة عاجلة ، حيث تحول المريضة إلى القسم الذى

(*) لاحظت أيضا الباحثة تفاوتا في درجة الرعاية وتكوين علاقات اجتماعية بين الأطباء والمرضي بين الأقسام المجانية والأقسام مدفوعة الأجر اقتصاديا كان أو كاملا : ففي الأقسام الأولي حشد للمرضي بحيث تضيق بهم الغرف والعنابر مع تواضع الرعاية والخدمات التي تقدم لهم ، بينما في الأقسام الأخري - وهي أقسام العلاج بالأجر الكامل خاصة - تتعدد ألوان الرعاية من خدمة تمريضية عالية واهتمام من جانب الطبيب المعالج وظهور علاقات اجتماعية بين الأطباء ومرضي هذه الأقسام ، هذا بالإضافة إلي عدم تكدس المرضي بهذه الأقسام بحجرة واحدة ، فالحجرة الواحدة يكون بها مريضان أو ثلاث فقط .

يعدها ويجرى لها التحاليل ، ومن ثم تكون مستعدة لإجراء العملية ومن أمثلة العمليات التى تجرى لمثل هذه الحالات : إستئصال الرحم ، وانتزاع أورام ليفية أو سرطانية من الرحم ، أو إنتزاع أورام فى المبيض ، الإجهاض ، وإجراء عملية لرفع الرحم عند سقوطه ، (وتعانى السيدة من سقوط الرحم نتيجة لتكرار الحمل والولادة أو نتيجة للولادة الخاطئة التى تتم على أيد القابلات بالمنازل) إذا أجرت المريضة احدى هذه العمليات فلابد أن تمكث بالمستشفى بضعة أيام ، وهنا تنشأ بينها وبين الفريق الطبى المعالج ـ الأطباء والممرضات ـ علاقة أقوى من تلك التى نشأت بين المريضات اللائى غادرن المستشفى بعد قضاء عدة ساعات فيه .

كما أن هناك نوعا آخر من العمليات التى تجرى للمريضة داخل العيادة الخارجية وتستطيع أن تخرج بعد قضاء ساعات من إجرائها ولايتم حجزها بالمستشفى ، ومن هذه العمليات كى للرحم ، أو علاج الإلتهابات فى عنق الرحم ، والإلتهابات المهبلية .

ويرتبط بالعيادة قسم شئون المرضى الذى يحتفظ ببطاقات لكافة المترددات تحمل بياناتهم الأولية وحالاتهم المرضية بحيث يمكن العودة اليها عند الطلب ، حيث يطلبها بعض الأطباء للرجوع إليها فى إجراء بحوثهم ، أو أن المريضة نفسها قد تعود مرة أخرى وتطلبها لإثبات مدة مكوثها بالمستشفى ، حتى تثبت فترة المرض إذا كانت تعمل فى إحدى قطاعات الحكومة أو القطاع العام لاحتساب أجازة مرضية لها ، هذا عن قسم العيادة الخارجية بالمستشفى موضوع الدراسة .

٣ ـ قسم التسجيل الطبي :

يعتبر قسم التسجيل الطبى من الأقسام التى يحتك فيها المريض ببعض العاملين بالمستشفى ويستطيع أن يكون معهم نوعا من العلاقات المؤقتة ، يعد هذا القسم حديثا نسبيا فهو لايزيد عن عشر سنوات ، وغالبا ما يرأس هذا القسم أحد الأطباء *.

(*) ترأس قسم التسجيل الطبي بالمستشفي الرئيسي المركزي طبيبة .

ويقع مكتب التسجيل الطبى فى المدخل بالمستشفى الرئيسى ، حيث يتجه إليه المريض فى بداية دخوله المستشفى ، ويسمى بمكتب الدخول والخروج ، وبمجرد دخول المريض المستشفى يسجل بعض البيانات الأولية داخل إستمارة خاصة به .

ـ إسم المريض رباعيا ، السن ، النوع ، الحالة الزواجية ، رقم المستشفى الموحد ، محل الإقامة الدائم ، الجنسية ، الديانة ، محل الميلاد ، المهنة .

ـ ثم يسجل تاريخ الدخول بالساعة ، وتاريخ الخروج بالساعة ، كيفية الدخول ثم مدة الإقامة ، نوع الغلاج (مجانى ، علاج إقتصادى ، بالأجر الكامل، تأمين صحى) .

ـ الحالةعند الخروج (شفى ــ تحسن ـ لم يتحسن ـ توفى قبل ٤٨ ساعة ، توفى بعد ٤٨ ساعة) .

تفرغ محتويات الاستمارة فى سجلات خاصة ، بحيث تتحول إلى أرقام فى سجل التحليل اليومى لخدمة المستشفى ، يكون لهذه الأرقام دلالات إحصائية معينة تشمل بيانات اجمالية عن الأقسام المختلفة للمستشفى .

ومن خلال الإطلاع على هذه السجلات توصلنا إلى أن متوسط الحالات المترددة على المستشفى يبلغ يوميا فى فصل الصيف ما يقرب من ٢٠٠ حالة تقريبا ، وتقل تلك النسبة عنها فى الشتاء ، كما رأينا أن معظم الحالات تدخل عن طريق العلاج المجانى .

وبعد أن يتم التسجيل فى سجل التحليل اليومى يحفظ ملف المريض بقسم التسجيل الطبى نظرا لحاجة بعض الأقسام الأخرى إليه ، كقسم شئون المرضى (لاستيفاء أوراق معينة أو إعطاء نوع التشخيص لجهة العمل التى يعمل فيها المريض مثلا) أو قد تجرى بعض الأبحاث التى يود أصحابها الإطلاع على تلك الملفات ، لذا تحتفظ بمخزن تابع لقسم التسجيل الطبى للرجوع لها وقت الحاجة .

ومن فحصنا لمضمون التسجيل الطبى ، إكتشفنا أن التسجيل مقصور فقط على هؤلاء المرضى الذى يقضون بالمستشفى أكثر من٢٤ ساعة أما هولاء الذين يعالجون بالإستقبال أو بالعيادة الخارجية فإن إسمه أو حالته لا تدخل فى نطاق التسجيل الطبى عن قسم شئون المرضى الذى يسجل كل من يتردد على المستشفى دون إستثناء .

ويتتبع قسم التسجيل الطبى حالة المريض بدءا من التشخيص المبدئى ، حتى التشخيص النهائى ثم خطوات العلاج ، دون أن يدرك المريض هذا التتبع بالضرورة إلا أن المريض بعد شفائه لابد له من أن يعود إلى ذات القسم لتسجيل بيانات قريبة من تلك التى سجلها ساعة دخوله ، والعلاقة فى هذا القسم ـ فيما لاحظنا ـ قد تكون علاقة من جانب واحد ، حيث أن المريض فى معظم الأحيان يكون ذهنه منصرفا لمعرفة دقائق حالته من خلال تشخيص الأطباء ومساعديهم ولا ينتبه كثيرا لتلك البيانات التى يسجلها عنه بعض العاملين بالمستشفى ، وقد تنشأ علاقة ـ وأن كانت مؤقتة ـ عندما يعود نفس المريض للمستشفى مرة ثانية فيبحث عن ذات الرقم الموحد الخاص به الذى يشير إلى ملفه الخاص بحالته المرضية .

وفى مستشفى الشاطبى يوجد نفس القسم وأن كان نشاطه محدودا بالنسبة للمشتشفى الرئيسى ، وبخاصة أن معظم الحالات المترددة هى حالات ولادة تسجل معظم بياناتها أثناء أو بعد الوضع ، بعد أن تكون قد نشأت علاقات أخرى أعمق بين المريضة والطبيب ، أو بينها والممرضة ، كما تسجل به أيضا بعض الحالات التى دخلت المستشفى إما للعلاج أو لإجراء عملية ومكثت بالمستشفى ما يزيد عن ٢٤ ساعة وتحفظ هذه السجلات جميعا بقسم التسجيل الطبى بالمستشفى .

٤ ـ قسم العلاقات العامة :

يؤدى هذا القسم من خدمات إجتماعية تظهر فى أنشطته اليومية والموسمية، فمن هذه الأنشطة التى تبرز فيها العلاقات الإجتماعية :

إقامة حفلات ترفيهية للمرضى ، جمع التبرعات فى المناسبات المختلفة إقامة حفلات دينية مثل حفلات الافطار فى رمضان والتى قد تجمع بين المريض والطبيب والممرضة والعاملين فى المستشفى فى موقف واحد بعيدا عن إجراء العلاج التقليدية ، الإحتفال بمن يحالون إلى المعاش من العاملين ، بل ويمتد نشاط هذا القسم إلى إقامة جنازات رسمية للمتوفى من العاملين بالمستشفى سواء كان من أعضاء هيئة التدريس أو غيرهم .

هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من الإشراف على إقامة الندوات العلمية وإستضافة الأساتذة الأجانب للإستفادة من خبراتهم ويعتبر قسم العلاقات العامة بمستشفى الشاطبى صورة مصغرة لقسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى ، فهو تابع له من الناحية الرسمية ، ويختص بنفس الاهتمامات التى يقدمها قسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى ، كما يتمثل دور العلاقات العامة الإيجابى بالمستشفيات فى عقد المؤتمرات العلمية الطبية والتمهيد لها ، والإعداد والمتابعة من الناحية العلمية والتنظيمية ثم النتائج أو التوصيات التى يخرج بها المتخصصون من مثل هذه المؤتمرات ومدى الإستفادة بها * .

٥ ـ مكتب خدمة المواطنين (المستشفى الرئيسي) :

أنشئ هذا المكتب بقرار رئيس الجامعة فى ١٩٨٢/٢/١٤ وبناء على قرار جمهورى رقم ٧٠ لسنة ١٩٨١ بانشاء مكاتب خدمة المواطنين بالمصالح الحكومية ، وهو يتبع قسم العلاقات العامة الذى سبق الإشارة إليه .

وتنحصر الخدمات الإجتماعية التى يقدمها هذا المكتب فى ثلاثة إتجاهات رئيسية هى :

(*) يوجد بمستشفى الشاطبي قاعة كبيرة مجهزة لعقد المؤتمرات ، وبالفعل عقدت بهذه القاعة عدة مؤتمرات علمية خاصة بجامعة الاسكندرية .

١ ـ مكاتب لتلقي شكاوي المواطنين :

أ ـ شفاهة ب ـ كتابة جـ ـ بالبريد .

وغالبا ما يعتبر مضمون هذه الشكاوى مؤشرا يدعو لتحسين الخدمات فى جانب ، أوتطويرها فى جانب أخر ، أو الحصول على مستحقات خاصة بأحد المواطنين .

كما يقوم المكتب بالرد على إستفسارات العاملين من خلال موظفين نوى تخصصات متعددة ، ويتلقى المكتب شكاوى العاملين بالمستشفى على كافة درجاتهم وتخصصاتهم أيضا ويوجهها لجهات الاختصاص أو الأقسام الإدارية المختلفة بالمستشفى ، ويتابع حلها .

وهناك عشرات الأمثلة التى عشناها خلال الدراسة منها ما لاحظته الباحثة من دخول طبيب إلى مدير هذا المكتب يريد مساعدته فى إسترداد مبلغ دفعه أحد مرضاه لدخول المستشفى عن طريق مشروع العلاج الإقتصادى لإجراء عملية جراحية وقد حالت ظروف هذا المريض دون دخوله المستشفى فى الوقت المحدد لها ، ومن ثم يود المريض إسترداد ما دفعه ، إلا أن (الروتين) والتعقيدات الوظيفية يؤخر الإجراء ، وفعلا حسم المدير هذا الموقف مع الطبيب ووعده باسترداد المبلغ .

٢ ـ الاستعلامات :

ثانى الخدمات التى يقدمها هذا المكتب يتمثل فى الإستعلام عن أى شئ بالنسبة للمرضى ، أو إستعلام المترددين يوميا على المستشفى عن الأقسام أو موعد الزيارات أو أى شئ أخر ، ويحتك المريض بالعاملين فى هذه القسم إذا كان يريد أن يعالج بقسم معين ، كقسم العلاج بالكوبالت مثلا أو الذرة ، فإنه يتقدم لمكاتب الاستعلامات التى توفر له معلومات كاملة عن مثل هذه الأقسام ، وترشده عن الأوراق المطلوبة أو ما ينبغى أن يقوم به .

٣ ـ الرد على الصحف :

بالإضافة إلى إعداد دليل مبسط عن مواعيد العمل فى العيادة الخارجية ، وعن مواعيد الزيارة وغير ذلك .

كما يبحث هذا المكتب المعوقات التى تقابل العمل التنفيذى داخل المستشفى والعمل على تحقيق مصلحة الجماهير .

وقد لاحظنا أنه رغم ما يتمتع به العاملون بهذا المكتب من نشاط ، إلا أنه يحول دون تلبية رغبات المواطنين أو حتى العاملين بالمستشفى من خلاله عوامل كثيرة ، منها طبيعة التدرج الوظيفى والتى تجعل القرار النهائى فى بعض الأمور للمديرين المتخصصين أو لرؤساء الأقسام وهؤلاء لا يرضخون فى كل الحالات لرغبات مدير المكتب أو أصحاب الشكاوى ، كما لاحظنا أن تردد بعض المواطنين وبعض العاملين على المكتب بانتظام يكون وراء قيام نوع من العلاقات يوصف بأنه أكثر من مؤقت ، ويوجد لهذا المكتب ثلاثة مكاتب فرعية تابعة له وجدنا احدها بمستشفى الشاطبى ، بالاضافة إلى مكتب آخر بمستشفى الأطفال الجامعى ومكتب رابع بمستشفى الحضرة الجامعى ومن ثم يكون المكتب الأساسى والرئيسى هو الموجود بالمستشفى الرئيسى الجامعى والذى عرضناه آنفا ، والمكاتب الأخرى صورة منه ، وقد تلجأ إليها فى بعض الأحيان ، ولذا آثرنا عدم الحديث عن هذا المكتب داخل مستشفى الشاطبى لأنه صورة مصغرة من ذلك المكتب الأساسى بالمستشفى الرئيسى والذى تحدثنا عنه وهو يقوم بنفس الدور .

ثانيا ـ العلاقات العميقة :

استطعنا من خلال دراستنا المكثفة والمركزة للبناء الاجتماعى للمستشفى أن نصل إلى حقيقة هامة مؤداها * .

أن بناء المستشفى يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات

(*) تنطبق هذه الحقيقة على المستشفيين موضوع الدراسة .

الاجتماعية ، تلك التي لاتخرج في أساسها عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة . وتظهر هذه العلاقة الثنائية بصورة واضحة بين أي شخصين داخل هذا البناء ومن مجموعها يتكون ذلك الكل ، وقد أفادت الدراسة من تلك العلاقات الثنائية التي أشار إليها " رادكليف ـ براون " في معرض حديثه عن نظرية البناء الاجتماعي وأكد على أنها هي لبنات البناء الإجتماعي ، أيضا ظهرت لنا بكل وضوح أنماط عديدة من تلك العلاقات داخل بناء المستشفيين موضوع الدراسة وبالتالي أعطينا معظم إهتمامنا لمثل هذه العلاقات داخل بناء المستشفى والتي تؤدي في النهاية إلى تماسك وتكامل البناء الكلي للمستشفى .

كما أفدنا من قول " رادكليف ـ براون " أن الملاحظة المباشرة تدلنا على أن الكائنات البشرية ترتبط بعضها ببعض بشبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية واستخدم لفظ البناء الإجتماعي لأعبر عن هذه العلاقة بالفعل ، وهذا البناء الإجتماعي هو ما اعتبره موضوعا لدراستي [1] .

ومن هنا كان إعتمادنا على أداة الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة التي ساعدتنا على كشف تلك الأنماط المحددة للعلاقات الثنائية الموجودة داخل بناء المستشفى وسوف نعالجها بشئ من التفصيل في هذا الجزء .

ومما يدعم الأساس النظري الذي إنطلقنا منه أيضا عند " رادكليف ـ براون" أن هناك بعض الدراسات الميدانية التي أكدت أن العلاقة بين الطبيب والمريض *Doctor Patient Relationship* على وجه الخصوص ، هي علاقة ثنائية في المحل الأول ، وتمثل مثل هذه العلاقات في العيادات أو في المستشفيات الكبرى جزء من كل مركب أوسع .

ومن ثم أصبحت تلك العلاقة ـ علاقة الطبيب بالمريض ـ ميدانا هاما للبحث والدراسة[2] .

---

(1) Radcliffe - Brown, A.A., Structure and Function in Primitive Society , London, 1956 , P. 190 .
(2) Aneeta Ahluwalia, Sociology of Medicine, Op.Cit., P. 415 .

وحددنا العلاقات العميقة التى تتمثل فى البناء الإجتماعى للمستشفى فى الأنماط الثنائية الآتية :

١ ـ العلاقة بين الطبيب والطبيب (الأطباء) .

٢ ـ العلاقة بين الطبيب والمريض .

٣ ـ العلاقة بين الطبيب والمرضة (الأطباء والمرضات) .

٤ ـ العلاقة بين المرضة والمريض .

٥ ـ العلاقة بين المرضة والمرضة (هيئة التمريض) .

٦ ـ العلاقة بين المريض والمريض (المرضى بعضهم وبعض) .

وسوف نعرض لكل نمط من هذه الأنماط بشئ من التفصيل :

أولا ـ العلاقة بين الطبيب والطبيب :

ذهب بعض علماء الاجتماع الطبى والمهتمين بدراسة المستشفى إلى أنه يمكن النظر إلى المستشفى باعتباره تنظيما بلا قائد أو زعيم [1] .

وهذه الحقيقة تصلح لأن تكون مدخلا لحديثنا عن علاقة الطبيب بالطبيب داخل المستشفى ، ونظرا لأن البناء الإدارى للمستشفى يتسم بالثنائية أوبناء السلطة داخل المستشفى يتسم بالازدواجية ، كل هذا جعل من المستشفى كما لاحظت من خلال الدراسة الميدانية وخاصة فترة الإقامة والمعايشة لمجتمع المستشفى ، لاحظت أن الطبيب المدير لايستطيع أن يمارس سلطته على الطبيب المعالج ، وإنما يكون الأمر شورى بينهم وخاصة فى الأمور المتعلقة بالتشخيص* ، ورعاية المرضى حيث يكون للطبيب المعالج الرأى الحاسم بخصوص القرارات العلاجية للمرضى ، على هذا يظهر أمامنا المستشفى على أنه تنظيم بلا قائد أو

(1) Susser, M.W., & Watson, W., Op.Cit., P. 251 .

(*) ظهر هذا الأمر واضحا أمامنا بصفة خاصة بمشتفي الشاطبي لأن مديره غير متخصص في أمراض النساء والولادة ومن ثم كان يرجع في الأمور الفنية إلي المشرف الفني لمستشفي وهو أحد أعضاء هيئة التدريس به .

زعيم حسب المقولة التى إنطلقنا منها ونحن نؤيدها حيث كشف لنا بناء المستشفى ذلك جليا وواضحا ، كما لاحظنا أيضا أن الطبيب المتخصص هو الذى يقترح على الطبيب المدير ما يحتاجه المستشفى من أدوات ومعدات فنية ، ويقترح شراءها فى حين أن المدير هو الذى يدبر عملية الشراء نفسها وموازنة الأمور المالية .

ومثالا على ذلك موقفا حدث أمامنا بمستشفى الشاطبى عندما إقترح الطبيب المشرف الفنى للمستشفى ـ أحد أعضاء هيئة التدريس والمتخصصين فى أمراض النساء والولادة على مدير المستشفى شراء مجموعة مناظير جديدة تفيد فى التشخيص وتسهل العملية العلاجية على الطبيب المعالج ، ينظر المدير هنا إلى الطبيب المعالج على أنه يقف معه جنبا إلى جنب ، ويرجع إليه فى بعض الأمور الخاصة بالنواحى العلاجية وبهذا يشارك الأطباء فى صنع القرارات الخاصة بالتشخيص وعلاج المرضى ، فالتعليم الذى يتلقاه الأطباء ، والتدريب الذى يحصلون عليه ، بالإضافة إلى أخلاق المهنة ذاتها [1] . كل هذا يجعل الأطباء يقفون جميعا على قدم المساواه ، وهذا ما لاحظناه بالمستشفيين موضوع الدراسة، فالطبيب رئيس القسم العلاجى ـ على ما رأينا ـ ينظر إلى الطبيب المقيم باعتباره زميل المهنة بحيث يمكن القول بأن علاقة الطبيب بالطبيب هى بصفة عامة علاقة الند للند ، وإذا ما قدم الطبيب الرئيس بعض النصائح والارشادات للطبيب المرؤوس ، تلقاها الأخير برحابه صدر ، محترما خبرة وكفاءة رئيسه فى المجال الطبى ، ويحضرنا فى هذا الصدد ما لاحظته فى مواقف عديدة ، حين كان الأستاذ يلقى دروسه الأكلينيكية على مستمعيه وكانوا طلابا بكلية الطب ، وأطباء امتياز وأطباء مقيمين ، وكانت العلاقة التى تجمع الجميع هى تحقيق أكبر قدر من الاستفادة بخبرة الأستاذ من جانب الأطباء ، ومزيد من العطاء من جانب الأستاذ ، هذا الموقف الذى يتكرر كثيرا فى مستشفى تعليمى ، يؤكد أن للخبرة الطبية التى يتمتع بها الطبيب دورا فى إقامة علاقات عميقة ومتصلة مع غيره من الأطباء سواء

(1) Freidson, E., Medicial Personnel : Physicians, In : International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 9 - 10, PP. 105 - 113 .

كانوا زملاء أم طلابا .

وفى حالات أخرى يتقبل الطبيب المقيم نفسه نصائح وإرشادات من الطبيب المقيم زميله ، صاحب الخبرة والأقدمية ، يتقبلها أيضا بصدر رحب ولايكون فيها شئ من التعالى من جانب الطبيب المقيم الأكثر خبرة وإنما العلاقة بينهم تقوم على التشاور دائما * ومما يدعم هذا القول وفى حضور الباحثة لبعض حالات الكشف والتواجد بمستشفى الشاطبى ـ على سبيل المثال ـ أنه بمجرد الكشف على مريضة جاءت إلى المستشفى عن طريق الحوادث بالعيادة الخارجية ، وكانت تعانى من حالة نزيف حاد قرر أحد الأطباء المقيمين أنها ليست فى حاجة إلى تدخل جراحى ، وإنما يكفى العلاج الموضعى لها ، وبعد تشاور هذا الطبيب مع زملائه الأكثر خبرة بالاضافة إلى رجوعهم جميعا لأستاذهم المشرف ، قرروا إجراء عملية جراحية أجريت فى الحال بنجاح وتم إستئصال الرحم لوقف النزيف .

هنا أبدى الأستاذ رضاه عن تلامذته وأبدى الأطباء إرتياحهم وأظهر الطبيب الأقل خبرة امتنانه لبقية زملائه الذين أفاد من خبرتهم .

وقد لاحظنا أن كل قسم من أقسام مستشفى الشاطبى يوجد به من اثنين إلى ثلاثة من الأطباء المقيمين ، والذى يكون من بينهم واحد أو إثنان من الأطباء المقيمين القدامى أو الأكثر خبرة ، وهؤلاء الأطباء يقع عليهم عبء عمليتى التشخيص والعلاج وإجراء الجراحات ويقوم دور تعليمى لزميله المقيم الأحدث .

كأن العلاقة بين الطبيب والطبيب إذن ـ كما لاحظنا ـ تقوم على أساس نوع من التعاون والتشاور وتبادل الرأى ويؤكد هذا الملاحظات التى رصدتها الدراسة

(*) لقد صرح معظم الأطباء المقيمين للباحثة ـ بالمستشفيين موضوع الدراسة ـ أن العلاقة بينهم تقوم علي أساس نوع من التشاور وأخذ الرأي وخاصة عند إجراء بعض العمليات ، فالطبيب المقيم الـ Junior ـ علي حسب تعبيرهم للباحثة ـ دائما يستشير ويتعلم من الطبيب المقيم الـ Senior ويعكس هذا الوضع أيضا التدرج الهرمي للمراكز داخل بناء المستشفي وداخل فئة الأطباء المقيمين علي وجه الخصوص .

سواء بمستشفى الشاطبى ، أو بالمستشفى الرئيسى حيث تكرر نفس هذا الموقف أمامنا ببعض أقسام الأمراض الباطنية به .

وقد لاحظنا ظاهرة عامة بين معظم أقسام المستشفى وهى أن الأطباء أصحاب التخصص الواحد يرتبطون معا برباط قوى أكثر من أصحاب التخصصات المختلفة ، ومن ثم ظهر لنا ترابط أصحاب التخصص الواحد .

وعلي سبيل المثال :

تظهر علاقة الأطباء بعضهم ببعض ــ على ما لاحظنا ــ داخل أقسام الأمراض الباطنية كأسرة واحدة يجمعهم ذلك التخصص الواحد ، ومن مظاهر هذه العلاقة التعاون العلمي الملحوظ بينهم بصدد الحالات التى يقومون بعلاجها ، وتبادل المشورة فى الحالات التى تتطلب علاجا مكثفا على ما لاحظنا خصوصا ع مرضى السرطان ، هذاويجمع أصحاب التخصص الواحد التواجد فى مكان واحد ــ وهو القسم الذى يعملون به ــ وقضاء معظم الوقت معا ، ومن مظاهر هذه العلاقة أيضا الرجوع إلى بعضهم البعض بصدد العملية التعليمية داخل المستشفى ، وما هى النواحى الملحة الجديرة بزن يركز عليها طلاب الدراسات العليا ، ونوعية الأمراض التى تكون موضوعات لبحوثهم العلمية .

هذا هو الترابط بين أصحاب التخصص الواحد الذى لمسناه أيضا داخل أيضا داخل أقسام الجراحة والرمد وغيره من أقسام المستشفى الرئيسى ، وقلما توجد علاقة عميقة بين طبيبين من قسمين مختلفين إلا إذا كان مصدر هذه العلاقة من خارج أسوار المستشفى ، كعمل مشترك بكلية الطب أو إشتراكهما فى نادى واحد .. الخ هذا دليل عليب رابطة التخصص الواحد التى وجدناها بصورة واضحة ، إذا صح لنا إستخدام هذا التعبير .

ويمثل مستشفى الشاطبى تخصصا واحدا ولذا ظهرت رابطة التخصص الواحد بين أعضائه واضحة وخاصة بين كل قسم من أقسامة الفرعية ، حيث تنشأ

علاقة قوية بين الأطباء المقيمين بالقسم الواحد أقوى مما هي بين أعضاء قسم وقسم أخر أيضا نجد علاقة الأطباء المقيمين قوية بأساتذتهم فى نفس التخصص وتقوم تلك العلاقة على التوجيه والإرشاد من قبل الأستاذ ، والطاعة من قبل الطبيب المقيم ، تقوم العلاقة أيضا على الناحية التعليمية التى يحاول المقيم فيها أن يستفيد من علم وخبرة الأستاذ فى الناحية الإكلينيكية ويحضر معه العمليات الكبرى حتى يتنسى له القيام بمثلها بمفرده وحتى ينال رضا الأستاذ وهو يسعى فى هذه الفترة ـ فترة الإقامة ـ إلى تكوين علاقة قوية باستاذه حتى ينال درجة علمية ويتم تعيينه ضمن أعضاء هيئة التدريس .

ومن مظاهر تعمق العلاقات ما يكون إيجابيا ويتخطى حدود التعاون العلمى وتقديم الخبرة إلى بعض صور المشاركة الوجدانية ، وقد لمسنا هذه الناحية فى قطاعات غير قليلة بالمستشفيين .

نضيف إلى كل ما سبق أن مهنة الطب تشتمل على مجموعة من المعايير والقيم التى تحكم بالتالى القائم بهذه المهنة وتضبط سلوكه وتصرفاته تجاه زملاء المهنة ، ومن ناحية أخرى يضبط السلوك المهنى للأطباء داخل المستشفى من خلال نظام مركب من الجزاءات الاجتماعية أو الرمزية ، فالطبيب المقيم مثلا يكتسب باقامته بالمستشفى إتجاهات فنية وأخلاقية تجاه ممارسة الطب من شأنهاأن تنمى لديه الإحساس بالمسئولية وتكوين معايير وقيم المهنة ، والتى يتعرض من يخرج عليها للجزاءات ، تلك المعايير التى يحترمها كل طبيب ويعمل بمفرده دون حاجته إلى إشراف ممن هم أعلى منه فى المهنة ىو أى ما نطلق عليه الضمير المهنى ، ولهذا يمارس كل طبيب مهنته فى نوع من الحرية من الإشراف أو المراقبة المهنية المباشرة سواء من داخل المهنة أو من خارجها ، فالطبيب يعتبر أكثر العاملين بالمستشفى تمتعا بالاستقلال الذاتى والحرية فى رعاية مرضاه .

ومن ثم يمد قانون المهنة الطبيب بالرضا الحقيقى عن عمله وقيامه به كاملا، وما نخلص به من هذه العبارة هو أن إحساسه بقيمة الضمير المهنى وإحساسه

بالرضا والإستقلال يدفعه إلى إقامة علاقات متوازنة مع زملائه وأساتذته ، بحيث لاتقوم علاقته بأنداده ـ كما صرح معظم الأطباء العاملين ـ على الترغيب والترهيب، وإنما تقوم على الإحترام المتبادل ، وإحترام الرأى والرأى الآخر ، وتقبل مشورة الآخرين .

ثانيا ـ العلاقة بين الطبيب والمريض :

تعتبر العلاقة بين الطبيب والمريض من أعمق العلاقات الثنائية الموجودة داخل المستشفى على ما كشفت لنا الدراسات الرائدة فى هذا المجال بالاضافة إلى ما يؤكده ما لاحظناه وعايشناه من مظاهر هذه العلاقة داخل بناء المستشفيين حتى أن هذه العلاقة الخاصة والعميقة كانت محور بقية العلاقات الكائنة بالمستشفى كما أن قدر التفاعلات فيها والمشاعر يطغى على مثيله فى أى علاقة أخرى ، وقد لاقت هذه العلاقة إهتماما خاصا من قبل الباحثين سواء من علماء الإجتماع أو الأنثروبولوجيا . فراحوا يرسون أبعاد هذه العلاقة ، ونستطيع أن نصنف معظم دراسات علماء الإجتماع التى تناولت العلاقة بين الطبيب والمريض فى مدخلين أساسيين هما : (١)

١ ـ يتمثل الإتجاه الأول فى محاولة " تالكوت بارسونز ***Talcott Parsons*** " لفحص وفهم تلك العلاقة فى كتابة النسق الإجتماعى ١٩٥١ ***The Social System*** ، وعلماء الإجتماع الذين صاروا على نهجه كل منهم إلى أنه لفهم العلاقة بين الطبيب والمريض يجب أن ننظر إلى أن كلا منهما يقوم بأدوار معينة وممثل لأنماط معينة من السلوك .

٢ ـ ويمثل الإتجاه الثانى " اليوت فريدسون (١٩٧٠) ***Eliot Freidson*** وأتباعه من علماء الإجتماع ، حيث يركز كل منهم على الصراع الكامن فى تلك

(1) Morgan, M., The Doctor - Patient Relationship , in Sociology as Applied to Medicine, Ed. by. Patrick & G. Scambler, London, 1982, P. 57 .

العلاقة ، والإهتمام بالطرق التى يستخدمها كل من الأطباء والمرضى لكى ينجز كل منهم أغراضه الخاصة .

وبالرغم من أن هذين المدخلين يؤكدان على مظاهر مختلفة لتلك العلاقةالتى تنشأ بين الطبيب والمريض ، إلا أن كلا منهما يساعد فى فهم وتوضيح طبيعة المقابلة والمواجهة الإجتماعية بينهما ، ويساهم كل مدخل منهما فى إضفاء المزيد من الفهم والتوضيح لتلك العلاقة .

أما عن المدخل الأول ومدخل الأدوار ، فإن أصحابه يؤكدون على أن كلا من الطبيب والمريض يلعب عدة أدوار وله حقوق وعليه إلتزامات ، هذا بالاضافة إلى السلوك المتوقع أو توقعات كل منهما تجاه الأخر أو ما يسمى بتوقعات الدور ، ومن ثم هناك علاقة متبادلة بين كل من الطبيب والمريض تظهر فى موقف الممارسة الطبية ، يمكن من خلالها التنبؤ بسلوك الطبيب وكيفية معاملته للمريض ، وقد توصل " بارسونز " بهذا الصدد إلى أن رعاية المريض هى فى الدرجة الأولى نشاط مهنى متخصص ، وعلى هذا فإن مكانة الطبيب تعتمد على الخبرة الفنية والكفاءة أو المهارة فى ممارسة الطب (١) . كما قدم بارسونز تحليلا وافيا للعلاقة الطبيب بالمريض عن طريق تفحصه لأدوار كل منهما . وأكد على أن دور الطبيب يتسم بالمكانة العالية والضبط والإشراف على المريض . ويرى أن الطبيب قد إستمد قوته وضبطه للمواقف من تلك الخبرة الفنية التى إكتسبها خلال سنوات تعليمه وتدريبه وممارسته لمهنة الطب (٢) .

هذا عن المدخل الأول لدراسة العلاقة بين الطبيب والمريض ، أما عن المدخل الثانى فهو الذى يركز على دراسة الصراع *Conflict* الذى يكمن فى تلك العلاقة ويمثل هذا الإتجاه " فريدسون " فى كتابيه :

---

(1) Parsons, T., Op.Cit., PP. 428, 479 .
(2) Stiles, W.B. & Others, Dimensions of Patient and Physician Roles in Medical Screening Interviews, in Social Science and Medicine, Vol. 13 A, N. 3 May, 1979, PP. 335 - 340, 1979, PP. 335 - 340 .

١ ـ مهنة الطب *Profession of Medicine* (١٩٧٠) .

٢ ـ والسيادة أو السيطرة المهنية *Professional Dominance* (١٩٧٠).

وسوف نتناول آراء " فريدسون " بالتحليل والدراسة إجمالا من خلال النقاط التالية "

١ ـ يرى " فريدسون " أن (١) : السب الأساسى فى الصراع الذى تتميز به العلاقة بين الطبيب والمريض يرجع فى المحل الأول إلى التعرض والتناقض بين وجهات نظر كل منهما . ومن ثم فإن المريض يركز على حالته ويريد الحصول على الشفاء والخروج من حالة المرض باقصى سرعة ، أما بالنسبة للطبيب فعليه أن يعدل بين الحاجات المتعددة للأعداد الكبيرة من المرضى الذين يشرف عليهم وأن يوازن بين تلك الحاجات ، وأن يوزع وقته وخبرته عليهم بالتساوى و وكل مريض يشرف عليه الطبيب يريد أن يتفرغ له ذلك الطبيب ويناقشه على حدة ، هنا يحدث الصراع حيث لا يستطيع الطبيب أن يرضى كل مرضاه .

٢ ـ يظهر الصراع أيضا فى العلاقة بين الطبيب والمريض ـ على ما يرى فريدسون ـ فى موضوعات خاصة بالتشخيص والعلاج ، وبالرغم من موافقة المرضى على أن الأطباء يتمتعون بخبرة فنية فى مجال الخدمات الطبية ، إلا أنه يحاولون من وقت لآخر تقييم العملية الطبية من وجهة نظرهم ، وهنا يحدث الإختلاف الهائل بين تقييم كل من الطبيب والمريض للحالة ، وهذا راجع إلى الإختلاف فى نوع المعرفة الطبية والتجربة الشخصية لكل منهما مع المرض .

٣ ـ يتمثل الصراع أيضا فى العلاقة بين الطبيب والمريض ـ كما أشار فريدسون ـ كما فى التوقعات المتناقضة (المخالفة) التى يجدها الطبيب فى سلوك المريض ، فالطبيب ينتظر أن يكون المريض مطيعا لنصائحه وإرشاداته ،

---

(1) Morgan , M. Op.Cit., P. 62 .

وأن ينفذ تعليماته الطبية نظرا لتلك المعرفة والتدريب والمهارة التى إكتسبها الطبيب خلال فترة الدراسة ثم الممارسة لمهنة الطب ، إلا أن الطبيب قد يصاب بالإحباط عندما يجد مريضه غير مطيع ـ وغير منفذ ـ لتعليماته هنا ينشأ أيضا الصراع[١] .

ورغم هذا الصراع الذى يميز العلاقة بين الطبيب والمريض ، إلا أنه من المؤكد أن الطبيب يشغل وضعا مسيطرا فى موقع الإستشارة .

وبصدد تعرضنا بالدراسة بالتحليل للعلاقة بين الطبيب والمريض لا ننسى أن نشير إلى دراسة هامة قام بها إثنان من الأطباء لتحليل تلك العلاقة ، وأقصد بها دراسة ساز وهولندر *Szasz and Hollender* [٢] . وخلصنا من تحليلهما للعلاقة بين الطبيب والمريض إلى أن هناك ثلاثة أنماط من العلاقات نتجت عن التفاعل بينهم وقد أجملا رأيهما فى الجدول الآتى :

---

(1) Ibid., P. 63 .

(2) Szazs, T., & Hollender, M., " A Contribution to the Philosophy of Medicine : The Basic Models of the Doctor - Patient, Relationship, 1956 , PP. 585 - 592 .

النمط	دور الطبيب	دور المريض	التشخيص	نوع العلاقة الأولية
من حيث الإيجابية والسلبية	يؤدي شيئا ما للمريض	غير قادر علي الاستجابة	تخدير (خدر) غيبوبة ـ إصابة شديدة ... إلخ	علاقة والد بطفل
الإرشاد والتعاون	يرشد المريض عما يجب عمله	متعاون (مطيع)	إصابة بعدوي حادة ، أحد الأمراض .. إلخ	والد ـ صبي
المشاركة المتبادلة	يعين المريض علي مساعدة نفسه	مشارك	أمراض مزمنة تحليل نفسي ... إلخ	ناضج يناضج

ـ **الأنماط الثلاثة الرئيسية لعلاقة الطبيب بالمريض من وضع :**

Hollender Szazs [1]

يتضح لنا من تحليل هذا الجدول أن النمط الأول عن العلاقة بين الطبيب والمريض من حيث الإيجابية من قبل الطبيب ، والسلبية من قبل المريض ، إنما يعنى أن الطبيب يستطيع أن يساعد المريض ويقدم لها الرعاية الممكنة ، فى حين أن المريض يكون غير قادر على الإستجابة لما يقدم إليه ، ولذا تتم خطوات العلاج له دون أى مساهمة أو مشاركة من المريض ومثل هذه الحالات تلك التى تنتفى فيها إرادة المريض : وهى حالات الغيبوبة والإصابات الشديدة ، أو حالات إجراء

(1) Morgan , M. Op.Cit., P. 61 .

العمليات الجراحية ، ووقوع المرضى تحت تأثير التخدير ، ولذلك يشبه " ساز وهولندر " علاقة الطبيب بالمريض فى هذا النمط بعلاقة الوالد بطفله ، الوالد الذى يعلم جيدا ما يجب عليه تجاه كائن سلبى لا يملك من أمر نفسه شيئا ويفتقر إلى ما يحميه ويحفظ حياته .

أما النمط الثانى وهو الإرشاد والتعاون *Guidance - Cooperation* يقوم فيه الطبيب بدور المرشد الذى يقدم للمريض نصائحه وتعليماته وإرشاداته عما يجب عمله ، وما على المريض إلا تقبل هذه النصائح وإتباع التعاليم ، وينطبق هذا النمط على حالات الإصابة بعدوى حادة ، والإصابة بأحد الأمراض ، ويكون المريض فى مثل هذه الحالات على وعى كامل بما يقدم إليه إلا أنه يفتقر إلى الخبرة فى مواجهة الموقف ، ونمط العلاقة الأولية التى تظهر بين الطبيب والمريض كعلاقة والد ـ بصبى ، يتقمص الأول دور الموجه والمرشد ويمتثل الثانى لتوجيهات الأول كالإبن تجاه أبيه .

ويطلق على النمط الثالث المشاركة المتبادلة *Mutual {articipation* بمعنى مشاركة كل من الطبيب والمريض فى عملية العلاج ، فالطبيب يعين المريض على مساعدة نفسه ، ويتوقف نجاح العلاج على مساعدة المريض لنفسه ، الذى يكون بالفعل مشاركا فعليا لتفهمه تعليمات الطبيب ولأن جانبا كبيرا من التقدم نحو الشفاء يتطلب فعالية من جانب المريض وحسن تقدير للموقف ، ويظهر هذا النمط من العلاقة فى حالات الأمراض المزمنة ، وحالات التحليل النفسى .. الخ ، ويتمثل نوع العلاقة الأولية بين الطبيب والمريض علاقة ناضج بناضج ، أو راشد براشد .

وفى الحقيقة فإن هذا الإطار النظرى لأنماط العلاقة بين الطبيب والمريض قد تمثل لنا واضحا من خلال صوره الثلاثة فى حقل الدراسة ، لاحظنا فى المستشفى الرئيسى الصور الثلاثة مجتمعة وتمثل النمط الأول منها فى الحالات التى تتركز فى الإستقبال والطوارئ من جهة وفى حجرة العمليات من جهة ثانية ، تلك الحالات التى يغيب فيها المريض عن الوعى ، بحيث تكون العلاقة من طرف

واحد هو لطبيب أو مجموعة الأطباء الذين يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ المريض ، وأشد ما لاحظناه وضوحا ف مثل هذا النوع من العلاقات المبتسرة أن الطبيب لايتراخى لحظة في أداء واجبه تجاه مريضه بصرف النظر عن نوعية الإستجابة التى قد يبديها المريض أو أحد أقربائه ، فالمريض سلبى تحت تأثير حادث أو مخدر لايملك قدرة على إبداء أى نوع من التفاعل ، ومن الأمور الطريفة أن الأمر يختلف تقريبا بعد إفاقة المريض الذى يبادر بالسؤال عمن أنقذه أو أجرى له جراحة معينة أبقت له حياته ، ويزداد تعلقه بالطبيب كلما قطع شوطا نحو الشفاء .

أما النمط الثانى للعلاقة فقط لاحظناه واضحا فى قسم الأمراض الصدرية حيث تغلب خاصية الإرشاد من جانب الطبيب وإبداء التعاون والطاعة من جانب المريض ، يدرك المرضى في هذا القسم عن وعى كامل مدى حاجتهم الملحة إلى مساعدة الطبيب . وقد لاحظنا أن مرضى هذا القسم على تفاوت مستوياتهم الثقافية على وعى كامل بقدرة الطبيب وأهمية إتباع تعليماته لما يلمسونه فى أنفسهم ـ كماصرحوا مرات عديدة ـ أن أى مخالفة لتعليمات الطبيب العلاجية لا تعود عليهم إلا بمزيد من الآلام الحادة ، ومن ثم فإنهم ـ كما لاحظنا ـ يتبارون فى إبداء أقصى درجات التعاون مع الطبيب ، وإن كان الطابع السائد لهذه العلاقة هى أن المبادرة دائما فى يد الطبيب .

وظهر النمط الثالث من هذه العلاقات والذى يقوم على المشاركة المتبادلة فى بعض أقسام الأمراض الباطنية ، متمثلا على وجه الخصوص فى أصحاب الأمراض المزمنة (القلب ـ السكر ـ الروماتيزم) فمعظم مرضى هذه الأقسام يكتسبون معارف ومعلومات حول طبيعة المرض وأعراضه وكيفية مواجهتها ، والسبب فى ذلك هو طول المدة التى يقضونها بالمستشفى بالاضافة إلى إعتماد الأطباء على المرضى ـ فى كثير من الأحيان ـ فى مواجهة الأعراض الأولية للمرض حتى يتم إبلاغ الطبيب قبل تفاقم الحالة ، ومن الملاحظات الجديرة بالإعتبار هى عمق العلاقة بين مرضى هذه الأقسام وأطبائهم فثمة علاقات

إجتماعية قوية ، وتزايد فى عملية الإتصال الإيجابى بين طرفى هذه العلاقة التى تمتد لتشمل المريض وأبناءه ومهنهم وشئون المريض الخاصة ، والباعث وراء ذلك فيما لاحظناه هو محاولة الطبيب مساعدة المريض على حل المشاكل الناتجة عن طول المرض والعمل على تكيفه مع ذلك الوضع ، وثمة بعد آخر لهذه العلاقة العميقة ظهر لنا فى إلمام المرضى أو معظمهم بأسماء الأدوية ومقدار الجرعات وموعدها ممايدل على مشاركته الفعالة فى إتمام العلاج .

أما عن مستشفى الشاطبى فلم نلحظ فيها مثل هذا النمط الأخير للعلاقة بين الطبيب والمريض ، نمط المشاركة المتبادلة ، نظرا لأن معظم الحالات التى تدخل هذا المستشفى هى حالات ولادة ، والمعروف أن الحالات الطبيعية للولادة تمكث من يومين إلى ثلاثة على الأكثر بالمستشفى ، وكما لاحظنا أن أكثر من ٧٥٪ من أسرة المستشفى مخصصة للولادة ، فى حين أن النسبة الباقية هى حالة العلاج أو حالات إجراء عمليات وقد تكون حالات إجهاض تجهز للعمليات وحالات نزيف حادة أيضا علاجها العمليات أو حالات العقم التى تأتى للعلاج * وعلى كل حال فإن هؤلاء المريضات لايمكثن بالمستشفى نفس المدة التى يقضيها المريض بالمرض المزمن كما لاحظنا بالمستشفى الرئيسى .

أما النمط الأول من العلاقة (من حيث الإيجابية والسلبية بين الطبيب والمريض) فهو موجود بمستشفى الشاطبى ـ على ما كشفت الدراسة ـ إلا أن حالاته بسيطة لو قورنت بالحالات المترددة على المستشفى الرئيسى ، ويتمثل هذا النمط بمستشفى الشاطبى فى حالات النزيف الحاد التى تؤدى إلى إصابة المريضة بحالة غيبوبة ومن ثم إجراء عملية ، ويتمثل أيضا فى حالات عمليات الإجهاض ، وأيضا حالات الولادة القيصيرية مثل هذه الجالات تكون فيها المريضة

(*) رغم أن العقم يعد من الأمراض المزمنة ويتطلب علاجه أجلا طويلا إلا أنه ضرورة لبقاء المريضة بالمستشفي ، بل أنها تتردد وفي فترات متباعدة علي المستشفي . كما أن حالات العقم ـ فيما لاحظنا ـ حالات نادرة بالقياس إلي حالات الإجهاض والنزيف .

غير قادرة على الاستجابة لما يقدم إليها ومن ثم تتم خطوات العلاج لها دون أن تساهم أو تشارك فى تنفيذ تعليمات الطبيب كما فى حالة الولادة الطبيعية ـ على سبيل المثال ـ والتى تكون فيها المريضة على وعى كامل بما يجرى حولها وتريد أن تساعد الطبيب فى كل ما يأمر به حتى تتم الولادة .

هذا هو نمط العلاقة الذى يوصف بالإرشاد والتعاون ، وهو النمط السائد فى الغالب بمستشفى الشاطبى ، فمعظم النسوة اللاتى يأتين للولادة يكن مطيعات لتعليمات الأطباء ، حيث يلزمهن الأطباء بإتباع بعض التعليمات الطبية مثل : (تناول أقراص معينة ـ السير على الأقدام فى مراحل محددة ـ الإسترخاء على الظهر) ولا تملك السيدة هنا إلا طاعة الطبيب وتنفيذ تعليماته كاملة .

هذا بالاضافة إلى التعليمات التى يصدرها الطبيب أثناء عملية الولادة ذاتها وتشارك فيها السيدة بكل مشاعرها وإحساسها .

وقد تميز مستشفى الشاطبى بنوع خاص من العلاقة بين الطبيب والمريضة التى قد تكون طارئة إلا أنها تتميز بالعمق ، ونقصد بها تلك العلاقة التى تنشأ عقب عملية الولادة مباشرة ، حيث تغطى فرحة الأم على مشاعرها تجاه كل من حولها ، وبخاصة الطبيب ، فتكثر من الثناء عليه ، وتسمى وليدها فى بعض الأحيان بإسم الطبيب الذى أشرف على عملية الولادة ، ولذا فإن اللوادة الطبيعية تدخل الرضا والسعادة ولفرحة على السيدة وعلى أقاربها ومن يأتى لزيارتها .

وينشأ أيضا نوع من العلاقة بين الطبيب والمريضة وتتسم هذه العلاقة بالعمق وتتمثل فى حالة السيدة الحامل التى تعانى من إرتفاع فى ضغط الدم مثال أو إرتفاع فى نسبة السكر فى الدم ، أو التى تعانى من آلام فى القلب ، ومثل هذه الحالات يتم حجزها بالمستشفى من شهر الحمل السابع أو الثامن وتستمر تحت رعاية الطبيب حتى تتم عملية الولادة ، حيث يكون هناك متابعة دائمة لحالتها من قياس للضغط ، إلى عمل التحاليل اللازمة وإعطائها العلاج المحدد ، ونظرا لطول المدة التى تقضيها المريضة بالمستشفى ، تنشأ بينها وبين الطبيب المعالج علاقة

قوية ، وتظهر درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة واضحة وقوية ، حيث تسأل المريضة الطبيب عن مدى تقدم حالتها ، ويجيبها الطبيب باتباع إرشادات معينة ، وهى تنفذ . هذا جعلنا نرى أن درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة أقوى مما يظهر فى حالة الولادة الطبيعية التى لا تستغرق سوى وقت بسيط إلا أنها توصف بأنها علاقة عميقة كما سبق أن ذكرنا .

وللمعاملة الطبية من جانب الطبيب للمريضة أثر طيب على الحالة الصحية لها وعلى العملية العلاجية ، مثال ذلك : كانت إحدى المريضات وقت إجراء المقابلة تعانى من آلام مبرحة وتتألم بشكل واضح بعد إجراء عملية فى الرحم ، وفى هذه اللحظة مر الطبيب للكشف على حالات العنبر ، ووقف مدة طويلة أمام هذه المريضة وأخذ يحادثها بلطف ويستفسر عمايؤلمها ، وأخذ يهدأ من روعها ، فجأة وجدت المريضة تقول للطبيب أننى شفيت ولا أشعر بأى ألم الآن . هكذا يكون للمعاملةالطيبة الحسنة من جانب الطبيب لمرضاه أثرطيب على نفس المريض ولا يشعر بأنه عب ء على الأطباء .

وعن العلاقة بين الطبيبة والمريضة لاحظنا أنها قوية فى جانب منها ومبتسرة فى جانب آخر ، فالمريضة تحاول أن تتقرب من الطبيبة وتحاول أن تحكى لها تفاصيل مرضها والآلام التى تعانى منها وقد تميل إلى المبالغة فى وصف حالتها ، على ما لاحظت ـ ومن جانب الطبيبة ، تقوم بالتشخيص ومن ثم وصف العلاج . إلا أن المريضة لا ترضخ لحكم الطبيبة فى التشخيص وبداخلها نوع من عدم الإقتناع وتريد أن يصف حالتها الطبيب الموجود بالقسم وليست الطبيبة ، لاحظنا عديدا من الحالات اللائى صرحن بأن الطبيب الرجل لديه الخبرة أكثر فى هذا المجال ، ومن ثم الإطمئنان والثقة فيه أكثر من الطبيبة ـ وبالرغم من أن التخصص نفسه يوافق طبيعة المرأة أكثر .

هذا عن العلاقة بين الطبيب والمريض كما تمثلت فى حقل الدراسة .

ويمكن دراسة علاقة الطبيب بالمريض من خلال منظور آخر يكشف عن

أهمية هذه العلاقة ، وتعدد محولات دراستها من جوانبها المختلفة ، ونعنى به دراسة عملية الإتصال *Communication* بين المريض والطبيب ، حيث تلعب علمية الإتصال دورا قويا وفعالا فى مجال الممارسة الطبية بصفة عامة ، وهناك وجوه عديدة للإتصال أهمها ذلك النوع الذى ينشأ بين الأطباء والمرضى والذى من شأنه أن يؤثر على علمية التشخيص *Diagnosis* والعلاج *Treatment* (١) .

وقد أجريت عدة دراسات لقياس جدوى أو عدم جدوى عملية الإتصال بين الطبيب والمريض وأرجعت معظم هذه الدراسات فشل عملية الإتصال الجيدة ، أن نقل المعلومات بين الطبيب والمريض إلى ثلاثة أسباب رئيسية هى : (٢)

١ ـ الإتجاهات المهنية :

تعزو بعض الدراسات فشل عملية الإتصال بين الطبيب والمريض إلى الإختلاف بينهما فى درجة التعليم ، وقد إنقسم الأطباء بهذا الصدد إلى مجموعتين ، تؤكد الأولى على مركزهم المهنى وتخصصهم المتميز ، بالإضافة إلى وجود الفجوة الكبيرة فى الخبرة بينهم وبين المرضى ، مما يكفل لهم ممارسة الضبط فى موقف الإستشارة ، بينما ترى المجموعة الثانية أن العلاقة بينهم وبين المرضى هى فى جوهرها متبادلة ، مؤكدين على ذلك الجزء الذى يلعبه المريض فى الممارسة الطبية (الإستشارة) .

٢ ـ مسألة الخلط أو الإلتباس :

ينشأ الإلتباط فى تفسير أو شرح أعراض المرض من جانب المريض ، أو ينشأ الإلتباس عن خطأ فى عملية التشخيص من جانب المريض ، وفى الحالتين يؤدى ذلك إلى فشل العلاقة وضعف الإتصال .

٣ ـ حياء أو خجل المريض :

ثالث الأسباب المؤدية إلى عدم جدوى الإتصال بين الطبيب والمريض ترجع

---

(1) David Locker, Communication in Medical Practice, in Sociology as Applied to Medicine, PP. 98 - 109 .

(2) Ibid., PP. 99 - 101 .

إلى تلك الإختلافات التى تظهر فى الطبقة والمركز بينهما ، ومن ثم تؤثر مثل هذه الإختلافات فى كمية ونوعية المعلومات التى يصرح بها المرضى للأطباء بخصوص مرضهم، وتؤثر بالتالى على قدرتهم فى الحصول على مثيلتها من الأطباء (١) .

ومن أهم الدراسات التى اجريت فى هذا الشأن دراسة *Cartwright* بالإشتراك مع *O'Brien* (١٩٧٦) (٢) . وقد ركزت هذه الدراسة على الاستشارات الطبية العامة للمرضى كبار السن ، وقد إختارت الدراسة مجموعتين من المرضى تمثل الأولى مرضى الطبقة المتوسطة والثانية مرضى الطبقة العاملة ، وقد أفصحت النتائج عما يلى :

(الاستشارات المرضية للطبقة المتوسطة والطبقة العاملة من سن ٦٥ وما فوق يوضحها الجدول الآتى) (٣)

	الطبقة المتوسطة	الطبقة العاملة
ـ متوسط مدة الاستشارة بالدقيقة	٦,٢	٤,٧
ـ متوسط عدد الأسئلة التي يسألها المريض	٣,٧	٣,٠
ـ متوسط عدد المشكلات التي يناقشها مع الطبيب	٤,١	٢,٨
ـ متوسط عدد الأعراض التي يصرح بها للاستقبال قبل الاستشارة	٢,٢	٣,٠

يتضح لنا من الجدول السابق أن الطبقة المتوسطة إستغرقت وقتا فى الكشف أطول من الطبقة العاملة ، حيث قضت الطبقة الأولى وقتا أطول فى الحديث مع الأطباء ، بالاضافة إلى أن تساؤلاتهم أكثر من مرضى الطبقة العاملة ، ويميلون إلى مناقشة مشكلاتهم بصورة أوضح مع الأطباء عن الآخرين .

(1) Ibid., PP. 101 .
(2) Ibid., PP. 101 - 102 .
(3) Ibid,m P. 102 .

وبالرغم من زيادة شكاوى مرضى الطبقة العاملة إلا أن الوقت الذى يستغرقه الواحد منهم فى الإستشارة أقل من الطبقة المتوسطة ، وهذا يرجع إلى أن مرضى الطبقة العاملة يشعرن بأن هناك مسافة إجتماعية واسعة بينهم وبين الأطباء، ويكتفى هؤلاء المرضى فى العادة بذكر القليل من المشاكل ويتجنبون إضافة أية مشاكل أخرى فى موقف الإستشارة . مخالفة ألا يكون الطبيب غير مستعد لذلك [1] ويرجع الأطباء ذلك الخجل أو الحياء الذى يبدو على المرضى ويظهر واضحا من خلال طريقتهم فى الإجابة على ما يوجه إليهم من أسئلة .

ولقد توصل كل من *Cartwright* و *O'Brien* إلى أن الأطباء يشعرون بالرضا من الإستشارة التى لاتزيد عن خمس دقائق ، والتى لاتزيد عن خمس دقائق ، والتى يسأل فيها المريض سؤالا واحدا فقط .

وبالنسبة لهذا البعد النظرى ومدى إنطباقه عى مجال دراستنا ، فقد لاحظنا أن مرضى الطبقة المتوسطة كما أظهرت لنا الدراسة هم المثقفون أو الحاصلون على قدر مناسب من التعليم فى العادة ، ويميل هؤلاء إلى تناول أمراضهم بالدراسة والتحليل مع الأطباء ، ومن ثم تتم مناقشتهم مع الأطباء بخصوص المرض وما يتم صرفه من علاج . ويلعب هؤلاء المرضى دورا واضحا فى عملية تنفيذ مراحل العلاج حيث يكون معظمهم على دراية بأسماء العقاقير التى يكتبها الأطباء فى تذكرة الدواء ومدى فاعليتها إتضح لنا فى أكثر من موقف عدم ترحيب الأطباء لتدخل المرضى فى التشخيص ، فهم يقبلون للمريض دورا محددا يتمثل فى شرح ما يعانيه من أغراض دون تشخيص للمرض أول درجة خطورته ، وقد صرح لنا أكثر م طبيب أن الخبرة والدراية يجب أن تكون محل إحترام من جانب المرضى ، وإن كان هذا لاينفى ناحية ثانية ما سبق أن أكدناه من تعاون المريض والطبيب بصدد الأمراض المزمنة وبخاصة ما يتعلق بإجراءات العلاج .

---

(1) Ibid., P. 99 .

ثالثا ـ العلاقة بين الطبيب والممرضة :

يكتسب البعد العلمي لرسالة التمريض أهمية خاصة في المجتمع المعاصر بعد أن حقق الطب تقدما هائلا عن طريق التطور العلمي ودخول مجالات جديدة على قدر كبير من الدقة والتعقيد بما يتطلب تطوير مهنة التمريض على نفس الأسس العلمية ليكون مواكبا للتقدم الطبي .

وقد إنعكس هذا التقدم على العلاقة بين الطبيب والممرضة ، فبعد أن كان يمثل في الماضي لهذه العلاقة على أنها علاقة السيد بالمسود ، ينظر إليها الان على أنها أكثر قوة وعمقا وصداقة [١] . وبالرغم من قوة هذه العلاقة إلا أن هذا لا يعني أن الممرضة تتمتع بنفس الهيبة والمكانة والإمتيازات التي يتمتع بها الطبيب ، ومن ثم فهي تحتل مكانة أقل شأنا ، بالرغم من حيوية الدور الذي تؤديه في عملية الرعاية الطبية ، والذي إتضح لنا أنه دور مركب ومعقد إلى حد كبير نظرا لأنه يجمع بين العناصر الفنية والعناصر السوسيونفسية في نفس الوقت .

كما لايدفعنا ذلك إلى تصور قيام علاقة ند بند بينهما ، ذلك أن دور كل منهما ـ رغم إشتراكهما في الفريق الطبي المعالج ـ دور متمايز . فدور الطبيب إستشاري وتنفيذي معا ، بينما لا يتعدى دور الممرضة جانب تنفيذ تعليمات وتوجيهات الطبيب . يؤكد ذلك أنه رغم حصول الممرضة على قسط أوفر من التعليم التمريضي ، وتطوير المناهج الدراسية بما يتفق مع التقدم العلمي في هذا المجال ، وزيادة التدريبات العلمية التمريضية التي تحصل عيها فإننا نجد من بين العلماء من يرى أن علاقة الممرضة بالطبيب مازالت علاقة تابعة [٢] . ذلك لأن مهنة الممرضة تنتمي إلى المهن شبه الطبية حسب تعبر " فريدسون " وقد تأكد لنا هذا المفهوم من خلال المقابلات التي أجريناها مع الأطباء من جهة ، ومع الممرضات من جهة أخرى، حيث أكد الأطباء على أن الممرضة تعتبر موظفة تنفيذية ، بمعنى أنها تقوم

(1) Foster, G., Op.Cit., P. 194 .
(2) Freidson, E., Parmedical Personnel, in International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 9, 10, PP. 114 - 119 .

بتنفيذ كل ما يوجهه إليها الأطباء من توجيهات أمور خاصة بالمريض مثل : قياس درجات حرارته ، قياس معدلات النبض والضغط والإشراف على غذائه : من حيث النوعية والمقدار ، الإشراف على نظافة المريض ، وأخذ عينات التحاليل إذ لزم الأمر ، وإعداد المريض وتهيئته لتوقيع الكشف الطبى الدورى عليه ، ومن ناحية ثانية أكدت الممرضات والحكيمات على أنهن يلتزمن إلى حد كبير بأوامر الطبيب وتنفيذ برامج العلاج كما يحددها لهن وليس لديهن الحق فى صرف أى عقار للمريض دون إستشارة الطبيب .

يظهر لنا من خلال هذه العلاقة ما يسمى بالتخصص المهنى ، حيث يعمل كل منهما فى مجال تخصصه ولا يشارك الآخر في تخصصه إلا فى أضيق نطاق وفى حالات الطوارئ .

وإن كنا قد لاحظنا تعاظما فى دور الممرضة يثير إحترام الأطباء فى حالة عملها فى بعض الأقسام المتخصصة مثل : قسم الرعاية المركزية ، وقسم الأطفال المبتسرين كما أشرنا فى موضوع سابق ، بل إن البعض منهن حاصلات على درجات تخصصية عالية مثل درجة الماجستير كل فى تخصصها .

وفى المقابل ـ فإننا قد لاحظنا ـ أن السواد الأعظم من الممرضات يفتقدن ذلك التقدير من جانب الأطباء ، ويتحدد مجال العلاقة عند تنفيذ التوجيهات فقط ، أو خدمة المريض .

رابعا ـ العلاقة بين الممرضة والمريض :

تعتبر العلاقة بين الممرضة والمريض ذات أهمية خاصة ، لما للممرضة من دور حيوى وفعال فى عملية الرعاية الطبية ، حيث تقوم بالدور التنفيذى لبرنامج العلاج ، كما يتوقف نجاح تلك العملية على نجاح علاقة الممرضة بالمريض ، فإذا إرتاح المريض للممرضة التى تقوم بالأعمال التمريضية له يصل بسرعة إلى رحلة الشفاء .

كذلك فإن عمل المرضة من الناحية الفنية معقد ، عندما يكون من الضرورى أن تلازم المريض وتستمر بجواره لإعطاء مثلا عقارا عن طريق الوريد قد ينقذ حياته ، فى حين أنها إذا أجلت إعطاء هذا العقار أو إذا لم تكن تعرف مفعوله فقد يؤدى ذلك إلى فقدان المريض لحياته . إذن لابد أن تكون دائما يقظة بجوار المريض فى الحالات الحرجة ، وأن تقوم بعمل اللازم له ، ومن ثم يتوقف على يقظتها ووعيها ـ إلى حد بعيد ـ حياة المرضى أو موتهم فى بعض الأحيان .

وتختلط الممرضة بالمرضى أكثر من الأطباء نظرا لأنها تلازمه طول اليوم وتمر عليه أكثر من مرة ، لذا لأنها تصادف كل أنواع الإنفعالات البشرية تقريبا ، ومن ثم فإن تمتعها بقدر من المهارات والخبرات فى مجال العلاقات الإنسانية يساعد فى أداء رسالتها ، وهكذا فإننا نجد أن الممرضة تستطيع عادة بفضل معرفتها وخبرتها أن تجد الكلمة أو الإيماءة المناسبة التى تدخل الطمأنينة والسكينة على النفس فى أوقات الشدة (١) .

وعلاقة الممرضة بالمريض متعددة الوجوه بتعدد أوجه نشاطها ، فهناك ممرضة الرعاية المباشرة للمرضى ، وممرضة العمليات ، وممرضة العيادة الخارجية ، وممرضة الإستقبال ، وممرضة الرعاية المركزة .. الخ ، ويختص عمل كل منهن برعاية المرضى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولهذا يكون لها تأثير كبير على حالة المريض النفسية ، فإذا كانت بشوشة ، رقيقة تستطيع أن تعامل مرضاها برفق ، وتواسيهم فى مرضهم وتناقشهم عن قصة هذا المرض ، وتحاول أن تخفف من آلامهم بابتسامة متطرفة إلى معرفة مسببات المرض الجسمانى والإجتماعى والنفسى ، ومن ثم تحاول أن تقيم علاقة مع مرضاها يتوخاها الإخلاص والتفانى فى العمل .

وقد كشفت لنا الدراسة الميدانية فى المستشفيين عن عدم وجود مثل هذا

---

(١) أديث باتون ، المرضة ، ص ص ٨٦ ، ٨٧ .

العمق فى العلاقة * نظرا لكثرة أعداد المرضى من ناحية ، والعجز الهائل فى أعداد الممرضات من ناحية أخرى ، حيث يضم العنبر الواحد بالمستشفى الرئيسى مثلا وخاصة بالقسم المجانى من ٦ إلى ١٠ من المرضى ، ويضم القسم من ٤ إلى ٥ عنابر ويوجد بكل قسم من ٢ إلى ٤ ممرضة ، وعلى هذا يكون نصيب كل ممرضة ١٠ من المرضى أو أكثر تقوم برعايتهم داخل القسم ** . فمن الصعب إذن أن تنشأ بين الممرضة وبين المرضى وعلاقة قوية وطيدة كتلك التى نقصدها ، وفى مستشفى الشاطبى وجدنا أيضا قلة عدد الممرضات بالنسبة لأعداد المريضات حيث تتراوح عدد الأسرة بكل قسم من ٣٠ ـ ٣٥ سرير فى حين أن بالقسم الواحد توجد مشرفة تمريض بالاضافة إلى إثنتين من الحكيمات يساعدانها فى رعاية المرضى ، ونظرا لكثرة أعداد المرضى لاتستطيع الممرضة تلبية كل ما يطلبه منها المريض ، فهناك كثير من المرضى يحتاجون إلى من تناول العلاج ، وتناول الطعام، والبعض الآخر فى حاجة إلى من " يأخذ بيدهم " للوصول إلى دورة المياه ، ويحاول هؤلاء المرضى الإستعانة فى قضاء هذه الحاجات بغيرهم من المرضى الذين يستطيعون الوقوف والمشى ، وفى مستشفى الشاطبى وجدت بعض المريضات اللائى أجرين عمليات ولا يقدرون على الحركة ـ كعمليات الولادة القيصرية وإستئصال الرحم مثلا ـ وقد حاولن الإستعانة بالممرضة دون جدوى ، وقد لبت الباحثة مطالب بعض هؤلاء المرضى وساعدتهم فى تناول غذائهم ، وإحضار العلاج لهم ، ومساعدتهم على قضاد بعض حاجتهن وهن راقدان على الأسرة ، وظهرت مثل هذه المساعدات بشكل أوضح فى الفترة المسائية ، مما يدعونا إلى

(*) باستثناء حالات قليلة عن استعداد شخصي وضعف بالعملية التمريضية في ذاتها ، وتوجد هذه الحالات باقسام العناية المركزة . وقد لاحظنا أن عددا منهن يعملن في المستشفيات أو العيادات الخاصة في غير أوقات العمل ، كما لاحظنا أن بعضهن قد عملن في مستشفيات بعض الدول العربية ـ علي سبيل الإعارة ـ مما وفر لهن خبرة الاحتكاك بنسق تمريضي وطبي متقدم .

(**) المقصود بالقسم هنا هو الجناح داخل القسم التخصصي ، حيث يشتمل قسم الأمراض الباطنة ـ علي سبيل المثال ـ علي عدة أجنحة فرعية ، وهذا ينطبق علي الأقسام الأخري بالمستشفي .

القول بأن التمريض الليلى ليس فى قوة التمريض النهارى ، بل أن الممرضات أنفسهن يشتكين من إرهاق وملل العمل الليلى ، وقد يظهر التمريض الليلى فى حالة واحدة فقط فى المستشفى وهى حالة الولادة فى ساعة متأخرة من الليل ، أو وصول حالة عن طريق الإستقبال أيضا جاءت للولادة ، هنا نجد الممرضة داخل حجرة الولادة مع الطبيب ، وتقوم بالتمريض اللازم لمثل هذه الحالات .

ولقد لاحظنا فى بعض الأحيان ـ فى الأقسام الإقتصادية أو المجانية ـ تطورا ينشأ على علاقة الممرضة بالمريض ، من جانب واحد (المريض) ، حين يتعلق بممرضة بعينها ، فيكون دائم السؤال عنها ويتوقع حضورها ، ويفضل تناول العقاقير تحت إشرافها .. ومعظم هذه الحالات تكثر بين أصحاب الأمراض المزمنة من الشيوخ والطبية على وجه الخصوص ، وإن كانت العلاقة السائدة بالمستشفيين بين الممرضة والمريض بصفة عامة ـ وباستثناء الحالات المشار إليها ـ علاقة تتسم بالبساطة ، وسبب ذلك كثرة المرضى بالنسبة لهيئة التمريض بالمستشفى الرئيسى ، وإلى جانب هذا قلة عدد الأيام التى تمكثها المريضة بمستشفى الشاطبى .

خامسا ـ العلاقة بين الممرضة والممرضة :

تمثل علاقة الممرضة بالممرضة احدى اللعاقات التى تنشأ بين أعضاء المهنة الواحدة ، أو التخصص الواحد ، هذه العلاقات التى تتضح فيها مظاهر التعاون والعطاء المتبادل بقدر ما يتضح فيها وبنفس القوة مظاهر للحقد والغيرة والصراع، فقد لاحظنا ما لاحظه قبلنا المتخصصون ـ وجود ميل عام داخل كل جماعة مهنية ـ الأطباء ، هيئة التمريض الفنيين ـ إلى تكوين علاقات إيجابية بناءة قوية بين أفرادها ، إلا أننا لمسنا فى نفس الوقت مظاهر لعلاقات هدامة تنشأ داخل الجماعة الواحدة .

وإذا كنا قد تحدثنا فى أكثر من موضع سابق عن مظاهر للتعاون ، فقد لاحظنا أن العلاقة بين الممرضات لها وجهها غير المشرق أيضا ، وخير دليل على

ذلك بعض المقابلات التى اجرتها الباحثة مع المرضات بالمستشفيين كل عام على حده ، والتى أفصحت فيها بعض المرضات عن ما تضمده تجاه الأخريات ، فقد صرحت بعض المرضات القدامى بالمستشفى الرئيسى أنه يوجد ممرضات أكثر منهن حداثة فى التعيين إلا أنهن حصلن على إمتيازات أكثر منهن وإجتزن درجات أعلى ، وهذا ما دعى احداهن إلى القول بأن ليس هناك أدنى إعتبار للأقدمية ، وقد لاحظت أن شمرفات التمرين حديثى التخرج اللائى على مستوى مرتفع من التفوق يتم تعيينهن بوحدات العناية المركزة تلك الوحدات التى يتطلب العمل فيها نوع من الخبرة والدراية التمريضية التى تقوم على العلم ، وهذا بالتالى يثير الحساسية والحقد لدى المرضات القدامى اللائى يجدن المرضات الصغيرات فى مركز أفضل منهن .

هذا بالإضافة إلى الحساسية التى تنشأ بين رئيسة التمريض والمرضات اللائى يعملن معها عندما توجه إليهن أمرا ، ومما يخفف من هذه الحساسية ومظاهر التوتر التقاء المرضات وإجتماعهن فى رحاب نقابة التمريض أو فروعها ، والتى تعمل على تعضيد وتوثيق الصلات بينهن ، حيث تناقش مشكلاتهن وتحاول قدر الإمكان الوصول إلى حلول لهذه المشكلات ، كما أن إختفاء المجتمع بهن يجعلهن يقبلن على الحياة واثقين من دورهن ولينعكس ذلك بالتالى على العلاقات السائدة بينهن ، ولقد لاحظت أن قطاعا عريضا بين أعضاء هيئة التمريض بالمستشفيين يكون للكلمة الطيبة أو للثناء والتقدير فعل السحر فيهن سواء كانت الكلمة بين ممرضة وزميلة ، أو بين رئيسة التمرين ومرؤوساتها ، نهيك عن إحتفاء المجتمع بهن * .

(*) يحتفل مجتمعنا بيوم المرضة المصرية الذي تنظمه نقابة مهن التمريض ووزارة الصحة ، وهذا دليل علي الاعتراف بأن التمريض يعد رسالة قبل أن يكون مهنة ، ويتميز عن كثير من مجالات الخدمة العامة ، نظرا لأنه عمل تتوافر فيه الأبعاد الإنسانية والأخلاقية والعلمية والوطنية .

سادسا ـ العلاقة بين المريض والمريض :

يظهر داخل بناء المستشفى نمط آخر من العلاقة الثنائية تلك التى تظهر بين المريض والمريض ، وتبدو تلك العلاقة قوية خاصة فى الأقسام التى يعانى فيها أصحاب الأمراض المزمنة والتى يتطلب علاجها وقتا طويلا بالمستشفى ، بالإضافة إلى ميل المرضى أنفسهم إلى تكوين علاقات إجتماعية بين بعضهم البعض ، وقد ظهر هذا واضحا بالأقسام المجانية ببعض أقسام الأمراض الباطنية بالمستشفى الرئيسى ، ووجدنا بعض المرضى الذين يعرفون بعضهم معرفة جيدة ، وتمتد هذه الصلة إلى إقامة علاقة قوية بين المرضى وذويهم ، وفى بعض الحالات وجدنا بعض المرضى قد عقدوا صلات مصاهرة بين أبنائهم وبين مرضى آخرين تعرفوا عليهم من خلال إقامتهم معا بالمستشفى ، وقد وجدنا تماثلا لنفس هذه العلاقة بمستشفى الشاطبى ، حيث يستطيع مرضى " الأقسام المجانية إقامة علاقات قوية مع بعضهن البعض وجدنا بكل قسم سيدة من بين المريضات تقوم على خدمة الآخريات اللائى لا يستطعن الحركة كما فى حالات العمليات ، وقد تمتد هذه العلاقة بينهن بعد خروجهن من المستشفى ، ويتزاورن ، أما فى أقسام العلاج بأجر فقد لاحظنا أن علاقات مريضاته بعضهن البعض يغلب عليها الفتور فى معظم الأحيان وخاصة عندما تقيم المريضة وحدها فى الحجرة أو تقطن معها أخرى فقط .

ـ خاتمة :

عرضنا بذلك لأنماط العلاقات الإجتماعية الهامة التى تمثلت داخل البناء الإجتماعى للمستشفيين موضوع الدراسة ، وبالرغم من أن كلا منهما يبدو كأنه يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات الإجتماعية ، إلا أنها لاتخرج فى النهاية عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة ، تلك التى تظهر بين شخصين داخل هذا البناء الأكبر سواء أكانت علاقة بين طبيبين ، أو بين طبيب ومريض ، طبيب وممرضة ، ممرضة ومريض أو بين المرضى أنفسهم ..الخ ومن

مجموع هذه العلاقات يظهر البناء الكلي للمستشفى .

وقد لاحظنا أن اللعاقة بين الطبيب والمريض تعتبر من أعمق العلاقات الثنائية الموجودة داخل بناء المستشفى وأكثرها تفاعلا .

بقيت لنا عدة ملاحظات عامة تختتم بها هذ الفصل وهى :

١ ـ لاحظنا أولا أن المستشفى من حيث هو بناء واقعى وحقيقة عينية قائمة يمكن ملاحظتها وتخضع للملاحظة المباشرة ، كما لاحظنا أن ذلك البناء الواقعى دائم التغير من حيث أن الأشخاص المكونين له يتعرضون لتغيرات مستمرة عن طريق تعيين دفعات جديدة تغطي كل المستويات التخصصية ، بمعنى دخول أعضاء جدد إلى بناء المستشفى ، حتى العلاقات بين هؤلاء الأعضاء تجدها فى تغير مستمر نتيجة لتغير الأدوار الإجتماعية التى يقومون بها ، وتغير المراكز التى يحتلونها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يخرج من هذا البناء أعضاء سواء عن طريق نقلهم لمستشفى أخر ، أو إنتهاء مدة خدمتهم ، أو إعارتهم للعمل بالخارج تتغير على أساسه العلاقات الإجتماعية بين هؤلاء الأعضاء .

أما عن أنماط العلاقات فهى تظل ثابتة إلى حد كبير ، فالصورة البنائية العامة للمستشفى باعتباره مكانا لعلاج المرضى والوصول بهم إلى مرحلة الشفاء تظل ثابتة برغم من حدوث تغيرات يومية داخل أقسامها الإدارية أو العلاجية ، مع التغير المستمر الذى يلحق بأعضاء ذلك البناء . فقد يتغير مدير المستشفى من فترة لأخرى . ويتغير أيضا رؤساء الأقسام العلاجية به ومن بيدهم السلطة داخل تنظيمه، إلا أن الصورة العامة للمستشفى تظل إلى حد بعيد غير متأثرة بهذه التغيرات الجزئية .

٢ ـ إذا إستعدنا مقولة " راد كليف ـ براون " عن البناء الإجتماعى وهى " وجود نوع من الترتيب أو التنسيق بين الأجزاء التى تدخل فى تكوين الكل الذى نسميه بناء من أجل إظهار ذلك الكل متماسكا ومتكاملا، فإننا قد لاحظنا أن هذا

المعنى مازال قائما من دراستنا للمستشفى حيث يظهر بين أقسام المستشفى نوع من الترتيب والتسنيق بين العاملين به على إختلاف تخصصاتهم ، كما لاحظنا أن هناك نوعا من التعاون والشعور بروح الفريق الواحد بينهم جميعا على إختلافهم ، وذلك لإدراك وتحقيق الهدف الأساسى للمستشفى وهو تقديم أفضل رعاية ممكنة للمريض والوصول به إلى مرحلة الشفاء ، فالعاملين بالمستشفى على إختلاف تخصصاتهم يسارعون إلى مساعدة الفرد الذى يحتاج إلى معونة أو مريض جديد يريد دخول المستشفى ، ويترتب على هذا التضامن الإجتماعى أو الشعور بروح الفريق الواحد أن المرضى أيضا يشعرون بالأمن والإستقرار داخل المستشفى ، هذا على الرغم من وجود بعض الثغرات التى قد ترجع إلى قلة الإمكانيات ، أو كثرة أعداد المرضى .. وغيرهما مما ذكرناه خهلال ثنايا هذا البحث .

٣ ـ لاحظنا من ناحية العلاقات التى تظهر بين مختلف العاملين بالمستشفى أن كل جماعة مهنية تميل إلى توطيد علاقاتها مع أعضائها بعضها ببعض ، حيث تظهر " جماعة الأطباء " مثلا ويميل كل طبيب إلى خلق علاقات مع زملائه الأطباء متباعدا إلى حد ما عن "جماعة هيئة التمريض" وجماعة الفنيين " وجماعة الموظفين، وجماعة العمال ، وينطبق نفس الشئ على بقية التخصصات الأخرى. وهذا ما يعرف باسم ترابط أصحاب التخصص الواحد .

٤ ـ ساعدتنا الأداة البحثية " الملاحظة بالمشاركة " فى الوصول إلى أعماق البناء الإجتماعى للمستشفى متغلغلين إلى الداخل ، ملاحظين ما يمكن أن يخفيه أعضاء ذلك البناء أحيانا . ومن ثم إستطعنا فهم السلوك الفعلى الحقيقى عند ملاحظتنا له على الطبيعة وتسجيل إنطباعاتنا عنه ، فقد يدلى المبحوث بمعلومات تناقض سلوكه الفعلى ولذا لا بد من البحث فيما وراء المعطيات المباشرة الملاحظة للوصول إلى البناء الحقيقى الأكثر إختفاء على ما قال " ليفى ـ ستروس " .

الفصل السابع

الأنثروبولوجيا ودراسة العنف *

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / هندومة محمد أنور حامد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الفصل السابع

الانثروبولوجيا ودراسة العنف *

ـ مقدمـة :

تجتاح العالم موجة عنف وعدوان شديدة يعم أثرها أرجاء المعمورة وينتقل هذا الأثر إلى سلوك الإنسان المعاصر الذى يبدو مظاهر هذا العنف فى كل مايتلقاه فى حياته اليومية من إعتداءات الكبار بعضهم على بعض وإعتداء سياسى على سياسى آخر فى معركة إنتخابية وإعتداء عامل على صاحب مصنع وأديب على آخر بالنقد وسائق على راكبه وسائق على سائق أخر فى الطريق العام وكذلك عنف فى حلوله للمشكلات القومية ولأشكال الصراع بين الأقليات والأكثريات وحروب وإغارات الدول بعضها على بعض بقصد الإحتلال وإستغلال الثروات وطمث هوية وثقافة بلد آخر ، وتمتد عوامل العنف لتحيط بالانسان المعاصر من كل جانب، فضجيج السيارات وماتحدثه من تلوث ضوضائى يثير الإنسان ويجعله عنيفا فى تصرفاته وتوسع الأنماط الإستهلاكية للناس بقدر يفوق قدراتهم ولد لدى الكثيرين منهم إحساسا بالصراع والضيق إنعكس فى مسلكهم المتسم بالعنف والإعتداء يكاد يكون ظاهرة عامة عند الإنسان والحيوان ولو أن بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية حاولوا أن يظهروا غير ذلك ويدحضوا " نظرية الغرائز " كما وضعها مكدوجل فالعدوان يبدو كما لو كان عاما ويظهر بأشكال مختلفة منها الضرب والعض والرفس والطعن والقتل والهجاء والتشهير وشن الحروب وغير ذلك وليس من الضرورى أن يتجه العدوان دائما إلى إنسان أو حيوان فقد يتجه إلى موضوع علمى كنظرية بافلوف ومايتضرع أو إلى مسألة هندسية يشعر الإنسان أنها تتحداه وقد يتجه إلى الطبيعة أو إلى الأشياء فيمزقها.

وعلى هذا فالعدوان قوة داخلية موجودة بداخلنا يمكن أن تتجه للخير والتعمير أو إلى الشر والتخريب ، ولذا نحن بصدد دراسة للسلوك العدوانى والذى

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / منتومة محمد أنور حامد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

يعد موضوع للعديد من العلوم الإجتماعية والانسانية ومحور إهتمام الأنثروبولوجيون البيولوجيون للبحث عن الأسس البيولوجية لمثل هذا السلوك من هرمونات وكروموسومات وجينات والأنثربولوجيين الإجتماعيين والثقافيين لمعرفة أثر البيئة والتنشئة والثقافة فى ظهور مثل هذا السلوك وأيضا السيكولوجيين للبحث عن أثر الإحباطات والدوافع وما إذا كان هذا السلوك فطرى غريزى أم مكتسب ، كما يمثل محور إهتمام لدى علماء اللاهوت والفلاسفة والسياسيين لما لهذا السلوك من آثار فى كافة المجتمعات البشرية والبحث فى أصوله التاريخية والأسباب التى تؤدى لمثل هذا السلوك وتجعل منه كما أشار كل من *Hamburg, Washburan* طريقه فى الحياه ولكى نفهمه فلابد من دراسة المجتمعات البشرية والكشف عن السمات المميزة لهم فى ضوء الرئيسات اللابشرية وذلك لأن رتبة الرئيسات التى تنقسم إلى اثنين مادون الرتبة ، وهما البروسيمى أى أشباه القردة والانثروبويد أشباه البشر والمتمثلة فى القردة العليا والانسان ونظرا لمدى التشابه فى كثير من الخصائص الفيزيقية والاجتماعية بينها وبين الإنسان وعلى الأخص الشمبانزى والإنسان حيث أثبتت الفحوص الوراثية وكيمياء الدم والتشريح ودراسات السلوك أنه أقرب الكائنات إلى الإنسان ولذا فهناك من الأهمية لدراسة الرئيسات وذلك للبحث عن الأصول الأولى للإنسان وللقرابة المشتركة ولفهم الإنسان بصورة أفضل وللسلوك البشرى المعقد وتزود الباحث بأبسط صور العلاقات الإجتماعية وتمهد له السبيل لدراسة أثر الوراثة والبيئة فى السلوك الإجتماعى للإنسان فإذا اشترك الإنسان والحيوان فى مظهر ما من مظاهر السلوك الاجتماعى فإننا نرجعه إلى " عامل بيولوجى عام " وإذا إختلفا فإننا نرجعه إلى " الثقافة والتراث الإجتماعى البشري" كما أنها مجال لإجراء التجارب لنتائجها الأقرب للموضوعية عما يحدث للإنسان ولذا فالقردة العليا تعتبر النموذج التجريبى الأمثل للبحوث الإنسانية ولها أهمية كبرى فى حل كثير من المشكلات الإنسانية وفى فهم وتحليل السلوك النفسى الإجتماعى للإنسان ، ولذا سأدرس السلوك العدوانى لدى كل من الإنسان والرئيسات العليا وقوفا على أوجه الشبه والإختلاف فيما بينهما وذلك بعقد مقارنات

لإظهار النواحي التي أدت للتشابه والنواحي التي أدت للإختلاف من مثير بيئي وبيولوجي وثقافي وإجتماعي مع محاولة صادقة لتعدد إيجابياته وسلبياته حتى نصل إلى علاج لهذا السلوك لدى كل من الإنسان والرئيسات العليا .

ـ التعريف للعنف والعدوان :

يقصد بالعدوان سلوك إجتماعي غير سوى يهدف إلى تحقيق رغبة صاحبة في السيطرة أو هو سلوك يرمي إلى إيذاء شخص آخر جسميا أو لفظيا أو تحطيم الممتلكات والكلمة الأساسية في هذا التعريف هي كلمة القصد أو النية ، ولذا من الصعب التوصل إلى تعريف واضح للعدوان وذلك لأن المصطلح يستخدم في اللغة الدارجة في طرق عديدة مختلفة فواضح أن خانق بوستون المولع بخنق النساء في حجراتهن تمثل أفعاله عدوانية ، كما أن لاعب الكرة الذي يمسك بالخصم يكون عدوانيا ولاعب التنس الذي يصوب الشبكة يدعي عدوانيا ، والطفل الذي يدافع بقوة عن ممتلكاته ايذاء تجاوز الآخرين والذي يضرب أخاه بقسوة كل منهما تعتبر أفعال عدوانية في المعنى الشامل للمصطلح ولكن يجب التمييز بين النواحي المؤكدة العامة للمصطلح عن النواحي الهدامة أي بين السلوك الذي يضر أو يؤذي بظلم الآخرين والسلوك الذي لايؤذي الآخرين ولذا فالعدوان كسلوك يهدف الأذى والألم وبهذا التعريف فإن لاعب الكرة لايعتبر فعله منجز للعدوان إذا كان هدفه سقوط خصمه والفوز له لكن يكون سلوكا عدوانيا إذا كان هدفه إلحاق الألم والضرر له ، ولهذا فالسلوك العدواني سلوك يرمي إلى إيذاء الغير أو الذات أو مايحل محلها من الرموز ويعتبر تعويضا عن الحرمان الذي يشعر به الشخص المعتدي وهو رد فعل قوي تجاه الإحباط كما أنه سلوك ناجم عن طاقة داخل الفرد والقصد منها الإيذاء إما للنفس كالإنتحار أو للآخرين . (١)

ويشير دوركايم أن السلوك العدواني يعتبر فعلا إجتماعيا حيث قال أن الظواهر الإجتماعية من أي نوع يجب أن تفسر في ضوء الظواهر الإجتماعية الأخرى ، ولاتفسر بالرجوع إلى ظواهر سلوكية أو بيولوجية أو أي ظواهر أخرى غير إجتماعية ، ومما لاشك فيه أن العدوان نوع من السلوك الإنحرافي الذي ينتج

لعدد من الأسباب ويرى كاجان أن العدوانية نزعة ثانوية وليست أولية وهي تنمو وتقوى وتضعف حسب نوع العلاقات الإجتماعية التي يعقدها الإنسان ، ويشير سيزرى أن السلوك العدوانى إستجابة تتحول مع نمو الإنسان وخاصة الأطفال إلى عدوان وظيفي لإرتباطه إرتباطا شرطيا باشباع الحاجات فمثلا قد يصرخ الطفل فيستجيب له الوالدين ويتكرر هذا الموقف فيتعلم الطفل كيف يستخدم الإستجابات العصبية لتحقيق رغباته وقد يتحول هذا السلوك بالتراجع إلى السلوك العدوانى الوظيفي ولقد جاءت التفسيرات السسيولوجية للعدوان متأخرة بالنسبة للتفسيرات الأخرى فمنذ قرون عديدة ذهب رجال اللاهوت إلى إسناد السلوك الخاطئ إلى قوى خارقة للطبيعة تعمل من خلال فرد معين ثم ظهرت بعد ذلك التفسيرات البيولوجية التي ترجع الإنحراف إلى خصائص وراثية في الشخص أو الى الذين يعانون المرض أو العجز والى التكوين النفسى والحالات التي يولد فيها الفرد مصاب بالضعف العقلي وعدم القدرة على إحتمال الأزمات الناتجة عن الإحباط وعدم الإشباع وزيادة أو نقص الدوافع الغريزية خاصة النزعات الجنسية ويقال في علم النفس " عدوان مباشر " أى العدوان الموجه نحو مصدر الإحباط سواء كان شخصيا أم شيئا وعدوان متحول وهو عدوان موجه إلى غير مصدر الإحباط والعدوان من الناحية السياسية أى إستخدام القوات المسلحة أو التهديد باستخدامها عبر حدود معترف بها دوليا وتكون مسئولة عنه حكومة واقعية .(٢)

ويعتبر البعض الضغط الإقتصادى أو التسلل العقائدى بمثابة عدوان مباشر أو هجوم مسلح تشنه جماعة أو قبيلة أو دولة على أخرى لأغراض منها نهب الممتلكات وإقتطاع أقليم من أرض الجهة المعتدى عليها ، والعدوان صفة بارزة في كثير من الشعوب البدائية وخاصة الرعاه ، وعلى هذا فظاهره العدوان مسألة معقدة التركيب لأنها خلاصة تفاعل ثلاث فئات من العوامل البيولوجية والنفسية والإجتماعية ، وعلى هذا فقد نسب كل من ***Marsh, Campell*** النقص في دراسة العدوان في كل من المواقع المعملية والطبيعية إلى اثنين من المشاكل الأولى : صعوبة التوصل إلى تعريف عام مقبول عن العدوان ، والثانية : زيادة تضمينات

النظريات ذاتها ولكى نصل أيضا لتعريف دقيق له لابد من أن نميزه عن عدد من المصطلحات الأخرى والتى يخلط البعض بينها وبين العدوان كالعنف والذى يتمثل فى مكون سلوكى للعدوان ويتضمن فعل شديد ،مباشر تجاه شخص أو شئ.(٣)

ويعرفه *Sidney Hook* بأنه " الإستعمال غير القانونى لوسائل القسر المادى أو البدنى من أجل تحقيق غايات شخصية أو جماعية" وأكد *Tutt* أن العنف قد يكون شرعى أو لاشرعى فبعض الأفعال اللاشرعية بالأمس تصبح شرعية اليوم والعكس بالعكس ، كما ميز *Webster* بين العدوانية والتى تتضمن نزعة السيطرة واللامبالاة وعدم الإهتمام بحقوق الآخرين أما العنف فيتمثل فى تحرك أو فعل ويتميز بالقوة الجسمية الشديدة أو المتطرفة والفجائية والقوة الظالمة أو الخاطئة أو هو هجوم أولى وفعل عدائى يمارس فيه الهجوم والتعدى والإنتهاك وعلى هذا يشير *Austrian* أن بعض الأفعال كالحرب والقرصنة والإنتحار والتشويه المستديم (بتر للأعضاء) والإبتذاذ بالتهديد والسطو على المنازل والضرب بقسوة للغرباء إما أن تكون أنشطة ضرورية أم مدمرة كما يبدو نوع من الإرتباك فى تحديد ماهو عدوانى وماذا يكون عنفا .

أما الغضب والذى يمثل بداية الاثارة الإنفعالية مع ملابسات وجهية تلقائية بدون سلوك تخريبى ويشير مصطلح العداء إلى تقييم تقديرى معروف أو مدرك لناس آخرين مع تقييم لجماعة خاصة فى المجتمع فى حدود سلبية بدون غضبهم المعلن ، أما العدوان فهو سلوك علنى ومن حيث الغرض فهناك الهجومى والوسيلى والدفاعى وعن أسلوبه فهناك الجسدى واللفظى وفى استقباله يتمثل فى المباشر والغير مباشر . (٤)

- أنماط وأساليب العدوان :

يتخذ العدوان أشكال وأساليب عديدة كالعدوان اللفظى والنبذ أو الرفض بين الأشخاص والمنافسة ونشر الإشاعات أو القيل والقال والإنحراف عن المستويات الجنسية والعدوان السلبى ومعاملة الكبار بالقوة والعنف والمعاناة الجسمية والضرب

والعض والرفس والخدش وإحمرار الوجه وقبض الأسنان وقبضة يد عنيفة على منضدة كهجوم معاود على شئ بديل وحك الأظافر وتحريك المفاتيح باليد وبعنف كما يحدث فى السلوك البشرى والإرهاق أو الإنهاك وبعض التعبيرات الوجهية الى الإنسحاب والبكاء والتقديم أو الحضور (يحدث لدى ذكور الرئيسات الأدنى فى إفساح الطريق للذكور الاعلى مكانة) والإحلال أو الإزاحة (إزاحة ذكر الرئيسات الكبير لآخر أكبر ليشرب من الشاطئ) إلى ضرب الهواء (فى حالة جلوس ذكر كبير من الرئيسات تجاه حيوان لايعرفه) [٥] وسوف نشير تفصيليا لبعض الأنماط للعدوان .

ـ أنماط النزاع :

ويتضمن ثلاثة مواقف فى حدوث سلوك النزاع :

أ ـ النزاع البينوعي : والذى ينشئ بين الأنواع لنوع واحد وتتمثل أسلحته فى المخالب والأنياب لدى الرئيسات الى بلطة اليد ومايماثلها كما فى الإنسان ولايوجد إحتياج لمشاعر الغاضب المنسوبة للمفترس أو السالب .

ب ـ النزاع الإقليمي : فالسلوك العدوانى لديه خاصيته الجغرافية تدافع به الحيوانات عن مناطقها الخاصة بها وبجيرانها [٦] ويوجد ثلاثة مراحل للسلوك العدوانى كالتهديد والهجوم ثم القتال وكل مرحلة تظهر إستجابة عدائية للآخر متمثلة فى تهديد تبادلى وتهديد تبادلى مع هجوم وقتال وتهديد تبادلى وفرار وتهديد تبادلى وأوضاع التجاهل أو سلوك الإسترضاء والتجنب ومن ملاحظات *Eibl Eibesjeldt* أن التركيب الإجتماعى البشرى يرتكز على التهديد يتبعه الإسترضاء وإن عملياتنا الغريزية فى تلك الحياة الحضرية الحديثة تضطر للأشكال الرمزية من الهروب والفرار أو الخضوع وهذه الأفعال الرمزية تؤدى إلى إشباع غريزى للحيوانات القلقة وتشجعهم وتسمح لهم بالبقاء لكل منها فى حضور الطرف المعادى بالاضافة إلى سلوك إعادة الطمأنينة الذى يؤدى إلى حفظ العلاقات والتسكين والتهدئة التى تبدو طبيعية لدى الشمبانزى وبصورة مشابهة

تماما لسلوكنا وتتضمن ممارسات الاسترضاء أيضا تقديم الطعام وبصورة كافية فى فترات النقص أو الجفاف أو بتناول الطعام سويا مع الغرباء وهذه العادة تمارس في كثير من الثقافات ، كما تشمل الإمتطاء الظهرى والحجم النسبى للأطفال وكذلك الحجم النسبى للأبنية المختلفة من رأس وأذن وإنماط الحركة الطفولية والإيماءات الوجهية وأيضا التلقيظ أو التصويب مثل الخرخرة الملحوظة فى سعادين هويلر وتمثل الإبتسامة أسلوب من أساليب الإسترضاء ونو وظيفة حيوية هامة فابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تعمل على تغيير إتجاهات الأم تجاه طفل غير مرغوب فيه ونادرا مانجد الرجال الباسمة يقتل بعضهم بعضا ، كما أنها تحوى عنصر التوسل والإستعطاف والصداقة أو الإسترضاء وهى غير الضحك الذى يكون زائف أو مضلل وبه بعض العدوانية ونو إتصال وثيق بالسخرية ففى الرئيسات هذا السلوك يصاحب إطلاق إيقاعى للأصوات تشبه فى قوتها الضحك الإنسانى مما يودى إلى تكوين جبهة متحدة وفرصة لحدوث عدوان مكظوم ويشير هربرت سبنسر فى هذا الصدد أن لايوجد شئ عدوانى حول الإبتسامة بينما الضحك يصبح منفذ للإثارة وإن الطاقة التى تعاق فى تدفقه يمكن أن تأخذ إتجاه آخر وتتفجر فى شكل الضحك وفى علم الإصطلاح الحديث يدعى ضحك الازاحة أو الإحلالى ووظيفته تفريغ الإثارة أو الهياج .

وهناك نمط أخر لشعائر التهديد والإسترضاء وصفها *Eibl* وتتمثل فى مراسيم التحية لدى العديد من الجماعات القبلية وتمارس تجاه الغرباء حيث يتقدم المحاربين تجاه الغرباء بالصياح والقاء الرماح وإطلاق السهام . (٧) إستعدادا للهجوم الكامل ولكن لن توجه لهم بل للأرض القريبة منهم وبين المحاربين أطفال صغار يرفرفون بالأوراق الخضراء أو فتيات صغيرات عزل هذه إستنتاجات تمثل نواة لعملية الاسترضاء والتسكين وعلى أثرها تترك الأسلحة فجاة ويتبادل العناق وتحك الأنوف والأجسام ثم يدعوهم للمشاركة فى الطعام الذى يكون آمن من كل هجوم ولكن رغم ماقيل من اختزال لأسلحة إشارات الاسترضاء خارج أسلحة اشارت التهديد يحدث العدوان بين الذكور وذلك لخلاف أو لغيره على امرأة وعلى اقليمه .

جـ ـ علاقات السيادة والسيطرة الإقليمية فى مواجهة الأطراف الأخرى .

ويقترح كل من Lorenz, Ardrey أن الإقليمية والعدوان الفطرى فى الإنسان وجهان لعملة واحدة وذو صفة تكيفية وراثية كبيرة وواسعة الإنتشار بينما الإقليمية والأنماط العدوانية لدى الرئيسات فهى مختلفة باتساع ، كما أنه من ناحية أخرى أن معظم الجماعات الأقل تكنولوجيا تكون الأقل إقليميا وعديد منهم يكون غير عدوانى .

ـ العدوان السحري :

نوع من العدوان لاحظه Lebzelter لدى قبائل البوشمين والبانتو وذلك بالقاء عظام حيوانية على بعضهم البعض أو باستخدام أقواس وسهام بمقاييس معينة ومصنوعة من قرن البقر الوحشي ويمارسوا أنماط معينة من الرقص قبل الشروع فى القاء تلك السهام المسمومة تجاه العدو أو إيذاء الشمس لاعتقادهم أن خيال العدو سوف يقتل بهذا الفعل .(٨)

ـ العدوان والحرب :

هناك علاقة وثيقة بين العدوان والحرب فهو الشكل الحتمى المتناهى للعدوان ونوع من الانفعالات الاجتماعية الغير مقبولة وظاهرة إجتماعية وليست سيكولوجية وأيضا مكتسبة وليست غريزية وذلك لأن البحوث الاريكولوجية لن تكشف عن أى أدلة تعريفية عن الحرب حتى فترة العصر الحجرى الحديث حيث أشار الاثولوجى Konrad larenz أن كل من الحرب ودور النماذج والتنشئة الاجتماعية والقيم فى التنظيم الثقافى البدائى تمثل عوامل أولية فى التعبير عن العنف واللاعنف وأن إحتمالية سلوك حب الحرب جاء مع الإنتقال من الطعام النباتى لأكلى اللحوم وهذا يدل على عدم وجود دافع فطرى تجاه الحرب داخل الإنسان . (٩)

ويوضح Ardrey أن هناك ثلاثة فئات للنزاع من عدوانية ومنافسة بين الكائنات إلى عنف ذو تهديدات باستخدام القوة الجسمية أما الشكل الثالث والمتمثل فى الحرب ويمثل شكل خاص من تنظيم العنف يأخذ مكانا بين الجماعات

وأنه طريقة منظمة للحياة يمارسه الذكور بالخوض فى المعارك والقتال نظرا لطبيعة الذكر العدوانية ، ففى الوقت الحالى يقر الأمريكيون بمشروعية الحرب ولديهم أكبر نسبة فى العالم تمتلك المسدسات وتسوق للأسلحة فالوقت الحاضر عبارة عن قائمة زمنية من الأحداث الهامة فحرب تليها حرب تعوق وتعترض كل شئ وجماعة تقاتل جماعة بينما لو نظرنا لأقاربنا المقربون كالشمبانزى والغوريللا نجد أن جماعة العنف تبدو غائبة تماما وإن تلك الجماعة لها خطوة متداخلة بين العدوان والحرب وإن الإنسان يوضح جماعة عنف وحرب لقدرة فى الوجود ولتهديد.أنواعه فهو صفة إستثنائية له بل ويرغم عليه فى كثير من الأحيان تحت ضغط الحرمان والحكام كما أنه نوع من العدائية التعاونية ويمثل وظيفة الذكر الأولى ولاتتضح من ثقافات عديدة أن النساء كن محاربات أو صائدات للحيوانات الكبيرة .

ـ العدوان الرمزي أو الشعائري :

عبارة عن نزاع شعائرى أو معارك نادرا ماتكون حقيقية حيث يستبدل القتال بعروض غير مهلكة حيث يستعرض المتنازعان اسلحتهما المتمثلة فى أسنان، أنياب ، مخالب ، ذيول قوية وكل منهما يحاول أن يظهر أنه أكبر مما هو عليه فعليا وذلك بانتصاب للشعر وللأعمدة الفقارية وإنحناء الظهر وهنا أحد الطرفين قد ينسحب بعمل بعض الحركات كالانحناء بتذلل أو التمدد منبطحا على الأرض أو يحاول جعل نفسه أصغر من وضعه الفعلى داخل جماعته أو يمارس بعض الأنشطة التى وظفت غريزيا للصغار من الأنواع كالعواء الإيقاعى فهذه الأفعال والسلوكيات عريزية ومتساوية لكل من الأفعال (١٠) وردود الأفعال وتمثل أثار باقية لنمط شعائر الإسترضاء والخضوع تمارس بأبناء عمومتنا القردة العليا ويمارس هذا النوع من العدوان لدى البشر وذلك عندما يحاول العاشق أن ينال مايريد من الأنثى فهى تسلك سلوكا مشابها للطفل فتتحدث بصوت منخفض وتنظر للذكر من أدنى عينيها وتميل للبكاء ، وفى حالة غضب الرئيس من مرؤسيه فغريزيا تحنى الرؤوس وإحمرار للأوجه خجلا والتحدث بصوت منخفض فهنا الغاضب سوف يحد من هجومه وتهديده .

ومن الأساليب الشعائرية لدى الرئيسات ضربة الصدر الشعائرية للغوريللا إشارة للتهديد أو للإثارة . (١١)

وترتبط العروض العدوانية الشعائرية بالاقليمية إلى حد كبير حيث تستخدم في الدفاع الإقليمي متمثلا فيما يفعله افراد النوع الواحد من عروض على الحدود بينهم وبين غيرهم كل صباح مع إطلاق صيحات مدوية كنوع من أثبات الوجود لهم وعرض لقوتهم دون الحاق ضرر أو ألم للآخر .

ـ العدوان التطرفي :

ويتمثل في تصلب في الرأي والتشدد فيه وإذا لم يستجيب أحد لهذه الآراء يضطر الى حمل السلاح لتنفيذ تلك الآراء .

ـ العدوان والشعبية : ولقد وجد أن العدوان يحول دون قيام أي علاقات إجتماعية إيجابية طيبة وإن العدوان يؤدي إلى عدوان مضاد أو يقابله عدوان آخر ولذلك فإن العلاقة كانت سلبية بين العدوان في الطفولة والمراهقة وبين الشهرة ولكن هناك نوعا من العدوان يرتبط بالشعبية وهو العدوان الناتج عن الاغاظة أو الإستفزاز أما الأنواع الأخرى من العدوان فكانت ترتبط ارتباطا سلبيا مع الشعبية .

ـ العدوان الزواجي :

لقد قسم *Gelles Straus* العدوان الزواجي إلى أربعة فئات متمثلة في العدوان اللفظي والجسمي الضئيل التأثير والجسدي الشديد التأثير إلى السلب والإغتصاب الزواجي .

فبعض الأزواج يتعاملوا مع النزاع الزواجي بتهديد كل للآخر من إهانات وشتائم لفظية وهجوم وقد يصل إلى حد القتل .

فالعدوان اللفظي عندما يستخدم الازواج والزوجات معرفتهم الشخصية للإستخفاف أو للتصغير وفزع أو ذعر لكل منهما للآخر وهناك ضرر جسمي تهديدي يمثل شكل آخر من العدوان اللفظي يأخذ شكل التحديق وتقديم الأصبع

والعبوس أو إطفاء إضاءة الحجرة فهي سلوكيات غير لفظية ولكنها ذو إتصال وثيق بالعدوان اللفظي ، وعن إستخدام الأزواج لهذا النوع من العدوان حيث أجريت دراسة بالولايات المتحدة تبين أن الأزواج يستخدموا ٦ أنماط من سلوكيات العدوان اللفظي وأن الزوجات أكثر إستخداما للعدوان اللفظي من الأزواج كما اشارت الدراسة أن استخدام العدوان اللفظي طريقة جيدة لمنع العدوان الجسمي بل ويقلل العداء والتوتر المكظوم ، بينما دراسات أخرى تعترض على ذلك وتشير إلى أن العدوان اللفظي قد يؤدي إلى عدوان جسمي ، فالباحثين في عنف العائلة وجدوا أن هناك تسلسل سلمي للعدوان من لا عدوان إلى عدوان لفظي إلى عدوان جسمي ، وإن العدوان اللفظي ثابت غالبا ويأتي قبل العدوان الجسمي ويمكن أن يحدث بدون عدوان جسمي ولكن العدوان الجسمي لايحدث في غياب العدوان اللفظي ، كما يستخدم كنوع من الشجار بين الكبار لدى قبائل البوشمن حيث جمعت *Wiley* عدد من الجمل التي سمعتها عندما يندلع شجار بين أعضاء جماعتين متجاورتين مثل ديب يأكلك ، حاموتك ، أنت ضبع ، أشرب من دمك ، أقطعك ، أأكلك ويفضل النساء هذا النوع من العدوان بالاضافة إلى دورهن في فصل المتشاجرين .

أما عن العدوان الجسمي البسيط والذي يحمل بعض الخطر أو الضرر والمتمثل في ضرب ، رفس ، صفع ، إلقاء بعض الأشياء ، أو إستخدام مسدس أو سكين أما بقصد التهديد أو لإحداث إصابات خفيفة ويعتقد البعض أنه لايعني ضرر جسمي ويكون جزء عادي للحياة الزوجية .. كما أشار *Straus* أن الأزواج السود يلتحموا في نزاع جسمي أكثر من الازواج البيض ويتضمن العدوان الجسمي الشديد الأفعال التي تحمل الخطر والإضرار بالجسم أو حتى الموت ويكون دائما من قبل الأزواج تجاه الزوجات ، بينما تلجأ الزوجات لمثل هذا العدوان في حالة الدفاع عن النفس أو للثأر والإنتقام وفي بعض الأحيان يكون الأزواج ضحايا سب الزوجات أما عن الشكل الأخير للعدوان الزواجي والمتمثل في الخطف أو السلب الزواجي فهو أكثر الأشكال للسب الزواجي الشديد وذلك بالإجبار بالقوة لزوجات أزواج آخرين للجنس من خلال العنف والعدوان وبالخوف ويواجه الجاني

أيضا بنوع من العنف والعدوان كما فى مثال البوشمن عندما يغازل رجل امرأة متزوجة حيث يتدخل أخو المرأة وأيضا آخرون طبقا لدرجة القرابة ويتنازع الرجال والنتيجة أذى ، وجرح وكسر بل وقتل فى بعض الأحيان ، وهناك مجموعة من العوامل المساعدة للعدوان الزواجى وعلى الأخص اللفظى منه متمثل فى عمر الأزواج والزوجات حيث يحدث غالبا بين الأزواج الأقل من الثلاثين ربما لأن تلك الزيجات الصغيرة السن تعيش تحت ضغوط مادية كما يحدث بين أزواج الطبقة المنخفضة إجتماعيا وإقتصاديا ، وذلك لأن عائلات الطبقة المتوسطة والعليا تعيش حياة بها نوع من الخصوصية على حياتها وأسلوبها وفى شئ من العزلة عن علاقات الجوار وقادرة على إخفاء هذه الأنماط من العدوان عن الشرطة والسلطات الطبية بالذهاب الى الأطباء الخصوصيين بدلا من المستشفيات لعلاج الجروح أثر العدوان والعنف الذى ينشب بين الأزواج .

وتؤكد الأبحاث أن العائلات ذو الدخل المنخفض تبدو لديها معدلات أعلى من السب الزواجى من عائلات الدخل المرتفع وذلك للضغوط المالية ونقص القدرة الشرائية ، وفى بعض العائلات يبدو العنف كجزء من ثقافة العائلة ويتوارث من جيل إلى جيل حيث يشاهد الأطفال سب أحد الوالدين للآخر كما يلاحظ العدوان الجسمى فهذا ينمى لديهم الإعتقاد بأن هذا النوع من العدوان بين الأزواج يمثل جزء طبيعى من الحياة الزوجية .

كما وجد *Straus* أن مرتكبى السب الزواجى غالبا مايدمنوا الكحول والمخدرات وأن هناك علاقة بين إستهلاك الكحولات والمخدرات وعنف العائلة ولكنها ليست مسئولة مسئولية مباشرة بل تنتج تغيرات كيميائية داخل الجسم التى تؤدى إلى سلوك العنف ورغم هذا قد يكافئ السب الزواجى لأنه يتضمن مكاسب وخسائر ومكاسب عنف العائلة تفوق خسائره وذلك عندما صرح عدد من الضحايا الذين ضربوا زوجاتهم بأن السب موافق عليه أو مقبول لكلا الزوجين وأن خسائره تكاد تكون منخفضة أو منعدمة ، يضاف إلى ذلك أن هناك علاقة بين التغير الإجتماعى والعنف الزواجى حيث إتفق كل من ***Straus, Hampton*** أن العدوان الزواجى

تجاه الزوجات إنخفض أثناء العقد الماضى فى الدراسة التى أجريت على الأزواج والزوجات البيض والسود بأمريكا كما غيرت بعض مكاتب البوليس الطرق التى يعاملوا بها العنف العائلى . (١٢)

- العدوان والتنظيم الإجتماعي والقرابة :

تلعب علاقات القرابة دور فى التقيد من العدوان حيث قدر من التسامح يمتد للأقارب المختلفين بحسب درجة قرابتهم الوراثية .

ويبدو هذا بين المكاك اليابانى حيث علاقات القرابية الجينولوجية تمتد لتشمل أجيال عديدة ويشير *Yamada* لدرجات التسامح من جانب الأمهات تجاه الأطفال والعمات والخالات لأبناء الأخوات والأخوة والجدات للأحفاد والاناث الأكبر سنا للأفراد الصغار ويفسر *Maynard Smith* أن التفاعلات العدوانية تكون شائعة نسبيا فى تنظيمات اجتماعية أو جماعات محددة وذلك كالمشكلة حديثا وبين أعضاء لجماعات مستقرة وغرباء كما فى الغوريللا .(١٢)

وبين أعضاء لنفس الجماعة الذين لم يتقابلوا من فترة أوبين الجيران داخل جماعات قائمة ، وفى الأنواع التى تعيش فى جماعات كبيرة ولاتتقابل مع بعضها البعض بصفة مستمرة .

- نظريات تفسير العنف والعدوان :

تنحصر النظريات التى تفسر أسباب العدوان فى خمس فئات عامة :

١ ــ العدوان يمثل ظاهرة غريزية فطرية : فهناك تعارض من قبل السيكولوجيين والفسيولوجيين والاثولوجيين والفلاسفة عما إذا كانت العدوانية تمثل ظاهرة موروثة فطرية أم مكتسبة وهذا الجدال يرجع لقرون عديدة فعلى سبيل المثال جان جاك روسو يقترح أن الأنسان فى حالته الطبيعية يكون جيد لطيف ودود ولكن قيود المجتمع تفسده وتقوى النزعة العدوانية لديه بينما آخرون نظروا للإنسان فى حالته الطبيعية بأنه وحشى وأن القانون وسلطة المجتمع تخضع طبيعته الفطرية تجاه العدوان .

ويشير فرويد أن الناس تولد بغريزتين وهما غريزة الحياة التى تجعل الشخص ينمو ويبقى وغريزة الموت التى تعمل تجاه التقدير الذاتى الفردى أو الإنتحار أى أن الإنسان يولد مع فطرة الهلاك وعندما تعود للداخل تظهر نفسها فى عقاب الذات وعندما تعود للخارج تظهر نفسها فى العداء والفنائية والقتل العمد ، لذا فالمجتمع من الضرورى أن يعنى بتعديل وضبط وتنظيم هذه الفطرة ومساعدة الناس على اخضاعها فى سلوك مفيد ومرضى ، وطبقا لمبدأ *Lorenzian* أن بدون عدوان كقوة فطرية فالبقاء يصبح غير محتمل .

٢ ـ العدوان يمثل ظاهرة مكتسبة ترفض نظرية التعلم الإجتماعى مفهوم العدوان بوصفه غريزة وتفترض أن العدوان لايختلف عن أية إستجابات متعلمة أخرى فمن الممكن أن يتم تعلم العدوان عن طريق الملاحظة أو التقليد لنماذج عدوانية فهى تزيد من العدوان الفعلى وطبقا لالبرت باندورا يتعلم الأطفال من خلال سلسلة من التجارب أدوار المدرسة وتنشئة الوالدين والتليفزيون ما إذا كان العدوان مقبولا إجتماعيا أم لا بالإضافة لدور الأصدقاء والمدرسين ويعتقد البعض أن العدوان التليفزونى لديه التأثير القليل على السلوك العدوانى بالمقارنة بدور الوالدين والمدرسة والأصدقاء وان ملاحظة مثل هذا السلوك يمكن أن يفيد فى التنفيس عن او لإزلة المشاعر العدوانية .

٣ ـ العدوان كاستجابة للإحباط : يعرف الإحباط بأنه إعاقة لدوافع الفرد ورغباته وأماله عن الوصول إلى هدفها وان فرض الإحباط الذى وضعه دولارد بأن إعاقة جهود الشخص للوصول إلى هدف يترتب عليه حافز العدوان والذى يدفع السلوك بدوره إلى إيذاء الشخص أو الشئ المسبب للإحباط ، والعدوان هو الإستجابة السائدة للإحباط ، ولكن يمكن أن تحدث إستجابات أخرى إذا كان قد عوقب فى الماضى ، ويعتقد البعض أن العدوان يكون نتيجة لتجارب محبطة ومدى قوة وفعالية الباعث المحبط ودرجة التداخل وعدد البواعث المحبطة كل هذا يحدد شدة العدوان وكثافته .

٤ ـ العدوان كنتيجة لضغط الجماعة حيث تتأثر الناس باتجاهات وقيم

وإنماط سلوك المحيطين بهم فسلسلة من الدراسات وضحت أن العنف أعلى فى بعض الجماعات من أخرى فالانداد يزوبوا الفرد باتجاهات وبواعث وتبريرات لدعم السلوك الغير إجتماعى وبالفرص لفعل الأفعال الجانحة نوعيا ولكن ما إذا كان أو ليس من خضوع الأفراد لضغط الجماعة ، إنما يعتمد على شخصياتهم فى المواقف وعدد الجماعات المرجعية التى ينتمون اليها .

٥ ـ العدوان يتسبب بتقليل القوة المقيدة : فالعدوان يمكن أن يكون بفعل ضغوط خارجية مثل الخوف من النتائج (عقاب رأى الآخرين) أو ضغوط داخلية (الشعور بالذنب على المستوى المعنوي) فالعقلية تميل لتقليل القوى المقيدة للضغوط الخارجية فعندما تكون الجماعة مجهولة تصبح أكثر عدوانية أى تنتج عندما يكون الشخص غير معروف للآخرين أو مفقود فى الزحام وكثرة العدد لجماعته .(١٤) ووضحت التجارب عندما يشعر الأفراد بالغفلية فمستوياتهم العدوانية تزيد فى الموقف المعملى ويزود المجتمع عادة بالقوة المقيدة للعدوان من خلال أعضاءه وقوانينه .

ـ الأسس البيولوجية والاجتماعية للعنف والعدوان :

بعض ميولنا للإستجابة الإنفعالية يرجع إلى تأثير الجينات والكروموسومات والهرمونات ، حيث لوحظ وجود كروموسومات ذكرية إضافية فى الأشخاص الذين يرتكبون جرائم عنف فالمعروف أن الخلية الذكرية السوية يوجد بها كروموسوم Y وآخر X والخلية الأنثوية بها ولكن لوحظ أن خلايا بعض الرجال بها X واحدة واثنين من Y بصورة أكبر وأكثر إحتمالا لارتكاب الجرائم بصفة عامة وجرائم العنف بصفة خاصة ويسجنوا لأفعالهم الآثمة .

وتتوافر بعض الأدلة على أن التنبيه الكهربى البسيط عن طريق أقطاب مزروعة لمناطق معينة فى المهيد (الهايبوثالاموس) ـ والذى يقع بجوار الغدة النخامية فى أسفل المخ والذى يمثل مركز تجهيز وتنظيم المعلومات من أعضاء الحس الى انحاء المخ كما له التأثير على الغدة النخامية وله وظائف عديدة منها السلوك العدوانى ـ لدى القردة التى ولدت بعيدة عن مشاهد عدوانية أن تعيش فى

سلام ولكن إذا أثير المهيد بكيماويات عصبية معينة فسوف ينقض القردة على شريكة فى القفص وفى الرئيسات العليا يكون التحكم فى أنماط العدوان الفطرى فى منطقة اللحاء ولذلك تكون هذه الأنماط أكثر تأثرا بالخبرة فان القردة التى تعيش فى مجموعات يكون لديها ترتيب هرمى للسيادة ذكر واحد هو القائد ويتخذ الآخرون مستويات مختلفة من الخضوع وعندما ينبه ـ كهربيا ـ مهيد قرد مسيطر فإنه يهاجم القرد الذكور وهكذا فان السلوك العدوانى لايحدث بشكل آلى بإثارة المهيد إنما يمكن أن يبعث رسالة الى اللحاء تشير إلى أن مركز العدوان قد تم تنشيطه ولكن اللحاء فى إختياره للإستجابة التى يقوم بها سوف يهتم فى البداية بما يحدث فى البيئة وذكرياته عن الخبرات الماضية ، وهناك سلوكا مشابها لهذا يحدث لدى البشر حيث ذكر *Albert* عندما يثار الهيبوتالاموس بوسط البطن ينتج عن التهام طعام زائد مما أدى بأحد المرضى إلى عض الممرضة التى كانت تعالجه بينما أصبح هادئا عندما سمح له بأكل أطعمة تحتوى على سعرات حرارية مابين ٠٠٠, ٨٠ الى ٠٠٠, ١٠٠ يوميا .

والجزء الثاني من الأجهزة العصبية بالمخ ألا وهى اللوزة والتى تتمركز بداخل الفص الصدغى وتكون متضمنة فى العدوان والخضوع والدفاع وأن تلك السلوكيات من الممكن أن تثار بإثارات كهربائية كما أظهرت الدراسات أن الأشخاص ذو العنف المألوف كان لديهم تضخم للوزة أما الجزء الثالث وهى مادة الدماغ السنجابية بمركز منتصف المخ ورغم تمركزها داخل نفس المنطقة إلا أن مواقع مختلفة من اللعصاب تؤثر فى الشكلين من السلوك ويحاولوا منع تحكم واحد على الآخر ، ورغم أن الاثارة الكهربائية يمكن أن ينتج عنها سلوك عدوانى إلا أنه غالبا مايعتمد على مثير بيئي فهناك تفاعل معقد لأبنية المخ تحت مثير بيئى مناسب .

كما تلعب هرمونات الجنس كالتستستيرون والأندروجين دور فى السلوك العدوانى حيث وجد *Young* أن أنثى سعدان الريص التى حقنت بالأندروجين قبل الولادة تسلك سلوكا ذكريا عن أنثي سعدان الريص الطبيعية كما أظهرت سلوكا

أكثر تهديدا وأقل إنسحاب أو تراجع كما أسفرت بعض التجارب عن أن حقن السعادين بالهرمون الذكرى التستستيرون يجعلها تتصارع وتتنازع باستمرار وباصرار وإذا إنخفض مستوى هذا الهرمون تصبح الحيوانات أكثر هدوءا ، ومن ناحية أخرى ظهر أن جرائم النساء تزداد فى فترة ماقبل الحيض مباشرة عندما يضطرب إفراز الهرمونات الجنسية الانثوية وفى سن اليأس عندما يقل مستوى هرمون الاستروجين تشعر كثير من النساء بالتوتر والقلق والميول العدائية ، فالبشر مجهزون كالحيوانات بآليات تعتمد على تكوين الجهاز العصبى لديهم تمكنهم من أن يسلكوا بطريقة عدوانية ولكن تنشيط تلك الآليات يكون تحت الضبط المعرفى ، وقد يتصرف بعض الأفراد من ذوى الاصابات العضوية فى المخ بشكل عدوانى نتيجة لتنبيه لايثير السلوك العدوانى لدى الأسوياء وفى هذه الحالات يعد الضبط اللحائى معطلا ولكن يتحدد تكرار حدوث السلوك العدوانى لدى الأسوياء والأشكال التى يتخذها والمواقف التى يكشف عنها بالتعلم والمؤثرات الإجتماعية .

يضاف إلى ذلك العيوب الخلقية والتكوينية والعاهات الجسمية وإختلال إفراز الغدد الصماء بالزيادة أو النقصان يحدث إضطراب فى السلوك وإضطرابات نفسية مثل إحساس الصغير بالنقص وتكوين مفهوم الذات السالب وينظر للمجتمع نظرة يملؤها الحقد تدفعه الى السلوك العدوانى .

وكذلك مجموعة من الأمراض الجسمية كالسل الرئوى والزهرى والتيفود والملاريا والانفلونزا وجروح المخ ـ تحدث إختلالا فى التوازن الجسمى والنفسى للمصاب قد يكون مفضيا إلى الجريمة والعنف والعدوان إلى جانب هذا كله أن السمات الفيزيقية لها دورها فى إثبات السلوك العدوانى وهذا ماقرره الطبيب الإيطالى *Lombroso* من فحصه لعدد المجرمين وتوصل إلى أهم الملامح الرئيسية التى تميز الشخص العدوانى وتتمثل فى الرأس البارزة وصغر حجمها ، أذن كبيرة ، حواجب بارزة ، إستطالة للأذرع والأرجل والأصابع ، ضعف حاسة السمع ، قلة الإحساس بالألم ، عيوب فى التجويف الصدرى ، عنيف المزاج ، قاسى لايشعر بأى نوع من تأنيب الضمير ، وأكدت نظريته أن المجرمين يمتلكون

سمات فيزيقية حيوانية تشبه سمات القرد وانها تأييد للأساس البيولوجى للسلوك الإجرامى وإن تلك الصفات تتوارث من جيل لجيل إلا أن هناك فرصة لإسهام العوامل الإجتماعية والسيكولوجية أما فى تسهيل أو فى قمع السلوك الإجرامى.(١٥)

ويصدق هذا أيضا على الرئيسات اللاإنسانية الأرضية فحجم الجسم أو الوزن والقوة العضلية وتوزيع الشعر على الجسم وحجم الأنياب وبروزها والعرف الشعرى ولون الجلد والفراء وإرتفاع القامة وضخامة منطقة الصدر كلها صفات بيولوجية فسيولوجية فى تحديد الصفات العدوانية وفى تحديد الذكر المسيطر العدوانى وفى تبادل العدوانية مع الطرف الأخر ، فلون الفراء للصغير والمتمثل فى البرتقالى يمنع المشاعر العدوانية تجاه ويمثل خط دفاعى له وحماية من قبل الوالدين وباقى أفراد جماعته ، وفى هذا الصدد أشارت جان جودال أن طفل الشمبانزى عندما يبلغ ٣ سنوات من العمر يعامل بأكثر خشونة وذلك باختفاء اللون الأبيض لفراءه ولبشرته إلى اللون الداكن كالبنى أو الرمادى والأسود ، كما فى الكبار والبالغين ، ويقترح أن *Rmapithecus* بالهند الشمالية يحتفظ بالجلد الأبيض لأطفاله داخل مرحلة الكبر وذلك لسببين :

١ ـ ليسمح للذكور الكبيرة لتلتقى بدون عدوان لفترة من الزمن .

٢ ـ ليسمح لفيتامين *D* بالحصول عليه دون التعرض لأشعة الشمس .

وهذا مايفعله طفل الشمبانزى أيضا حيث يظل محتفظا بوجهه الأبيض والنقط البيضاء على الأرداف بدخوله فى مرحلة حياته البالغة وإن هذا لم يحدث دائما وإنما هو نوع من الطفرة الوراثية الغريزية .(١٦) ولما للطفل من دور هام حيث يستخدم كالمصدات إيذاء المشاحنات أو المناوشات العدائية ، وان الذكر بدون طفل يمثل عرضه أكبر للتهديد العدوانى عن مامعه طفل يحتمى فيه حيث تحمل الأطفال أثناء المناوشات كما فى البابون .

كما أن سوء التغذية فى بداية الحياة يمكن أن تؤدى إلى زيادة العدوانية ، والتأثير على الشخصية وذلك طبقا لدراسة أجريت بلندن على ١٧ فتاة جائعة فى

الأعمار مابين ١١ : ١٥ سنة وكان طعامهن يحتوى على كميات كبيرة من الخبز الأبيض والسمن النباتى واللحوم المعلبة وعندما تغير طعامهن للأطعمة الأكثر غذائيا وتنوع تحسنت صحتهن ومظهرهن العام وأصبحن أقل عدوانية ومشاكسة ونزاع ، وأكثر قدرة على إحترام الذات وتقديرها ، وهناك تجربة مشابهة أجريت على أنواع من الرئيسات العليا كالبابون والمكاك حيث التجارب عليهم أكثر تصديقا من التجارب البشرية ويسهل التحكم فى العوامل السيكولوجية وكانت التجربة قوامها ٢٠ سعدان تم تغذيتهم تغذية جيدة سليمة فأدى هذا إلى نموهم وأصبحوا أقل عدوانية بينما ٢٠ سعدان أخر كانت تغذيتهم مشابهة لتغذية الفتيات الجائعات فأصبحوا عدوانيين ويقتل بعضهم البعض ولم يهتموا بأنفسهم ، وعلى هذا فالتغذية السيئة لها تأثيرها على الإنسان والرئيسات وتشارك فى الحالة الحزينة والعدوانية للجيل لوقتنا الحالى ويرجع فى هذا إلى التغيرات فى بناء وخلايا المخ وعدم تكوينها ونموها .(١٧)

ومن ناحية أخرى أن بيئة العداء والغضب والتوتر تمثل صور غير سارة تؤثر على الشهية للطعام أو بالإفراط الزائد على أطعمة معينة . (١٨)

هناك علاقة بين الوضع الإقتصادى والإجتماعى ونسبة العدوان فهى أعلى فى الطبقات الدنيا منها فى الطبقات المتوسطة لارتباطها بالقيم والمعايير المجتمعية .

- الأسس الإجتماعية للعنف والعدوان :

يشير كل من *Ramsey, Patterson* أن للتنشئة الإجتماعية دور بالغ الأهمية فى هذا السلوك إبتداء من تأثير الوالدين وطريقة معالجتهما لمثل هذا السلوك بالاضافة للمكانة الإجتماعية والاقتصادية والعرقية والجيران والتعليم ولهذا السلوك الغير إجتماعى يبدو كسمة متطورة تبدأ منذ السنوات الأولى من حياة الطفل وغالبا ماتستمر فى المراهقة وكبر السن .

ولذا فنمو العدوان يجب أن ينظر له فى محتوى ايكولوجى فهناك كل معقد

للمتغيرات التي تشارك في السلوك العدواني وذلك على شكل مثلث كما صورها *Park* الزاوية الأولى منه تتمثل في العائلة وممارسات تربية الطفل وأنماط التفاعل واستجابة العائلة للشدة والثانية : المدرسة والإتجاهات فيما يتصل بمعاملة السلوك العدواني ونماذج من هذا السلوك للأفراد ، والثالثة تقع في قلب المثلث ألا وهو الطفل من حيث الشخصية ومستوى النشاط والمهارة الاجتماعية والرابعة وتتمثل في الزاوية الثالثة من المثلث ألا وهي المجتمع فيما يتعلق بالاتجاهات ومعاملة السلوك العدواني والإستفادة من الأنظمة المدعمة الشكلية واللاشكلية الخامسة بقاعدة المثلث فهي الثقافة أي الإتجاهات الثقافية المناسبة للعدوان لحل المشاكل ونماذج ثقافية لهذا السلوك وقوانين للتعامل معه .

ويتأثر السلوك البشري بالعادات وتقاليد المجتمع الذي نعيش فيه وبعض السلوك الجانح قد ينجم من نزاع القيم وبين الجماعات العرقية في المجتمع .

ويشير *Friedlander* أن هناك إتجاهات مختلفة للجماعات العرقية تجاه النزاع فمنها من يعاقب على الأفعال العدوانية خاصة إذا لحق الأذى بالآخرين بينما أخرى تشعر أن العدوان طريقة مقبولة للثأر من الاهانة فعلى سبيل المثال في الثقافة الأسبانية والتي تعطي للرجل السيادة لقوته الجسمية وتعطيه أيضا حق الدفاع عن شرف الإناث ولذا فالعديد منهم كانوا ضحايا هذا الواجب . (١٩)

وكشفت عدد من الدراسات أن الإستجابات العدوانية يمكن تعلمها من خلال التقليد أي بملاحظة نماذج العدوان من أفلام وعروض مسرحية وتمثيلية ولها دور بالغ في تشكيل سلوكه وذلك بتعلم الأساليب العدوانية للسلوك وزيادة الاثارة كما أن تكرار مشاهدة العنف يقلل الحساسية وتجعل الشخص فاترا تجاه هذه المواقف وإنخفاض إستعداد الإنسان لمساعدة ضحية تعاني في الحياة الواقعية .

- العدوان والأنواع الرئيسية :

يعتقد البعض أن مفتاح العدوان البشري قد وجد في سلوك الرئيسات اللابشرية وخاصة القردة العليا ودراسات ميدانية وضحت أن السعادين خاصة

البابون والمكاك واللانجور عدوانية تماما ونظرا لمدى التشابه والإرتباط بين البشر وعلى الأخص الشمبانزى من حيث التركيب البيوكيميائى والوراثى ولذا فسلوكه يمثل مفاتيح للأصول البشرية وحتى اليوم للسلوك البشرى وإن عنف الشمبانزى فى نظر جودال يكمل لنا المعرفة أن أبناء عمومتنا من القردة العليا أكثر تشابها للبشر مما نحن نعتقد ولذا سأشير بكل من الشمبانزى والغوريللا من القردة العليا .

أ ـ الشمبانزى : حيث توجد علاقة بين السلوك العدوانى للذكور الكبيرة وعلاقات السيادة والسيطرة والخضوع ويتجه من الذكور تجاه الذكور الأصغر والإناث ومن جانب الإناث الكبيرة المسيطرة تجاه الشباب والذكور المراهقة تجاه الإناث الصغيرة ، وعادة مايطارد الذكور الإناث أثناء دورتهن النزوية فى شكل هجمات قد تكون عنيفة إذا إظهرن مقاومة أو نفور ورفض فى متابعة الذكور ، ويستخدم العصى أو الصخور فى العروض العدوانية مع تبنى للوضع المنتصب القامة وتتضح عدوانية الشمبانزى فى مواقف عديدة منها التنافس على الطعام فى منطقة التغذية الصناعية أو إذا أحبط فى إنجاز بعض الأهداف أو إذا هُجم أو هُدد بأحد أفراد الرتبة الأعلى ويصبح التحدى غير متبادل فهو لذلك يوجه عدوانه تجاه الحيوان ذو الترتيب الأدنى كما يستخدم أيضا إذا أخفق مرؤوس فى الإستجابة لتصحيح بعض الإشارات الإجتماعية ، وفى دفاع الأم عن طفلها وكذلك فى غزوات الصيد التى يقوم بها للإمداد باللحم وفى الدفاع عن حدوده الإقليمية ويرتبط العدوان بالفئة العمرية والنوعية فالأطفال تستبعد من دائرة العدوان بل يدافع عنهم من كل أفراد الجماعة القرابية الى أن يبلغ الذكور سن المراهقة حتى يصبح قوى ويعرض لهجمات كلها حيوية ويوجه قدر كبير من عدوانيته تجاه الإناث الصغيرة والكبيرة ويضار فى تعامله مع الذكور الكبيرة الذين يكونوا أقل تسامحا معه الآن ويترقب لكل شئ من بعد وإذا وجد شجارا عدوانيا فى جماعته فيميل للتجول بعيدا أو يعود لأمه وببلوغه سن ١٤ سنة يبدأ فى التحدى للذكور الكبيرة التى تحتل المكانة الأولى ويتدرج فى ذلك إلى أن يصبح ند بالند للذكور ذو الترتيب الأعلى ، أما بالنسبة للاناث فى تلك المرحلة فهن أكثر مسالمة وأقل تعلقا بتشييد

مكانتهن فى التسلسل السيادى ويحاولن البقاء مع أمهاتهن حتى يتعلمن كل مايؤهلن ليصبحن أمهات ويمارسن السلوك الأمومى تجاه الأطفال مثل ماتفعله الأنثى البشرية ويتشابه عديد من أنماط العدوان لدى الشمبانزى بالعدوان البشرى من تهديد برفع الأذرع إلى هز الرأس وإنحناء للكتفين ووقوف للشعر وضرب للقدمين بقوة وتلويح للأفرع أو القاء للأحجار فهذا نوع من التهديد الذى يلجأ اليه لفض المنازعات دون اللجوء للتشاجر الفعلى ويتطابق هذا مع العدوان اللفظى فى الكائنات البشرية وعند الهجوم الفعلى يمارس الشمبانزى العديد من الأساليب كالعض والضرب والرفس والخدش وإذا لم يسمح للطفل بالرضاعة فسوف يلجأ للعض ولضرب أمه وتشير جودال إلى أنهم بارعين فى فن الشفرة فنادرا مايلجأون للعنف الجسمى الحقيقى كما فى الإنسان وإذا حدث فلا يتعدى سوى خدش بالأظافر أو بعض حفنات من الشعر وسرعان مايتصافح المتخاصمان وذلك بأن يمد الضحية يده ويربت المعتدى رأسه ويجلسان يؤنق كل منهما الآخر . (٢٠)

ب ـ الغوريلا : تشير *Fosseydian* إلى أن الغوريلا فى الطبيعة تكون أكثر مسالمة من الشمبانزى باستثناء ضرب الصدور المرعب الذى يمارس فى حالات معينة كانفراد حيوان بأنثى غيره وصغيره كما يوجد لديهم تسلسل قيادى داخل الجماعة يرأسه الأكثر قوة وعنفا وتهديدا ، وغيرها من الأمثلة كالبابون واللانجور والمكاك ولكن إختيارى لكل من الشمبانزى والغوريلا لمدى تشابهما بالإنسان فى كثير من الخواص والصفات السلوكية .

ـ الإنسان والعنف والعدوان :

إن معظم من كتبوا عن العنف والعدوان البشرى من علماء لاهوت أو فلاسفة قبل داروين القوا بثقلهم على التناظرات والتشابهات بالسلوك الحيوانى ولكن الواقع ورغم هذا التماثل إلا أنه يوجد تمييز قاطع بين الإنسان وكل المخلوقات الأخرى ، فالعدوان بالنسبة للإنسان يمثل طريقة للحياة أما فى الأنواع الأخرى يكون عادة نتيجة ظرف نوعى أو حدث خاص يثيره ثم بعد ذلك أسهم فرويد بمنظوره السيكولوجى للعدوانية لدى الإنسان ولكنه كان تفسيرا مضللا حيث حصر العدوان

وجعله على إتصال وثيق مع الجنسية وله دور فى عملية النمو النفسى واضطراباتنا السيكولوجية وغضبنا الشديد المتوارث إلى أن جاءت الدراسات والبحوث الميدانية والاثولوجية التى أثبتت أن عدوان الإنسان وشدته خاصة فى الأوقات الحديثة ناتج عن قيود ثقافية كبتية (قمعية) تفرض عليه مما تؤدى إلى مزيد من العدوانية وإلى أسلوب التنشئة ، وسوف القى الضوء على مراحلنا العمرية والنوعية : ففى الطفولة أى من ٣:٧ سنوات يمكن للطفل ضبط عدوانيته إلى حد ما على خلاف طفل الأقل من ذلك الذى لايفهم لغة فى حل الخلافات سوى ضرب الآخر بشئ أما الطفل فى الرابعة من عمره يميل للجدل والنقاش مع غيره ومن ٨:٩ سنوات يضبط الطفل إنفعاله بشكل جيد ، وقد أثبتت الدراسات أن الأطفال فى سن ١٠ سنوات لديهم عدوانية زائدة والخطر يكمن فى أن تستمر وتنمو مع الطفل بدون توقف وهنا يظهر دور الوالدين وإن إنفعال الغضب أكثر شيوعا من إنفعال الخوف عند الأطفال وذلك لأن الموقف الذى يثير غضبهم أكثر من الذى يثير خوفهم عندما يعجزوا عن تحقيق رغباتهم ومن الملاحظ أن الطفل يتعلم منذ صغره أن يغضب من موقف معين وهذه المواقف تتغير مع نمو الطفل وتقدمه فى العمر وإن مظاهر الغضب يكتسبها أثناء تفاعله مع البيئة ولذا فهى تختلف باختلاف عمره وثقافته التى ينمو فيها والتربية التى يلقاها ولقد قسم جودانق مظاهرالتعبير عن الغضب فى مرحلة الطفولة المبكرة إلى ثلاث أقسام متمثلة فى تفريغ الشحنة الإنفعالية والمقاومة الحركية أو اللغوية ثم الإنتقام وإن هناك صور للعدوان لدى الأطفال فى العناد والتشاجر وعن أسباب العدوان لدى الأطفال : كالفشل والإحباط المستمر والكراهية من جانب الوالدين أو المعلمين والكبت المستمر والشعور بالنقص الجسمى أو العقلى وتشجيع الوالدين لأبنائهم على السلوك العدوانى فى خلافاتهم مع الأطفال الاخرين والتقليد والمحاكاه لمايشاهده الأطفال على شاشة التليفزيون أو فى حياتهم اليومية والاشتراك الفعلى فى السلوك العدوانى وقدرة الطفل على التخيل العدوانى وغياب الوالدين عن البيت لفترات طويلة مما يجعلهم شديدى العدوان وتتدرج حدة السلوك العدوانى تبعا لعدة عوامل منها :

١ ـ الجنس : يختلف السلوك العدواني للذكر عن الأنثى وإن هذا الإختلاف يوجد منذ الميلاد فالإناث لديها سلبية حركية أكبر وحساسية للألم والاثارة من الذكور بينما يوضح الأطفال الذكور لعب عدواني أكثر من سن ٢٧ شهر من العمر أما الإناث فينمو لديهن الألفاظ اللغوية أو الكلامية ، ويرجع هذا للهرمون الذكرى التستستيرون وأنهم أكثر عدوانية لوجود كروموسوم Y وهذا لايتوافر للإناث ، كما يلعب الوالدين دور بالغ الأهمية في ابراز وتشجيع هذا النوع من السلوك لدى الذكور ويسمح لهم بالتعبير عن تلك العدوانية بينما تحس الفتيات على رقة ونعومة السلوك فلا يدفعن للمباريات الرياضية ويدافعن عن حقوقهن بنماذج سلبية كالبكاء وإن كبت العدوان الطبيعي فى الفتيات يبدأ في سن مبكرة ولهذا يفقدن حريتهن فى التمتع والإستمتاع بالأنشطة مع الأولاد وعلى هذا فعدوانية الذكور ترجع إلى عوامل بيئية ووراثية أو بيولوجية وتوحد الطفل الذكر مع والده معناه توحد مع العنصر القوى العدواني وحتى فى ضوء التوقعات الثقافية فإن المجتمع يتوقع أن يظهر الأطفال الذكور مزيدا من العدوان أكثر مما يتوقع من الإناث وأكثر إستخداما للعدوان الجسدى فى التشاجر.

٢ ـ العمر : فهناك فروق واضحة فى عدوانية الأطفال تتفاوت بحسب أعمارهن حيث وجد هارتون عدوانية طفل ماقبل المدرسة وسيلية ثم تخف بصورة تدريجية .

٣ ـ الوضع الإقتصادي والإجتماعي : فالعدوانية لدى أطفال الطبقات الفقيرة أعلى من مثيلتها فى الطبقات المتوسطة لاختلاف المعايير والقيم وأساليب التنشئة بالإضافة للمشكلات الأسرية كالطلاق ومايئنتج عنه من آثار سيئة على نفسية الأطفال ، ولكن على الرغم مما قيل إلا أن ماينتاب الطفل من عدوانية فهو وليد لأسلوب التنشئة وعوامل ثقافية وهذا مانجده فى الأنماط المجتمعية المسالم منها والعدواني كما سنرى .

أما عن مرحلة المراهقة حيث أوضحت دراسة تجريبية أجراها *Symonds* على الأعمار من ١٢ : ١٨ سنة كشفت عن موضوعات عدوانية كالعنف والاثارة

الشديدة والهياج وتعتبر مثالية للشباب والمراهقين ويرجع هذا للطفرة الهرمونية التى تصاحب الذكور والإناث فى تلك المرحلة من ناحية ومن ناحية أخرى يحاول المراهق الصغير أن يبحث عن إثبات الذات وأن يكون مقبولا فى جماعته المرجعية فإذا لم يجد ذلك فآليات الدفاع تصبح شديدة مع صعوبة فى التوافق والقبول الإجتماعى مع مزيد من التوتر والنزاع والقلق ومشاعر من الدونية وفقد لتقدير الذات ويتبع ذلك إنسحاب وإنعزال ويحتضن العدوانية والضررية أو الإيذاء للآخرين مع ميول تجاه العدائية والتدمير .

أما عن العدوان لدى المرأة والرجل : توجد إختلافات فى الإتجاهات تجاه العدوان والتوكيدية لدى الرجال والنساء وأنه لسمة سيئة متعارضة مع الأنوثة لدى النساء ولكن لايوجد شك فى أن هناك نساء عدوانيات مثل الرجال تماما والفارق كما أوضحته باربويك أن العدوان الجسمى يرتبط بالذكور بينما العدوان السيكولوچى يصاحب النساء فالإثنان يظهران مشاعرهما العدائية فى طرق مختلفة وهناك آراء أخرى تشير إلى أن يميل الرجال للنزاع اللفظى يعقبه فى كثير من الأحيان نزاع جسمى بينما تميل النساء للنزاع اللفظى كما أن المرأة تحكمها أطوارا فسيولوجية لايخضع لها الرجل حيث دلت الإحصاءات على أن العدوان الذى يرتكب بالرجال خمسة أضعاف ماترتكبه النساء ولعل ذلك راجع إلى أن المرأة بمراحلها البيولوجية من حيض وحمل وارضاع للصغار وتربية تقلل من عالمها الخارجى وإحتكاكها بأطراف خارج حدودها العائلية ولكن هذا لاينفى أن المرأة كثيرا ماتكون هى الباعث الخفى على العدوان وإن لم تتوافر فى جعتها وسيلة من وسائل الإشتراك المعروف قانونا فهى المهيمنة على أفكار من يكون على صلة لها من الرجال يستبيحون فى سبيل إرضائها العدوان ولو لم تشر عليهم بارتكابه ، وأن الفارق العددى بين العدوان النسائى والعدوان لدى الرجال يقل مداه لو اعتبرنا الدعارة ضرب من العدوان لأنها نوع من النشاط تتميز به المرأة ويعتبره لامبروزو بديلا مثيلا للنشاط العدوانى ، كما يتضاعف العدوان لدى النساء كلما تخلت عن حياة الإنقطاع بالمنزل وخاضت غمار الحياة الإجتماعية وتقاسمت مع الرجال

الصلات الخارجية متخذة نفس مسالكه وأنشطته ، وفى بعض الأحيان يفوق عدوان النساء على عدوانية الرجل عددا وفظاعة فى حالة القلق السياسى ونظرا لطبيعة المرأة وضعفها الجسمانى فهذا يؤثر فى نوع العدوان الذى ترتكبه من إحتيال وسب وتحريض على الفسق وحتى فى إرتكابها للقتل فقليلا ماتستخدم وسيلة عنيفة بل وسائل غير واضحة كالسم أو دم الحيض ، وإن خضوعها للرجل المسيطر كثيرا مايجعلها ترتكب جرائم السرقة أو إخفاء الأشياء المسروقة بواسطة الرجل ، كما أن غريزتها الجنسية وغيرتها على الرجل تتسبب فى إرتكابها بعض الجرائم كالزنا والجرائم العاطفية الانتقامية ، ومن ناحية ثانية فان كثيرا من الأطوار الفسيولوجية التى تخضع لها المرأة تؤثر فى عدوانيتها وذلك لتأثيرها على نفسيتها وسلوكها (٢١) وذلك لأنها تسرى فى المرأة سموم تعرضها لأزمات إنفعالية وتقلبات مزاجية مصحوبة بميل إلى التأويل الخاطئ للحقائق فقد دلت بعض الإحصاءات أن ٦٣٪ من النساء اللاتى إرتكبن السرقات كن فى حالة حيض ويصدق هذا أيضا ببلوغهن سن اليأس وقمة الإضطرابات الهرمونية التى لاتنفصل عن التغيرات الموقفية ولذا يمكن القول رغم إختزال أسلحة إشارات الإسترضاء خارج أسلحة اشارات التهديد الا أن هناك نقطتين تظهران عدوانية الرجل وهما الخلاف على امرأة أى الغيرة على الإناث والخلافات على الأقاليم .

- المجتمع المتغير وتطور العنف والعدوان :

يختلف العلماء فى تقدير الميول العدوانية للثلاث ملايين سنة الماضية للإنسان الذى عاش فى مجتمعات الجمع والإلتقاط والصيد والقنص ولكن قويت الميول العدوانية بصورة واضحة بتقدم الزراعة ونشأة القرى والمستوطنات المستقرة وظهور علاقات الجوار والملكية الخاصة وذلك من ٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ سنة والتى نتجت عن تغير إجتماعى وتقدم تكنولوجى للأسلحة المتطورة ، كما إرتبطت أيضا بنشأة المدن والبيئة الحضرية حيث يشير سشربرج أن هذه المدن كانت تتميز بالعزل أو الفصل الإجتماعى فى شكل مربعات ومنفصلة عن بعضها البعض بجدران عالية تغلق بالليل وكل جماعة عرقية تعيش بمعزل عن الأخرى والجماعات

ذو المكانة العالية تعيش عادة في مركز المدينة بينما الجماعات الأقل تعيش على الحدود الخارجية مما خلق هذا الوضع نوع من التوتر والصراع ثم حدثت بعد ذلك الثورة الصناعية مما أدى إلى إنتقال عنيف فى بيئة الإنسان وإكتظت المدن بالغرباء للحصول على الموارد ذات القيمة الإقتصادية والأنشطة وشجع كل هذا على ظهور الغفلية واللاشخصية والخشونة فى العلاقات والمعاملات وأصبح العنف أكثر شيوعا وقلت المسئولية والمنفعة المتبادلة وبعض المجتمعات كانت أكثر نجاه من غيرها فى التعامل مع هذه المشاكل التى استحوذت على إنتباه كبير من المجتمع العلمى وقيمه ولهذا ظهر النزاع والمنافسة والعدوان عندما ندرت تلك الموارد وأن هذا لايرجع للإقتصاد فقط وإنما لعبت النواحى السيكولوجية كالادراك والثقة والتقدير والمكانة والإحترام وتأنيب كل جماعة للأخرى ومايلحق هذا من ضرر . فالعدائية تبدو بين الجماعات البشرية عندما تعى للنزاع أهمية بالاضافة إلى إختلاف المكانة والمعتقدات التى تعرض تقدير الذات للخطر وأن التهديد المدرك من خارج الجماعة يميل لتعزيز التماسك بداخلها ومعاقبة اللذين ينحرفون عن معاييرها وتبقى التميزات قائمة فى شكل نحن وهم وبين شعب فاضل وشعب سيئ، كما أن التنوع الكبير للمذاهب والأيدولوجيات السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعلمية قد دعمت هذه الأوضاع العدائية والعنف ورغم أن محتواها يختلف ويتساع من وقت لآخر ومن مكان لمكان بينما شكل العداوة أو الخصومة يكون متشابه بصورة ملحوظة وفكرة التمركز حول العرق والذات بإضفاء القيم الاجتماعية العليا لهم والسلبية للآخرين وتعدد الديانات والسلالات واللغات داخل المكان الواحد ، ولذلك فالنزاع داخل الجماعة المعاصرة يتأثر بتطورين حديثين :

الأول ـ سيادة عدم التجانس الثقافى للجماعات داخل الدول .

الثانى ـ تجديد التجربة على أشكال الديمقراطية للحكومات .

ومع النمو السكانى السريع زادت النزاعات السياسية والإقتصادية بين الجماعات السلالية الثقافية الدينية واللغوية بالاضافة الى الاحباطات التى تظهر العدوانية بصورة كبيرة والتى بواعثها اساسية ولها جذور عميقة فى الأصول البشرية ويمكن أن تهدد وتعاق .

وسوف أضرب بعض الأمثلة من مجتمعات تقليدية (بدائية) وغربية لإظهار دور كل من الثقافة والتنشئة والظروف البيئية فى وجود ظاهرة العنف والعدوان أو عدم وجودها ففى مجتمع البوشمن يلعب العدوان دور صغير فى حياة هذه الشعوب والتى تمثل علاقات الود والصداقة السمة الأساسية ولايوضحوا سلوك اقليمى عدوانى فهو مجتمع مفتوح ولديهم وفرة إقتصادية من الموارد بالاضافة إلى دور التنشئة الإجتماعية للأطفال من الصغر حيث يمروا باحباطات قليلة فى الطفولة ويشجعوا على الإتصال الجسدى للأطفال بأمهاتهم وهذا من شأنه يقلل من عدوانيتهم ولايشجع أو يكافئ العدوان بالموافقة أو بالاستحسان من أعضاء الجماعة بل لديه ميل صريح لمضايقة ومعاقبة الذين ينحرفون عن المعايير ويسخر هذا المجتمع من الأشخاص الذين سلوكهم يتغير بالمرض ، إلا أنه بعض الدراسات الاثولوجية أكدت من خلال الملاحظات على مجتمع البوشمن أنه شعب عدوانى من المعارك المسلحة التى كان يشنها على جيرانه من قبائل أخرى للاستيلاء على الماشية وأنه شعب محارب لكن اشارت إلى أنهم يستخدموا عدوانهم للتنشئة طبقا لمثاليتهم المسالمة ويتجنبوا النزاع اذا تعرضت العائلات للخطر تترك الرابطة بدلا من التشاجر وتفض المنازعات بالطرق السلمية نظرا لقوة الضبط الإجتماعى ، ويتماثل هذا أيضا على مجتمع الأرابيش الوديعين بشمال شرق غينيا الجديدة حيث أشارت مارجريت ميد إلى أن الوداعة والسلم والسلام والقدرة على إخضاع النفس والمساواة فى المعاملة للذكر والأنثى وعدم الجشع أو الطمع والأمن واستخدام العدوان للنجدة والمروءة وللدفاع عن النفس فقط أو لمن لن يستطع الدفاع عن نفسه ويحتاج للمساعدة فى مجتمع الارابيسن يتحدى الرأى المشهور بعدوانية البشر الوراثية وتتسائل ميد ما إذا كان هذه السمة ترجع للنقص الغذائى أم لعوامل وراثية أم لثقافية وأرجعتها بالفعل لأسلوب التنشئة وللبيئة الثقافية التى تسمح لهم للبقاء فى بيئة إجتماعية عدائية بغينيا الجديدة حيث يتجاور معهم وعلى بعد مائة ميل مجتمع موندجومر وتربطهم به صلات تجارية غير مباشرة يقضى فيه الرجال كل وقتهم فى تنظيم حملات الإغارة غرضها الرئيسى العودة بتذكار بشرى

لأنهم من آكلى لحوم البشر وأن صفة العدائية والإرتياب ليست قاصرة على العلاقات الخارجية بل وبين أفراد المجتمع الغير مستقر الإقامة أى عبارة عن تجمعات ترتبط معا بذكر يحميها ، وإن كل من الرجال والنساء يفضلوا العدوان الجسمى ويتشابه هذا الوضع لدى كل من الاسكيمو والهنتوت والبانتو (٢٢) . ومعظم مجتمعات الصيد وجامعى الطعام وسكان جزر الاندمان وبعض القبائل الاسترالية رغم الادعاء بأنها شعوب لاعدوانية ولا اقليمية وكذلك وصف *Schjelderups* لهنود الكواكتيل عن ولائم أو عادة البوتلاتش حيث يتنافس الرؤساء وبعنف ليتفوقوا على ضيوفهم بتدمير الأشياء ذات القيمة وتتسم اغانيهم ونداءاتهم بالعدوانية ويقتلوا العبيد ولكن رغم درجة العدوانية عن تلك الأمثلة إلا أن الصورة من اللاعدوانية شبه كاملة مثل تاساتى جامعى الطعام بالفلبين إلى المجتمعات الأعلى عنفا فى العالم المتحضر كالولايات المتحدة فهذه التغيرية تقترح أن سلوك العنف يكون مكتسب بصورة كبيرة وكلما زادت تكنولوجية المجتمع أصبح أكثر عدوانية واقليمية ، فقد وجد *Steinmetz* أن كل من العدوان اللفظى والجسدى يستخدم فى النزاع داخل العائلات سواء بين الزوجين أو بين الوالدين وأولادهم ، وعلى الرغم من تلك الحقيقية إلا أن *Fry* وجد تناقض بين مجتمعين متقدمين غربيين وهما *La Paz* و *San Andress* والتى ترجع للمعتقدات المختلفة دوليا وللقيم بالنظر للتعبير عن العدوان ، ففى مجتمع *La Paz* هناك إتجاهات وصور ذاتية مجتمعية تضبط أو تتحكم فى العدوان من خلال عمليات التنشئة والتى تسهم فى بث الأمن والسلام داخل المجتمع بينما على العكس تماما مايحدث لمجتمع سان اندرس الذى يسمح بالتعبير العلنى للسلوك العدوانى ولديه سلسلة من المعتقدات والإتجاهات التى تنكر الأفكار أو المثل عن الإحترام والتعاون واللاعنف والافتقار للقوة الداخلية للحد من التعبير عن العنف كما أنسب *Den Tan* اللاعنف لظروف ثقافية وإقتصادية وتاريخية وبيئية ايكولوجية وبناء إجتماعى وعوامل سياسية ويقرر *Betzig* أن العنف يمثل قوة باعثة رئيسية خلف التطور للثقافة ، كما يعتقد *Ashley Montagu* أن الأمن أو السلم حالة يمكن أن توجد فقط فى غياب

العدوان ، ويلعب إدراك ديناميات النفسية الرمزية لثقافة مجتمع *Inuit* بألسكادور في إستمرار الخوف من العدوان فهم صياديون ويتماثلوا رمزيا مع الحيوانات التى كانوايصطادونها هذه التطابقية حددها *Shaman* بقوله " خطر الحياة الأكبر يرتبط في الحقيقية أن طعام الإنسان يتكون من الارواح التى سوف تثأر لنفسها إذا قتلت وذلك مثل البشر سوف يفعل الكثير اذا لم يعامل بصورة أفضل ، وإن العلاقات بين الأشخاص في هذا المجتمع ليست دائما هادئة ولكن توجد أسباب للشقاق وعدم الإتفاق أو التوافق وهناك مصادر للإضطراب كالحسد والغيرة والمشاعر المصاحبة للحرمان والعزلة .

ويمكن أن يرجع قدر كبير من سلوك العنف الذى نلاحظه في المجتمعات المعاصرة الي تجميع مستويات الإثارة المرتفعة والناتجة عن ضغوط الحياة اليومية والانتشار الواسع للمنبهات التى تثير العدوان وعلى هذا يتضح من الأمثلة السابقة أن للثقافة والأسرة دورا في تحديد مستويات العدوان والتى تتضح بصورة كبيرة لدى المجتمع الأمريكى والذى يستخدم فيه الضرب على كل المستويات كالعائلى بين الأزواج بعضها البعض والآباء لأبنائهم كما يلجأ البوليس في عمله للعنف ، بينما على النقيض من ذلك يعيش ١٣٠٠٠ في وسط الملايو دون بوليس والجريمة غير معروفة لديهم .(٢٣)

- الأسس البيئية للعنف والعدوان :

يشير علماء الاثولوجى إلى أن دراسة الكائنات الحية في العلاقة لبيئاتهم ولبعضهم البعض تتأثر كثير بالتغيرات التى تطرأ على البيئة حيث يزيد التعب الجسمى والاثارة الإنفعالية من إحتمال صدور السلوك العدوانى إذا توافرت العلامات التى تثيره كالجو الحار والظروف البيئية السيئة كالتكدس السكانى الزائد وعلاقة بالعدوان كما أن الحجم الصغير للحجرة التى يعيش فيها الشخص يولد شعورا بعدم الراحة وتظهر عليه حالات مزاجية مكدرة وعدوانية كما تلعب التضاريس دورا في هذا الصدد لسيادة الاعتقاد لدى الأرابيش ساكنى الجبل أنهم أكثر وداعة وأمنا وتعاونا من ساكنى السهول الداخلية المتاخمة للنهر ، ويصدق

هذا على الرئيسات اللاإنسانية كالبابون فالحشود التى تعيش على اليابسة لديهم قدر كبير من التوتر الاجتماعى بين الذكور والإناث أثناء الدورة النذوية أما الحشود التى تسكن الأشجار العالية أقل توترا أو عدوانا ومنافسة على الاناث . (٢٤)

وتلعب التغيرات فى البيئة الأيكولوجية من جفاف وندرة طعام وظروف مناخية دورا بالغ الأهمية فى زيادة حجم الجماعة وزيادة قدرتها الدفاعية والعدوانية أو تقليل حجمها وقدراتها الدفاعية والعدوانية أيضا .

كما أشار *Rowell* أن جماعة البابون التى تعيش فى الغابة تسلك بصورة أقل عدوانية عن مثيلتها فى الأسر .

ـ إيجابيات العدوان وفوائده :

يمثل السلوك العدوانى جزء هام من التكيف لدى الرئيسات العليا بما فيها الإنسان وذلك لملايين من السنين وإن أنماط التهديد والهجوم تكون مفيدة لأسباب عديدة :

١ ـ البقاء للأصلح : يقترح بعض العلماء أن أنواع معينة من العدوان تكون مفيدة ونافعة وربما ضرورية حيث ناقش *Konkadlorenz* أن العدوان يكون جزء ضرورى لتنظيم حفظ حياة الغرائز والقدرات الطبيعية فهو يراه كوجود ذو أهمية تطورية تسمح للحيوانات الصغيرة أن يكون لديها أباء وأمهات أقوياء وأكثر حكمة وجماعة مسيطرة بقائد قوى يحميها وأكثر عدوانية .

٢ ـ لإنجاح عملية التناسل : لأن الذكر المسيطر هو الذى يهيمن على التناسل ولذا تزيد فرصة الجماعة فى البقاء لأن الذكر القوى ينقل من قوته ونشاطه للأجيال التالية .

٣ ـ لتقليل المعارك الحادة داخل الجماعة حيث وجد أن السلوك العدوانى يلعب دور التماسك داخل مجتمعات الرئيسات اللاإنسانية وأيضا الإنسانية فى فض المنازعات ولحفظ قدر الشقاق والخلاف والعدوان إلى الحد الأدنى وكذلك تقليل التمزق الاجتماعى والوصول بالحد الأدنى من الضرر للآخرين .

٤ ـ لتحديد أنماط السيادة والسيطرة : فالذكر الأقوى والأكثر عدوانية فى الجماعة سوف ينتحل وضع القائد المسيطر خلال العروض الأولى للعدوانية والإمداد بالقيادة للجماعة خاصة فى الظروف الخطرة .

٥ ـ الإمداد ببيئة إجتماعية قابلة التنبأ بها لبناء علاقات المكانة .

٦ ـ الإمداد بالموارد القيمة من طعام ، وماء والإناث فى حالة التناسل وأيضا فى حالة ندرة تلك الموارد .

٧ ـ عندما يتقابل حيوان غير معروف للآخر .

٨ ـ فى الدفاع إيذاء الحيوانات المفترسة .

٩ ـ فى إعادة توجيه العدوان هبوطا مع تدرج السلطة أو السيادة .

١٠ ـ فى إكتشاف المناطق الخطيرة والغريبة والدفاع عن الأقليم .

١١ ـ عندما يؤلم حيوان أو يضار وفى حماية الأطفال .

١٢ ـ عندما يتزاحم الغرباء أو الأجانب على الموارد القيمة الموجودة .

١٣ ـ إعادة توزيع إقامة الحيوانات وذلك بعلاقتهم بالموارد المتاحة .

١٤ ـ زيادة وسائل الدفاع ، وذلك لأن العدوانية صفة طبيعية فى الكائنات الحية ولذا وهب الله لها أعضاء للدفاع إزاء العدوان فأعطى للإنسان التفكير واليد التى تصنع الالات والوسائل للدفاع إيذاء الحيوانات التى تمتلك القرون والمخالب والجلود السميكة مواجها كما ذكر *Galen* بالرماح والسيوف والتروس .

١٥ ـ يوجد إرتباط إيجابى بين السلوك العدوانى وقوة الشهوة الجنسية لدى الذكور فى حين يضعفها الخوف بينما يقلل العدوان الإستعداد الجنسى لدى النساء ويقوى بالخوف .

١٦ ـ قتل الأطفال لدى سعادين اللانجور ، وذلك عندما تهاجم الذكور جماعات الاناث وتهزم وبعنف ذكر التناسل السابق وتتولى أمر الجماعة وتقتل الأطفال حتى يتجنبوا إنتظار عودة الاناث لدورتهن النزوية بعد مضى ثلاث سنوات وتحاول الاناث الاخريات ذو الصلة القرابية الوثيقة بالأم كأخواتها مقاومة قتل الأطفال وذلك بتفسير من السلوك الغيرى الذى أمدتنا به النظرية السسيوبيولوجية

حيث تشارك الأطفال الجينات لصلتهن القرابية بهم لذا فيمكن أن يشاركن فى نجاح التناسل الخاص بهن وذلك بمساعدة نسلهن من الأقارب وذلك لأن الأفراد تشارك فى المتوسط بنصف الجينات مع الوالدين والنصف الآخر مع الأقارب فعندما تدافع اللانجور عن نسل أختها فهى تساعد بالمساهمة فى ابقاء الجينات للجيل التالى لانها تشارك بمقدار الربع والثمن لأبناء العمومة والخؤولة . (٢٥)

وعلى هذا فالباعث العدوانى لاينمى فوائده التى لاتنكر بدون نمو مصاحب لمعايير أخرى من الفعل ورد الفعل التى تكبح هذه الدفعة فى لحظة لائقة أو متفقة بيولوجيا .

ـ الموقف تجاه العدوان :

بعد هذا العرض الموجز للتعريف بالعدوان وأثارة المدمرة من ناحية وفوائده أو إيجابياته من ناحية أخرى والتى تجعل من العدوان ضرورة سواء للإنسان أو سائر المخلوقات الأخرى فسينطلق استفسارى من مقولة هامة " هلى نبقى على العدوان أم نضبطه ونتحكم فيه أم نقلل من شأنه ؟

فالبعض يطالب الحذر من محاولة التحكم أو ضبط العدوان فى الإنسان ويقترحوا أن كما فى الحيوانات الدنيا ما للعدوان من ضرورة للبقاء فهذه السببية وبنفس الآلية التى تحث وتدفع رجل لقتل جاره تسوقه أيضا لقهر وإخضاع فالقضاء الخارجى أو التصدى لمشكلة علمية والسيطرة على الكون عموما ، ولكن هذا ليس الحقيقة فالعدوان ليس بالضرورة لبقاء البشر كما أن النشاط المبدع والإنجازات الهائلة مع وجود العداء والعدوان تصبح مشوشة ، ولذلك فالحل يكمن فى إمكانية إنجاز المشكلة والسيطرة عليها بدون ألم أو أذى لشخص آخر أو حتى بدون محاولة للقهر أو النزاع مع تقليل العنف بدون تقليل فضول وحب إستطلاع الإنسان أو رغبته لحل المشكلات ـ وهذا الحل بدون شك لايرضى العقلية الغربية وربما الأمريكية التى دربت على أن النجاح يساوى النصر والفوز على طرف آخر ولذا يشير اشلى مونتاجيو أن الإفراط فى التبسيط وإساءة الفهم لنظرية دارون قد

أمد الإنسان العادى بفكرة خاطئة أن النزاع يكون ضرورى كقانون للحياة ويقرر إن هذا الوضع ربما كان ملائما أثناء الثورة الصناعية وللمتمتعين بالسلطة العليا والمستغلين للعمال ليبرروا إستغلالهم بالتحدث عن كفاح كينونة الحياة " للبقاء للأصلح " .

وإن هذا التفكير نو قيمة فى إبقاء السلوك اللاعدوانى واللاتنافسى للإنسان والحيوانات وإن تقليل العنف والعدوان يأخذ صور عديدة منها السلوك التعاونى والمساعدة المتبادلة والسلوك الغيرى (التضحية بالذات من أجل قريب يحمل جزء من جيناته) ، وإذا كانت الحقيقة المؤكدة فى التاريخ المبكر لتطور الإنسان أن قدر كبير من السلوك العدوانى كان تكيفيا ولكن نرى العالم الآن ملئ بالنزاع والضغينة أو البغض الدولى وبيعرقى والارتياب وقتل لامعنى له وإغتيال أو إعتقال سياسى فما قيمة البقاء لهذا السلوك ، لقد قدم البيولوجى *Loreneisley* تبرير لأسلافنا القداما ولكن نبه أو حذر من تقليدهم ومحاكاتهم عندما كتب أن الناس تحتاج الآن للوداعة والرقة والقدرة على الإحتمال والتسامح من هؤلاء الذين حصدوا لنا سفك الدماء والتبلد فى المشاعر . (٢٦)

إلا أنه هناك رأى آخر ينظر للعدوانية كوظيفة مفيدة ونافعة وربما ضرورية حيث يعتقد *Freud* أن الإنسان إذا لم يسمح له بالتعبير عن نفسه عدوانيا فإن الطاقة العدوانية سوف تكبح إنفعالاته والتى حتما تنفجر إما فى شكل عنف شديد أو فى مرض عقلى ولذا نادى بما يسمى بالتنفيس عن النفس *Catharsis* وإن هناك طرق عديدة تفرغ فيها الطاقة العدوانية . منها " المباريات الرياضية كالجرى والملاكمة والمصارعة والتسلق " باستهلاكها فى شكل النشاط الجسمى أى الجذب فى سلوك عدوانى مقبول إجتماعيا حيث يؤكد السيكياترى *William Menninger* أن العاب المنافسة تمد بمنفذ مرضى ومشبع للباعث العدوانى الغريزى " وأما إذا كانت تقلل العدوانية فقد وجد *Berkowitz* أنه لاتوجد الأدلة التى تدعم أن النشاط الجسمى الشديد يقلل العدوانية .

ـ العدوان الخيالي :

أما الطريقة الثانية " الجذب في شكل غير هدام " وذلك عن طريق كتابة القصص الخيالية عن العدوان أو بحلم ضرب شخص ما مما ينتج عنه إقلال وقتى للعدوانية وبعض الإرتياح من الغضب أو الإحباط .

والطريقة الثالثة وذلك بالجذب فى دفع العدوان المباشر الى الذات بقول أشياء فاحشة عن نفسه ودفعها فى المشاكل ولكن التعبير عن العدوان لايمنع الميل للعدوان وإنما يميل لزيادته وكذلك العنف لايقلل الميل تجاه العنف ولكن يولد عنف أكثر ، ربما الذى يكون أكثر تكيفا للناس التعبير ببساطة عن غضبهم يقلل التوتر ويمد بفرصة لتوكيد الذات وفى نفس الوقت لايوجد ضرر ولا أذى لأحد ولازيادة فى العدوان وهناك وظيفة أخرى للعدوان العنيف يستخدم فى المجتمع الأمريكى لقمع الأقلية لجذب إنتباه الغالبية الصامتة وكالموقف من مثيرى الشغب واراقة الدماء فى حالة سجين *Atattica* بالولايات المتحدة إلى هذا إلى زيادة الإصلاحات فى السجون وعادة هذا فالشكل المعقول والمعتدل من العدوان قد يكون مفيدا أو نافعا حيث يتسخدم فى إصلاح أوضاع معينة وعلاج لأمراض اجتماعية بدون اثار ضارة فعلى سبيل المثال الاضراب عن العمل والمقاطعة والاعتصام احتجاجا اشكال تستخدم بفاعلية فى هذا العقد ليقظة الرأى العام للمظالم الحقيقية لازالت البحوث تجرى لإيجاد طرق لتقليل العنف كالتى تجرى لتقليل الظلم الذى ينتج الاحباطات التى تنفجر فى عدوان عنيف ، وإن التقليل لم يحدث كا يذكر رئيس الجمعية السيكولوجية الأمريكية بمجرد عقار ضد الوحشية والعنف يعطى للشخص بحيث يقلل الوحشية بدون تهدئة كاملة للأجهزة الباعثة أو المحرضة لمستخدمى الكيماويات ولهذا بحث السيكولوجيين الاجتماعيين عن اساليب بديلة متمثلة فى العقوبة لتقليل العدوان ومن أشكالها الضرب ، الوضع فى السجن ، التوبيخ بقسوة، الصراخ والصياح فيه ، الحرمان من الامتيازات واشعاره بالذنب والاثم ، ومع الأطفال لكى تكون العقوبة مفيدة أن تطبق باحكام وفى محتوى العلاقة الدافئة، وكذا بالعقوبة للنماذج العدوانية وبالنهاية السيئة لها على مسمع ومرأى

الأطفال والمكافأة للسلوك اللاعدواني وبناء التقمص العاطفي تجاه الآخرين ويشير *Russells* أن بتحديد النسل وتقليل التكدس السكاني في المدن والأحياء فمن الممكن أن نقلل من العنف والعدوان ، ولكن يمكن القول أن هناك درجة من التفاؤل فإذا فهمنا الظروف التي تؤدى للسلوك العدواني وبتغيرها يمكن أن نقلل التعبير عن مثل هذا السلوك واليوم نعرف الكثير عن هذه الظروف الاجتماعية ففي السنوات الحديثة جذب الإهتمام لدراسة العدوان البشرى كثير من العلماء لمعرفة كيف ميكانيزمات المثير تعمل في المجتمع والهدف منها ليس بتجنب الانفجارات ولكن فرصة أفضل لتجنب النزاع من مصادره .

ولذا فخلاصة القول ليست المخاطر الناجمة عن عدوانيتنا الفطرية ولا الانفجار السكاني وكثافة المناطق الحضرية والكارثة النووية ومغامرات الشباب تقدم التهديد لمستقبلنا الحضاري، مثلما يفعل ميل الإنسان ونزعته لطريق العنف ويصدق هذا أيضا على الرئيسات اللابشرية فالمستويات العالية من السلوك العدواني قد تكون ضارة للصحة والتناسل بينما التفاعلات الآمنة والمسالمة قد تؤدى للثبات النسبي والتماسك الإجتماعي .

كما يجب أن نشير إلى نقطة هامة وهى رغم التشابه الكبير بين البشر والرئيسات العليا فى كثير من الدوافع والحاجات الأولية والأساسية لكن بمقارنتنا بالرئيسات الأخرى لدينا قدرة فردية للتقييد من عدوانيتنا وقدرتنا الجنسية لكى ننجز أمثل الأفعال التعاونية .

ومع ذلك فمن الممكن مواجهة العدوان بالعديد من الأساليب كالتوعية والعمل والإجتهاد فى حل مشكلة محو الأمية وكذلك التوعية من خلال البرامج المقدمة عن طريق وسائل الإعلام مع التوجيه والإرشاد المستثمر من خلال الأسرة والمعلمين والندوات الدينية والثقافية مع العمل على إستغلال وإستثمار أوقات الفراغ فيما هو مفيد ومثمر .

- المراجع :

1 - Gregory Rochlin, Man's Aggression, Dell Publisheing Co., Inc., 1973, U.S.A., PP. 34 , 35 .

٢ ـ أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٢ .

3 - Michael R.A. Chance, Clifford J. Jolly, Social Groups of Monkeys, Apes and Men, London, Great Britain, 1970 , PP . 75 .

4 - Gabriel W. Lasker, Robert N. Tyzzet, Physical Anthropology, Holt Rinehart and Winston Inc., U.S.A., 1982, PP. 199 , 200 .

5 - James H. Hunt, Selected Readings in Sociology, McGraw - Hill Inc., U.S.A., 1980 .

6 - Alison Jolly, The Evolution of Primates Behavior, the Macmillan Series in Physical Anthrpology Company, U.S.A., 1972 , P. 171 .

7 - Stan Gooch, The Nearnderthal Question Ltd., London, Printed in Great Britain , 1977 , PP. 41 , 42 .

8 - Jane Van Lawick, Goodall, The Bushmen John Napier, U.S.A., 1975 , PP . 185 - 186 .

9 - Robert Ardry, The Social Contract , Dell Publishing Co., Inc., 1970 , PP. 39 , 255 .

10 - David Pillean, The Ascent of Man, Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1972 .

11 - John Napiet, The Roots of Mankind, London, George Allen, Unwin Ltd., 1971, P. 159 .

12 - Ronald G. Slover, Marriage, Family and Intimate Relations, Holt, Rinehart and Winston Inc., U.S.A., PP. 285, 287 , 288 .

13 - Bateson, R.A. Hinde, Growing Points in Ethology , Cambridge University Press, London, 1970 , PP. 202 - 220 .

14 - Marion Perlmutter, Adult Development and Ajing, John Wiley, Sons, Inc., 1985 , U.S.A., PP. 304 , 307.

15 - Stan Gooch, Op.Cit., P. 47 .

16 - Harry Nelson, Physical Anthropology , West Publishing Company, U.S.A., 1991 , P. 281 .

18 - J. Z. Young, An Introduction to the Study of Man, Oxford University Press, Great Britain, 1974 , P. 625 .

19 - Elliot Aronson, The Social Animal, Routledge Kegan Paul, Ltd., London, Great Britain, 1973 , P. 150 .

20 - David Krueger, Success and the Fear of Success in Women , the Free Press , A Division Macmillan , in , New York , U.S.A., 1984 , PP . 5 , 18 , 19 .

21 - Hilary O. Bod., Primate Behavior and Social Ecology, Chapman and Hall Ltd., Printed in Great Britain, 1984 , P. 89 .

22 - Kaymartin, Barbara Voorhies, Female of the Species, Columbia University Press, U.S.A., 1975, PP. 43, 44 .

23 - Leslie Sponsel, Thomas Gregor, the Anthropology Peace and Nonvidence Lynne Rienner Publishers Inc., U.S.A., 1994 . PP. 147 . 160.

24 - David Pilbean, the Ascent of Man, Macmillan Publishing Co., Inc., U.S.A., 1972 , PP. 24 , 78 .

25 - J.K., Brierley, Biology and the Social Crisis , A Social Biology for Enery Man , Published by Heineman, London, 1967 , PP. 241 , 242 .

26 - Elliot Aronson, Op.Cit., P. 155

الفصل الثامن

الأنثروبولوجيا الطبيـــة*

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ مرفت العشماوى عثمان ، المدرس بقسم الأنثروبولوجيا ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الفصل الثامن

الانثروبولوجيا الطبيـــــة *

ـ النشأة والفروع :

يرتبط كل من مفهومى الصحة والمرض بالنواحى الثقافية والإجتماعية كارتباطهما بالنواحى البيولوجية ، والإهتمام بالنواحى الثقافية والإجتماعية وتاثيرها على الأمراض قد إحتل مكانة كبيرة خلال القرن التاسع عشر حيث إرتبط بظهور مشكلات الصحة وإرتباطها بالثورة الصناعية بل لقد ذهب الباحث الألمانى *Virchow* إلى أن علم الطب هو فى الواقع علم إجتماعى سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية ، ومع نهاية القرن التاسع أصبح الطب الحديث يرجع سبب حدوث الأمراض إلى الميكروبات وتأثير الميكروبات على خلايا الجسم وإختفى الإهتمام بالنواحى الثقافية والإجتماعية الجسمية للأمراض ، ولكن ظهرت فى السنوات الأخيرة العديد من الأبحاث التى ساهم فيها كل من العلماء الإجتماعيين والأطباء عن تاثير العناصر الثقافية والإجتماعية على الأمراض .(١)

وأصبح مجال الأنثروبولوچيا الطبية بحال جذب لكل باحثى الأنثروبولوچيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويذهب ويفر *Weaver* إلى القول إن الأنثروبولوچيا الطبية هى فرع من فروع الأنثروبولوچيا التطبيقية تتعامل مع كل من عناصر الصحة والمرض فى المجتمع .(٢)

أما *Hasan* و *Prasad* فلقد ذكرا أن الأنثروبولوچيا الطبية هى أحد فروع

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ مرڤت العشماوى عثمان ، المدرس بقسم الأنثروبولوچيا ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

(1) Richard W. Lieban : " The Field of Medical Anthropology in David Landy (ed.), 1977 Culture, Disease and Healing : Studies in Medical Anthropology, Macmillan Publishing , Inc., U.S.A., P.14.

(2) George Foster, 1978, Medical Anthropology, John Wiley and Sons, Inc., P.8 .

علم الإنسان المهتمة بالنواحي البيولوجية والثقافية والإجتماعية له بغرض فهم مشكلات التاريخ الطبي والقواعد الطبية والطب الإجتماعي والصحة العامة .

أما تعريف *Hochstraster* و *Tapp* للأنثروبولوجيا الطبية فهي فرع من فروع الأنثروبولچيا تهتم بالجوانب الثقافية والإجتماعية للإنسان وإرتباطها بالصحة والمرض والعلاج .

أما *Lieban* فلقد ذهب إلى أن الأنثروبولوچيا الطبية هي هذا الفرع الذي يهتم بدراسة الظاهرة الطبية وتأثرها بالملامح الثقافية والإجتماعية ومدى تأثرها بالعناصر الطبية .

أما *Fabrega* فيذهب إلى أن الأنثروبولوچيا الطبية تهتم بالتعرف على العوامل والعمليات التي تؤثر على إستجابة الأفراد أو الجماعة لكل من مفهومي الصحة والمرض وأثر هذه الإستجابات على أنماط السلوك .(١)

ولكل باحث من باحثي الأنثروبولوچي مجال إهتمام داخل نطاق الأنثروبولوچيا الطبية فيهتم باحثو الأنثروبولوچيا الطبية بالتطور البشري والدور الذي تلعبه الأمراض خلال هذه العملية ، كما ينصب إهتمامهم أيضا على الباليوثولوچي *Palopathology* وهو علم دراسة أمراض الإنسان القديم .

أما الباحثون في مجال الأنثروبولوچيا الثقافية والإجتماعية فيتركز إهتمامهم على دراسة أنساق الطب الشعبي ، والمعالجين ، والإعداد الوظيفي للطبيب ، والسلوك المرضي ، والعلاقة بين الطبيب والمريض ، وكيفية إدخال الأساليب العلاجية الحديثة إلى المجتمعات التقليدية ، والأمراض البيئية والمتوطنة ، والأيكولوجيا الثقافية والبيئية وعلاقتها بالصحة والمرض ، والعادات الغذائية . (٢)

وسوف ينصب الإهتمام في هذا المقال على الطب الشعبي .

---

(1) George Forster, Op.Cit., P.9 .
(2) Ibid., PP. 1 , 2 .

- نشأة الطب الشعبي والإهتمام به :

يرجع تاريخ الطب الشعبى إلى قديم الزمن حيث كانت الطبيعة هى المستودع الأول لكل من الإنسان والحيوان فى إستغلال مكوناتها العشبية فى الوقاية من الأمراض وحفظ الصحة ، وفروع هذا المستودع أو الصيدلية منتشرة فى كل مكان فى الأرض لأن كل من الإنسان والحيوان دائم الحركة والإنتقال من مكان إلى آخر وعلى ذلك فإذا مرض الفرد فى أى مكان على الأرض يستطيع أن يجد فى الطبيعة الدواء المناسب له .(١)

فالطبيعة مزودة بكميات كبيرة من الأدوية والعلاجات التى تتطلب من الإنسان أن يقوم باستخدامها ولاشك أنه عن طريق الملاحظة والتجربة والمحاولة والخطأ تكونت الطبيعة العملية الخاصة بالطب الشعبى .(٢)

ولاشك أن مراقبة السلوك الحيوانى هو جزء من نظام الطبيعة التى يشارك فيها الإنسان والحيوان ، فالعديد من الممارسات العلاجية الشعبية نستطيع أن نتعرف عليها من خلال ملاحظاتنا للسلوك الحيوانى فالحيوان حينما يمرض يحاول الإسترخاء ثم البحث بعد ذلك فى الطبيعة عن الدواء المناسب ، فالحيوان المصاب بالحمى يحاول أن يهرع إلى مكان به هواء طلق بالقرب من موارد المياه حيث يمتنع كلية عن تناول الطعام مقتصرا على شرب المياه ، بعكس الحال لدى الحيوان المصاب بالتهاب فى المفاصل حيث نجد أنه يحاول البحث عن بقعة مشمسة يجلس فيها حتى يشعر بالتحسن .(٣)

ولاشك أن الإنسان الذى حاول أن يستخدم النباتات فى العلاج حاول أيضا أن يتعلم من الحيوان طريقة علاج نفسه من خلال مراقبته إياه .

---

(1) D.C.Jaris, 1961 , Folk Medicine, Fawcett World Library, N.Y., P.9 .

(2) Stanley King, 1962 , Perceptions of Illness and Medical Practic, Russel Sage Foundation, N.Y., P. 109 .

(3) Rodney M Coe, 1978 , Sociology of Medicine, McGraw Hill Book Company, U.S.A., PP. 154 - 155 .

كما أن حياة الصيد والقنص التى عاشها قد وفرت لديه بعض المعلومات التشريحية وطريقة التجبير والتضميد للجراح كما هو الحال لدى جماعات الإسكيمو التى تتسم بخبرتها الطويلة فى تضميد جراح الحيوان ومايترتب على ذلك من إجادتهم فن التشريح .(١)

وبإنتهاء حياة التنقل والترحال والصيد وإرتباط الإنسان بالأرض وعمله بالزراعة إستطاع أن يتعرف على الخصائص العملية لهذه الممارسات الشعبية وعن طريق المحاولة والخطأ والتكرار والتجربة إستطاعت الممارسات ذات الفاعلية والكفاءة أن تستمر ومن هنا نشأت الطبيعة العلمية للطب الشعبى وإذا كان الطب الشعبى يتضمن بعض الخرافات فلاشك أن سبب إستمرارها راجع إلى أنها جزء من التراث من ناحية ومن ناحية ثانية نظرا لما توفره لممارسيها من طمأنينة وراحة نفسية .

- مفهوم الطب الشعبي :

يرى فوستر أن الطب الشعبى بمفهومه المعاصر هو مجموعة متنوعة من الخبرات والمعلومات الناجمة عن الملاحظة الفضولية ومناهج البحث ، وهذه المعلومات مفيدة للأنثروبولوچيين على كل من المستويين النظرى والعملى .

فمن الناحية النظرية تشكل المعتقدات والممارسات الطبية أحد العناصر الرئيسية المكونة لكل ثقافة ، ولقد إهتم الباحثون الأنثروبولوجيون بهذه الممارسات كجزء من دراستهم للمجتمعات التى قاموا بدراستها .

أما الجانب العملى للطب الشعبى فهو أن التعرف على معتقدات وممارسات الشعوب البدائية يفيد فى تخطيط وتقديم برامج الصحة لهم ، كما أن إستيعاب

---

(1) Peter Morly, Culture and Cognitive World of Traditional Medical Belief : Some Preliminary Considerations, in Morley and Roy Wallis (ed.), 1978, Culture and Curing : Anthropological Perspective on Traditional Medicine Dacdalus Press, Stoke Ferry Kingslynn, Britain, P. 4 .

وفهم منظمو برامج الصحة العامة للممارسات والمعتقدات الطبية المنتشرة بين السكان الوطنيين فى المجتمعات التقليدية يفيد فى إحداث نوع من التكامل بين هذه الممارسات البدائية والممارسات الغربية التى تعتبر سمة من سمات برامج الصحة العامة فى معظم الدول .(١)

ففوستر يرى أن الطب الشعبى يشمل ويضم الأساليب والوسائل التى يستخدمها أعضاء المجتمع لعلاج مرضاهم مهما بلغ هذا المجتمع من درجة التقدم والتخلف .

أما " سوليبان" فيرى أن كثيرا من المعتقدات والممارسات الخرافية تركزت حول أمراض الإنسان وكيفية علاجها والشفاء منها وشجع على ذلك عدم تقدم العلم الحديث الأمر الذى دعا الناس إلى اللجوء إلى المصادر الشعبية والإعتماد على الأشخاص التقليديين الذين يقومون بالعلاج ، ولقد لعبت الملاحظة الفضولية والرغبة فى إكتشاف الغامض بجانب تمتع بعض الأفراد بمميزات شخصية دورا كبيرا فى وجود الطب الشعبى ، وأدى تراكم هذه الإسهامات إلى وجود وسائل العلاج التى تبناها الناس بهدف علاج الأمراض الجسمية وتجنبها والوقاية منها ، ويرى سوليبان ألا ننظر إلى طرق العلاج على أنها أساليب بالية بل على أن كل منها قد إرتكز على أساس معين بالنسبة لجماعة من الناس وبالرغم من التقدم الكبير الذى حدث فى مجال الطب فإن الطرق البدائية تعيش جنبا إلى جنب الوسائل التكنولوجية الحديثة ، وتمارس هذه الوسائل الجماعات التى لاتزال تحيا حياة بدائية وبعض الجيوب الحضارية التى تضر على التمسك ببعض الوسائل التقليدية بالإضافة إلى كثير من الحضريين الذين مازالوا يعتقدون فى الطبيب الشعبى.(٢)

---

(1) George Foster, Op.Cit., P.51 .

(٢) نبيل صبحي حنا " الطب الشعبي " : دراسة لكتاب طب الريكة في مجموعة من أساتذة علم الإجتماع ، ١٩٧٥ ، دراسات في علم الإجتماع والأنثروبولوجيا ، دار المعارف بمصر ، ص ص ٢٨٠، ٢٨١ .

فالطب الشعبى هو مجموعة المعارف والمعتقدات والممارسات التى يمارسها أعضاء المجتمع والتى تتوارث من جيل إلى آخر ، وهذه المعارف تنحدر من إطار الطب الحديث وإن كان التحليل العلمي قد أثبت أن بعضها يتسم ببعض الكفاءة العملية ، ويستطيع أى عضو من أعضاء المجتمع أن يستوعب هذه المعارف والمعتقدات وبالتالى يستطيع أن يقوم بتحديد الأسلوب العلاجى الذى يحتاجه ، أى أن الطب الشعبى فى هذه الحالة هو طب العامة من أعضاء المجتمع أو قد يلجأ الشخص إلى ذوى الخبرة والمتخصصين فى العلاج الشعبى ، وأساليب العلاج الشعبى هذه ليست أساليب بالية بل أن كل منها قد إرتكز على أساس معين بالنسبة لجماعة من الناس سواء كانت هذه الأساليب أساليب بدائية أو أساليب أثبت التحليل كفاءتها فيما بعد ، ومن الصعب التعميم فى مجال الطب الشعبى لأن كلا من مفهومى المرض والعلاج يختلفان باختلاف ظروف المجتمع الإجتماعية والثقافيـة .

ـ تفسير أسباب الأمراض لدي المعتقدين في الطب الشعبي :

تنتشر فى كل المجتمعات الإنسانية مع إختلاف درجات تقدمها مفهوم الطب الشعبى ذلك لأن الطب الحديث قد يفشل أحيانا فى تفسير الإصابة بمرض ما أو إيجاد العلاج المناسب له كذلك الحال بالنسبة للمجتمعات البسيطة أو الأقل تقدما ومن ثم يلجأ سكان كلا من المجتمعين إلى إرجاع سبب الإصابة بالأمراض إلى عوامل ميتافيزيقية ولاشك أن تفسير سكان المجتمع لسبب الإصابة بالمرض يرتبط بظروف المجتمع الثقافية والإجتماعية خاصة بالنسبة للمجتمعات البسيطة أو الأقل تقدما .

وعموما إستطاع القول أن الشعوب التى تنتشر بينها الأساليب الشعبية فى العلاج ترجع أسباب المرض إلى أى من العاملين التاليين :

أولا ـ العوامل فوق الطبيعة .

ثانيا ـ العوامل الطبيعية .

أولا ـ العوامل فوق الطبيعية :

هذه المجموعة ترجع سبب حدوث الأمراض إلى القوى الخارقة للطبيعة مثل الآلهة أو إلى كائنات غير إنسانية مثل أرواح الأسلاف أو الأشباح أو الأرواح الشريرة أو إلى كائنات إنسانية كما هو الحال فى حالات السحر والحسد والعين الشريرة .

وبصفة عامة توجد خمسة عوامل داخلية تعرف بالعوامل فوق الطبيعية يعتقد أنها المسئولة عن حدوث الأمراض وهذه العوامل هي:

١ ـ إختراق قواعد المحرمات *Breack of Taboo* .

٢ ـ الأرواح *Spirits* .

٣ ـ إختراق المجال المادى وحدوث المرض .

٤ ـ فقدان الشعور بالروح .

٥ ـ السحر والحسد .

١ ـ إنتهاج قواعد المحرمات :

فى كثير من المجتمعات يظهر تأثير الدين على السلوك حيث نجد الخروج على قواعد التابو أو المحرمات يجلب معه العقوبة والشر والألم للعصاه ، فإنتهاك قواعد المحرمات يستثير غضب أرواح الأسلاف ويستنزل على العصاة ألوانا من العقوبات كالعقم والمرض وموت الأولاد والأحياء وهذا الأمر ليس قاصرا على المجتمعات البدائية بل يوجد أيضا فى المجتمعات المتقدمة حيث تخبرنا الكتب المقدسة عن مرض الشخص اليهودى الناجم عن تناوله لحم الخنزير المحرم فى الديانة اليهودية.[1]

ويعتقد السكان فى القرى الفلبينية أن الأمراض من الممكن أن تحدث بسبب

(1) Charles C. Hugles, Ethnomedicine in David L. Sills, 1972, International Encyclopedia of the Social Sciences, The Macmillan Company, The Free Press, Vol.9, 10. P.89 .

إختراقهم لقواعد العرف وعدم إحترامهم للكبار أو إهمالهم رعاية أحد الوالدين أو عدم الأمانة أوالزنا بالمحارم أو عدم القيام بالطقوس والشعائر تجاه الأرواح ، والعلاج فى هذه الحالة يتطلب القيام بالشعائر التكفيرية . (١)

٢ - الأرواح :

وهى أحد الأسباب التى يتم تفسير المرض عن طريقها وقد خلقت تصورات الرجل المتأخر لها عادات وعرفا ومعتقدات طقوس خاصة لها المسحة السحرية ، ومن الحالات التى تنسب للأرواح الشريرة وينتج منها الضرر للإنسان حالات الضعف العقلى والجنون والصرع والإنجذاب والمزاج الحزين .(٢)

ويعتقد السكان فى قرية *Samaran* الفلبينية أن هناك بعض الأمراض التى تحدث بسبب غضب أرواح الأسلاف وتستطيع الأرواح فى هذه الحالة أن تنزل أذاها وعقابها عليهم طالما أن لديها القدرة على الحديث مع الالة والقيام بالشعائر تجاه الأرواح يهدف إلى إرضائها لأنها قامت بنوريتهم الأرض التى يقومون بزراعتها ورضاها عن الأشخاص يعنى الحصاد الوفير وزيادة الثروة الحيوانية ورعاية الأولاد والمحافظة على صحتهم وكل شئ يعتبرونه من حسن طالعهم.(٣)

ويعتقد سكان قبائل *Irigwe* فى نيجيريا أن الأشخاص الذين يقومون بخدمة الأماكن المقدسة قد يتعرضون للمرض أو الموت المبكر بسبب غضب أرواح الأسلاف نتيجة عدم قيام هؤلاء الأشخاص بالتزاماتهم أو واجباتهم الكاملة فيما يتعلق بالحراسة .(٤)

---

(1) Donn V. Hart, Disease Etiologies of Samaran Filiipino Peasants in Peter Morley and Roy Wallis (ed.), 1978, Culture and Curing : Anthropological Perspectives on TRaditional Beliefs and Practice, Dacdalus Press, Ferry Stoke King's Lynn Norfolk, Britain, P.61 .

(٢) أحمد الخشاب ، ١٩٧٠ ، دراسات أنثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، ص ١٧٥ .

(3) Donn, V. Hart, Op.Cit., P.61 .

(4) Richard Lieban, Op.Cit., P. 24 .

٣ ـ إختراق المجال المادي وحدوث المرض :

ويشبه هذا العامل إلى حد كبير العامل السابق (إختراق الأرواح للجسم) حيث أن الأرواح الشريرة تخترق فى هذه الحالة الأشياء المادية وتصبح جوهرا مكونا لها كالأخشاب والصخور والجلد وسبب إختراق الأرواح لهذا المجال المادى يرجع إلى الفعل الشرير الذى يقوم به الساحر لإنزال الأذى بشخص ما .[١]

ولقد ذكرت روث بندكت *Ruth Benedict* أن سكان الدوبو الأصليين يحاولون التخلص من أعدائهم بإحضار تعويذة وغمسها فى فضلات العدو أو وضعها داخل النباتات المقدسة الواقعة فى طريقة وتظل التعويذة مكانها إلى أن يتأكد الشخص من أن عدوه قد مر على هذه النباتات ، فيقوم بأخذها إلى منزله ويظل محتفظا بها إلى أن تذبل وحين يريد التخلص من عدوه ففى هذه الحالة يقوم بإحراق هذه النباتات .[٢]

٤ ـ فقدان الشعور بالروح :

الروح هذ صورة الكائن الحى ويرى البدائيون أن إنفصال الروح عن الجسم إما عن طريق حادثة أو تلقائيا بسبب المرض أو الوفاة للكائن الحى ، ولو نظرنا إلى قبائل مورنجن *Murngin* الواقعة شمال استراليا نجد أن أقارب المريض فى حالة فقدان الروح يتمنون حدوث الموت له حيث يسود الإعتقاد فى أن عدم دفن الروح سوف يؤدى إلى المرض والوفاة لبقية أعضاء الأسرة ، وعلاج هذه الحالة يستلزم إعادة الروح إلى الجسد وذلك عن طريق نوع من السحر الطقوسى وإستخدام الرقى والتعاويذ .[٣]

ومضمون هذه النظرية بحسب مفهوم تايلور أن الإنسان آمن فى بداية الأمر

---

(1) Rodney, M. Coe, Op.Cit., P.142 .
(2) Ruth Benedict, 1959, Patterns of Culture, Houghton Mifflin Company, Boston, P. 149 .
(3) Rodney, M. Coe, Op.Cit., P.140 .

بالأحلام وإنفصال الروح عن الجسد الذى يحدث فى الغيبوبة والمرض والروح التى تنفصل عن الجسد تؤثر على الأشخاص الأحياء فخافها الإنسان وتقرب إليها بالصلوات والأضاحى.[١]

٥ ـ السحر والحسد :

وهو الإعتقاد فى أن القوى فوق الطبيعة يمكن التحكم فيها لتحقيق رغبات لصالح بعض الأفراد ويتطلب السحر القيام ببعض الشعائر والممارسات التى يقوم بها السحرة أو الأشخاص من أعضاء المجتمع .

ومن أفضل تقسيمات السحر تقسيم ريموند فيرث ويشمل ثلاث جوانب :

(أ) السحر المنتج :

ويشمل سحر الصيد ، سحر إستنزال المطر ، سحر إرتياد البحار ، ويزاول هذا النوع أفراد المجتمع مباشرة أو سحرة متخصصون نيابة عنهم وهو سحر مقبول .

(ب) السحر الوقائى :

ويضم سحرا لصيانة الثروة وإسترجاع الديون وسلامة السفر وشفاء الأمراض وسحرا مضادا للسحر ، ويزاول كالنوع الأول وهو مقبول إجتماعيا ولكن قد يعترض على بعض أنواعه .

(جـ) السحر المدمر :

ويشمل سحر لإثارة العواصف وتدمير الثروة وللإصابة بالأمراض والوفاة ويطلق على هذا النوع من السحر السحر الأسود وهو غير مقبول إجتماعيا .

---

(١) شاكر مصطفي سليم ، ١٩٧٥ ، المدخل إلي الأنثروبولوجيا ، مطبعة العاني ، بغداد، ص ٦٨ .

ثانيا ـ العوامل الطبيعية :

وتضم هذه المجموعة كل العناصر الطبيعية التى يعتقد السكان أنها تؤدى إلى الإصابة بالأمراض كالتغير المفاجئ فى درجة الحراة ، الرياح القوية ، الطعام غير المهضوم ، التغير فى فصول السنة وتنوع الفصول ، وتغير أنواع الأطعمة ، الظاهرات الكونية كحالات الخسوف والكسوف ومايترتب على هذا من إختلال التوازن بين العناصر الموجودة فى الجسم بما فيها من الدم .[1]

والفكرة السائدة لدى معظم الشعوب أن الصحة تتحقق عن طريق التوازن بين عناصر الدفء والسخونة والحرارة وبين عناصر البرودة الموجودة داخل الجسم وأن المرض يحدث عن طريق إختلال توازن النسب بين أى عنصر من هذه العناصر .

وتوجد العديد من المواد التى يصنف بعضها على أنه عنصر سخونة وحرارة ويصنف الآخر على أنه عنصر برودة منها مثلا المواد الغذائية حيث يتم هذا التصنيف بغض النظر عن السعرات الحرارية المكونة لها فمجموعات اللحم واللبن والعسل والسكر وزيت كبد السمك تصنف على أنها عناصر ساخنة بينما يصنف الليمون والبرتقال والأرز ومنتجات الألبان على أنها عناصر باردة .[2]

ولقد إمتد هذا المفهوم ليشمل سوائل الجسم فتوازن الجسم لايتم فقط عن طريق التوازن بين كمية السوائل الموجودة داخل الجسم بل أن هذا التوازن يرتبط بالكميات التى يحصل عليها الجسم من هذه السوائل ، كذلك يشمل هذا المفهوم أيضا عنصر الدم الموجود فى الجسم .[3]

ونظرية التوازن أو الإختلاط أو العناصر هى فى الواقع نظرية هندية ظهرت فى الكتابات السنسكريتية الهندية وظهرت فى كتاب أبوقراط زجالينوس وإنتشرت هذه النظرية فى العالم الجديد عن طريق الأسبان الذين هاجروا إلى الولايات

(1) George Foster, Op.Cit., P. 22 .
(2) Stanley King, Op.Cit., P.110 .
(3) Rodney M. Coe, Op.Cit., PP. 110 - 111 .

المتحدة وبين الفلاحين فى أمريكا اللاتينية (١) ، وتنتشر أيضا فى مناطق الشرق الأوسط وجنوب آسيا والصين وسيرلانكا وجواتيمالا .(٢)

وفحوى هذه النظرية لدى الهنود هو أن الوجود يتكون من عدة عناصر وهى التراب والماء والهواء والأثير (السماوي) وكل عنصر من هذه العناصر يتضمن خمسة أشكال خفية وخمسة مادية .

والجسد الإنسانى يتكون من ثلاثة أخلاط *Dosha* أو عناصر رئيسية وهى البلغم ***Phlegm*** والصفراء ***Bile*** والهواء ***Wind*** (٣) .

ولقد إعتقد الهنود أن الوظائف الحيوية تعتمد فى نشاطها على عناصر الهواء والصفراء والبلغم وأن المرض ليس إلا إضطرابا فى نسب الأسس المركزية التى تتكون من هذه العناصر .(٤)

والعناصر تختلف من وقت لأخر فى كميتها طبقا لتغير المناخ ، فالبلغم يتزايد فى الشتاء لأنه عنصر بارد والدم يتزايد فى الربيع لأنه يكون متأثرا برطوبة الشتاء ، ونظرا لإختلاف الفصول وإختلاف نسب العناصر فإن الأمراض تختلف هى أيضا بحسبها .

وطبقا لهذه النظرية نجد أن البرودة من الممكن أن تدخل إلى الجسم عن طريق الهواء ، أما السخونة فتنتج بسبب التعرض لأشعة الشمس أو الإنفعال أو تناول الأطعمة التى تصنف على أنها ساخنة .(٥)

يتضح مما سبق أن العوامل الطبيعية المسببة للأمراض كالتغير فى درجة الحرارة أو فى سرعة الرياح والطعام غير المهضوم ترتبط جميعها بنظرية التوازن

(1) Stanley King, Op.Cit., PP. 110 .
(2) Richard W. Lieban, Op.Cit., P. 22 .

(٤) مرسي عرب ، ١٩٦٧ ، دراسات في الشئون الطبية العربية ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ص ٢١.

(4) Goerge Foster, Op.Cit., P. 56 .
(5) Ibid., PP. 56 - 58 .

أو الأخلاط حيث أن صحة الإنسان تتحقق عن طريق إحداث نوع من التوازن بين عناصر الجسم من ناحية وبين العوامل الخارجية من ناحية ثانية ، وأن جميع العناصر الموجودة فى الطبيعة وفى الجسم يمكن أن تصنف كعناصر باردة أو كعناصر ساخنة وأن الأمراض الباردة يجب أن تعالج بواسطة عنصر ساخن والأمراض الساخنة بعنصر بارد .

- العلاج الشعبى :

يتضمن العلاج الشعبى العديد من الوسائل والأساليب التى تهدف إلى تحقيق الراحة العضوية والنفسية للمريض ولقد ذكر لوجهلن *Laughlin* أن العلاج الشعبى يتضمن كلا من الأساليب السحرية الدينية والأساليب الكيميائية الأولية ، ولقد أوضح هذا الباحث أن نجاح الجماعات الإنسانية لايكون بالإعتماد على الأساليب الطبية بل أيضا باستخدام الطرق الشعبية فى العلاج .[١]

ومن الأساليب التى تستخدم فى العلاج الشعبى والتى تتضمن بعض العناصر التجريبية العلمية الصوم والفصد والتدليك ومساعدة السيدات على الولادة وإستخدام حمامات البخار وتناول المياه المعدنية والتمرينات الرياضية وطرق تضميد الجراح والكى والبتر والحقن الشرجية والوخز بالإبر .[٢] كما تم استخدام المسهلات والمضادات للتشنج ومدرات البول وطراد البلغم والمقيئات . [٣]

ولقد عرف البدائيون المعلومات التشريحية كما هو الحال لدى قبائل الإسكيمو والألوت *Aleut* كما عرفوا أيضا عمليات تجبير العظام والتطعيم وعرف جماعة

---

(1) Richard W. Lieban , Op.Cit., P. 21 .

(2) Peter Morley, Culture and Cognitive World of Traditional Medical Belifs: Some Preliminary Considerations , In : Peter Morley and Roy Wallis (eds) 1978 , Culture and Curing : Anthropological Perspectives on Traditional Beliefs and Practices, Daeduals Press, Stoke Ferry Kinglynn, London, P. 4 .

(3) Erwin Ackerknecht, 1970 , Therapeutics : From the Primitives to the 20th Century, Hafiner Press, U.S.A., P.6 .

الانكا *Inca* عمليات التربنة .(١)

كما يضم العلاج الشعبى أيضا إستخدام الحيوان وأجزائه فى العلاج وبعض الحشرات كما هو الحال فى إستخدام ديدان العلق وهى التى تعد حديث أحد المصادر الأساسية للطب .(٢)

كما يتضمن العلاج الشعبى أيضا إستخدام بعض المكونات الطبيعية كالعسل مثلا فسكان إقليم فيرمونت بأمريكا يستخدموه لعلاج آلام النقرس والتهابات الأنف والحلق وعلاج حالات الرطوبة والسعال كما أن تناوله يساعد على التخلص من الأرق .

كما يشمل العلاج الشعبى إستخدام بعض الأملاح مثل الكبريت والنحاس والسيلكا وكلورات البوتاسيوم والصوديوم .(٣)

ومن أشهر أساليب العلاج الشعبى التى أثبت التحليل العلمى كفائتها النباتات، ويتم تناول النباتات إما أخضر أو على صورة شراب مغلى ، ونستطيع أن نتعرف على أصل إستخدام الدواء العشبى من خلال نظرية العلامات *Doctrine of Signature* وفحوى هذه النظرية أن مكونات النباتات من جذر وساق وأوراق وأزهار تشبه فى شكلها الأعضاء الإنسانية لذلك يتم إستخدام هذه الأجزاء فى علاج العضو المشابه للنبات .(٤)

فالورود الحمراء توصف لعلاج الدم وتنقيته والنباتات الكثيرة البذور تفيد فى علاج العقم والأعشاب الثلاثية الأوراق التى تتخذ شكل القلب تفيد فى علاج أمراض القلب .(٥)

---

(1) Charles C. Hugles, Op.Cit., P.90 .
(2) R.R. Marett, 1920 , Psychology and Folklore, Methuen and Co., LTD., London, P. 201 .
(3) Rodney, M. Coe, Op.Cit., P. 154 .
(4) Don James, 1961, Folk and Modern Medicine, Fourth World Library, N.Y., PP. 27 , 28 .

(٥) محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني ، ١٩٨١ ، دار المعارف بمصر ، ص ص ٤٧٦، ٤٧٧.

ولقد إستخدم الشعوب البدائية المئات من الأعشاب والنباتات الطبية التى نمت لديهم أو قاموا بزراعتها ، ويوجد فى الفليبين أكثر من ثمانمائة نوع من الأعشاب والنباتات الطبية مثل الكينين والحشيش والكوكا والراولفيا ، والعلاج الشعبى يستخدم هذه النباتات فى علاج الأمراض المختلفة مثل الربو والإسهال والملاريا والدوسنتاريا والكلى .(١)

ويتضمن العلاج الشعبى أيضا بعض الجوانب السحرية الدينية كما هو الحال فى إستخدام الرقى والتمائم والتعاويذ والوصفات السحرية ، والوصفات السحرية على درجة كبيرة من التعقيد فهى تتضمن أجزاء من الحيوانات ودم الخنزير وأسنانه ولحم أو دهن متعفن وافرازات الإنسان والحيوان وبعض الأملاح ، وأحيان ترتبط الوصفة بفصل معين من السنة أو بوقت معين من الليل أو النهار . (٢)

مما سبق نخلص إلى أن العلاج الشعبى يتضمن كل الوسائل السحرية والدينية المتمثلة فى الرقى والأحجبة والتعاويذ ، كما يتضمن أيضا إستخدام الوسائل الألية الكيميائية التى تتضمن قدرا من النواحى التجريبية مثل القصد ، الكى ، كاسات الهواء ، إستخدام النباتات .... الخ .

ـ الطب والمرض كمفهومين ثقافيين :

يذهب أكركنشت *Ackerknecht* إلى أن علم الطب بالرغم من كونه علما مستقلا بذاته إلا أنه يستمد خصائصه المميزة له من الأنماط الثقافية التى توجد فى المجتمع ، بل أنه يذهب إلى معنى أو مفهوم المرض مفهوم ثقافى يتنوع من مجتمع لآخر ويعكس وجهة نظر سكان المجتمع ودور المرض فى حياتهم ، بل أن إستجابة الفرد للمرض والتى تتم بطريقة معينة قد توضح بعض القيم الثقافية والإجتماعية الموجودة فى المجتمع ، أو بمعنى آخر نجد أن لكل جماعة عرقية إستجاباتها الخاصة بالأمراض الموجودة فى مجتمعاتها مما يوضح لنا مدى

(1) Richard W. Lieban : Op.Cit., P. 21 .

(٢) محمد الجوهري ، ١٩٨١ ، المرجع السابق ، ص ٤٧١ .

التعارضات الثقافية .[١]

ولقد ذهب أكركنشت إلى أبعد من ذلك فذكر أن المرض وعلاجه على الرغم من أنهما عمليتان بيولوجيتان من الناحية المجردة إلا أن بعض الحقائق المرتبطة بهما عن النظرة إلى المرض ومعناه وإذا ماكان الإنسان قد تعرض إلى المرض من قبل ونوع العلاج الذى تلقاه ، كل هذا من وجهة نظره يعتمد على تحديدات المجتمع والحقائق الإجتماعية أكثر من إعتماده على الحقائق الموضوعية .

ولقد أعطى أكركنشت مثالا لمرض *Spirochetosis Pinto* وهو مرض جلدى ينتشر بين الهنود القاطنين شمال الأمازون حيث ينظر إلى الأصحاء أو الخالين من المرض على أنهم المرضى لذلك لايسمح لهم بالزواج .

كذلك الحال بالنسبة إلى مرض الملاريا الذى إنتشر فى وادى المسيسيبى فى أواخر القرن الماضى حيث نجد أن المريض بالملاريا لايعتبر مريضا من خلال نظرة سكان المجتمع ، لذلك لاتوجه أى عناية أو رعاية له ، كما لايتم القيام بتحصين الأصحاء ضد هذا المرض ، وفى تاريخ العديد من المجتمعات نلاحظ أن الكثير من أعضاء المجتمع قد قضوا نحبهم دون أن ينظر إليهم على أنهم مرضا داخل مجتمعهم.[٢]

كذلك الحال لدى قبائل مانو *Mano* فى ليبيريا بافريقيا والذى ينتشر بينهم مرض *Yaws* (مرض جلدى) فهم أيضا لايعتبرون أن المصاب بهذا الداء مريض بل ينظرون إليه على أنه إنسان عادى أو طبيعى .[٣]

فالمرض إذا مفهوم ثقافى يختلف معناه من مجتمع لآخر وتختلف أساليب علاج نفس المرض من مجمع لآخر .

---

(1) Richard W. Lieban : Op.Cit., P. 89 .
(2) William Caudill, Applied Anthropology in Medicine , In : A.L. Kroeber (ed.) 1953 , Anthropology Today, the University of Chicago Press, Chicago, London, P. 789 .
(3) Charles C. Hughes , Op.Cit., P. 89 .

- الطب والمرض وعلاقتهما بالسحر والدين :

تعتقد العديد من الشعوب البدائية فى أن كثيرا من الأمراض قد حدثت بسبب عوامل خارقة للطبيعة مثل الأرواح الشريرة أو الحسد أو السحر ، وعلاج هذه الأمراض يتطلب بالتالى نوعا من العلاج السحرى للعمل على إسترجاع الروح المفقودة أو إستخراج القوة الشريرة التى إخترقت الجسم ويقوم بهذا العمل المعالج الشعبى أو الشامان .(١)

والسحر هو الإعتقاد فى أن القوى فوق الطيعة يمكن إجبارها وإخضاعها بأساليب معينة لتحقيق أغراض حسنة أو أغراض شريرة والعديد من المجتمعات تستخدم الطقوى السحرية وذلك من أجل ضمان جودة ووفرة المحاصيل الزراعية ، الحصول على صيد وفير ، خصوبة الحيوانات المنزلية ، الوقاية والعلاج من الأمراض ، وبينما يميل سكان المجتمع غير الغربية والفلاحون إلى تطعيم عالمهم بهذه الصفات السحرية نجد أن سكان المجتمعات المتقدمة فى محاولتهم تجسيم وتعظيم عالمهم يميلون دائما إلى إخفاء هذه المعانى الخيالية لكنها مع ذلك تظهر فى بعض القصص الخاصة بالأشباح والسحرة ، والسمة الأساسية للسحر هو أن نمط السلوك الخاص به يتميز بالحركة ويعمل تلقائيا خاصة إذا عرف الشخص الصيغة المناسبة لإخضاع القوى فوق الطبيعية .(٢)

كذلك تعتقد معظم الشعوب البدائية أن علاج بعض الأمراض يتطلب اللجوء إلى الدين ، والدين هو الإعتقاد بوجود قوة عليا مسيطرة والأديان هى تفسيرات أو تأويلات للخبرة البشرية بالرجوع إلى البناء المطلق للعالم وإلى القوى فوق الطبيعية التى تسيطر على الكون وظواهره ، والمعتقدات الدينية تختلف إختلافا بينا من دين لآخر وفوق ذلك فهى تتفاوت داخل الدين الواحد طبقا لتنوع التجارب الدينية

(1) Melville Jacobs and B. Jacobes and Stern, 1950, An Outline of General Anthrpology, Barnes and Nobles, U.S.A., P.200 .
(2) William A. Haviland, 1978, Cultural Anthropology : Holt Rinchart Winston, Library of Congress, U.S.A., P. 346 .

وتعددها ، وقد تعتبر ثانوية عند الكثيرين بينما تكون لها أهمية عند آخرين .(١)

ويميل علماء الأنثروبولوجيا المحدثون إلى إعتبار الدين والسحر جزءا مما يسمونه بالنسق الأيديولوجي ، والمقصود بالنسق الأيديولوجي هو نسق المعتقدات التي تفسر طبيعة علاقة الإنسان بالكون والممارسات والشعائر المتصلة بهذه المعتقدات ، ويعتبر الدين أهم مكونات النسق الأيديولوجي ثم يأتي السحر بعد ذلك حيث يلعب دورا هاما في الحياة البدائية والتقليدية ولم يكن من السهل دائما التمييز بين السحر والدين ولايزال العلماء يختلفون فيما بينهم في نظرتهم إلى الخصائص التي يجب توافرها حتى يمكن القول بأن مجموعة معينة من الشعائر تؤلف الدين والسحر وإن كانوا جميعا يلجأون إلى تقريب أحدهما بمقابلته بالآخر.(٢)

وهذا التضارب بين كل من السحر والدين أكثر ظهورا ووضوحا داخل ممارسات الطب الشعبي حيث نجد أن أساليب العلاج الشعبي لاتقتصر فقط على الممارسات والطقوس السحرية بل تتضمن أيضا بعض العناصر الدينية ، كما أن أساليب العلاج الديني غالبا مايصاحبها بعض العناصر السحرية ، بل أحيانا قد يمارس القساوسة ورجال الدين والعلاج كما هو الحال في أثيوبيا حيث يقومون بإعداد وبيع الأحجبة والتعاويذ للمرضى من المسلمين والمسيحين وهذه التعاويذ تتضمن بعض الآيات القرآنية أو النصوص اليهودية أو المسيحية والتي غالبا ماتحاك داخل حقيبة جلدية تعلق في رقبة المريض . (٣)

---

(١) محمد عاطف غيث ، ١٩٧٩ ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ٣٨٢ .

(٢) أحمد أبو زيد ، ١٩٦٧ ، البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع ، الجزء الثاني ، الأنساق ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ص ٥٢ .

(3) Ludwing Brandl, A Short History of Erhnomedicine in Trapical Africa, In : Ethnomedicine : Journal for Interdiaiplinary Research, 1973 , Vol. 11, No. 3 - 4 , P. 213 .

ولقد ميز فريزر *Frazer* بين إثنين من المبادئ الأساسية الخاصة بالسحر ، المبدأ الأول وهو أن الشبيه ينتج الشبيه ولقد أسماه فريزر باسم السحر التشاكلي.(١)

ومن الأوجه المفيدة التى يستخدم فيها هذا النوع من السحر هو الإستعانة به فى معالجة الأمراض أو الوقاية منها ، فلقد كان الهندوس يمارسون بعض الطقوس الدقيقة التى تركز على السحر التشاكلى للعلاج من مرض الصفرة أو اليرقان وكان الهدف الأساسى من هذه الطقوس هو نقل الصفرة من جسم المريض إلى الكائنات والأشياء الصفراء الأخرى مثل الشمس ثم حقن المريض باللون الأحمر الذى يدل على الصحة كدم الثيران الحمراء .(٢)

ويستخدم هذا النوع من السحر التشاكلى أيضا فى الريف المصرى فى معالجة الحصبة حيث يلجأ الفلاحون إلى إلباس أولادهم قميصا أحمر اللون ولاشك أن هذا القميص الحريرى يعمل على تسكين التهابات الجلد نظرا لنعومته وطراوته ويجب شراء قميصا جديدا لكل طفل يصاب بالحصبة .(٣)

أما المبدأ الثانى من مبادئ السحر فهو مبدأ العاطف وهو يرتبط بالسحر الإتصالى القائم على فكرة أن الأشياء المتصلة تظل مرتبطة حتى بعد أن ينفصل أحدها عن الأخر ، وأن هناك علاقة تعاطف بينهما بحيث أن مايطرأ على احداها يؤثر بالضرورة تأثيرا مباشرا على الآخر . (٤)

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ماذكره فريزر لدى قبائل الباستو ***Basutos*** فى جنوب افريقيا حيث يحاول أعضاء المجتمع إخفاء أسنانهم المخلوعة خوفا من أن

(1) William A. Hairland, Op.Cit., P. 346 .

(٢) جيمس فريزر ، ١٩٧١ ، الغصن الذهبي ، ترجمة أحمد أبو زيد ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(3) John Walker, 1934 , Folk Medicine in Modern Egypt, Luzac, London, PP. 106 - 107 .

(4) George Foster, Op.Cit., P. 66 .

تقع فى أيدى بعض الكائنات الأسطورية التى قد تؤدى صاحب السنة وتنزل ضررها به ، ومن أشهر المفهومات التى تمتزج فيها الممارسات السحرية بالممارسات الدينية وتتطلب فى نفس الآن إستخدام الأساليب الوقائية السحرية والدينية مفهوم العين الشريرة أو الحسد وهو الإعتقاد فى أن بعض الأفراد لديهم القدرة على إيذاء الآخرين أو إنزال الأذى والضرر بهم سواء توفرت النية أو لم تتوفر ، وينتشر هذا المفهوم فى مجتمعات البحر المتوسط والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية ، والأشياء المحسودة هى الأشياء الجميلة أول الأطفال الأصحاء الأشياء التى يمتلكها الاخرون ولايمتلكها الحاسد كالسيارات الحديثة أو الحيوانات الأليفة ، نظرة الحاسد قد تؤدى إلى مرض الطفل أو موته أو إلى هلاك الحيوانات المنزلية.(١)

ولو نظرنا إلى قبائل الأمهار *Amhara* فى أثيوبيا نجد أن أعضاء هذا المجتمع يتخذون العديد من الأساليب للوقاية من الإصابة بالعين الشريرة منها مثالا مايقوم به الوالدان من كسوة أطفالهم بملابس مغايرة لنوعهم فإن كان طفلا ذكرا نجد أنه يرتدى ملابس طفلة أنثى ، كما يتم حلق شعر الأطفال الذكور مع ترك خصلة من الشعر فوق اليافوخ ، أما الإناث فوق اليافوخ ، أما الإناث فيتم حلق شعرهم على شكل دوائر وهذا لحمايتهن من العين الشريرة من ناحية ومن ناحية أخرى للإحتفاظ بنظافة الشعر .

كما يخاف السكان أيضا من التمنيات والمجاملات والإعجاب إذا لم يصحبها تلاوة الرقوة " ليحفظك الله من العين الشريرية " ويلتزم الفلاحون لدى قبائل الأمهار فى كثير من الأحيان الصمت والتحفظ كنوع من الإحتياط خوفا من الإصابة بالعين الشريرة حيث أن الشخص المرح الذى يعبر عن مشاعره بحرية يكون أكثر عرضة للإصابة بالعين الشريرة لذا يحاول الكثير منهم الظهور بمظهر البلاهة أو السكون وذلك حتى لايجذبوا اليهم العين .

(١) چيمس فريزر ، المرجع السابق ، ص ١٨١ .

ومن الأساليب الشائعة لديهم للوقاية من العين الشريرة أيضا أن يقوم الفرد بإخفاء وجهة خلف نقاب رقيق خاصة الفم والأنف . (١)

ويعتقد المصريون فى التمائم والأحجبة التى تستند أكثرها على السحر وأكثر الأحجبة إعتبارا مصاحف القران الكريم ولاتزال النساء يحملن المصحف وغيره من الأحجبة فيضعنها فى أغلفة من الذهب أو الفضة المذهبة ويفرد المسلمون المصريون إلى المصحف قوة كبيرة ويعتبرونها حافظة من المرض والسحر والحسد.(٢)

ومن الأساليب الشعبية العلاجية التى تتضمن بعض الطقوس والشعائر ذات الطابع السحرى الدينى والتى تهدف إلى تحقيق الراحة والعلاج للمريض شعائر "الزار" وهى تهدف إلى تحقيق الراحة النفسية والإجتماعية وذلك بأشعاره بأنه يرتبط بأشخاص آخرين أو بأعضاء مجتمع صغير يشاركونه نفس متاعبه وآلامه من ناحية ومن ناحية ثانية نجد أن هذه الشعائر تساعد المريض على أن يتكامل ويتعاون مع مجتمعه مرة أخرى فهذه الشعائر تعمل على توفير نوع من الأمان النفسى والإجتماعى بالنسبة للمريض المصاب بأرواح الزار وذلك عن طريق إقامة حفل تقدم فيه القرابين والذبائح إرضاء لأرواح الجن (الأسياد) التى تسكن جسد المريض.(٣)

وينتشر الزار فى السودان وكانت هى المعبر الرئيسى فى إنتقال هذه الظاهرة

---

(1) Roneld A. Reminick, The Evil Eye Belief Among the Anhara Ethiopia in David Landy (ed.), 1977 , Culture, Disease and Healing: Studies in Medical Anthropology, Macmillan Publishing, N.Y., PP. 221 - 222 .

(٢) إدوارد وليام لين ، ١٩٧٥ ، المصريين المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ص ٢١٧ .

(٣) فاطمة المصري ، ١٩٧٥ ، الزار : دراسة نفسية وأنثروبولوجية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ص ١٠ ، ١١ .

من الحبشة إلى مصر وهى هناك أقرب إلى أصلها البدائى ، ويشير كريس إلى إمتزاج الزار فى السودان بظاهرة مشابهة له تعرف باسم " البوري" المعروف عند قبائل الهوسا التى تعيش في غرب أفريقيا ولقد إنتشر هذا الإحتفال فى مناطق كبيرة وشاسعة من غرب وشمال أفريقيا .(١)

ـ الطب الشعبي والضبط الاجتماعي :

يرى كل من هارى بردميير *Hary Bredmeier* وريتشارد ستيفنسون *Richard Stephenson* أن هناك نوعين من العمليات الكبرى التى تجعل الناس يمتثلون للقواعد النظامية فى المجتمع والتى تمكنهم فى نفس الوقت من التنبؤ والإعتماد على سلوك أحدهم الآخر ، العملية الأولى هى عملية التنشئة الإجتماعية حيث يتعلم الطفل قيم المجتمع ومعاييره الأساسية التى سيشترك فيها مع غيره عندما يتضح والتى ستجعله من ناحية أخرى متشابها فى خطوط شخصية الأساسية مع أعضاء المجتمع الذى سيعيش فيه والعلمية الأخرى متشابها في خطوط شخصيته الأساسية مع أعضاء المجتمع الذى سيعيش فيه والعملية الأخرى تشمل على ميكانزمات الضبط الإجتماعى التى تعمل على تنظيم الأشياء للحيلولة دون وقوع الإنحراف أو إثارة أى عامل من عوامله فميكانزمات الضبط إذن هى كل الترتيبات الإجتماعية التى تمنع مثل هذه التوترات من أن تؤدى إلى الإنحراف .(٢)

ويقول لندبرج *Lundberg* أن الضبط الإجتماعى عبارة نستخدمها لنشير إلى المسالك الإجتماعية التى تقود الأفراد والجماعات نحو الإمتثال للمعايير المقررة أو المرغوبة ، ويذهب إلى أنماط السلوك الإجتماعى ذات الطابع الدائم العام ـ النظم الإجتماعية ـ تعتبر نوعا من أنواع الضبط وأن الحكومة هى التى يناط

---

(١) محمد الجوهري : الزار ، دراسة في علم الفولكلور في مجموعة من أساتذة علم الاجتماع ، ١٩٧٥، دراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، دار المعارف بمصر ، ص ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٢) أحمد أبو زيد ، ١٩٦٧ ، المرجع السابق ، ص ٤٢١ .

بها فى المجتمع الحديث مسألة الضبط الإجتماعى ، ويشير إلى الدور الكبير الذى تلعبه الأنماط الإجتماعية كالعادات الشعبية والبدع والعرف والرأى العام وغير ذلك فى الضبط الإجتماعى .(١)

ومن ثم نلاحظ أن عملية الضبط الإجتماعى تهدف إلى تحقيق درجة من التوايم والتوافق مع القيم والمعايير الاجتماعية التى ارتضتها الجماعة لنفسها ومن ثم يمكن أن ينظر إلى العلاج الشعبى على أنه إحدى ميكانيزمات الضبط الإجتماعية لأننا إذا إفترضنا أن مفهوم المرض كما هو معروف لدى الجماعات البسيطة هو إنحراف عن قواعد المجتمع ، أو خرق لقواعد العرف ، أو ناتج عن الأرواح بسبب عدم قيام الفرد بالتزاماته تجاهها أو بسبب السحر أو الحسد فإن العلاج الشعبى على هذا يعتبر وسيلة من الوسائل التى تلجأ إليها الجماعة للتحكم فى حالات الإنحراف والخروج عن قواعد المجتمع حيث يعمل على إعادة توافق الفرد وتواؤمه مع المعايير الإجتماعية وإعادة تنظيم سلوكه .

وهذا ما أكده بارسونز *Parsons* عندما نظر إلى الإصابة بالمرض على أنه حالة من الإنحراف عن النظام الإجتماعى ، كما ركز أيضا فى فرضه على دور المريض حيث ذكر أن :

١ ـ المرض هو حالة إضطرارية صحية لايستطيع المريض خلالها التصرف فى وضعه .

٢ ـ المرض سبب كاف لإعفاء المريض من واجباته والتزاماته الاجتماعية .

٣ ـ المرض حالة غير مرغوب فيها لذلك على المريض أن يحاول التخلص منها.

٤ ـ الريض والمهتمون بصحته تقع على عاتقهم مسئولية الإستعانة بمتخصص للقيام بالعلاج . (٢)

---

(١) محمد عاطف غيث ، ١٩٧٩ ، علم الاجتماع " النصرية والمنهج والموضوع " ، الجزء الأول ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(2) Richard, W. Lieban , Op.Cit., PP. 25 - 26 .

ذلك لأن المريض غالبا مايصنف على أنه فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة كما يجب عليه الإلتزام بالقواعد الخاصة بدور المريض وذلك لكى يتسنى له أن يبرأ .

فبارسونز إذن يعتبر المرض حالة إنحراف عن النظام الإجتماعى ينمجم عنه إعفاء المريض من القيام بواجباته داخل المجتمع ويستلزم نتيجة هذا الموقف الإستعانة بمعالج وذلك من أجل أن يتواءم الفرد مرة أخرى مع النظام الإجتماعى فالعلاج بذلك يعتبر وسيلة من وسائل الضبط الإجتماعى .

ولقد تحدث بارسونز أيضا عن دور المعالج فى هذه العملية فذكر أن دوره يتطلب .

١ ـ أن يضع صحة المريض وتحسنه فى المرتبة فى المرتبة الأولى كما أن مساعدة المريض يجب ألا تكون مشروطة بشروط .

٢ ـ أن يقوم بفرض بعض القواعد الواضحة أو الضمنية على بعض جوانب من حياة المريض .

٣ ـ أن يحاول أن يصل إلى مكنونات العقل والجسم الخاصة بالمريض .

٤ ـ ألا يستفيد الطبيب من المعلومات الخاصة بالمريض أو يستغلها .

فدور الطبيب لاينصب فقط على القيام بالرعاية الطبية وتوفير الراحة النفسية لكنه يشكل أيضا نوعا من الضبط الإجتماعى .(١)

يظهر لنا من فرض " بارسونز" أن الطبيب أو المعالج هو الذى يستطيع أن يحدد الحالة المرضية (مدى الإنحراف) ويتعرف على أسباب هذه الحالة ومن ثم يحاول الإستفادة من هذه المعرفة أو المعلومات الخاصة بالمريض فى علاجه دون إستغلالها فى أية مجالات أخرى ، كما أن الربط بين معظم حالات الإنحراف والدور لامرضى يزيد من إستقرار المجتمع .

---

(1) William Candill, Op.Cit., P. 779 .

ولقد قوبل هذا المفهوم بكثير من الرضا فى معظم أنحاء أوروبا وذهب بعض الباحثين إلى أن هذا المفهوم يجد قبولا أيضا فى الإتحاد السوفيتى حيث أن مجهودات العمل والإنتاج موجهة إلى النهضة الزراعية والصناعية لذلك توجه عقوبة كبيرة الى الشخص المتمارض ، كذلك يلعب الطبيب دورا كبيرا فى تشخيص المرض بالنسبة للمنقطعين عن العمل .(١)

يتضح إذا من المثال السابق أن كلا من الدور الخاص بالمريض والطبيب يعملان على تحقيق الضبط الإجتماعى ، فالشخص المريض إنحرف عن نظام المجتمع وأعفى من التزاماته ، والطبيب هو الذى يحدد الفارق بين المرض والتمارض ، وفى حالة المرض يعمل الطبيب على مساعدة المريض إلى القيام بواجباته الإجتماعية هذا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة .

أما دور المريض والمعالج فى المجتمعات البسيطة فهو يهدف إلى تحقيق الضبط الإجتماعى وإن كان تطبيقه يختلف عنه فى المجتمعات المتقدمة ففى دراسة لجماعة " الأجبوا" *Ojibwa* فى أمريكا الشمالية لوحظ أن المرض أسلوب خارق للطبيعة يهدف إلى توضيح السلوك الإجتماعى المتصدع خاصة إذا كان سبب المرض هو خرق قواعد المحرمات ، ويهدف العلاج فى هذه الحالة إلى العمل على إستعادة تماسك المجتمع ، وتلعب الممارسات العلاجية دورا كبيرا فى إستعادة الهدوء والتضامن والتعاون حيث أن جلسة العلاج غالبا ماتضم المعالج والمريض وبعض أقاربه وجيرانه وفيها يتم إعتراف المريض بما إقترفه من ذنب ولاشك أن هذا الإعتراف يريحه خاصة إذا ماتبعه إشتراكه فى بعض الممارسات والأفعال التكفيرية والتطهيرية ، ولاشك أن هذه الجلسة تمد المريض بنوعا من الراحة وهى تشبه إلى حد كبير جلسة العلاج النفسى ، ويشكل الإعتراف بالذنب أحدى القيم الأساسية لأعضاء هذا المجتمع حيث يعمل على تعزيز موقف جماعة المريض

---

(1) Richard, W. Lieban, Op.Cit., P. 26 .

خاصة حينما يناقشون مدى الضرر الواقع عليهم من جراء هذه الإنحرافات الإجتماعية .

وغالبا ماتوجه الإرشادات العلاجية إلى المريض وإلى الأفراد الذين إشتركوا فى جلسة العلاج الأولى أو إلى بعض الأشخاص المختارين المماثلين لسنه ، ونجاح العلاج يعتمد على كفاءة الأسلوب العلاجي من ناحية ، ومن ناحية ثانية يعتمد على النوايا الحسنة لأعضاء المجتمع حيث أن أقران المريض يجب عليهم أن يتخلصوا من الكراهية والمشاعر العدائية الموجهة إلى المريض وإلى كل أعضاء المجتمع ، فالطقوس العلاجية تهدف إلى إعادة تكامل الأفراد حول القيم الإجتماعية .(١)

ويظهر هذا التضامن العائلى لدى قبائل الهوسا *Hausa* حيث أن التعاطف بين الأقارب يشكل إحدى السمات الأساسية للحياة داخل القرية ويظهر هذا التعاطف عن طريق الزيارات المتكررة للمريض عقب سماع نبأ مرضه ، ولاشك أن تأخر زيارة الأقارب والأصدقاء للمريض يتطلب منهم الإعتذار له لأن ذلك يعنى عدم تتبعهم لأخباره وهم يقومون بالصلوات للآلهة ضارعين لها أن يسترد مريضهم صحته وذلك عقب دخولهم عليه كما يقومون بتقديم الدواء العشبى له وهم المسئولة (خاصة أعضاء الأسرة الصغيرة) عن إحضار المعالج ودفع قيمة العلاج له ولايجب عليهم أن يناقشوا هذه الأمور أمام الغرباء .(٢)

كما يبدو التضامن العائلى لدى قبائل البايوت *Pauit* فحينما يمرض الشخص يحاول أن يختار بين عدد من البدائل الموجودة لدية فى المجتمع فإذا كان المرض بسيطا يستخدم له الدواء العشبى المكون من أعشاب الشاى وتستخدم فى صورة ضمادة ، أو قد يلجأ إلى بعض الشعائر والطقوس الخاصة منها على سبيل المثال الصلاة عقب الإستيقاظ من النوم إلى الشمس حيث يقف المريض مواجها

---

(1) Charles, C. Hughes, Op.Cit., PP. 90 - 91 .
(2) Murry Last, The Presentation of Sickness in Community of Non Muslim Hausa in J.B. Louden (ed.), 1976, Social Anthropology and Medicin, Academic Press, PP. 116 - 118 .

إياها ، ثم يقوم بعد ذلك بنثر الماء على وجهه ، أوقد يقوم بزيارة لبعض المناطق المقدسة للصلاة إلى الشمس ويلجأ المريض فى هذه القبائل إلى علاج الصداع وآلام الرأس عن طريق الفصد ويقوم بإجراء هذه العملية أى عضو من أعضاء المجتمع يتسم بالخبرة والمهارة فى هذه الناحية وذلك مقابل بعض النقود ، يمنحها له المريض ، أما فى حالة إستمرار الألم ليومين أو أكثر مع ظهور أعراض جديدة كارتفاع الحرارة والهذيان وعدم الإدراك والميل إلى القئ المتكرر، فإن المريض فى هذه الحالة يتوجه إلى الطبيب الذى يشخص ويعالج الأمراض الرئيسية ، ويظهر التضامن العائلى فى هذه الحالة فى قيام أفراد العائلة بجمع المال من بعضهم وتقديمه إلى الطبيب المعالج حيث أن الطبيب يتلقى تعليمات من القوى فوق الطبيعية بألا يعمل إلا إذا حصل على أجره مسبقا .

كما يظهر التضامن العائلى أيضا فى إشتراكهم فى شعائر العلاج حيث أن العلاج غالبا مايمارس فى منزل المريض نفسه ويجب أن يحضر جلسة العلاج جميع أفراد العائلة من البالغين والكبار ويتم إستثناء الحوامل والمصابات بالمرض الشهرى من الحضور حيث أن وجودهم يعتبر خرقا لقواعد المحرمات ، ويجلس الحاضرون فى دائرة داخل المنزل بجانب الحائط أما المريض فيجلس بجانب الباب ويترك جميع أفراد العائلة والأصدقاء المساحة الموجودة فى وسط المنزل لإيقاد النار وتترك مساحة حولها خالية وتتحدد المكانة الإجتماعية للأفراد بجلوسهم بالقرب من النار .[1]

فالتضامن الإجتماعى كوسيلة من وسائل الضبط الإجتماعى فى هذا المجتمع يظهر فى تعهد أفراد العائلة بجمع أجر الطبيب ، كما يظهر فى إشتراك أعضاء العائلة والأصدقاء فى جلسة العلاج .

---

(1) Baetrice Blyth Whiting, Pauite Sorcey : Sickness and Social Control In : David Landy (ed.), 1977 , Culture Disease and Healing : Studies in Medical Anthropology, Macmillan Publishing Co., Inc., N.Y., London, PP. 213 - 214 .

ولقد ظهرت فكرة التضامن الإجتماعي في كتاب دوركايم " تقسيم العمل الإجتماعي حيث ميز بين نوعين من التضامن ، الآلي ويسود في المجتمع البدائي لأن تقسيم العمل هناك في حالته البسيطة ويتميز هذا التضامن الآلي بخضوع الأفراد لما يمليه الرأى العام والتقاليد وتكون المسئولية في هذا المجتمع جمعيه ويكون المركز الإجتماعي موروثا ، أما في المجتمعات المتحضرة التي ينمو فيها تقسيم العمل ويتطور فتكون شخصيات الأفراد متعدد ومتنوعة ويرجع ذلك لإختلاف الخبرات والوظائف التي يمرون بها أو يقومون بها ومن ثم يرتبط الأفراد في هذه المجتمع بتضامن آخر هو العضوى الذي ينجم عن حاجتهم إلى خدمات بعضهم البعض ولهذا تكون الفرد هي السمة الغالبة .(١)

وعلى هذا نجد أن التضامن الإجتماعي الآلي يظهر في المجتمعات البسيطة متمثلا في إشتراك أعضاء العائلة والأصدقاء والجيران في الطقوس العلاجية وما يتبعه هذا من توفير الدعم المعنوى والنفسي والإجتماعي للمريض .

ومن العوامل الهامة التي تعمل على تعزيز وتدعيم التضامن العائلي ومساعدته على القيام بدوره في تحقيق الضبط الإجتماعي هو الإعتقاد في أن أفعال المريض لاتضره فقط بل قد تؤدى بقية أعضاء الجماعة ، والعكس أيضا أى الإعتقاد بأن بعض الأنماط السلوكية التي تقوم بها الجماعة قد تؤدى المريض لذا يجب على كل من المريض وجماعته القرابية الإلتزام بالقواعد السلوكية وذلك للأسراع بالعلاج من ناحية و من ناحية ثانية للعمل على إستعادة التضامن الإجتماعي والتوائم مع المعايير .

فلو نظرنا إلى جماعة هنود الأجبوا في أمريكا نجد أن الشخص الذي يخترق القواعد الخاصة بتناول الطعام لايعرض صحته هو فقط للمرض بل يعرض صحة بقية أفراد الأسرة ، كذلك تنتشر بينهم فكرة أن المريض لايشترط أن يكون قد

---

(١) محمد عاطف غيث ، ١٩٧٣ ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

إقترف ذنبا محددا ولكن قد يكون أحد أبويه أو حتى أجداده هو الذى أخطأ .[١]

أما جماعات الإسكيمو فترى أنه يجب على أسرة المريض ألا تقوم بأى نشاط أو عمل خلال فترة النقاهة الخاصة بالمريض وذلك خوفا من إمكانية حدوث إزعاج للأرواح المسببة للمرض .[٢]

مما سبق يمكن القول أن الطب الشعبى يلعب دورا هاما كوسيلة من وسائل الضبط الإجتماعى .

---

(1) Richard W. Lieban, Op.Cit., P. 24 .
(2) Charles C. Hughes, Op.Cit., P. 89 .

الفصل التاسع

الأنثروبولوجيا الفلسفية *

- مقدمة .
- الحرية والإرادة عند بول ريكور .
- أنثروبولوجيا الحرية عند بول ريكور:
  - أولا ـ الحرية والطبيعة :
    - ١ ـ الحرية واتخاذ القرار .
    - ٢ ـ الحرية والفعل .
    - ٣ ـ الحرية وقبول الفعل .
    - ٤ ـ الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر .
  - ثانيا ـ الحرية والقابلية للخطأ .
  - ثالثا ـ الأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية .
  - رابعا ـ الأنثروبولوجيا ومضمون الأسطورة .
- المراجع والهوامش .

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور/ محمد عباس ابراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

الفصل التاسع

الانثروبولوجيا الفلسفية *

ـ مقدمة :

من المعروف أن تفسير الظواهر المجتمعية *Societal* ومختلف العلاقات والأحداث التى تظهر على سطح الحياة الإجتماعية كانت محل إهتمام ودراسة من جانب علماء المدرسة الفرنسية للفكر الإجتماعى والنظرية الإجتماعية ، والتى تمثلت فى كتابات كل من أوجست كونت ***August Comte*** وإميل دوركيم ***Emile Durkheim*** ولوسيان ليفى بريل ***Lucien Levy - Bruhl*** ومارسيل موس ***Marcel Mauss*** ومارسيل جرانيت ***Marcel Granet*** ، وغيرهم ، ولايتمثل تاريخ الفكر حصريا فيما جاءت به قرائح الفرنسيين فحسب ، وإنما تتمثل تلك الإسهامات أولا وقبل كل شئ فيما جاء به علماء الفكر والنظرية الإجتماعية الألمان، من أمثال جورج زيمل ***Georg Simmel***، وفيركاندت ***Vierkandt*** ، وليوبولد ڤون ڤيز ***Leopold Von Wies*** ، وفرديناند تونيز ***Ferdinand Toennies*** ، وماكس فيبر ***Max Weber*** وكارل مانهايم ***Karl Mannheim*** وغيرهم .

وقد نتج عن خلاصة هذا الفكر الإجتماعي فرعان رئيسيان فى مجال المعرفة الإجتماعية ، هما علم الإجتماع الفلسفى ، والأنثروبولوجيا الفلسفية ، وفيما يلى نعرض بإيجاز لأهم محاولات علم الإجتماع الفلسفى ، ثم نتناول بعد ذلك تفصيلا الدور الذى تقوم به الأنثروبولوجيا الفلسفية وإسهاماتها فى دراسة القضايا والمقولات الإنسانية العامة :

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور/ محمد عباس ابراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

أولا ـ علم الإجتماع الفلسفي *Philosophical Sociology* :

ويعالج عند جورج زيمل وأنصار المدرسة الصورية فى الفكر الاجتماعى البحث عن الشروط القبلية *Apriori Conditions* للعلاقات الإجتماعية ، وهى نفس المشكلة التى إنشغل بها إيمانويل كانط *Kant* فى محاولته الفلسفية الجادة لاكتشاف " الشروط القبلية " للمعرفة . فمن الشروط الوجودية للمجتمع ـ وفقا للمذهب الصورى ـ هى " صورية الوجود الإجتماعى " على نحو " قبلى " ، حيث يتمثل المجتمع بوجود " فراغات " أو " أماكن " يشغلها الأفراد ، حين تخلو تلك الفراغات وتتجرد الأماكن عن محتوياتها الفردية المسبقة ، ففى المدرسة يشغل الطالب " مكانه " الذى أخلاه له الآخرون وهكذا المجتمع والمجتمع المدرسى كمجموعة من " الفراغات " أو " الصور المكانية " *Spatial Forms* " التى يشغلها الأفراد .

ومن ثم نجد علم الإجتماع الفلسفى ينشغل بالبحث عن الأبعاد الفلسفية للعلم *Philosophical Dimensions of Science* الإجتماعى ، أى البحث عن المعرفة أو الأبستمولوجيا *Epistemology* ، أى تنظير المعرفة بالنسبة للعلوم الإجتماعية المتخصصة ، وهنا يكون هذا العلم منصبا على معرفة قضايا الميتاسوسيولوجيا *Meta- Sociology* أى البحث عن طبيعة الحقيقة *Nature of Truth* ، والكشف عن حقيقة الواقع *Reality* فى ضوء الدراسة المركزة للظاهرة الإجتماعية ، كما تبحث الميتاسوسيولوجيا مسألة الإنطولوجيا *Ontology* ، وهى مسألة فلسفية الأصل تتعلق بأصل الوجود ومصيره من خلال فهم وتحليلَ الوجود الإجتماعى ، أى أنها دراسة التاريخ العقلى *Intellectual History* للوجود الإنسانى ، وهى المحاولات التى نتج عنها فيما بعد قيام ما يعرف بعلم إجتماع المعرفة *The Sociology of Knowledge* والذى إنشغل بتجريد الظواهر الإجتماعية عن واقعها المحسوس ، ووضع مقولات " العقل الجمعى " فوق الفردى ، والصورة البنائية " فوق البناء الواقعى ، " وما فوق

العضوى " أعلى مرتبة من العضوى ... وهكذا .

ويرتبط بعلم إجتماع المعرفة بصورة وثيقة الإتجاه الفينومينولوجى *Phenomenology* عند إدموند هوسرل *Edmund Husserl* ، والذى شاع لدى أتباعه من أمثال ياسبرز *Jaspers* ، ومارتن هيدجر *Heidegger* ، وماكس شيلر *Max Scheler* وديلثى *Delthy* ، وبول ريكور *Paul Ricoeur* ويهدف التيار أو النزعة الفينومينولوچية إلى دراسة القيم الموضوعية بقصد الكشف عن مكنونها " الجوهري" العميق ، وذلك من خلال الوصف الدقيق " لمعطيات الوقائع " أثناء تجاربنا المجتمعية المباشرة ، ولاشك أن عمق البحث فى هذا الإتجاه وكثرة تشعبه قد جعلت مفكرا مشهورا مثل ماكس شيلر كواحد من رواد النزعة الفينومينولوچية لم يستطع أن يخلع رداء الفيلسوف ، حين أراد التمييز بين الإنسان الحقيقى " أو " الإنسان الجوهرى *Essence Man* " . وبين الإنسان الواقعي *Fact Man* . حيث الإنسان الجوهرى عن شيلر " كائنا إستاتيكيا لا زمنيا " أما الإنسان الواقعى فهو الكائن الذى يخضع للضرورة والتغير التاريخى ، وهو إذن كائن تاريخى زمانى ، يخضع لفعل التاريخ ، وهو إنسان ديناميكي متغير ، وفق التجربة وحتمية الزمان التاريخى (١).

ثانيا ـ الأنثروبولوجيا الفلسفية : *Philosophical Anthropology*

تأصلت الأنثروبولوجيا الفلسفية ونشأت خلال العشرينات من هذا القرن فى المانيا أما فى الأربعينات فصارت فرعا مستقلا ومبحثا متمايزا من مباحث الفلسفة الألمانية ، واحتلت مكانها بين النزعات الفلسفية الحيوية *Lebens Philosophie*، والوجودية *Existentialism* ، والفينومينولوچية *Phenomenology* ، وعلى الرغم من أنها كانت غير متماثلة أو متطابقة *Not Identical* مع توجهات النزعات السابقة ، إلا أنها تتشابه إلى حد ما مع التوجهات المنهجية والبحثية الخاصة بعلم إجتماع المعرفة ، وعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا الفلسفية قد تأسست تاريخيا على معطيات التراث الألمانى ، إلا

أنها إستفادت من الإسهامات التي قدمها علماء ومفكروا " علم الطبيعة الإنسانية *Science of Human Nature* من رواد القرن الثامن عشر . فزاوجت الأنثروبولوجيا الفلسفية في نزعتها البحثية والنقدية بين الإتجاهات النقدية التقليدية لعلماء عصر التنوير ، وبين تأكيدات أصحاب البراهين والدلائل القاطعة التي سادت على يد أنصار أصحاب " المسلمات " أو " البديهيات " التي لاتقبل الشك والجدل .

ولقد تأثرت الأنثروبولوجيا الفلسفية في نشأتها الأولى وفي إطار جل إهتمامها بالبحث عن " موقع الإنسان في العالم *Man's Place in thd World* بآراء كل من سورين كيركجارد *Kierkegaard* وكارل ماركس *Marx* ، ونيتشه *Nietzsche* ، كما كانت هناك تأثيرات لآراء كل من باسكال *Pascal* ، وهيردر *Herder* وجوته *Goethe* ، وكانط *Kant* ، وهيجل *Hegel* ، وفيورباخ *Feuerbach* في المقومات الموضوعية والمنهجية لتأصيل الأنثروبولوجيا الفلسفية ونشأتها . فعلى سبيل المثال يعتبر المفكر الألماني هيردر هو أول الباحثين الذين ربطوا بين البيولوجيا وفلسفة الإنسان ووجد أن الإنسان كائن عاجز *Deficient being* يسعى إلى تعويض نقصه بواسطة اختراع واستخدام الآلات والأسلحة والتكنولوجيا . أما هيجل وفيورباخ فقد أشار الأول في نظريته عن الإغتراب إلى نقد المجتمع فقدم الذات عن الموضوع ، وقدم العقل عن البرهان ، أما الثاني ، فيورباخ ، فقد ركز على بناء تصورات ومفاهيم العقل الإنساني من خلال مقولات تأملية في وجود الله ، والجسد والروح ، وهي مقولات لاهوتية *Theological* ، ولكنها صارت فيما بعد أركانا أساسية للبحث في نظرية الثقافة ضمن مباحث الأنثروبولوجيا الفلسفية (٢) .

وقد ركز موضوع البحث منهجيا ـ لدى المدرسة الفكرة الألمانية ـ في مجال الأنثروبولوجيا الفلسفية من خلال ما إصطلح عليه بحثيا باسم *Geistewissen Schaften* أي البحث في " علم الطبيعة الإنسانية *The Science of Human Nature* والذي تأسس فيما بعد بفضل أعمال هوبز *Hobbes* ،

ولوك *Locke* ، وشافتزبيرى *Schaftesbury* ، وغيرهم وهى كلها كانت بمثابة مقدمات للبحث فى " علم الإنسان " .

ومن جهة أخرى لايمكن إغفال الأعمال التى قدمها كل من آدم سميث *Adam Smith* والنزعتين النيوتونية *Newtonian* (نسبة إلى إسحاق نيوتن) ، والبيكونية *Baconian* (نسبة إلى فرانسيس بيكون) ، وإسهامات كل من المدرستين الإسكتلندية والفرنسية فى الفكر الإجتماعى فى القرن الثامن عشر وخصوصا على يد كل من فرانسيس هتشكوسون *Francis Hutcheson* ، وآدم فيرجسون *Adam Ferguson* وجون ميللر *John Millar* ، ودوجالد ستيوارث *Dugald Stewart* وديدرو *Diderot* وغيرهم . وهى الأعمال والآراء التى تبلورت فيما بعد لدى جون ستيوارت ميل *John Sturat Mill* وآرائه الإجتماعية والتى صارت فيما بعد بمثابة مبادئ هامة فى الأنثروبولوچيا الفلسفية من خلال آرائه حول الأسس البيولوجية التطبيقية *Empirical Biological Basis* [٣] . وهى المحاولات العلمية التى حاولت جاهدة أن تضيق الفجوة بين مفهوم الإنسان ووضعه ككائن طبيعى ، وبين مفهوم الإنسان فى ضوء تأثره بنظامه السوسيو ثقافى .

أما عن إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية وموضوعات البحث فيها فتركز على مسألة وجود الإنسان وتجاربه ، وإنجازاته ومخاوفه ، كما تبحث فى حقائق العلوم التى تسعى إلى الكشف عن طبيعة الفرد وعلاقاته بالوجود الإنسانى ، والإرتباط بين نمو الجسم وتطور حالة التفكير عند الإنسان ، كما تبحث فى أهم الخصائص الفيزيقية التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى ، وهى تلك الدراسات التى تم تصنيفها تحت مايسمى بإهتمامات الأنثروبولوچيا الفسيولوجية *Physiological Anthropology* والتى تختص بالحدود الطبيعية للإنسان ووظائفها وأيضا الأنثروبولوجيا العلمية أو الإجرائية *Pragmatic Anthropology* والتى تختص بتفهم دور الإنسان فى صنع نفسه ، سواء

بإعتماده على الذات أم باعتماده على آخرين .

ومن هنا فإن الأنثروبولوچيا الفلسفية تهتم بدراسة الإنسان المبتكر أو المخترع للثقافة ، والإنسان المستخدم للثقافة والقيم الثقافية ***Cultural Values*** وهنا يركز علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية على ضرورة الإستعانة بالمنهج التأملى أو التخيلى ***Imaginative*** كمدخل للبحث ، من أجل إعادة تأسيس مايعرف بخريطة أو محيط المعرفة ***Map of Knowledge*** .

هذا وقد إتسع نطاق ومؤيدى البحث فى مجالات وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية فى كل من المانيا ، والشعوب الناطقة بالألمانية ، بالاضافة إلى هولندا وأسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، فبرزت إهتماماتهم فى دراسة الجوانب اللاهوتية ، والتاريخية ، والسياسية ، والتشريعية (فى الفقه الإجتماعى) والبيولوجية والفينومينولوجية.[٤] . هذا بالاضافة إلى الإهتمامات البحثية فى مجالات ماوراء الطبيعة والوجود ونظرية القيم والأبستمولوجيا ، وفلسفة العلوم ، وفلسفة التاريخ ، وقد توجت إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية من جانب العلماء المحدثين بالبحث فى العلم السلوكى ***Behavioral Science*** ونظرية الفعل ***Theory of Action***، وهى كلها محاولات من جانب العلماء يسعون من خلالها إلى إقامة دعائم ومجالات الأنثروبولوجيا الفلسفية ، كفرع مستقل ومتميز عن بقية العلوم الإجتماعية الأخرى .

ولاشك أن هناك الكثير من علماء الأنثروبولوچيا المعاصرين الذين أسهموا بشكل فعال فى تطور الفكر الأنثروبولوچى وجعلها ذات شأن عقليا وفلسفيا ، وسعت أعمالهم إلى إلهاب الخيال وتحفيز الذاكرة لدى عدد غير محدود من الأنثروبولوچيين العاملين فى مجال أنثروبولوجيا المعرفة والأنثروبولوچيا الرمزية[٥]، فبدأت تلك الأعمال فى إعادة النظر فى الطريقة أو الكيفية التى تعاملت بموجبها النظريات الأنثروبولوچية مع موضوعات مثل " البناء الإجتماعى ، والقرابة ، والطقوس ، والأساطير ، ونظم المعتقدات ، واللغة ، والرمز ، والفن ، وغيرها .

وتركز الصفحات التالية من هذا العمل على الجهود التى قام بها المفكر الفرنسى بول ريكور *Paul Ricoeur* من خلال نقاشاته وحواراته مع قضايا الحرية وإرادة الإنسان والعلاقة بين الخير والشر مستعينا بالأسطورة واللغة الأسطورية ورمزيتها كدالة حية على ما تحتويه المخيلة البشرية من تراث ثقافى .

ـ في الحرية وإرادة الإنسان :

أيا كانت المنهجية التى قدمها المفكر الفرنسى بول ريكور *Paul Ricoeur* [٦] لعمله الرئيسى فى نظرته ومعالجاته لفلسفة الإرادة *Philosophy of Will* ، فإنه لايمكن النظر إلى إسهاماته بأنها أعمال تقليدية مثل ما كان عليه الحال منذ القديس بولس *Saint Paul* وغيره من المفكرين والفلاسفة وعلماء الفكر الإجتماعى وخصوصا نظرتهم حول " رمزية الشيطان " ، والرمزية الأسطورية والدينية الغربية ، وهو الأمر الذى خلق حالة من التفاعل الجدلى *Dialectical* لمفاهيم الحرية ، والعبودية ، والإحتمالات المثالية ، والقيود الواقعية المفروضة ، والخطأ والسمو ، والحرية وعلاقاتها بدرجات إقتراف الشر ، وهى المبادئ والبدايات التى شكلت أساسا موضوعيا ومنهجيا للدراسة .

ورغم تقليدية الموضوعات المطروحة وتصدى البعض من المفكرين لدراستها إلا أن مناقشات بول ريكور لفلسفة الإرادة تعد ـ من وجهة نظر البعض ـ عملا غير تقليديا ، فقد حاول ريكور أن يجعل المناقشات والمعالجات فى محتوى الطريقة المنهجية *Methodological* القائمة على تصنيف الإحتمالات الجوهرية للإنسان فى سياق مايسمى بالإرادة *The Will* ومن خلال بنية الجبر *Involuntary* والإختيار *Voluntary* مع وجود خاصية القابلية للخطأ والتأويل (التفسير) القصدى للخطأ الفعلى ، ويرجع سبب إختيار بول ريكور لموضوع الإرادة ليؤكد لنا شدة إرتباطه بموضوعات مذهب الفينومينولوچيا *Phenomenology* الفرنسية .

ومن المعروف أن ادموند هوسرل *Edmund Husserl* الفيلسوف

الألمانى هو الذى حاول تأسيس قاعدة فكرية وفلسفية تستند إلى الظاهراتية أو ما يطلق عليها الفينومينولوچيا *Phenomenology* للتفسير وتكون ذات أسس معرفية أو ابستمولوجية *Epistemological* فى خصائصها (٧) . وجاء المفكر الفرنسى جان بول سارتر *J.P.Sartere* ليغير هذه الطريقة (٨) من التأمل إلى الفعل على عكس هوسرل الذى إستند إلى الطريقة الظاهراتية ليبحث ويكشف عن أسس الفكر *Thought* والأعمال الأولية للوعى أو الإدراك الإنسانى *Consciousness* فى ضوء التطابق المتميز والمثالى والمتفرد لكل من التصورات والواقع والتى أطلق عليها هوسرل بطريقة مبحث ذاتية الجوهر للموضوعات *Eidetic Method* وهى الطريقة التى حاول مارتن هيدجر *Martin Heidegger* التركيز عليها ، والبحث فى أسسها محاولة الوصول إلى أبعد من هذه الأفعال الجوهرية للوعى من أجل تأسيس قاعدة أونطولوچية *Ontological* تتواءم من خلالها التصورات التأملية مع المعطيات الكونية (٩) . وقد قبل " سارتر" هذا التمايز الأساسى الذى قدمه " هيدجر " بين الأفعال الشعورية والإنغماس فى الكينونة أو الجوهر *Being* والتى أشار إليها هيدجر بأنها أفعال محتملة وممكنة .

فى الوقت الذى ركز فيه سارتر متبنيا وجهة النظر والمنهجية الهيجلية (نسبة إلى الفيلسوف الألمانى هيجل) *Hegelian* ـ على مناقشة العلاقات القائمة بين كل من الكينونة فى ذاتها *Being - in - Itself* والكينونة من أجل الكينونة *Beign - for - Itself* من خلال النشاط أو الفعل العدمى *nihilistic* الذى أدى إلى الإنقسام أو الفصل بين الكينونة *Being* التى فى ذاتها *In - Itself* واللاشيئية *Nothingness* التى هى من مصادر الوعى والإدراك الإنسانى .

وهنا يتضح التمييز بين سارتر وهوسرل عند هذه النقطة فهو عند هوسرل يكون الوعى أساسا تأمليا وعقلانيا ، فى حين عند " سارتر " يكون الوعى عملا وفعلا نشطا ، أى أن الوعى صانع لذاته ، وهنا تكون المشكلة الجوهرية لدى

الإنسان وفقا لهذا المنظور هي مشكلة الحرية *Freedom* ، لأنه لكي يصبح الوعي كما هو عليه *What it is ?* فمن الضروري أن يتحرر من موضوعية الكينونة في ذاتها *Being - in - Itself* لكي تصبح كينونة من أجل ذاتها *Being - for - Itself* .

وبالتركيز على مشكلة ارادة الإنسان فقد جعل بول ريكور الحرية الإنسانيةهي القضية الأساسية لنزعته الفكرية مما جعله واحدا من بين الذين يقفون في قلب المناقشات الفينوميتولوجية (مذهب الظاهراتية) فهو مثل سارتر اختار أن يتعامل مع الوعي من وجهة النظر الفاعلة *Active* ويبدو أنه قبل بهده الفكرة بعد تعديلات في توجهاته الفكرية لاسيما وأن المبحث الرئيسي لدى ريكور ينصب على مشكلة الإرادة الإنسانية والتي تفهم الحرية في محتوى الطبيعة لا في رفضها .

من جهة أخرى فقد إختار بول ريكور في دراسته عن الإرادة أن يسير وفقا لما جاء به ميرلو بونتي *Merlew - Ponty* بأن ترتكز دراسة هذه الظاهرة للإدراك على أساس التأمل المسبق *Pre - reflexive* عن العالم ، وهذا لاينفي أن الإرادة تتحقق من ذاتها ، ولكن في تعاون مع مبدأ الجبرية أو اللا إختيارية (١٠) . والعالم والطبيعة ، وكما وجد ميرلو بونتي أن الإدراك أو الوعي يحدث في قلب العالم *Midst of the World* ، وجد بول ريكور أن الحرية في قلب الطبيعة ، وهي التي تمثل التأملات الأولية أو القبلية لظاهراتية العالم أو الجسم أو حتى اللا ارادية أو الجبرية .

وقد علق بيير تيفيناز *Pierre Thevenaz* (١١) . في كتابه بعنوان ما المقصود بالظاهراتية ؟ على كل من سارتر وميرلو بونتي بقوله أن فكر سارتر موجه تماما مثل فكر ميرلو بونتي نحو تحليل وتفسير شدة الترابط بين الفعل والتاريخ ، وهو ما سار عليه علماء المدرسة الفرنسية (أنصار المذهب الظاهراتي) الذين ارتموا بشدة في أحضان التاريخ . وهنا قد لايكون الأمر غريبا عندما يختار

بول ريكور " الإرادة " كموضوع للتفسير الفلسفى ، مقرونة " بالحرية " كموضوع فلسفى / أنثروبولوجى حيث تقدم موضوعات وقضايا الحرية عنده نفسها كموضوعات أساسية فى توجهه الفكرى ، وهنا يتفق ريكور مع علماء الأنثروبولوچيا بأن محتوى هذا الموضوع هو النظرة الشمولية والكونية *Global* للإنسان وأن هذا الموضوع ينال أهمية خاصة من خلال منهجية مبحث الجوهر أو التفرد الذاتى *Eidetic* ، والوجودية والتفسيرية والتأملية .

ومركزية قضية الحرية فى فلسفة ريكور للإرادة تفترض ثلاثة أسس للتفسير هى :

١ ـ الحرية والطبيعة .

٢ ـ الحرية والقابلية للخطأ .

٣ ـ الحرية والخطأ .

فتركيز الإنسان على مشكلة الحرية ليس عملا ترفيا أو مختزلا ، لاسيما وأن مبدأ ريكور عن الحرية هو على النقيض من سلبية وإنكار ورفض سارتر لها ، ولهذا فهى فى مبدأ ريكور نوع من التأكيد على الإيجابية والشمولية *Inclusive* والضمنية أيضا ، ولذلك فإن نقاش ريكور ينصب على أن الفهم الكافى للحرية يمكن وصفه فقط كحرية يتم معرفتها بالطبيعة ، حرية تعتبر من الناحية الواقعية إمكانية الخطأ ، حرية فى مواجهة مع حقيقة الخطأ .

ويتضح مما سبق أن المحتوى الكلى لهذه المناقشات يكمن فى أن الحرية هى مادة جوهرية للأنثروبولوچيا الكونية *Global Anthropology* ـ والنابعة من عولمة الإنسان ـ حيث أن الحرية وتوابعها فى النهاية لها صلة باللغة الأسطورية ـ الرمزية *Mythic - Symbolic Language* ، فالحرية وحدودها تشكلان الأساس الأنثروبولوچى للغة الأسطورة ـ الرمز ، لأنه إذا كانت لغة الأسطورة ـ الرمز والأنثروبولوچيا الفلسفية مرتبطتان بعضهما البعض فى فكر ريكور ، فإن

هذا الإرتباط سيعتمد فى النهاية على وظيفة *Function* الحرية . ونتيجة لذلك ، ولكى نفهم دور *Role* الحرية وحدودها فى علاقتها بالرموز والأساطير ، فمن الضرورى أن نتصور أنثربولوچيا الحرية *Anthropology of Freedom* وحدودها فى العمل البنائى الكلى أو العمل الإستدلالى *Constructive* عند بول ريكور .

أولا ـ الحرية والطبيعة : *Freedom and Nature*

من المعروف أن مبدأ ريكور للحرية تم تصوره وتطوره فى ضوء محتوى أوعمل بنائى وظيفى / إستدلالى كما ورد فى كتابه المجلد الأول بعنوان : فلسفة الإرادة ، حيث ذكر بأنها ليست حرية نابعة من القلق بمفهوم سورين كيركجارد *Soren Kierkegaard* ، ولا هى حرية نابعة عن الرفض والسلبية بمفهوم سارتر ، ولا تدعمها دقة الحركة الكوزمولوجية *Cosmological* الكونية كما جاءت عند هيجل *Hegel* (١٢) . فمبدأ الحرية الذى قدمه ريكور يمكن فهمه على أنه ليس رسالة عادية عن الحرية أو إرتباط الحرية بالإرادة كما جاء فى كل من التفسيرين الأوغسطينى *Augustinian* (نسبة إلى القديس أوغسطين) واللوثرى *Lutherian* (نسبة إلى المناضل الزنجى مارتن لوثركينج) ولكن ريكور قصد بذلك أن يستبعد من المناقشات ـ منذ البداية ـ إرتباط الحرية بمشكلة العبودية للعاطفة (كالرغبة الجنسية) والقانون ، وعندئذ يكون الفهم الأصلى للحرية المعطاه فى فكر ريكور هى حرية الوضوح والتميز المنهجى لجوهر *Eidetic* الإرادة فى ضوء محتوى العمليات الإختيارية واللا إرادية (الجبرية) ، وهنا يقدم ريكور مبدأ الحرية ، ليس كمبدأ مستقل ولكن يقدمه من خلال علاقته بالطبيعة المعتمد عليها والمتحد معها ، وهنا يكون جوهر منهجة هو التبادلية *Reciprocity* بين الإرادة (الإختيار) واللا إرادة (الجبر) فلكل منهما دور وظيفى تجاه الآخر يؤدى إلى نتيجة ثالثة ، فالتلقائية الجسمية ، والعادات ، والتأملات التلقائية ، والحاجات والإنفعالات .. الخ ، إنما تقدم لنا أساسا وأولويات

لأى نشاط إرادى ممكن فعله .

إذن المناقشة الأصلية والجوهرية عند ريكور لمبدأ الإرادة هى مناقشة منظمة تحت فعل " أراد " والذى يحتوى على ثلاث حركات أو مراحل إختيارية : فا أنا أقرر *Idecide* ، أنا أحرك جسمى ، أنا أوافق فالحركات الإختيارية مؤكدة بفعل الإرادة ، ففي كل حركة من الحركات السابقة نجد مثالا منفصلا ـ لكنه إنفصال نسبى ـ فالحركة الإختيارية تتضمن إرتباطا إجباريا طالما أن الإجبار يقدم أسبابا للإختيار ، فى حين أن الإختيار يقدم تركيزا على الإجبار ، وهنا يكون من الضرورى الأخذ فى الإعتبار هذه المراحل أو اللحظات أو الحركات الثلاث فى عملية الإرادة لفهم مبدأ ريكور الأصلى عن الحرية فى محتوى أو مضمون الإرادة.

وفيما يلى نضع بين يدى القارئ النص التالى كما جاء فى كتاب ديفيد راسموسين *David M. Rasmussen* أستاذ الفلسفة والأنثروبولوچيا الفلسفية بالكلية الجامعية فى بوسطن بعنوان : اللغة الأسطورية ـ الرمزية والأنثروبولوچيا الفلسفية [١٣] . والذى يشير إلى خلاصة رؤية ريكور للإرادة والحرية، والنص كما نعرضه دون ترجمة منا هو :

The Central theme of Ricoeur's thought. From the point of view of his attempt to constract a philosophical Anthropology , is Freedom and its Limitations. Although Ricoeur originally considered freedom in relationship to nature, Later he turned to Myth and Symbol as Phenomena Constitutive for the experience of freedom and its limitation .

ومن خلال المناقشات الخاصة بالحرية والطبيعة والإرادة تتضح لنا بعض النقاط التالية :

١ ـ الحرية وإتخاذ القرار : *Freedom and Decision*

يشير تحليل وتفسير الإرادة تحت أى ظرف إلى حالة إتخاذ القرار الذى يدل على فعل ما فى الحاضر والمستقبل ، وهو الفعل الذى يعتمد على الإنسان نفسه وتحت سيطرته وإرادته وهنا تظهر النية أو القصدية فى مشروع فعل الحاضر والمستقبل ، ولكن مع شرط إضافى لايمكن التغاضى عنه وهو أن الذات أساس وجوهر قبل التعامل مع الوعى أو الإدراك الإنسانى والذى قد يكون فى بعض الأحيان تأملات قبلية *Pre - reflexive* مزيفة ، وبدلا من تلك التفسيرات الطبيعية لحالة إتخاذ القرار فى ضوء السببية ، فإن بول ريكور قد ربط إتخاذ القرار بالدافعية *Motivation* ، ورفض التفسير الذى يجعل الدافع موجودا فى سبب أو حالة منفصلة عن القرار ، كما تجنب ريكور التفسير الأخلاقى البحت للدافعية ، والذى قد يربط عملية إتخاذ القرار بمخطط أو مخططات تفسيرية قد تخفى حالة الإستدلال الفعلى للقرار ، فالقرار كما نراه من منظور الفرد مرتبط بحالة الإنتساب إلى الذات *Slef - Imputation* والدافعية فى ضوء النشاط التبادلى بين القيود الجوهرية للحرية وإرادة الإنسان ، وأن كل منهما لا ينفصل عن الآخر .

وهنا تكون الجبرية *Involuntary* من أجل الإرادة ، والإرادة موجودة بسبب الإجبار ، وأنه مجرد وضع القرار فى حالة النية أو القصد فإننا نكون قد دخلنا إلى مجال الإختيار *Voluntary* ، والذى يمكننا بدوره من إكتشاف الأسلوب الذى يكون فيه الإجبار الكونى أو الجسدى أو المادى *Corporeal* (أى الهيولى) أساسا للفعل الإختيارى ، وينظر بول ريكور الى العلاقة المتبادلة بين الحاجة والرغبة فى تحقيقها وبين الخيال على أنها أساس لتلك العلاقة التبادلية بين الإختيار والجبرية ، لاسيما وأن الخبرة الجسدية أو المادية أو الحسية عموما تصبح قاصرة بدون فعل من الإرادة كى يتم إشباع الحاجات الحسية ، كما أن الإشباع فى ضوء تلك العلاقة التبادلية لقيم الجبر والإختيار يتم تحقيقه على أنه

لذة وسعادة ، فموضوع الحاجة وتحقيقها تسلية بالرغبة والإرادة ، وغالبا ما يتم تقييمه على أنه خير ، في حين يقيم الألم على أنه شر ، وينظر إلى الألم على أن مصدره في الخوف وليس في الحاجة .

ولا شك أن بول ريكور بنظرته السابقة يحاول أن يوسع من طريقته المنهجية الكلاسيكية في مثالية التميز أو التفرد *Eidetic* للتفسير ، لتشمل الجبرية الجسدية أو المادية كجزء من العالم التأسيسي *Constitutive* الفطري للخبرة والمعنى *Meaning* .

فالتعريف المبدئي للحرية هي ليست الحرية التي تم تكوينها وتأسيسها باعتبارات ذهنية أوعقلانية وإختيارية بحتة ، وإنما أيضا بتفسيرات وإعتبارات قبل عقلانية *Pre - Rational* وجبرية *Involuntary* ، وعند وضع هذين الجانبين المتناقضين كما يبدو ، فإن مجمل هذا الوضع يبدأ في رسم تعريف إجرائي للحرية التي تحاول أن تشتق رؤية ليست كونية (كوزمولوجية) بهذا المعنى. وهنا يكون بول ريكور قد سار وفق مدلول هوسرل فيما يتعلق بإعادة التقييم الفينومينولوجي للثنائية التقليدية بين الحرية العقلية والضرورة الموضوعية، حيث إعتقد هوسرل في ميتافيزيقا جديدة ، وأنطولوجيا جديدة يمكن أن تشتق من المنهجية الظاهراتية (الفينومينولوجيا) ، لأنه مجرد ترك الإنسان لمجال الإتجاه الطبيعي ، فإنه يكتشف أن الثنائية المتلازمة والمتأصلة للخبرة العادية هي مجرد ثنائية مزيفة .

ورغم أن مبدأ الحرية حتى الآن عبارة عن رسم تخطيطي *Sketchy* ، إلا أنه من الواضح أن بول ريكور يعمل وفق رؤية منهجية متسعة يحاول أن يكتشف من خلالها المناطق الحسية (المادية) دون أن يقع في مأزق (مصيدة) بناء كوزمولوجي يؤيد الثنائية وعليه فإن تصور اللحظة الأولى لفعل الإرادة ، هو فعل القرار ، وهنا يتم تقديم مبدأ الحرية لتكون نقيضا للتعريف الكوزمولوجي للحرية .

٢ ـ الحرية والفعل : *Freedom and Action*

منذ اللحظة الأولى التى يتخذ فيها الفرد القرار تعد هى بمثابة فعل " للإرادة " أو عمل " للإرادة " الإنسانى ، ذلك لأن الإقدام على أتخاذ القرار إنما يعنى بدء نشاط الإرادة وتحديد بدايتها ، وهنا يصبح القرار نوعا من المعنى الدلالى *Semantic* الأجوف أى الخالى من ما يضيف الوفاء به ، ألا وهو الفعل الإرادى للإنسان والذى يكشف ويؤكد على الحرية الإختيارية للفعل والتى يصبح معها إتخاذ القرار قد وصل إلى غايته ، وأبسط الأمثلة على ذلك كما يراها بول ريكور للحركة الإرادية هو " أنا أحرك جسمى " أى إنتقال حركة الإرادة من المثالية إلى الإرادة الفعلية المقرونة بنية إستحضار الفعل *Presence of Action* والمنجز بواسطة الذات ، وهنا تأكيد على مايشير عمليا إلى الطريقة التى يربط فيها الفرد ذاته بالأشياء .

وقد أدت تصورات الفعل فى علاقاته بالأشياء ـ عند بول ريكور ـ إلى القول بأهمية مبدأ النفعية البراجماتية *Pragmatic* لتلازم الفعل والإرادة والعمل *Correlate of doing* ففى المثال السابق لايكون الجسم هو موضوع الفعل بل هو وسيلة أو أداة الفعل *Organ* أى أن الجسم يكون متضمنا ومستغرقا فى عمليتى إتخاذ القرار وفعل الإرادة حتى تستكمل العلميتان ويمكن إتمامهما .

ومن هذا المنطلق نجد إهتماما من جانب العلماء فى إبراز العلاقة بين كل من الفكر الفلسفى والفكر الفينومينولوجى من أجل التغلب على المشكلات التى تواجه تفسير ثنائية الظواهر لاسيما تلك الفجوة بين الحقائق العقلية والمادية ، فادخال الجسم *Body* ـ من منظور الفكر الفلسفى الأنثروبولوجى فى دراسة الحركة الإختيارية إنما يمثل قدرا من التغلب أو على الأقل فهما لقضية ثنائية الجبر والإختيار ، فالفرد يكون قادرا على تحويل الفعل الإجبارى إلى فعل إختيارى ، وذلك فى ضوء وجود ثلاث أسس للحركة الجبرية فى نطاق وحدود الفعل المضاد وهى : أداء المهارات الفطرية والمكتسبة ـ الحركة وفلسفة وفن أدائها ـ العادة أو

روتينية وتلقائية الأفعال .

فأداء المهارات يرتبط بشدة بالمبدأ العلمي الموضوعي وهو إنعكاس لما نملكه من مهارات فطرية ومكتسبة ، حيث تشير المهارة المؤداه ـ من وجهة نظر بول ريكور " بأنها نمط بدائي لسلوك جسمنا في علاقته بالأشياء المدركة " ، أما الحركة وفلسفة وفن أدائها فترتبط بمدى شدة أو ضعف الأنفعال أو العاطفة *emotion* والتي يمكن تحديدها في ثلاثة أنماط أو أنواع من العواطف هي : عاطفة التعجب *Wander* وهي نوع من التوحيد الأولى الإنفعالي لكافة جوانب الوحدة الأساسية (للحوافز والنزوات) الجسمية والإختيارية ، وعاطفة الصدمة *Shock* والتي تفهم على أنها مزعجة وغير مريحة وخصوصا في الحالات الشديدة من الخوف والألم حيث تؤدى الصدمة إلى التقليل جدا من طاقة " الإرادة " ومن ثم يحدث التشتت *Disunity* وعدم الإتحاد بين الإرادة والفعل . فانفعالات الصدمة تؤدى إلى ضعف " الإختيار " بينما إنفعالات التعجب في أقصى شكلها المجرد هي رغبة تؤدى إلى تجميع كل ما هو إجباري داخل حدود الفعل ، وأخيرا عاطفة أو إنفعال النزوة *Passion* (كالرغبة الجنسية مثلا) وهي عادة تكون بمثابة الإنفعال والشعور المتماسك في ذاته .

أما العادة *Habit* فتشير إلى المجال الثالث للتلقائية الجسدية ، والتي بمقتضاها تصبح الحركة والفعل الإختياري شيئا ملموسا ومدركا *Inform* ، فالعادة هي بمثابة الأسس والثوابت الدالة على وحدة الجبر والإختيار على مستوى التلقائية الجسمية أو الجسدية ، وهنا تتميز العادة عن المستويين الآخرين (المهارات ـ والحركة) باعتمادها على التعلم ، فالعادة مكتسبة ومن خلال عملية الإكتساب تصبح لدى الإنسان طبيعة ثانية تسمح للذات بتأدية المهارات والتي بدونه (العادة) لايمكن للمهارات أن تنجز وتؤدى ، فالعادة تطبيع مفيد للشعور والوعي والحرية ، والعادة مكتسبة بفضل تطبيق الإرادة الإنسانية على الطبيعة الكونية للإنسان والتي هي مجال الجبر والإلزام ، ومن خلال ماسبق يتضح لنا أن كلا من هوسرل وريكور

ومن خلال نظرتهما وتحليلاتهما الفينومينولوجية فقد حاولا التوفيق بين ثنائية العقل والجسم ، وهى تلك الثنائية الموجودة فى الكوزمولوجية الكلاسيكية .

٣ - الحرية والقبول : *Freedom and Consent*

إن النشاط الكامل للإرادة ليس مجرد قرار ، ولا مجرد فعل ، إنما يرتبط باللحظة النهائية فى الفعل الثلاثى للإرادة وهو القبول أو الموافقة *Consent* فالقبول هو أكثرها أهمية فى عملية الإرادة لأن القبول يوضح صعوبة قضية العلاقة بين الحرية *Freedom* والضرورة ، والتعامل مع قضية القبول أو الموافقة ليس أمرا سهلا لاسيما فى ظل التفرع الثنائى العام والمطلق بين الحرية والضرورة التى يؤيدها الوجوديون المحدثون ، حيث دشن سورين كيركيجارد *Kierkegaard* تلك المعضلة *Dilemma* بهدف التأكيد على التفرد الثقافى المطلق بين الحرية والضرورة ، واقترح أن مشكلة الإنسان مرتبطة بوجوده العالمى (الكونى) ، ويأتى مشروع كيركيجارد للوجودية بمثابة تحرير للإنسان من إرتباطه بالعالم (الكوني) لكى يتأكد من إمكانات وجوده الخاص . ويظل الأمر ، ويبقى على جان بول سارتر *Sartre* أن يعيد تأكيد هذا الشقاق الراديكالى (الأصولى) بين الحرية والضرورة بعمل وإقامة تمييز بين الكينونة فى ذاتها *Being - in - itself* (الضرورة) ، والكينونة من أجل ذاتها *Being - for - Itself* (الحرية) أما بول ريكور ومن منطلق إهتمامه بالتغلب على قضية الثنائية الأبستمولوجية ورغبة منه فى دمج الجسم المتجسد *Marcel* فإنه يرى القضية لا من منظور ثنائى راديكالى (أصولية الحرية والضرورة) ولكن من منظور التوفيق بينهما ، إذن يصبح القبول أو الموافقة هو حركة الحرية نحو الطبيعة لكى تصبح متحدة مع ضرورتها وتمويلها فى ذاتها .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة ـ كما يبدو فالقرار النهائى للحرية والضرورة فى الموافقة والقبول من المنظور السيكولوجى هو أمر حتمى وجبرى *Determinism* أما من وجهة نظر المنظور الفلسفى فليس بالضرورة إنتصار

الجبرية علي الإختيار ، حيث تكون الموافقة أو القبول ـ من وجهة نظر بول ريكور ذات صلة بعناصر ثلاثة رئيسية هى الشخصية *Character* والوعى أو الإدراك *Consciousness* والحياة *Life* فالشخصية يتم تعريفها على أنها الأقرب للإرادة ، فهى التى تقيد الإنسان بإتخاذ كل قرار ما ، وأن كل فعل للإرادة ممكن ومحتمل وغير متوقع بسبب خصوصية الشخصية فى مدى قدرتها على إستكمال القرار ، وحيث أن الفرد ليس حرا فى أن يكون شخصا أو فردا آخر ، وليس حرا فى أن يغير شخصيته وفقا لرغبته ، فإن هذا هو أحد جوانب الضرورة ، أى أنه جانب الإجبار الذى لايمكن تغييره أو تعديله ، ورغم إعجاب بول ريكور بعبارة ديموقريتس *Democritus* الذى قال أن شخصية الإنسان هى قدرة *Man's Character is his fate* إلا أن ريكور لم يرغب ببساطة فى صياغة تفسير حتمى للشخصية لأن الشخصية هى موضع حرية الإنسان (١٤) .

أما عن حالة الشعور أو الوعى وحالة اللاشعور واللاوعى *Unconscious* ومدى علاقتها بدرجات القبول أو الموافقة على ممارسة الفعل من جانب الإنسان فتكمن فى مدى وعينا وإدراكنا بحالة اللاوعى واللاشعور والتى إنطبعت لدينا تفسيراتها اجرائيا بأن حالة اللاشعور هى تلك التى لانشعر بها ، بل وصل الأمر بالبعض إلى تفسير ما نملكه من شعور بأنه مجرد إحساس مزيف ، وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة أخرى ألا وهى " رفض صدق الشعور أو الوعى " وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يرى أن اللاوعى هو مجرد حدود وقيود الحرية ، وهنا يكون اللاوعى هو الطرف الثلاثى للعلاقة مع كل من الحرية والوعى ، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يوجه إنتقاداته لتفسيرات سيجموند فرويد فى الجوانب التالية :

أ ـ إن واقعية *realism* فرويد تثير شكا فيما يتعلق بواقعية خبرة الوعى ، فمن وجهة النظر المنطقية تصبح تلك الواقعية مزيفة طالما أن الفكرة الأساسية فى تفسير اللاوعى تؤكد حالة الوعى ، حيث يجب على الفرد أن يكون على وعى (شعور) بالخاصية الجوهرية (اللاشعور) لكى يضمن تفسيره ، وعليه فإن مبحث فرويد بأن اللاوعى يسود على الوعى إنما هو أمر يثير التساؤلات .

ب ـ يرتبط بهذه الواقعية *Realism* السببية *Casulism* أو العلية ميل إلى تفسير الحقائق فى ضوء خبرة اللاوعى بطريقة علية تختص بالأشياء والوقائع وليس من حيث خبرة اللاوعى الذاتى الرئيسية المجردة فالقضية هنا تنصب على لغة العلية أو السببية ، وليس لغة القصد أو الفعل العمد لحالة اللاوعى أى أنك " تشعر " أولا ثم تشرع فى الفعل ، وهى حالة الإنسان الأنثروبولوجى الكونى أو العولمى فيزيقيا وحضاريا ، أما لغة السببية أو العلية فتشير إلى الأشياء المادية المتجسدة فى الفيزياء الذهنية *Mental physics* ، وهنا تكمن صعوبة لغة السببية بسبب رفضها للحرية ، وتصبح السببية هدفا مساويا للدافعية الغير حرة بصورة مطلقة ، وهى محاولة من جانب ريكور للفهم الصحيح للعلاقة بين الحرية والطبيعة .

جـ ـ إن مشكلة الشعور أو الوعى تكمن فى أصلها الوراثى *Genetic* أو النشوئى التطورى ، أما اللاوعى فقد إكتشفه وأكد عليه فرويد رغم علمه بالمبادئ الوراثية للتفسير ، فالمشكلة هنا هى كيفية محاولة تفسير الأشكال العليا من الوجود بأشكال دنيا وهو ما يرفضه بول ريكور الذى يدعم مبدأ الحرية ويرى أن تصديق مبدأ اللاوعى فى التفسير إنما هو ضربة قاضية للحرية ، أى أنه قراءة فى إتجاه معاكس لكل من الشخصية والإرادة ، وهنا يصبح فهم اللاوعى ـ من وجهة نظر ريكور ـ بأنه شرط للحرية ، وإذا تم فهم الشخصية على أنها ضرورة أى أنها أقرب الى الإرادة وأنها " قدر الإنسان " فإن الحياة هى التى تلي الشخصية ثم اللاشعور أو اللاوعى (١٥) .

ويمكن تحليل الحياة *Life* من خلال ثلاث مراحل أساسية هى :

ـ البناء الفيزيقى ، وهى المكونات البيولوجية ووظائفها والتى غالبا تحد من حرية الإنسان ، حتى وإن كانت هذه الوظائف ليست محكومة بواسطة الحرية ، فالجهاز العصبى ، وجهاز الغدد الصماء وغيرها إنما يحتاج إلى قليل من الإرادة لكى تعمل بصورة صحيحة وكبناء فالحياة شرط للإرادة والوعى بصفة عامة ،

فالعلاقة التلازمية بين الإنسان والطبيعة ـ والتى قد تفسر فى بعض الأحيان بأنها زيف فى الكوزمولوجية الكونية للبشر ـ يمكن تفسيرها وحلها بواسطة دور الإنسان الفرد .

ـ النمو الفيزيقى ، وهو المجال الثانى الذى تتعرض فيه قضية الحرية والحتمية للتناقض وهى عملية ليس للحرية سيطرة عليها ربما على الإطلاق ، فالنمو ليس من صميم عملى كفرد ، ولكنى أعرف النمو كحقيقة قاطعة . فحقائق النمو يمكن تصورها على أنها تصور وراثى نشوئى تطورى جيناتى ، ومعها نمو الشخصية ، ومحدودية العمر وهى كلها جوانب للحتمية أو الضرورة التى ما على الحرية سوى الإذعان لها .

ـ النشأة أو الميلاد : وإذا كانت الحرية محدودة بالحياة كبناء ونمو ، فهى أيضا محدودة بالنشأة والميلاد طالما أن كل مخلوق متأمل ومفكر *Cogito* ليس لديه سيطرة على أصله ، فالميلاد ظاهرة لايمكن للوعى أن يدركها وبما أن الميلاد والوراثة عمليات تسبق الفرد فإن ـ حالة الموافقة أو القبول إنما يتم تقديمها كعامل وما على الحرية سوى الإذعان بالموافقة والقبول .

٤ ـ الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر :

وهنا وعلى حد قول بول ريكور نكون قد إقتربنا أكثر فأكثر من محتوى وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية والتى هى فى نظره كل مايمكن التعبير عنه بالإتجاهات والخصائص المادية لسلوك الإنسان بما فى ذلك الإرتباط القائم بين لغة الأسطورة ودلالاتها الرمزية القادرة على تجسيد الأحداث والأفعال والأفكار والتصورات والتأملات العقلية ، ولكن السؤال الهام ليس فى محتوى أو مضمون الأنثروبولوجيا الفلسفية بما فى ذلك مايقره علماء الأنثروبولوچيا التقليدية حول أنثروبولوچيا الجسم وفلسفة ومغزى وجوده ، وإنما السؤال الأساسى يكمن فى مشكلة محتوى الطريقة المنهجية الخاصة بالبحث فى تلك المسائل الجوهرية والتى عبر عنها ادموند هوسرل بأنها بحث فى مثاليات وجوهر *eidetic* الأشياء ، ومن

بينها البحث فى جوهر إرادة الإنسان وحريته ، والعمل على حل قضية الثنائية الأبستمولوجية (لنظرية المعرفة) القائمة على ثنائية الجسم *Body* والعقل أو الذهن *Mind* .

والجسم كجانب مؤسس للمعرفة مثله مثل العقل لأنه على أساس الجسم العقلى يتم تكوين القرارات وإصدارها ، فالحرية والإرادة الإنسانية لنشاط وسلوك الإنسان تتشكل بواسطة الجسم (أى الطبيعة) ، وهنا يكون الجبر مرتبطا بالإختيار ، كما هى ثنائية الجسم والذهن ، ومن ثم يكون بول ريكور قد إحتوى الحرية داخل الطبيعة ، أى الإرادة داخل الجسم ، وفى ضوء ذلك الشمول يمكن إدراك النظرة الكونية أو العولمية *Global* تجاه الإنسان الجوهر ، مع الأخذ فى الإعتبار حتى أنه مع هذا التصور الشمولى لنشاط الإنسان فإن الحرية محدودة وفقا لنشاط الفرد وتفرده الذاتى عن غيره من أقرانه من بنى البشر ، وعليه فإن الحرية البشرية لايمكن إخضاعها ببساطة لضرورة الجسم أو الطبيعة الفيزيقية ، فخبرة الإنسان الواقعية على التحطيم والتدمير والشر تجعله يتحرك نحو السمو مما يعبر عن بعض التناقض الواضح والحيادى - إلى حد ما - بين قضية الحرية والجسم أو الإرادة والطبيعة ، فالإنسيابية داخل إنسانية الإنسان وإدانة الإنسان الظاهرة للشر هى التى تدعم قضية الحرية فى أفعاله ونشاطاته ، وهنا يأتى دور الأنثروبولوجيا الفلسفية التى تسعى وتهتم بالفهم الكامل للحرية (فى ضوء خاصيتها الكونية أو العولمية) .

ثانيا - الحرية والقابلية للخطأ : *Freedom and Fallibility*

إن حركة الإنتقال من الوصف إلى حالة مبحث مثالية وجوهر *Eidetic* الأشياء إلى الوصف الوجودى هى الحركة من القيود التى تفرضها الطبيعة أو الجسم الفيزيقى للإنسان إلى قيود وحدود تفرضها القابلية للخطأ ، من خلال الخاصية المتجسدة لحرية الإنسان والمتضمنة فى حصيلة معلوماته اللغوية والإتصالية وحدودها ، ومحتوى التحليل الوجودى لدى الإنسان ، فهى منهجيا

تنصب على وجهة النظر الكلية للإنسان أو عولمة الإنسان " وكوننتة " وتعامله مع مبدأى السمو والخطأ والخير والشر ، وقد فسر ادموند هوسرل وأتباعه وفقا لطريقته الفينومينولوچية نشاط الإنسان بأنه تشييد وإقامة للتأمل والإنعكاس *Reflection* الصادر عن الجسم ، حيث يقوم الجسم بوظيفة الإعلان والإعلام بالإرادة ، ولكن هل هذا التأمل كليا وشموليا أم مجموعة من التأملات تلك قضية أخرى إنشغل بها بول ريكور ، ووجد وفقا للوصف الوجودى أن هناك فرضا بأن الإنسان هو الذى يعمل كأساس فلسفى للتأمل المتميز نو الدلالة ، ويمكن للأنثروبولوچيا الفلسفية في تصورها لعولمة الإنسان أن تنظر إلى موضوع الحرية والطبيعة فى ضوء إهتمامها بمجال أخلاقيات الإنسان ودرجات سموه وتجنبه من الوقوع فى الخطأ ، وهو أمر لا يتوقف عند وعى الإنسان بالحرية ، ولكن من خلال خبرة الإنسان ذاته .

ويظل هناك سؤال هام مؤداه : كيف يكتشف الفرد الحرية كجانب مكون للوعى الإنساني؟ ويجيب بول ريكور على هذا السؤال بقوله أن الحرية لا تفهم إلا فى علاقتها التبادلية مع الشر ، والتى هى رؤية أخلاقية عن هذا العالم ، وهذا التفسير يعتبر المفتاح للطريقة التى يجب أن نتناول بها موضوعات السمو والخطأ وطبيعة العلاقة التبادلية بينهما .

ومن هذا المنطلق تهتم الأنثروبولوچيا الفلسفية بموضوع الحرية فى علاقته بدرجات القابلية للخطأ من جانب الإنسان ، لاسيما الإنسان الخطأ أى الإنسان اللامعصوم *Fallibleman* وهو الذى يستعيد معنى القابلية للخطأ والبحث عن موقعها فى خبرة الإنسان التأملية عن ذاته ، وهى المهمة التى يتم تنفيذها فكريا وأنثروبولوجيا تحت مسمى الحرية ، وعموما تكون حركة الإنسان اللامعصوم نحو الحرية محكومة بثلاث جوانب هى : درجة المعرفة ، ومستوى الفعل ، ودرجة حدة الوعى والإدراك . ويدعم القول السابق مايلى :

١ ـ النزعة الإفتراضية : *Hypothetical*

وهى القائمة على أساس أن الإنسان بطبيعته هش وعرضه لاقتراف الإثم ، وأنه ليس هناك تطابق للإنسان مع ذاته ، وهى تلك الفرضية التى توضح أن القابلية للخطأ هى خبرة معرفية ، وعمل وشعور داخل الشعور .

٢ ـ نظرية المعرفة والقابلية للخطأ :

إن مستوى المعرفة أو مايعرف فلسفيا بالإتجاه التكوينى الأبستمولوچى لدى الإنسان يتوقف على مدى عملية التأمل المعرفى والخبرات بصورة جادة ، ومن ثم يمكن فهم الخاصية التكوينية لمستوى الوعى ، وهى حالة المراحل الأولى للفكر والتكوين الفكرى التى تحدث عنها علماء الأنثروبولوجيا الأوائل أمثال إدوارد بيرنت تايلور ولويس مورجان ، وليفى بريل ، ومارسيل موس ، وكلود ليفى ستروس وغيرهم ، وعليه يكون مستوى الفعل والممارسة مطابقا لمستوى الوعى والإدراك ، وأن محدودية الفعل والنشاط تتوقف على محدودية درجات الوعى ، وهنا يصبح محكوما على الفكر إما بالإنشطار وإما بالإنغلاق ، حيث تكون البداية للفكر ووفقا لوجهة النظر الأنثروبولوچية " بالإدراك " ، فالإدراك هو شئ قد تبدأ به المعرفة (الأبستمولوجية) ، ولكنه شئ آخر أن تفهم أو تقوم بالتأمل لما أدركت ، وهنا نكون فى حاجة إلى الوظيفة ذات الدلالة والمعنى للغة ، وقدساير بول ريكور ، ايمانويل كانط *Kant* فيما يسمى " بالتركيب المتسامى للخيال البحت " وهو أن يطلق الإنسان خياله الحسى من أجل الإدراك مثال ذلك ، فأنت حين تدرك شجرة فإنك تتلقى سلسلة من البيانات الحسية حول : شكلها ، ولونها ، وأوراقها ، وثمارها ، وإرتفاعها ، وسمك فروعها وأغصانها ، وفوائدها .. وهكذا ، وهى أمور تأخذ الإنسان إلى كشف عالم الثنائية المحدود واللامحدود ، وتبقى أمام الإنسان فى بناء فكره الفلسفى الأنثروبولوجى أن يفرق بين ما يرى ويدرك ، وبين ما يفهم لفظيا ويدرك بمستوى الفهم والدلالات اللغوية من خلال الخيال .

٣ ـ الفعل والقابلية للخطأ :

بينما يسعى المفكر الفلسفي في مجال الأبستمولوجي لإدراك مشكلة الأساس العقلي والفكرى للوعي نجد أن الأنثروبولوجي الفلسفي ينظر إلى الأبنية الذهنية للإنسان ومدى قابلية الإنسان للخطأ من خلال الفعل والممارسة ، وهي لاشك خاصية التفاوت والقفز من المعرفة إلى الفعل والإنتقال من النظرى إلى العملي ، وهو ما يؤكده بول ريكور في كتابه بعنوان الإنسان الخطأ *Fallible Man* وهي النواحي العملية المرتبطة بشخصية الإنسان ، ولكن مع ذلك فإن بول ريكور لم يتجاهل مبدأ الخيال المتسامي (١٦) . الذى يسعى من خلاله الإنسان إلى تكوين " الإحترام " وهو ما أكد عليه بول ريكور نفسه في كتابه بعنوان الحرية والطبيعة *Freedom and Nature* حيث يرى أن الشخصية العملية هي ضرورة شديدة الإلتصاق " بالإرادة " فشخصية الإنسان وفقا لهذا الوصف هي حدوده وقدره (١٧) . وإن كان في هذا القول شئ من التحفظ ، لاسيما وأنه لا يجب النظر إلى الشخصية على أنها شئ مطلق ، أو حالة من الأنفلاق ، وإنما الشخصية هي أيضا حالة من الإنفتاح الذى يجعل الحرية ممكنة .

٤ ـ الشعور : *Feeling*

هنا تكون كلمة الشعور أو الأحاسيس أو التأثر ذات إختلاف إلى حد ما في طبيعتها مع كلمة الشعور أو الوعي *Consciousness* ، فهي تشير إلى عد تنازلي في أحاسيس ورقة مشاعر الإنسان فهو يسمو من حالة الشعور بصفة عامة (وهي الوعي) إلى حالة الشعور بالذات (وهي المشاعر والأحساسيس *Fellings*) أو بمعنى آخر يتدرج الإنسان من النظرى إلى العملي إلى العاطفي ، وهنا يتطور فكر الأنثروبولوچيا الفلسفية ، ويصبح ذا تعبير أكثر داخلية *Inward* ، وأكثر رقة بل وأكثر قابلية للإنكسار أو الإنشطار *Fragile* لأنه إنتقل مع المشاعر إلى مجال القلب ، وهنا نقترب من تفسير فكر الإنسان ومشاعره المرتبطة بمبادئ اللذة والألم ، واللذة والسعادة والفضيلة والرذيلة ، الخير والشر ،

وهنا يصبح الإنسان مهيئا أنثروبولوجيا للتعامل مع القضايا الغيبية والأسطورية والرمزية ومدى دلالاتها الوظيفية فى ضوء الفكر الفلسفى الأنثروبولوچى ، والذى يسعى إلى تحليل المكون الأساسى للخبرة التى يشعر بها الإنسان ، ومدى الصلة فى تركيبه وتكوين وتشكيل المعرفة لديه ، وبين النشاط أو الفعل ، ومدى المساحة الفاصلة بين المعرفة والفعل والتى تعرف بخليط المشاعر أوالأحاسيس .

ثالثا ـ الأنثروبولوچيا الفلسفية ورمزية الحرية واقتراف الخطيئة :

يتضح من كل ماسبق أن موقف المفكر الفرنسى بول ريكور *Paul Ricoeur* ومن خلال بحثه فى مضمون الأسطورة والرمز واللغة تجاه الظاهرة التأملية وقد تم تحليله وتفسيره من خلال وجهتى النظر التأملية العقلية وحرية الفعل وممارسة الإنسان لسلوكياته فى إطار ومضمون الخبرة السابقة لديه من رصيد المعرفة المختزن ، وهو الأمر الذى تسعى الأنثروبولوچيا الفلسفية إلى تبنيه كمبحث فكرى / عملى يحقق " عالمية وجود الإنسان المفكر " وفى ضوء مايمكن أن يطلق عليه بالأنثروبولوچيا العولمية التى تستند إلى الدعائم الأربع المتمثلة فى الأسطورة *Myth* الرمز *Symbol* والحرية *Freedom* والإنسان سواء المعصوم أو اللامعصوم *Fillible Man* من إقتراف الخطيئة .

وعليه تصبح الأنثروبولوچيا الفلسفية فى حاجة ماسة إلى الإستعانة ـ وفقا لوجهة نظر بول ريكور ـ بمبحث مثالية الجوهر *Eidetic Method* من أجل تحقيق فهم جيد للحرية المعلنة والمقننة والمشروعة ، والمحدودة فى نفس الوقت من قبل الطبيعة البشرية والإلهية ، كما تسعى الأنثروبولوچيا الفلسفية إلى الإستعانة بمبحث الطريقة والمذهب الوجودى والذى يقدم فهما للحرية المعدلة فى ضوء القابلية للخطأ ، ورغم هذا التوجه المنهجى المذهبى فى البحث فى القضايا الفلسفية التى تهم الإنسان الأنثروبولوجى إلا أن بعض المفكرين الأنثروبولوجيين يرون بأن التعامل مع الحدود الواقعية للحرية لابد وأن يتم من خلال تفسير " الخطيئة والشر". فهى مجالات شديدة الغموض من جهة ، وهى غنية فكريا وعمليا من جهة

أخرى لارتباطها وإتصالها بمسارات الرمزية السحرية والدينية ، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يخصص جانبا كبيرا من كتابه بعنوان " فلسفة الإرادة " لتوضيح الرؤية العالمية (العولمية) للأنسان فى ضوء الظاهرة التأملية والأخذ فى الإعتبار رمزية الأسطورة والإنسان فى إطار لغة الرمز والأسطورة ، وهى اللغة ذات المستوى الخاص جدا عند بول ريكور والتى أشار إليها فى تعريف إجرائى بأنها لغة الإعتراف *Avowal* والإقرار والمجاهرة بمضمون الوعى أو الشعور الأسطورى / الرمزى ، ولهذا يرى بول ريكور أن هذه اللغة الإتصالية لهذا النوع من بنية الفكر الإنسانى / البشرى هى لغة قد تكون سابقة عن لغة الفكر الفلسفى الحديث والمعاصر ، بل والفكر الفلسفى الغابر فى القدم ، وعلى هذا الأساس نجد أن بول ريكور يحاول أن يشيد لنا إطارا بنائيا من الفكر الإنسانى مدعوما بوحدة العقل والوعى والشعور الإنسانى فى ذاته وفى كينونته ، القابلة للخطأ ، وفى حدود التعامل مع الإمكانات *Possibilities* المتاحة فقط .

ويشير بول ريكور إلى ثلاثة أنواع من اللغة الإتصالية فى حالة تفسير الخطيئة أو الشر ، وهى :

١ ـ اللغة الأساسية المرتبطة بالرموز ، وهى الأكثر جوهرية ومركزية للتعبير عن الخطيئة أو الشر ، كالغة التمرد والعصيان ، والكفر ، والزنا ، والسرقة ، والكذب ... وغيرها ،

٢ ـ لغة التفسير الرمزى فى الأسطورة والتى تعتمد على الرموز الجوهرية داخل الأسطورة ، مثل حالة جبروت الأب فى أسطورة أديب .

٣ ـ ثم تأتى بعد ذلك لغة التفسير الفلسفى والتى تعتمد على التأملات *Hermeneutics* أساسا فى تناولها لمشكلة الشر .

ولهذا يتضح أن الرمز هو أكثر العناصر تعبيرا عن الشعور بالخطيئة والشر، فمناقشة التوجه إلى أسبقية الرمز على أنه الأصل ، تعنى أن المناقشات الفلسفية العادية إنما تكون مجردة وتأملية للغاية ، ولا تستطيع تحقيق التعليل

الأساسى الذى يعطيه الإعتراف الدينى مثلا عن الشر والخطيئة فى لغة الرمز ، وعليه فإن التفسير بواسطة الإستعانة بالتعبيرات التلقائية فى مثل تلك الحالات قد يكون أجدى من الإستعانة بالتعبيرات التأملية ، كما ركز بول ريكور من جانبه على ضرورة البحث فيما وراء التعبير العقلانى الغربى الزائف للكشف مباشرة عن المواجهة فيما بين الشعور أو الوعى مع الشر ، وأن مبدأ الخطيئة الأولى أو الأصلية هو مبدأ عقلانى فى مظهره فقط . وقد إستند هذا التفسير لأصل الشر والخطيئة إلى التعاليم التى سادت خلال الفترة الغنوسطية *Gnostic Period* (المذهب الغنوسطي) عند النصارى الأقدمين والذين كانوا يعرفون بأصحاب مذهب العارفين ، وهو مذهب مسيحى يعتقد بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية ويرون بأن الخبرة الإنسانية السابقة ــ والتى تشكلت سابقا ــ هى نفسها التى تسهم فى التفسير ، بل هى وحدها القادرة على تنمية الشعور بالوعى والتفرقة ما بين الخير والشر ، والصلاح والخطيئة وكل ذلك فى ضوء مبدأى الحرية والإرادة ، وهنا تتعرض الحرية كمبدأ لأكثر إختباراتها الراديكالية *Radical* (الأصولية) ، وفيما يلى عرض لبعض النقاط التى تشير إلى تلك الإختبارات :

أولا ــ الرمز والإرادة المستسلمة :

جاء من خلال إهتمامات بول ريكور بالبحث عن الرمز*Symbol* فيما أسماه بالأنثروبولوچيا العولمية *Global Anthropology* أن رمز الشر وجد بسبب الإرادة المستسلمة *The Servile Will* والتركيز على التحليل الفينومينولوچى *Phenomenological* أى المحسوس *Perceptible* ذو الصلة بالظواهر الطبيعية *Natural Phenomena* القابلة للملاحظة والمشاهدة لا على أساس التأمل فى ذاته ، لأنه حتى فى مبدأ قابلية الإنسان للخطأ ، فإن مبدأ الإرادة المستسلمة يكون متوفرا لديه ولكن بطريقة غير مباشرة وتلك الحقيقة وحدها تبرر الدراسة الرمزية التى تنقل الفرد من إمكانية القابلية للخطأ إلى الخبرة الحقيقية (أو الفعلية) للخطأ المعترف به لغويا ، ولفهم هذه النتيجة حول رمزية الظواهر

المحسوسة ، علينا من الضرورى أن نتناول الرموز نفسها فى هذا السياق كما يلى :

١ ـ بقعة أو وصمة الشر *Stain* أو " التلطخ " بالخطيئة والذنب ، وهنا تكون الرموز أكثر مناسبة للإعتراف بالشر ، حيث يكشف تحليل " تلطخ " الإنسان بالذنب عن سمتين الأولى موضوعية بأن التلطخ بالذنب شئ يسبب الفساد أو العدوى أو التلوث ، وحتى فى التعبير اللغوى نفسه *Stain* يأتى عكسها لغويا *Stainless* بمعنى الصافى أو اللامع أو غير المتلطخ وقد إنتقل هذا المعنى إلى وصف بعض المعادن لشدة لمعانها وصفائها وغير قابليتها للصدأ أو التلطخ بالتلوث، وتلك السمة تشير إلى المذنب كالزانى والفاسد والكاذب والكافر أو الملحد وغير ذلك .

أما السمة الثانية للتلطخ فهى ذاتية وهى تشير إلى " الذنب " نفسه أو الشر نفسه كشئ مرعب ومخيف كالكفر والإلحاد والزنا ، والسرقة والنجاسة وغيرها ، وعندئذ يأتى المفهوم الرمزى ليشير إلى الخاصية المزدوجة للتلطخ (موضوعيا وذاتيا) وعليه لابد من تنقية النفس من الخوف والرعب التى ترمز له هذه البقعة .

٢ ـ الخطيئة *Sin* حيث رمزية إقتراف الإثم أو الذنب ذات علاقة قديمة بالخطيئة ، وبغض النظر عن المفهوم التاريخى لإقتراف الإنسان للذنب فإن الخطيئة موجودة كونيا ، وأن الإنتقال من النجاسة أو التدنس *Defilement* إلى الخطيئة أمر مستمر ، وقد يكون غير مستمرا (متقطعا) وقد نظر بول ريكور إلى الخطيئة بأنها حالة من تمزق العلاقة التعاقدية بين الإنسان وخالقه ، ولهذا فالخروج عن الإيمان بالوحدانية أو الإله الواحد *Monotheistic* يعرض الإنسان للعقاب الالهى ، وهكذا تظل رمزية الخطيئة موضوعيا وذاتيا أمرا لا نهاية له طالما وجد الإنسان بمفهومه الأنثروبولوجى (العملى) .

٣ ـ الذنب *Gult* يشير الذنب إلى كمية متصلة من النقاط الخارجية والداخلية التى تربط بين كل من التلطخ والخطيئة والذنب ، وقد وجد بول ريكور أن

الذنب يعد من أكثر النقاط داخلية (فى نفس الإنسان) ومن أكثرها راديكالية (أصولية) أيضا ، فالنجاسة تعبر عن مواجهة الإنسان للشر ، وبذلك يتأكد أسبقية الشر عن مواجهة الإنسان له ، كما أن الخطيئة لدى الفرد تعبر عن نفس المواجهة فى صورة " الشعور غير السعيد " وهكذا عندما يرتبط الذنب بالإعتراف بالشر فإن الأمر يرتبط مباشرة بتطبيق وتطوير " قانون العقوبات " وهنا يرى بول ريكور أن تعزيز الذنب يعد بداية لدخول الإنسان فى دائرة الإدانة ، والتى قد تسمح بالإستناد إلى تبريرات " الضمير " وهنا يتم فهم المعنى الكامل للقانون والذنب أمام القانون .

وهكذا فتحت المبادئ السابقة المجال للمناقشة فى إمكانية وصول الفرد لمبدأ الحرية الحبيسة *Captive Freedom* أو المقيدة أى الأسيرة ، وهى قضية كبرى للبحث فى الحرية فى علاقتها بالإنسان الأنثروبولوجى العملى ، ولكن رغم عدم وضوح الفكرة العقلانية للإرادة *Will* والحرية ، إلا أن هناك دلالات أنثروبولوجية متضمنة فى بعض الرموز ذات الأبنية المتشابهة ، وهى التى تلخص البناء الأساسى لرمزية الشر فى إرتباطه بالإرادة المستسلمة أو الحرية الحبيسة فى ضوء الخصائص التالية :

١ ـ إن الخطيئة أو النجاسة توضح أن الشر ليس عدما *Annihilate* ، وأنه واجب الوجود لأنه شئ يتم عمله وتحقيقه سواء من المنظور البشرى أو الآلهى.

٢ ـ يُنظر إلى الشر على أنه شئ يأتى للإنسان من خارجه ، أى أنه شئ مقدم الوجود على وجود الإنسان ، وبذلك يكون للشر بناء يشارك فيه الإنسان .

٣ ـ ينظر إلى الشر على أنه شئ معدى *Infects* أى مفسد نظرا لأنه ظاهرة معدية .

وتتضح رمزية تلك الخصائص من خلال النظر إلى الإنسان ومدى قابليته للخطأ ، نظرا لأن الشر هو الذى يحيط بحرية الإنسان ، وهو الذى يعترض

الإنسان ويفسده ، وبالتالى يحد من قدرته على الخير الذى قد يختاره ، وقد نظر علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى الأساطير باعتبارها تمثل الفكر البدائى للرموز بأنها ذات أهمية بالغة فى تفسير الحرية وعلاقتها باقتراف الشر .

رابعا ـ الأنثروبولوجيا الفلسفية والأسطورة :

يخطئ من يظن أن الأساطير ماهى إلا حواديت وحكايات تروى من الناس إلى الناس دون هدف من ورائها سوى قطع الوقت والقضاء على وقت الفراغ بالتسلية ، كما يخطئ من يظن أن الأساطير ماهى إلا خرافات وخيالات غير حقيقية لايستجيب لها سوى البلهاء والدهماء والأطفال ، ولكن واقع الأسطورة وتاريخها ينبئ بغير ذلك كله ، فهى تراث إنسانى خالد قامت على أساسه آداب وفنون عالمية، ويأتى ذلك فى ضوء مرافقة الأسطورة للإنسان منذ نشأته فى الكون ولاتزال ترافقه حتى الآن ، وأيا كانت الأسطورة بألوانها المختلفة ونماذجها المتباينة مابين الآلهية ، أو البطولية أو الغرامية أو الفكاهية إنما تمثل جزءا من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى تكوينهم الثقافى وحياتهم الإجتماعية (١٨) .

وأغلب الأساطير تدور حول إقامة وإنشاء حياة أفضل للإنسان ، وهى محاولات ظهرت ونشأت مع نشوء الإنسان وتطوره ، يفسر بها أهم المشكلات التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويحاول بواسطتها أن يجتاز الفجوة والهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به ، فيحاول عن طريقها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ؟ وكيف ينتصر الخير ؟

وإذا كانت الأسطورة تحوى كما وحجما لا بأس بهما من الغموض والأسرار التى تكتنف معنى وإستخدام مصطلح الأسطورة *Myth* والحكاية الأسطورية *Legend* وأيا كانت علاقتها بالحقيقة التاريخية أم أنها تتسم بطابع أسطورى غير جدير باليقين ، إلا أن استخدامنا لمفهوم الأسطورة وتحليلها أنثروبولوجيا

وفلسفيا إنما ينطوى على معايير وظيفية لايمكن إنكارها أو التغاضى عنها ، ذلك أن الأسطورة إنما هى نتاج المخيلة الإنسانية *Human Memory* ، تنبثق من موقف محدد لتؤسس شيئا ما ، ومن هنا جاء الإختلاف فى وجهات النظر حول تعريفها ونماذجها المختلفة والوظيفة أو الوظائف التى تؤديها .

ولما كانت الأسطورة أكثر إرتباطا بتفسير العلاقة بين الشر والخير ، فقد جاءت مناقشات بول ريكور *Paul Ricoeur* حول تعريف الأسطورة باعتبارها فكرا بدائيا للرمز إنما تتضمن أبعادا وأنماطا متباينة من المناقشة الرمزية تتفرع بدورها إلى قضايا أساسية أكثر شمولية من مضامين الرمز ذاته ، ولهذا يترتب عليها تحليلات وتفسيرات أكثر إكتمالا وشمولية للقضية الأساسية عنده - ريكور - وهى العلاقة بين الحرية والشر ، ولهذا ينظر ريكور إلى تعريف الأسطورة بأنها تتضمن القضايا والأسس التالية :

١ - إن الأسطورة تحكى وتروى فى سياق تاريخى يتحدد من خلاله مفهوم الإنسان والإنسانية ، فيصبح كل منهما نموذجا تاريخيا لحالته ودالته .

٢ - إن الأسطورة تحكى قصة أو رواية تجمع بين الخرافة والتاريخ .

٣ - تحاول الأسطورة شرح الآحاجى *Riddles* وتفسير لغز *Enigma* التاريخ الإنسانى ، وأن يوضع داخل القصة أو الحكاية شرح وتفسير للمشكلة أو القضية الخاصة بالإنسان .

هذا وقد وقف بول ريكورمنذ البداية موقفا حاسما فى نظرته إلى الأسطورة ووظائفها والتى نظر إليها بأنها لاتقل عن الرمز فإنها تخبرنا بالفكر المتضمن فى الذاكرة البشرية أو الإنسانية ، وهو بذلك يقف موقفا معارضا من ميرسيا إلياد *Mircea Eliade* الذى يرى أن الأسطورة تتضمن موقفا كاذبا وغير حقيقى *Falsity* ، أما ريكور فينظر إليها بأنها حديث ذو معنى ، فالأسطورة فى رأيه ، ومن خلال النمو الفكرى (التأملي) يمكن لها أن تتأكد وتستمر وأن تفسيرها

المناسب يجعلها فى أفضل صورة من مجاورة المعرفة الروحية (١٩) . وهذا التجاور – فى رأى ريكور – أصبح بمثابة الأساس الأخلاقى *Axiological* لتنظيم رؤى الأسطورة فى سياق تاريخ الفكر الفلسفى الغربى ، والذى ينصب إعتراضه الرئيسى لتفسير الأسطورة بأنها تتعارض مع العقلانية التى تم إكتشافها منذ مرحلة ماقبل السقراطيين *Pre - Socratics* فى الغرب ، ومن هذه المرحلة التاريخية فصاعدا فإن الأسطورة تقدم صورة مزيفة للعقلانية ، وهو النقد الذى لم يقبله بول ريكور لأنه من وجهة نظره هو بمثابة نقد إفتراضى ، وهو خطير جدا ليس للأسطورة فحسب ولكن للمعرفة الروحية أيضا ، ومايريده ويهدف إليه ريكور هو " فك " الأسطورة عن المعرفة الروحية ، وأن الأسطورة عنده تعمل بمثابة "راوى" للمعرفة(٢٠) .

ودراسة الأسطورة عند بول ريكور لاتتركز على دراسة الأسطورة بصفة عامة ، وإنما ينتقى أساطير ذات خصائص معينة لها علاقة بمفهوم الشر فى حياة الإنسان فيأخذها بمثابة نماذج رمزية يحدد فى ضوئها أصل الشر وتاريخه وغايته (نهايته) . وتتحدد تلك الأساطير فى أربعة إنماط – عدة – هى : أساطير الخلق *Creation* ، والسقوط أو الفناء *Fall* ، والتراجيديا *Tragedy* ، الطرد والنفى أو الأبعاد *Exile* ، فأساطير قصة الخلق تسعى إلى تفسير أصل الشر ، الممتد من أصل الأشياء ، حيث تبحث هذه القصة فى حقيقة الأساطير ، وحقيقة خالق الأساطير نفسه (الإنسان) منذ نشأته ، حيث عاش أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار ، فكانت أعاجيب الكون التى لم يستطع إدراكها إدراكا علميا ، فتوهم لها تفسيرا ، وتخيل لها أصولا ووقائع يرتاح إليها فتزول حيرة نفسه ، ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الإنسان هى أساطير الخلق ، وسوف نعالج موضوع تاريخ الأساطير وأنماطها أنثروبولوجياً فى عمل علمى أخر ، حيث لم يكن هدف العمل الذى بين أيدينا والخاص بالأنثروبولوچيا الفلسفية: وبحثها فى الحرية وإرادة الإنسان هادفا لهذا الجانب من التفصيلات –

أما أساطير السقوط ـ كما يراها بعض علماء الغرب فى سقوط آدم ـ فتشير إلى الأحداث اللا عقلانية فى تاريخ الإنسانية ، أما أساطير التراجيديا فتشير إلى الذنوب والأخطاء باعتبارها ـ فى نظر ريكور ـ غير مترادفة مع الفعل اللاعقلانى أو مع الحقيقة الواضحة للوجود ، وعليه فإن علاقة الذنوب والأخطاء بالحرية هى علاقات متزامنة فى ضوء الضرورة ، وأخيرا يشير ريكور إلى أسطورة الروح المطرودة *The Myth of exiled Soul* والتى تفصل الروح عن الجسم وهى الأسطورة التى انشغل بها التفكير الإنسانى ، وعنها نبعث فكرة الثنائية فى البحوث الأنثروبولوجية فركزت على الرؤية البنيوية للإدانة الآلهية ، كما جاءت فى سفر الخروج والطرد البابلى اليهودى من أرض كنعان إلى بابل كأسرى ، وغيرها من الأساطير ذات جوانب الثنائية ، فكل من الرموز والأساطير تهتم مباشرة بالحرية نفس إهتمامها بالشر ، وأن مناقشات الرمز والأسطورة تنصب على التفسير الكلى والشمولى لمبحث الحرية والإرادة ، وهو فى نهاية الأمر دراسة للإنسان أو الفرد الذى يسود ويسيطر على كل موضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية.

ـ المراجع والهوامش :

(١) للمزيد فى ذلك أنظر كل من :

ـ قبارى محمد إسماعيل ، الإتجاهات المعاصرة فى مناهج علم الإجتماع ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، ١٩٦٩ ص : ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

- Karl Mannheim, Essays on Sociology of Knowledge, Routledge & Kegan Paul, London, 1962, PP. 7-9.

(٢) أنظر عرضا لتاريخ ونشأة الأنثروبولوچيا الفلسفية وإهتمامات البحث فيها وأهم روادها من علماء الفكر والفلسفة والإجتماع والأنثروبولوچيا فى :

- Philosophical Anthropology ; in Encyclopedia of Philosophy edited by : Paul Edwards, The Macmillan Company & The Free Pressm New York, 1967, Vol. 5, PP. 159 - 166.

(٣) للمزيد حول إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية بالجوانب البيولوجية للإنسان ، لاسيما ما يتعلق منها بأنثروبولوجيا الجسم ، ووحدة المخ البشرى .. أنظر فى ذلك :

- Stuart F, Spicher, (ed); The Philosophy of the Body, Quadrangle Books, Chicago, 1979.

(٤) من العلماء الدين إهتموا بشكل خاص بالتحليلات الفينومينولوچية للثقافة ، عالم الإجتماع الأمريكى بيتر بيرجر Peter L,Berger حيث إهتم بالنظرية الإجتماعية وعلم الإجتماع الدينى وعلم إجتماع المعرفة ، كما ركز فى دراساته على إظهار المعانى والرموز التى يشترك فيها الأفراد فى تفاعلاتهم الذاتية والموضوعية ، من خلال التنوع الكبير للنتاجات الثقافية المختصة بوصف الوقائع الإجتماعية بإعتبارها مواقف تكون البشرية فيها عملية مستمرة من الخلق والإبتكار وإعادة الخلق والإبتكار مرة أخرى ، وهكذا تتمثل صورة الثقافة بأنها إنسيابية ، أما صورة المجتمع فهو أزلى فى الحركة رغم تغيره ، وهو نفس الإتجاه الذى تشكل منهجيا لدى كل من ماكس فيبر M.Weber ، والفيلسوف الإجتماعى الأمريكى النمساوى الأصل الفريد شوتز ، والألماني يورجين هابرماس ، والإنجليزية مارى دوجلاس ، والفرنسى ميشيل فوكو ، والأمريكى تالكوت بارسونز خصوصا ما جاء فى مؤلفه الأخير بعنوان" بناء الفعل الإجتماعى " والنسق الإجتماعى " للمزيد أنظر فى ذلك :

- Robert Wuthnow and Others; Cultural Analysis : The Work of Peter L.Berger , Mary Douglas, Michel Foucoult and Jurgen Habermas, Routledge and Kegan Paul, London , 1984 (1987) .

(٥) عبد الله عبد الرحمن يتيم ، كلود ليفي ستروس : قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر ، الكتاب الشهري للمشروع الثقافي الخيري ، إصدارات بيت القرآن ، المنامة ، البحرين ، ١٩٩٨م ، ص ١٥٢ .

(٦) للمزيد حول الآراء والتصورات التي قدمها المفكر الفرنسي بول ريكور Paul Ricoeur لفلسفة الإرادة أنظر مايلي :

- Paul Ricoeur , " The Hermeneutics of Symbols and Philosophical Reflection" International Philosophical Quarterly, II, No.2 1963.

- --------------- : Freedom and Nature: The Voluntary and the Involuntary, Trans. by:: Erazim V, Kohak, Northwestern Univeristy Press, Evanston, 1966 .

- ----------------- : The Symbolism of Evil, Trans. by, Emerson Buchanan, Harper and Row, London, 1967.

- بول ريكور Paul Ricoeur مفكر فرنسي معاصر ينتمي إلى مدرسة التفسيرات أو التأويلات الثقافية Cultural Hermeneutics للتراث الفينومينولوجي ، كما يعد واحدا من إتباع المدرسة الفرنسية الظاهراتية ، ينتمي في فكره إلى مدرسة فلهلم ديلثي Wilhelm Dilthey وادموند هوسرل Edmund Husserl له مواقف مضادة للتفسيرات الماركسية والبنيوية ، والفرويدية ، وربما كان ذلك راجعا لتمسكه بمذهبه البرتستانتي ، والذي يجعله يفسر الثقافة من منظور غربي ، ويرى أن التراث الثقافي والحضاري يعيش في ضمير المفسر ، ولكنه يتساءل : من هو المفسر ؟ وماهو الشئ المفسر ؟ وماهو دور الذاكرة والخيال في ذلك ؟ وإن كان ريكور يعطي أهمية منهجية للذاكرة وماتحمله عن ماضي الثقافة ثم إسترجاعه عند الحاجة ، أما الخيال فيأتي في المرتبة الثانية ، وربما قد يكون لا قيمه له عندما لا يحقق فائدة منهجية .

(٧) إتخذت المعرفة أو الأبستمولوجيا Epistemology على يد أنصارها طرقا ومذاهب عدة منها على سبيل المثال :

أ ـ الاستدلال المعرفي العقلي Rationalism ويمثله رينيه ديكارت وأنصاره في إطار من الشك المنهجي ، على إعتبار أن الشك المنهجي عملية فكرية بحتة ، فأنا أشك إذن أنا أفكر ، أنا أفكر إذن أنا موجود ، وهنا تكون دائرة الوجود تابعة لدائرة الفكر ، أما إستدلاله على وجود الله فهو يقر بأن هناك كائن لا متناهي وأن هذا الكائن اللامتناهي موجود (الله) وهنا أيضا تسبق دائرة الفكر دائرة الوجود . أما عن اثباته المعرفي لوجود العالم فهو ينكر وجوده المادي ، ويثبت فقط أن وجود العالم ماهو إلا فكرة هندسية ذات امتداد هندسي ليس إلا .

وهكذا يوكد أنصار المذهب العقلى بزعامة ديكارت أن الوصول إلى الحقيقة لايتم إلا عن طريق العقل وعن طريق العقل وحده ، وأن كافة الأفكار والتصورات موجودة فطريا ـ أودعها الله ـ فى العقل منذ ميلاد الإنسان ،

ب ـ الاستدلال المعرفى التجريبى Empiricism وهو القائم على فلسفة الملاحظة والتجريب ، وأهم رواده جون لوك Locke وديفيد هيوم Hume وأنصارهما وهم يعارضون وجهة النظر العقلية فى الاستدلال المعرفى ويؤمنون بأن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة وليس العقل ، وهاجموا فكرة فطرية التصورات الديكارتية ، وذهبوا إلى أن العقل يولد صفحة بيضاء خالية من النقش ، والخبرة والمعرفة ، وأن العقل يكتسب معارفه عن طريق الحواس ، وإن كانت هذه المدرسة الفكرية قد أخذت فيما بعد بالأفكار الحسية Sensations والأفكار التأملية Reflection واستخرجت منها أفكارا مركبة تجمع بين الحسى والتأملى .

ـ راجع فى ذلك :

- Locke, J., An Essay Concerning Human understanding, Landon , 1690 .

- Hume, D., An Inquiry Concerning Human Understanding, London, 1748

جـ ـ مذهب الظاهراتية Phenomenology والإستدلال الأيمانى فالظاهراتية مذهب فلسفى مصحوبا بهدف انطولوجى (وجودى) كونى وإذا كانت الفلسفة العقلية لاتعنى إلا بالفكر المجرد ، فالظاهراتية هى شكل من أشكال الوعى الصاعد إلى أعلى النشاطات العقلية والروحية فالتجربة الدينية لايمكن أن ترتبط بتلك الحقيقة كما يقدمها لنا المذهب العقلى ، وكان أول من إستخدم مصطلح الفينومينولوچيا هو العالم الرياضى الفلكى جوهان هنرى لامبرت Lambert فى كتابه " الأورجانون الجديد " ثم إستخدمه كانط Kant ليعبر به عن عالم الظواهر فى مقابل الحقائق ثم جاء ادموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) وطور من مفهوم الفينومينولوچيا فى كتابه بعنوان Ided, General Introduction to pure Phenomenology حيث أن الفينومينولوچيا عنده هى إقامة مذهب فلسفى وصفى يصف باسهاب وعمق كافة الموضوعات فى ماهيتها كما يراها المشاهد نفسه .

د ـ المعرفة الإجتماعية والأنثروبولوجية وهى محاولات علماء الإجتماع والأنثروبولوچيا من أجل تحديد مفاهيم المقولات الرئيسية فى حدود الإستدلال المعرفى برد تلك المقولات وارجاعها إلى مصادر وأصول إجتماعية فقد حدد اميل دوركيم Durkheim مقولات

الفكر بأنها إجتماعية المصدر ، وقد سار على نفس نهج أميل دوركيم المفكر الفرنسي موريس هاليفاكس Hallwacks أمـا كل من رادكليف براون -Radcliff Brown وايفانز بريتشارد Evans Prichard فيؤكدان أن مقولات الفكر تعود الى الحياة الإجتماعية والإرتباط بالنسق البنائي للمجتمع .

ـ راجع فى ذلك :

- Durkheim. E. , Les Formes Elementaires de Lavie Religieuse, Paris, 1912.

- Radcliff- Brown, Andaman Islanders, Free Press, London, 1948.

(٨) جان بول سارتر Jean Paul Sartre فيلسوف فرنسي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) إقترن اسمه بالفلسفة الوجودة والتى حدد معالمها فى كتابه بعنوان : الوجود والعدم عام ١٩٤٣ وتركز فكرة الوجودية على أن الوجود نفسه بلا عقل ولا هدف ولا إتجاه ولا أفكار كبرى ، وهذا الوجود هو الحقيقة الوحيدة ، وهذا الوجود يجب على الإنسان أن يقبله ، ومنه يصنع حياته عن طريق الاختيار المستمر ، فالفرد إذا نظر إلى داخل نفسه فإنه يغير الذات التى يحاول فهمها ، ويفضل سلوكه وإستخدام قوة إرادته يقرر من يكون وماذا يكون ، أن لديه الحرية فى الإختيار ، ولكن هذه الحرية مفروضة عليه .

فمفهوم الحرية عند سارتر ليس معناه أننى حر تماما ، ولكن معناه أننى حر فى إختيار ما يعجبنى من الأفعال ، وأنا عندما أختار أن أقوم بشئ فإن هذا الإختيار صورة لحريتى ، وإذا اخترت أن تكون مهندسا وليس أديبا ، فأنت عليك أن تتحمل بعد ذلك نتيجة هذا الإختيار بنتيجته النجاح أم الفشل .

الإنسان إذن وحيد فى الكون ، ليس له ما يعتمد عليه إلا نفسه (وهذا قول الوجودية الذى يتنافى بالطبع مع القيم الإيمانية بالله) والإنسان إذن مسئول عن نفسه ، لأن له عقلا يفهم به أغلال الحياة ، وله ارادة عاقلة يحطم بها هذه الأغلال ، كل مافى الطبيعة عبد مسير إلا الإنسان ، فهو وحده مخير ، وله عقل فهو مختار ، وهو إذن مسئول عن نفسه وعن أخوته فى الإنسانية .

ـ راجع فى ذلك :

ـ هنرى توماس ودانالى توماس ، أعلام الفكر الأوروبى ، الجزء الثانى ، ترجمة عثمان نويه ، دار الهلال ، فبراير ١٩٧٧م ، القاهرة .

- Jean- Paul Sartre, Being and Nothingness, Washington Square press, New York, 1966.

٩ ـ يشير مبحث ذاتية الجوهر أو المتفرد كما جاء فى قاموس الفلسفة على النحو التالى:

Eidetic: (Ger. eidetisch) In Husserl: Of or pertaining to an eidos or to eide. Eidetic Existent : anything falling as an example within the ideal extension of a valid eidos, e. g, an ideally or purely possible individual, (Purely) eidetic iudgments: Judgments that do not posit individual existence, even though they are about something individual, Eidetic necessity : an actual state of affairs, so far as it is a singularization of an eidetic universality. E.g., This color has (This) brightness, so far as that is a singulariztion of all eidetically possible examples of color have brightness, Eidetic possibility: see eidos. Eidetic reduction: see phenomenology . .

ـ تترجم كلمة Eidetic بأنها طريقة منهجية بحثية فى مثاليات جوهر الأشياء ـ وهى من إجتهاد المؤلف ـ لاسيما وأن كلمة Eidetic لم نعثر لها على ترجمة عربية فى غالبية المراجع والقواميس المتداولة ، وتعود الكلمة كما جاءت فى القاموس الفلسفى إلى المفكر الألمانى ادموند هرسرل Husserl والتى عبر عنها من خلال الوجود فى ذاته ، والمثالية فى ذاتها ، والعدالة فى ذاتها ، الفردية فى ذاتها ، تفرد الألوان فى طبيعتها ، تفرد الظواهر فى ذاتها ، لدرجة أن علماء النفس الألمان أمثال E.R. Jaensch قد إستخدموا المفهوم بمعنى Eidetic Imagery منذ عام ١٩٢٣ .

(١٠) للمزيد حول آراء ميرلو بونتى أنظر :

- M.Merleau- Pontym ; Phenomenology of Perception, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

(11) Pierre Thevenaz, What is Phenomenology? (ed.), James M, Edie, Quadrangle Books Inc., Chicago, 1962 ,

(١٢)سورين كيركجارد S.Kierkegaard (١٨١٣ ــ ١٨٥٥) مــفكر دانمركى الأصل ، يعتبر المؤسس الأول للوجودية المسيحية ، يرى أن الإنسان فى سعيه للبناء المعرفى ينتقل من الحسى إلى الأخلاقى ثم إلى الدينى ، وأن الإنتقال من الحسى إلى الأخلاقى قد يتم تلقائيا مقرونا بتطور الإنسان ونموه . أما الإنتقال من الأخلاقى إلى الدينى ، فلا تتم إلا بواسطة قفزة عاطفية هائلة إلى المجهول ، يلتمس فيها الإنسان أن يكون بين يدى الله .. ويؤمن به .

ـ راجع فى ذلك :

على عبد المعطى محمد ، سورين كيركجارد : مؤسس الوجودية المسيحية ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ ، الاسكندرية .

(13) David M . Rasmussen, Mythic - Symbolic Language and Philosophical Anthropology: A Constructive Interpretation of the Thought of Paul Ricoeur, Martinus Nijhoff, The Hague, Nether Lands, 1971, PP 51 - 59.

والمعروف أن ديفيد راسموسين قد حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة شيكاغو عام ١٩٦٨ وقام بالتدريس فى جامعات Drake والكلية الجامعية ببوسطن Boston College بالولايات المتحدة ، كما عمل لفترة رئيسا لتحرير مجلة التأويلات أو التفسيرات الثقافية Journal Cultural Hermeneutics.

(14) - Ibid, PP.87-91.

(١٥) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op, Cit, P.397.

(١٦) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur , Fallible Man , Translated by : Charles Kelbley, Henry Regnery, Co Chicago , 1965, PP.74-78.

(١٧) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op, Cit, P.86.

(١٨) سليمان مظهر ، أساطير من الشرق ، الألف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الصحافة ، ١٩٩٧ ، القاهرة، ص : ٩ ـ ١١ .

ـ أنظر فى ذلك :

(19) Mircea Eliade, Myth and Reality, Harper and Row, New York, 1963, P,64.

(٢٠) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, The Symbolism of Evil, Op. Cit., pp.164-171

ـ محمد حسين دكروب ، أنثروبولوجيا الحداثة العربية : منطلقات نقدية ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ، ١٩٩٢ .

الفصل العاشر

البحـــــث الأركيولوجى*

- تمهيـد .

أولا ـ تعريفات الأركيولوجيا .

ثانيا ـ مجال البحث الأركيولوجي .

ثالثا ـ أهمية البحث الأركيولوجي .

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / نادية أحمد محمد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

الفصل العاشر

البحـــث الأركيولوجـــى *

- تمهـيد :

نحاول فى هذا الفصل أن نعرض تعريفات الأركيولوچيا ، ومجال البحث الأركيولوچى ، ثم نتعرض لأهمية هذا البحث وأهدافه .

ويبدو من المفيد أن نحدد ماهية الأركيولوجيا لمعرفة ماإذا كانت علما مستقلا بذاته ، وهل هى نوع من التاريخ أم الأنثروبولوجيا ، أم أنها مجرد نوع من الأداء الفنى *Technique* والأسلوب الإجرائى الحقلى ، هذا التحديد يؤثر على طبيعة الموضوعات التى يتناولها البحث الأركيولوچى ، وطبيعة المادة وإستخداماتها .

من ناحية أخرى يمكن أن نقسم الأركيولوچيا إلى ثلاثة أنواع هى :

الأركيولوچيا الى ماقبل تاريخية والتاريخية ثم الأركيولوجيا الحديثة ، أو كما تسمى الأركيولوجيا الأنثروبولوچية ، وهل هذه الأنواع متميزة ، ولكن منها كيان خاص أم أنها تتكامل معا ، وتتشكل فى النهاية علما واحدا .

ننتقل بعد ذلك إلى التعرف على مجال البحث الأركيولوچى فى كل من هذه الأنواع الثلاثة ، ونعنى بالمجال النطاق الجغرافى للبحث من ناحية والعمق الزمنى الذى يتوغل فيه من ناحية أخرى ، وفى هذا الصدد يهمنا أن نتعرف على التطورات التى حدثت فى المجال البحثى للأركيولوچيا من حيث الإمتداد والإتساع الجغرافى ، وكذلك التوغل الزمنى فى الماضى السحيق .

وأخيرا نتعرض لأهمية البحث الأركيولوچى الذى يهدف إلى دراسة الماضى سواء كان ماضى ماقبل التاريخ ، أو الماضى التاريخى ، أو دراسة حاضر

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / نادية أحمد محمد مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

المجتمعات الحالية ، وإذا كان البحث الأركيولوچى لم يعد قاصرا على دراسة الماضى بل إمتد إهتمامه ليشمل الحاضر فما هى مسئوليته لتسجيل الثقافات المادية فى المجتمعات المعاصرة وذلك قبل أن تندثر وتصبح ماضيا بائدا ، وما هى حدود مساهمة الأنثروبولوجيا فى هذا الصدد ، وكيف يمكنها أن تستفيد من الأهداف والنتائج الأركيولوجية ومدى تأثير دراسات الأركيولوجيا على فهمنا لثقافات الإنسان القديم .

أولا ـ التعريفات :

يشتمل تعريف أى علم من العلوم على تحديد طبيعة موضوعات الدراسة فيه، والتساؤلات التى يحاول الإجابة عليها ، ونوع المادة التى يتم جمعها ، وهذا كله يتحدد فى ضوء الأهداف التى يرمى هذا العلم إلى تحقيقها .

وإذا نظرنا إلى مصطلح الأركيولوچيا *Archaeology* من الناحية اللغوية يمكن ترجمته حرفيا إلى *Archeo* أو *Archaeo* وتعنى قديم أو بائد أو منقرض ثم *Logy* وتعنى علم ، وبهذا يكون معنى المصطلح فى مجمله : العلم المختص بدراسة العاديات أو الآثار القديمة . والواقع أننا لا نستطيع حصر جميع تعريفات الأركيولوچيا ، وإن كنا نستطيع القول بأنها تتناول الأركيولوچيا عموما أما بوصفها علما مستقلا له كيان ومناهج وأساليب خاصة فى البحث أو باعتبارها فنا يستخدم أساليب تقنية لجمع وتحليل المادة ، وقد تنظر تعريفات أخرى إلى الأركيولوچيا على أنها نوع من العلم والفن معا ، وهناك نوع آخر من التعريفات يعتبر الأركيولوچيا نوعا من التاريخ أو الأنثروبولوچيا .

ومن أمثلة التعريفات التى تعتبر الأركيولوچيا علما مستقلا : تعريف وولتر تيلور *W. Taylor* (١٩٤٨) : " الأركيولوچيا ليست تاريخا ولا أنثروبولوچيا ، ولكنها علم مستقل ، ويتكون من منهج ومجموعة من الأساليب الفنية المتخصصة لجمع وإنتاج المادة الثقافية " (١) .

---
(1) Cleator, P.E., 1976 , Archaeology in the Making, P. 15 .

فالأركيولوچيا فى تعريف وولتر تيلور هى أسلوب تقنى ، والأركيولوچى ماهو إلا فنى يطبق هذا الأسلوب للحصول على مادة . وعندما يقوم باستخدام هذه المادة لتحقيق أهداف منحددة فإنه يصبح مرتبط بالعلم الذى يستخدم تصوراته ويخدم أهدافه (٢) .

أما هاموند *Phillip C.Hammond* (١٩٦٣) فيعرف الأركيولوچيا بأنها " الدراسة العلمية للآثار القديمة ، أو البقايا المادية للحياة الإنسانية القديمة . وسواء أكانت فرعا من الأنثروبولوچيا أم التاريخ فإن هذا لا يزال موضع جدل ، وعلى أية حال فإن الأركيولوچيا تشتمل على كل الثقافة القديمة من عمارة وفن وصناعة وفخاريات وتاريخ " .

تعريف آخر لـ بيك *Leo Biek* (١٩٦٣) يحدد الأركيولوچيا بأنها " علم لأنها تفحص بموضوعية ، وتستقى النتائج ، ثم تختبرها فى حقل الدراسة " .

ويعرف لويس بينفورد *Lewis Binford* الاركيولوچيا بأنها " العلم الذى يهتم بوصف وتفسير الإختلافات والمتشابهات الملاحظة فى السجل الأركيولوچى " .

وهناك نوع آخر من التعريفات ينظر إلى الأركيولوچيا باعتبارها علما وفنا معا مثال ذلك تعريف هال *H.R. Hall* (١٩٢٩) للأركيولوچيا " بأنها علم وفن فى نفس الوقت ، فهى لابد أن تكون فرعا علميا منظما يقوم به باحثون مدربون تدريبا علميا حقيقيا فى موضوع محدد هو بقايا الأنشطة الإنسانية القديمة ، كما أنها لابد أن تكون الفن الذى يتعامل مع هذه البقايا بطريقة علمية ، تلك البقايا التى يعثر عليها بالتنقيب فى الأرض حيث دفنت وحفظت والتى يمكن نشرها بإعتبارها مادة خاصة بالجنس البشرى " .

ويعرفها فاجان *Brain M. Fagan* (١٩٧٢) بأنها " مجموعة من المناهج

(2) Hester, Heizer & Graham , 1975 , Field Method in Archaeology, P. 4 .

والأساليب الفنية لدراسة الإنسان فى الماضى سواء أكانت علما أم فنا ، جزءا من الأنثروبولوچيا أو التاريخ " (٣) .

والأركيولوچيا عموما هى دراسة للإنسان على أوسع نطاق ، بحيث تشتمل هذه الدراسة على محاولة التعرف على حياته اليومية ، عاداته الدينية ، فنونه ، وصناعاته ، مواطن الإقامة والأنشطة التى مارسها ، ثم دراسة علاقته بالبيئة المحيطة ، وتهدف الأركيولوجيا إلى إعادة رسم صورة كاملة بقدر الإمكان لماضى الحياة الإنسانية من خلال جميع الأدلة المتاحة ، متبعة فى ذلك أسلوب المحقق *detective* الذى يهتم بكل شئ حتى لو بدى تافها أو سطحيا ، كما أنها تستعين بأساليب ومناهج من العلوم الأخرى وذلك بعد تطويعها لتلائم طبيعة المادة الأركيولوچية(٤) .

أما الأركيولوچيا التاريخية *Historical Archaeology* فهى دراسة المواقع السكانية التى ترجع إلى فترة التاريخ المكتوب ، وهذه الدراسة تستخدم كل من المادة الأركيولوچية والتاريخية ، وليس معنى هذا أنها نوع مختلف من الأركيولوچيا (٥) وإن كانت تعتمد على نوع مختلف من المادة ذات طبيعة خاصة ونعنى بها الوثائق التاريخية المتاحة ، وتساعد الأركيولوچيا على سد الثغرات فى هذه الوثائق وإستكمال نواحى النقص فيها ، وتعمل على التحقق منها وضبطها ، بل يمكن إعتبار المادة الأركيولوچية ذاتها وثائق تاريخية وليست مجرد إيضاح للوثائق المكتوبة (جوردون تشايلد ١٩٥٦ *V.G.Childe* (٦) .

فالأركيولوچيا علم تاريخى لأنها تتعامل مع السلوك الإنسانى الملاحظ خلال الزمن ، من خلال المصادر والوثائق المكتوبة التى تعطينا المؤشرات الدالة على

---

(3) Cleator, Op. Cit., PP. 14 - 17 .
(4) Piggott, S., 1935 , Progress of Early Man, PP. 3 - 7 .
(5) South, S. 1977, Method and Theory in Historical Archaeology, PP. 1 - 2 .
(6) Cleator, Archaeology in the Making, Op.Cit., P. 15 .

الماضى[٧] .

وتعتبر أركيولوجيا ماقبل التاريخ *Prehistorio* دراسة للثقافات المبكرة *Early Cultures* فى الفترات السابقة على كتابة التاريخ ، وتسجيل الأحداث والتطورات فى مجتمع معين ، والأركيولوجى يدرس هذا التاريخ غير المسجل فى ضوء بقايا الصناعة الإنسانية المسماه بالأدوات المصنوعة *Artifacts* وبقايا الأبنية والفخار ، وكذلك بقايا المتاع التى يعثر عليها مع المتوفى فى القبر[٨] .

ويستخدم مصطلح ماقبل التاريخ للإشارة إلى ٩٩ ٪ من ماضى الجنس البشرى ، وهذه فترة طويلة للغاية تقدر بحوالى ثلاثة آلاف سنة منذ إستطاع الإنسان أن يصنع الأدوات *Tools* ، بينما لم يعرف إختراع الكتابة إلا منذ حوالى ٥,٠٠٠ سنة فقط وهذا يبين مدى أهمية فترة ماقبل التاريخ نظرا لطولها ولأهمية الأحداث والتطورات التى وقعت خلالها[٩] .

وأحد أقسام ماقبل التاريخ يطلق عليه التاريخ الأصلى أو الأول *Proto-history* وهو يعنى بدراسة الشعوب التى تتوافر عنها مادة معروفة من خلال البيئة *Medium* التى تعيش فيها الشعوب المجاورة والتى وصلت إلى مرحلة تاريخية قبل أن تكون لديها أية سجلات مكتوبة ، مثال ذلك الألمان وسكان فرنسا القديمة (بلاد الغال *Cauls*) فى القرون السابقة على الغزو الرومانى . وهناك قسم آخر يسمى باليونتولوجى *Human Paleontology* أو *Palaeontology* ، وهو يعنى بدراسة بقايا العظام البشرية ، وأحيانا يعرف بأنه دراسة كل ما يتعلق بأفراد ثقافة قديمة محددة ، ويشمل هذا فنونهم وصناعتهم وكذلك سماتهم الفيزيقية[١٠] .

---

(7) Woodburg, R., 1972, Archaeology : The Field, in Internatioal Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 1 , P . 378 .
(8) Shapiro, L.H., 1956, Man, Culture and Society, P. 22 .
(9) Barnouw, V., 1971, Ethnology : An Introduction to Anthropology, P.6 .
(10) A Vayson De Pradenne, 1940 , Prehistory, Translated by : Ernest F. Row, P. 11 .

وتهتم أركيولوچيا ماقبل التاريخ بوصف وتحليل الانساق السوسيوثقافية البائدة ، وهى تتفق فى أهدافها مع فروع الأنثروبولوچيا الأخرى ، تلك الأهداف التى ترمى إلى تفسير كل من التطور الفيزيقى والثقافى للإنسان (١١) . والواقع أن ماقبل التاريخ هو دراسة إجتماعية لا تهتم فقط بالأفراد وعلاقاتهم أو بالمجتمع فقط ولكنها دراسة تعنى بالتدرج الطبقى داخل المجتمع والتنظيمات المحلية والعلاقات القائمة بينها ، وعلاقتها بالعالم الطبيعى الذى تكون فيه هذه المجتمعات جزءا متكاملا . إلا أن ماقبل التاريخ هو أساسا دراسة تاريخية لأنه يتعامل مع الزمن كبعد رئيسى وأساسى (١٢) .

ولايزال ماقبل التاريخ علما جديدا ، ولم يطور بعد بدرجة كبيرة ، وقد تعرض ومازال لنقد شديد ، وذلك لأن كثيرا من رجال الثقافة والعلم لايزالون يتشككون فى أمره ويترددون فى أصباغ الصبغة العلمية عليه وإعتباره علما ، وذلك لأن هناك عقبات تقف فى طريق تطوره وتحقيق نتائج مؤكدة فيه ويمكن حصرها فيما يلى :

١ ـ تحديد أو قصر ماقبل التاريخ على الجزء الغربى من العالم القديم ، ولايزال هذا تقليدا متبعا حتى الآن ، وربما يرجع هذا إلى حكم الضرورة ثم إلى نقص الوثائق ، وأخيرا بحكم العادة نظرا لأن هذه المناطق قد أصبحت مطروقة ومعروفة مما يجعل دراستها أيسر من غيرها ، إلا أن التطور الإنسانى الثقافى قد شمل العالم بأسره ، ولا نستطيع تتبع هذا التطور واقتفاء أثره إلا إذا كان مستوى الأبحاث متماثلا أو متناظرا فى جميع مناطق العالم .

٢ ـ محاولة تحديد علم واحد عام لفترة ماقبل التاريخ وتطبيقه على دراسة جميع مناطق العالم أمر يتنافى مع الحقيقة ، لأننا لانستطيع تحديد بداية ونهاية

---

(11) Longacre, W., 1972 , Archaeology : Research Methods, In Inter.. Encyc.. , Vol. 1 , P. 386 .

(12) Clark, G., 1960, Archaeology and Society, PP. 25 - 26 .

واحدة لهذه الفترة في كل المناطق ، لأن إنتقال مناطق العالم من فترة ماقبل التاريخ إلى ما يسمى بعصر التاريخ المكتوب لايمكن تحديده تحديدا قاطعا نتيجة لإختلاف معدل أو سرعة الإنتقال من العصر الأول إلى الثانى ، كما أن إستجابة الشعوب المختلفة للتطور ليست واحدة بحيث أن هناك بعض مناطق لاتزال تمثل عصر ماقبل التاريخ فى النواحى الثقافية والتكنولوجية (١٣) .

النوع الثالث من الأركيولوچيا هو الأركيولوچيا الأنثروبولوچية *Anthropological Archaeology* التى تعرف بالاشارة إلى الأنثروبولوچيا باعتبارها جزءا منها فإذا كانت الأنثروبولوچيا تدرس الإنسان من النواحى الفيزيقية والثقافية والإجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها ، فإن الأركيولوچيا تختص بدراسة الإنسان القديم وثقافته ، وبهذا يمكن أن نطلق عليها أنثروبولوچيا الإنسان القديم .

والأركيولوچيا الأنثروبولوچية قديمة قدم الأنثروبولوچيا وتتعامل مع شتى البقايا الإنسانية القديمة فى أى مكان من العالم ـ وعلام " الأركيولوچيا ماهو إلا أنثروبولوچى ينقب عن البقايا المادية للثقافات الماضية ويحاول من خلالها إعادة تركيب تاريخ الإنسان منذ الماضى البعيد ، وتحديد الأنساق الثقافية فى العصور والمناطق المختلفة من العالم (١٤) .

ـ ويعرف كروفورد *G.S.Crawford* (١٩٥٣) الأركيولوچيا بأنها " مجرد الزمان الماضى *Past tense* للأنثروبولوچيا" (١٥) فالأركيولوچيا هى أحد الأساليب الأساسية التى تستعين بها الأنثروبولوچيا فى دراسة التجربة الثقافية لإنسان ماقبل التاريخ . فهى العلم الذى يدرس تاريخ الثقافة *Culture - History* والعمليات الثقافية *Cultural - Processes* (التى تشير إلى

---

(13) A Vayson De Pradenne, Op.Cit., P. 6 .
(14) Deetz, J., 1967, Invitation to Archaeology, P. 3 .
(15) Cleator, Archaeology in the Making , Op.Cit., P. 15 .

العلاقات الدينامية الفعالة بين مكونات النسق وبين البيئة وهى دراسة حديثة ترجع إلى العقد الماضى فقط) وكذلك يدرس أساليب الحياة فى الماضى *Past Life ways* من خلال البقايا المادية ، على إعتبار أن كل المجتمعات الإنسانية يتخلف عنها شواهد وأدلة لا تعكس النواحى المادية فقط ولكنها تشير أيضا إلى السلوك والمعتقدات والنظم الإجتماعية . وهذه جميعا موضوعات إهتمام للأنثروبولوجيا(١٦) .

وتاريخ الثقافة ماهو إلا أحد فروع التاريخ العام ، ويتناول التطور التاريخى للشعوب التى لا تعرف القراءة والكتابة *non - Literate* سواء فى الماضى أو الحاضر ويدخل هذا الموضوع ضمن إهتمام كلا من علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوچيا . إلا أنه لايوجد إختلاف حقيقى من حيث المبدأ بين التاريخ الذى يتناوله المؤرخ المتخصص ، والتاريخ عند مؤرخ الثقافة ، وإن كان هناك إختلاف فى مصادر المعلومات ، فدارسى تاريخ الثقافات يستخدمون مصادر غالبا ما تكون تخمينية أو إفتراضية *Conjectural* ، وهذا هو رأى المؤرخين الذين يعترضون على إتساع نطاق مجال التاريخ من خلال المناهج أو المدارس الأنثروبولوچية وبخاصة مدرسة الوظيفيين الإجتماعيين ، وهؤلاء المؤرخون لا يعترفون إلا بأهمية التاريخ الخالص أو الدليل المكتوب *documentary-evidence* بينما يعترضون على التاريخ الظنى الذى يستعين به الأنثروبولوچيون المهتمون بدراسة تاريخ الثقافة ، وبالتحديد تاريخ ثقافات الشعوب البدائية الذى تختص الأثنولوچيا بدراسته وكذلك تاريخ ثقافة شعوب ماقبل التاريخ وهو أحد موضوعات البحث الأركيولوجى ، ولما كان الهدف الأول للأركيولوچى أو مؤرخ الثقافة هو فهم التطور الثقافى فإنه يحتاج إلى مادة غير ثقافية تتعلق بالتغيرات البيئية والتمايز السلالى البرى والعوامل الديموجرافية (١٧) .

وإذا كان ما قبل التاريخ (وهو أركيولوچيا فترة ماقبل معرفة القراءة

(16) Chard, C., 1975, Man in Prehistory, P. 14 .
(17) Greenberg, J., 1972 , Culture History In Enternational Encyclopedia, Vol.5 , PP. 448 - 449 .

والكتابة التي سادت مناطق العالم والتي يحقق الكثير منها إلآن إستقلاله) والأركيولوجيا هما شئ واحد فإن ماقبل التاريخ هو جزء أو جانب من الأركيولوچيا والجانب الآخر يعرف بالباليو اثنولوچيا أو الباليو اثنوجرافيا *Paleoethnography- Pleoethnology* أو كلاهما معا . والمعروف أن كلا من الأثنولوچيا والأثنوجرافيا فروع من الأنثروبولوچيا الثقافية التي تهتم بدراسة الإنسان الحالي في حدود ثقافته وتعرف الإثنوجرافيا بأنها الدراسة الوصفية للثقافات كل على حده ، أما الأثنولوچيا فهي الدراسة التحليلية المقارنة في ضوء المادة الأثنوجرافية الوصفية ، بهدف التوصل إلى تعميمات نظرية بصدد الثقافة في عمومها وكليتها .

أما الباليو أنثروبولوچيا فهو إتجاه حديث ، ويشمل كلا من الجوانب التاريخية والأثنولوچية لثقافات ماقبل التاريخ ، وأيضا الجوانب البيولوچية . ويشترك كل من الأثنولوجيا والأثنوجرافيا من ناحية ، والباليو اثنولوچيا والباليو اثنوجرافيا من الناحية الأخرى في دراسة ثقافة الإنسان ، ويتمثل الإختلاف بينهما في مناهج التحليل المستخدمة ، ويرجع هذا إلى إختلاف نمط المادة التي تخضع للتحليل وإن كانت النتائج متشابهة في الحالتين ، فالمادة الأركيولوچية تعكس سلوك الإنسان القديم الذي تعبر عنه الأشياء التي صنعها وخلفها لنا ، وبذلك يمكن التعرف على ثقافة هذا الصانع [١٨] .

وهكذا بدأت الأنثروبولوچيا الأركيولوجية تحتل مكانا بارزا بين فروع الأنثروبولوچيا الأخرى ، وذلك نتيجة للإهتمام البالغ الذي حظيت به أركيولوچيا ماقبل التاريخ ، والذي تمثل في ظهور عدد كبير من الكتب والدراسات التي تناولت تاريخ ومنشأة هذا العلم ، والإنجازات التي تمت فيه على أيدي الأنثروبولوچيين الأركيولوچيين بوجه خاص وعلماء الآثار بوجه عام [١٩] .

---

(18) Deetz, J., Op.Cit., PP. 7 - 8 .

(١٩) أحمد أبو زيد، ١٩٧٩ ، أصوات من الماضي ، عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، ص ١٧٥ .

مما سبق يمكننا أن نضع تعريفا إجرائيا للأركيولوچيا :

فالأركيولوچيا هى علم مستقل وفرع من فروع المعرفة يقوم به باحثون مدربون تدريبا علميا ، يقومون بإجراء الدراسات العلمية للآثار القديمة أو البقايا المادية للنشاط الإنسانى فى الماضى ، والتى يعثر عليها أثناء عمليات الحفر والتنقيب ، وهذا العلم له منهج وأساليب فنية متخصصة لجمع وإنتاج المادة الثقافية ، ثم فحصها بموضوعية وإستخلاص النتائج وإختبارها فى حقل الدراسة ، هذه المادة يمكن أن يستخدمها الأنثروبولوچيون والإقتصاديون والنقاد الفنيون أو أى دارس يهتم بالإنسان وأنشطته وإنجازاته المختلفة ، ولهذا تعرف الأركيولوجيا بأنها علم وفن معا .

وكذلك فإن الأركيولوچيا هى الدراسة المنهجية للإنسان من خلال الآثار القديمة لما قبل التاريخ ، والوثائق المكتوبة فى العصور التاريخية ، ثم من خلال الدراسات الأثنولوچية للثقافات الحالية ودراسة المجتمعات البدائية التى تعيش الآن ولاتزال تحتفظ بطفولة الجنس البشرى ، وهكذا يكون الإرتباط بين الأنواع الثلاثة للأركيولوچيا منطقيا وعمليا ويحقق فى النهاية فهما أفضل للإنسان وتطوره الثقافى فى أى مكان فى العالم منذ فجر التاريخ بل وقبل التاريخ وحتى العصر الحالى ، وذلك لأن ٩٩ ٪ من تاريخ هذا العالم يقع فى فترة ماقبل التاريخ منذ ظهر الإنسان الذى يقدر عمره بحوالى ثلاثة ملايين سنة ، والذى لم يترك لنا مايدل عليه سوى بقايا نشاطه ومخلفات اقامته ، وهذه الفترة الطويلة الغنية بأحداثها تختص أركيولوجيا ماقبل التاريخ بدراستها وتحاول إعادة بناء أساليب الحياة القديمة ورسم صورة للثقافة التى كانت سائدة ، إلا أن هذه الصورة غالبا ماتكون ناقصة إلا فى المناطق التى تعمل فيها الأركيولوچيا التاريخية وتصبح الوثائق المكتوبة وسيلة متاحة تساعد على رسم صورة أكثر كمالا ووضوحا للماضى ، فالمادة التاريخية تساعد على سد الثغرات فى المادة الأركيولوچية وتجعل النتائج المستقاه أكثر دقة وضبطا .

أما الأنثروبولوچيا أو الأركيولوچيا الأنثروبولوچية فهى فرع حديث نسبيا يعكس التكامل بين الدراسات الأثنولوچية والأركيولوچية . فاذا كانت الأنثروبولوچيا الثقافية تدرس ثقافات الإنسان وأساليب حياته فى الماضى والحاضر فإن الدراسات الأثنولوچية يمكن أن تعطى الكثير للدراسات الأركيولوجية، حيث أنه عن طريق المقارنة بين الثقفات الأركيولوچية ، حيث أنه عن طريق المقارنة بين الثقافات الأركيولوچية القديمة والثقافات الأثنولوچية المعاصرة نستطيع أن نعرف الكثير عن التطور والإنتشار الثقافيين ومن هنا يمكن إعادة بناء صورة لما قبل التاريخ ولأساليب الحياة والعمليات الثقافية القديمة ، لنتعرف على مدى ما وصل إليه الإنسان من تقدم ، ونصبح أكثر قدرة على رؤية المستقبل ، وهكذا تساهم الأنثروبولوچيا فى إستكمال وإيضاح الصورة الناقصة لما حدث فى فترة ماقبل التاريخ عن طريق دراسة المجتمعات البدائية التى تعيش الآن ولا تزال تحمل سمات عصر ما قبل التاريخ وثقافات العصور الحجرية البائدة مما يحقق فى النهاية مزيدا من الفهم للإنسان وللثقافة فى كل زمان ومكان .

ثانيا ـ مجال البحث الأركيولوچي :

تعتبر الأركيولوچيا أكثر فروع الأنثروبولوچيا العامة ذيوعا ، وهى ترتبط فى أذهان الكثيرين بالمدن المطمورة والمقابر المملوءة بالكنوز وبقايا الحضارات المفقودة والمجال الزمنى والجغرافى للأركيولوچيا بأنواعها الثلاثة لا يمكن تحديده تحديدا قاطعا نظرا لتداخلها ، وإن كنا نستطيع تحديد مجال بحث الأركيولوچيا التاريخية بشكل أكثر لأنها تختص بدراسة الفترة الزمنية التى تقدر بحوالى ٥,٠٠٠ سنة منذ بداية معرفة الإنسان بالكتابة وتدوين التاريخ ، وهذه الوثائق المكتوبة تتوفر فى مناطق الحضارات الكلاسيكية وبالذات فى مصر والعراق وروما واليونان .

أما المجال البحثى فى أركيولوجيا ماقبل التاريخ فقد إتسع وحدثت فيه تطورات كثيرة [٢٠] . فلم يعد هذا المجال الذى إزدهر فى أوروبا حقيقة مقصورة

(20) Robert Mcc. Adams, 1976, Archeological Research Strategies , Past and Present, In Physical Anthropology and Archaeology Edited by Peter B., Hammond, P. 167 .

على الأوروبيين ، ولكنها إنتشرت من أوروبا إلى العالم بأسره لدراسة التطور الثقافى مما أدى إلى إتساع مجال الدراسة الجغرافى وإلى جانب هذا الإتساع الكبير بحيث أصبحت الدراسات الأركيولوچية تغطى كل مناطق العالم تقريبا ، فإنه قد حدث تطور فى المجال الزمنى للبحث وزادت المقدرة على تحديد تواريخ أكثر ضبطا للمواقع والبقايا[٢١] ذلك لأنه مع تطور مناهج التأريخ المطلق *absolute dating* كالتأريخ بالإشعاع الكربونى *radioactive Carbon* أصبح من الممكن التوصل إلى تواريخ مطلقة أكثر دقة من التواريخ النسبية [٢٢].

والوحدات الأساسية فى دراسات ماقبل التاريخ هى الجماعات والمجتمعات والقضايا الإجتماعية ، فمحور الدراسة هو الجماعة وليس الأفراد ، ويساعدنا هذا على دراسة العلاقات الإجتماعية ، والتنظيم الإجتماعى والأيكولوجيا ، وهذه الدراسة تساعد على إعادة بناء تاريخ الإنسان ، والتعرف على العمليات الثقافية الأساسية ومدى تأثيرها على حياة الإنسان وتحقيق تقدمه الثقافى والإقتصادى والعلمى ، ويعتبر الإختراع *Invention* أهم هذه العمليات . عند دراسة أحد الإختراعات أو الإكتشافات مثل معرفة الإنسان للنار فإننا لانهتم بمعرفة طريقة أو تاريخ معرفته بها لأول مرة ولكننا نهتم بمعرفة تأثيرها على التقدم الثقافى للإنسان.

وبالإضافة إلى الإختراع فهناك عمليات ثقافية أخرى كالانتشار ، والتغير ، والتنوع ، والإبداع السوسيوثقافى .

وهكذا تحول ماقبل التاريخ من مجرد البحث عن الأصول [٢٣] الى البحث فى العمليات الثقافية ، مما جعله مرتبطا بالاثنولوچيا وهى أحد الفروع الرئيسية للأنثروبولوچيا العامة . [٢٤]

---

(21) Clark, Op.Cit., P. 35 .
(22) Greenberg, Op.Cit., P. 449 .
(23) Chard, C., Op.Cit., PP. 6 - 7 .
(24) Hammond, Op.Cit., P. 167 .

وتعتبر الايكولوجيا الثقافية من المجالات الحديثة فى دراسة مقابل التاريخ حيث تدرس المجتمعات المحلية الماقبل تاريخية من منظور كلى ، وذلك بملاحظة التفاعل بين الأنشطة الإنسانية والكائنات الحية والبيئات المحيطة ، ولدراسة هذا الموضوع فى علاقته بالزمن لابد من ملاحظته الأسباب التى تحدث التغيرات ، وكل من الأسباب والتغيرات يشكل مجال ماقبل التاريخ (٢٥) .

والواقع أنه من الصعب تحديد المجال الزمنى لما قبل التاريخ بصورة حاسمة فى جميع مناطق العالم ، لأن لكل منطقة وضعا خاصا فيما يتصل ببداية ونهاية فترة ماقبل التاريخ ، فقد كان ماقبل التاريخ والتاريخ يعيشان جنبا إلى جنب فى بعض المناطق ، ورغم أن مجال ماقبل التاريخ بدأ ينكمش فإن هناك بعض المناطق لاتزال تعيش عصر ماقبل التاريخ (٢٦) . مثل استراليا وميلانيزيا وبولينزيا ومعظم مناطق العالم الجديد وافريقيا حيث لم تعرف فيها القراءة حتى عهد قريب (٢٧) .

وهنا يمكن أن تساهم الأنثروبولوجيا الأركيولوجية فى إجراء دراسات على الثقافات البدائية التى لم تدخل عصر التاريخ المكتوب مثل حضارة المايا *Maya* وحضارة وادى السند *Indus* .

وقديما كانت الأركيولوجيا تنحصر فى مجال الحفر والبحث عن الكنوز المطمورة واستخراجها ونقلها إلى المتاحف الخاصة والعامة ، وقد إستمر هذا طويلا ثم بدأ مجال البحث الأركيولوجى يتغير تدريجيا من مجرد جمع الأدوات القديمة ووصفها إلى إجراء أبحاث علمية تجيب عن الأسئلة الكبرى المتعلقة بتغير الثقافات وأسباب هذا التغير.

وعندما ظهر مجال الأركيولوجيا كان إهتمامه الأساسى هو إثبات أو تأكيد الإفتراضات الأساسية المختصة بطبقات الأرض وتكوينها والإكتشاف فيها ، وقد

(25) Clark, Archaeology and Society, Op.Cit., PP. 6 - 37 .
(26) Chard, Man in Prehistory, Op.Cit., PP. 7 - 8 .
(27) Barnouw, V. Ethnology, Op.Cit., P. 6 .

كان هذا مطلبا حيويا حتى يمكن ملء الخرائط الشاغرة للقارات بالمكتشفات الأركيولوجية ، وآخرها الحضارة المفقودة والتي إكتشفت في وادي السند عام ١٩٢٠ . وهكذا كان الجانب الأكبر من إهتمام البحث الأركيولوچي ينصب على دور المتاحف في التنقيب وإقتناء الأشياء الجميلة ، ودور هواه جمع التحف والآثار القديمة ، إلا أن هذا النشاط أصبح ممنوعا الآن ، وتحول مجال البحث من هذا المستوى الخاص إلى المستوى العام لأقسام الجامعة ، وبدأ المجال يتسع ويتشعب أكثر نتيجة للرغبة المتزايدة في تحقيق إستنتاجات موضوعية (٢٨) .

ثالثا ـ أهمية البحث الأركيولوچي :

لاشك أنه لايمكن إنكار أهمية البحث الأركيولوچي ، كما أن إجراء مثل هذا البحث أصبح ضرورة ليس فقط من أجل دراسة الماضي كهدف في ذاته ، ولكن من أجل فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل .

وإذا كان للبحث في التاريخ القديم أهمية كبرى في فهم الشئون الإنسانية فإن هناك الآن إعتبارات ملحة تؤكد على أهمية البحث الأركيولوچي في تفسير الحاضر من خلال دراسة الماضي . وتتمثل هذه الإعتبارات في إضطراب الظروف السياسية والصراع الدولي من أجل مصادر الغذاء والثروة ، وكذلك تغير مراكز القوة والتأثير في العالم .

وإذا كانت الأركيولوچيا وهي دراسة للماضي سواء كان ماضي ماقبل التاريخ ، أو الفترة التاريخية أو ماضي بعض المجتمعات البدائية التي تعيش في بعض مناطق العالم خاصة في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتي لا تزال تعيش حياة تكاد تكون بدائية صرفه وتظللها ثقافات تماثل ثقافات شعوب عاشت في فترات غابرة من الزمان ، فإن هذا يبين مدى أهمية البحث الأركيولوچي وضرورة التوسع في إجراءه لتسجيل حياة وثقافات هذه الشعوب (٢٩) .

(28) Hammond, Op.Cit., PP. 167 - 169 .
(29) Rainey, F., 1978 , Archaeology In : Yearbook of Science and Future, P. 256 .

ولما كان الكثير من مناطق العالم والتى يمكن أن تكون مصدرا لجمع مادة أركيولوجية تتعرض الآن للدمار مما يؤدى إلى إبادة كثير من المواقف الأركيولوچية ذات الأهمية القصوى وضياع الشواهد المادية للحياة الإنسانية فى الماضى وذلك نتيجة للتطورات الإقتصادية وأعمال الحفر والبناء عن البترول وطريقة الحرث العميق للأرض والتجارة فى الآثار القديمة ، فإن كل هذا يتطلب ضرورة التنقيب لإنقاذ المواقع الأركيولوجية [٣٠] وهذا يؤكد على أهمية البحث الأركيولوچى ويعتبر البحث الأركيولوچى هو الوسيلة الوحيدة المتاحة التى يعتمد عليها للرجوع إلى الماضى والتعرف على الثقافة ، طالما أن التواريخ التقليدية المنقولة شفاهة ليست سطحية فى عمقها الزمنى فحسب ، ولكنها عرضة أيضا لتحريفات كثيرة بمرور الزمن .

وتظهر أهمية البحث الأركيولوچى فى الأهداف الهامة التى يمكن أن يحققها وهى :

١ ـ تحقيق الضبط المطلوب لنظريات التطور الثقافى ، باعتبار البحث الأركيولوچى وسيلة لإختبار التعميمات فى الأنثروبولوچيا والعلوم الإجتماعية الأخرى التى تعنى بطبيعة الإختراع والإنتشار والتغير ، والسلوك الثقافى والأيكولوچيا البشرية .

٢ ـ إعطاء المادة اللازمة لاختبار الفروض المتعلقة بالبيئة والتطور ، وهى موضوعات تشكل جانبا هاما من إهتمامات الأنثروبولوجيا .

٣ ـ كما أن البحث الأركيولوچى يساعد على التوصل إلى الحقائق البديلة للتصور والتخمين فى موضوعات أصول تربية الحيوان وزراعة النبات ، وبداية الكتابة والتحضر وغيرها من الراحل الحاسمة فى الإتجاه نحو الحضارة .

---

(30) Thomas Charles, 1974 , Archaeology in Britain 1973, In Rescue Archaeology, Edited by Phillip, A., Rahtz, P. 18 .

٤ ـ وهو بخلاف الدراسات الأثرية وجمع التحف ، إستطاع فى أقل من قرن من الزمان أن يمدنا بصورة تفصيلية وشاملة عن أنشطة الإنسان فى كل مناطق العالم منذ بدايات الجنس البشرى (كلارك *Clark* ١٩٦١) اذن فهذا البحث هو أساس الفهم العلمى للإنسان [٣١] .

وهناك ثلاث أهداف رئيسية للبحث الأركيولوجى وهى :

أ ـ تأويل أو بناء تاريخ الوقائع المتسلسلة زمنيا .

ب ـ إعادة بناء أساليب الحياة البائدة .

جـ ـ البحث فى العمليات الثقافية [٣٢] .

وقد أشار تيلور *Taylor* (١٩٤٨) إلى أن إعادة بناء تاريخ الثقافة هو غاية الأركيولوچى ، وذهب باحثون آخرون إلى وجود هدف آخر هو إعادة بناء أساليب حياة الشعوب التى خلفت لنا بقايا أركيولوچية . ثم ظهر بعد ذلك الإهتمام بمشاكل العملية الثقافية والبحوث التتبعية . ويعتبر هذا إتفاقا عاما حول أهداف الأركيولوجيا [٣٣] .

ونظرا لطول فترة ماقبل التاريخ وأهمية أحداثها فانها تعد مجالا خصبا لدراسة تاريخ الثقافة قبل أن تظهر الكتابة كوسيلة لتسجيل الأحداث ، فحتى التاريخ المكتوب فى مجلدات ضخمة بقلم المؤرخين الكلاسيكيين الأوائل نجده فى الغالب تاريخا عسكريا يعطى أقل إهتمام للثقافة والتكنولوجيا والإقتصاديات والكثافة السكانية ، وهكذا لم نستطيع دراسة هذه الموضوعات فى السنوات الأخيرة إلا من خلال البحث الأركيولوچى الذى يعيد بناء الماضى .

بالإضافة إلى هذا فإن قصور المادة التى يمدنا بها التاريخ القديم والذى

(31) Woodburg, Archaeology : The Feild, Op.Cit., P. 378 .
(32) Thomas. H.D., 1974, Predicting the Past, P.3.
(33) Binford, L., 1972, Archaeological Perspectives, In : New Perspectives in Archaeology, Edited by Lewis & Sally Bingord, PP. 5 - 6 .

يركز على تاريخ وسير الأفراد يجعل من العسير تمييز الإتجاهات والعمليات الثقافية والتى تعتبر هدفا من أهداف البحث الأركيولوجى .

وترجع أهمية البحث الأركيولوچى فى فترات ماقبل التاريخ ليس فقط إلى طول هذه الفترات ولكن أيضا لأنها كانت حافلة بالأحداث الهامة ، ذلك لأنه فيما عدا الثورة الصناعية والعلمية (القرن ١٩) فان المنجزات الجوهرية التى حققها الجنس البشرى وقعت فى فترة ماقبل التاريخ مثال ذلك إنتاج الطعام وإختراع النار .

وإذا كان إختراع الكتابة قد لعبت دورا ملحوظا فى تاريخ الفكر الإنسانى فإن الإختراعات والمنجزات التكنولوجية لإنسان مقابل التاريخ كالعجلة ***Wheel*** والتعدين ***Metallurgy*** ، والفخار ***Pottery*** ، وصناعة المنسوجات ***Textiles*** تعتبر الأسس الضرورية التى قامت عليها تكنولوجيا اليوم وجميع الاختراعات الحديثة مما أثر على مقدرات الحياة الإنسانية [٣٤] .

ويساعد البحث الإكيولوكى على جمع مادة أكثر دقة ليس فقط عن الفترات التى ليس لها تاريخ مكتوب ، ولكن أيضا عن الفترات والشعوب التاريخية ، فالبحث الأركيولوچى يسد الثغرات فى التاريخ المكتوب ويستكمل جوانب النقص فيه ، مثال ذلك التنقيب الحديث فى الدنمارك الذى ألقى مزيدا من الضوء على تاريخ الحياة فى العصور الوسطى بصورة أفضل من الوثائق المكتوبة . وأيضا دراسة الحضارات الشرقية القديمة السابقة على العصور الأوروبية الكلاسيكية أو الحديثة [٣٥] .

ويعنى البحث الأركيولوچى بدراسة الأشياء المادية بوصفها براهين أو مؤشرات للأنشطة الثقافية فى الماضى . وهو يحاول من خلال دراسة أنماط الإقامة والشواهد الدالة على المناخ ، ومجموعات الحيوانات والنباتات ***Fauna & Flora*** الخاصة بمكان وزمان معين أن يعيد رسم صورة للأنماط الديموجرافية

(34) Chard, Op.Cit., PP. 5 - 6 .
(35) Clark, Op.Cit., P. 21 .

والتكنولوجيا الأساسية التى تساعد على إستنتاج النواحى الأخرى من الثقافة كالبناء الاجتماعى والدين ، وأن يعيد تركيب العلاقات الزمانية والمكانية للذاتيات أو الكيانات السوسيوثقافية التى يستدل عليها من البقايا المادية . [٣٦]

وتكمن قوة البحث الأركيولوجى وأهميته فيما يقدمه من إسهامات للعلم الأكبر (الأنثروبولوچيا) وذلك لأن أهم أهداف البحث الأركيولوچى هو إعادة تركيب صورة للبيئة القديمة ، وتحليل العلاقات بينهما وبين الأنساق السوسيوثقافية ، ولهذا تصطنع الأركيولوچيا مدخلا مزدوجا أو متعدد النظم *Multidisciplinary* لدراسة هذه الموضوعات [٣٧] .

وللبحث الأركيولوچى جانبان هامان :

- الجانب الأول :

دراسة ماضينا الأكثر حداثة منذ العصر الحجرى الأخير وحتى وقتنا الحاضر ، وهذه الدراسة يمكن اجراؤها بشكل أفضل وأجدى من دراستها فى الأنثروبولوچيا الفيزيقية ، وذلك لأنه بعد وصول الجنس البشرى إلى مرحلة الإنسان العاقل *Homo- Sapiens* فإن المراحل التالية لتطورنا كانت سوسيوثقافية أكثر منها فيزيقية ، فقد إستطاع الإنسان أن يتكيف مع الظروف البيئية المتغيرة لا من خلال التعديلات المستمرة للجينات *Genes* ولكن بمواءمة ثقافته وتطوير أشكال ثقافية وقدرات أكثر تواؤما ، بحيث أن الأسلوب الأساسى للتكيف مع ظروف الحياة المتغيرة ، كان هو إحداث تغيرات فى السلوك السوسيوثقافى وليس فى النواحى الفيزيقية .

- الجانب الثانى :

إستكمال السجل الحفرى القديم الخاص بتطور الإنسان ، ويستعين البحث

---

(36) Greenberg, Op.Cit., P. 451 .
(37) Longacre, Op.Cit., P. 289 .

الأركيولوجى بالسجل الحفرى فى رسم صورة دقيقة توضح طريقة تطور الثقافة مما يساعد على صياغة فروض عن الإتجاهات المستقبلية للتطور السوسيوثقافى ، وكلما اكتمل هذا السجل بتفاصيل أكثر دقة وتعميمات نظرية تخضع للاختبار تكرارا فى ضـــوء حقائق أركيولوجية جديدة ، فإن الأنثروبولوجيا تتقدم كعلم تنبوئي [٣٨] .

إلا أنه حتى الآن لم تستغل إمكانيات الأركيولوجيا بصورة كاملة والسبب الأساسى الذى وجه الإهتمام نحو ضرورة إجراء البحث الأركيولوجى أن الأركيولوجيا إستطاعت حديثا أن تنجز قدرا كبيرا ومفصلا من المعلومات المرتبة بطريقة متسلسلة تسلسلا قاطعا ، ومع هذا فقد ظلت البحوث الأركيولوجية حتى عهد قريب تركز إهتمامها على كم المادة وتراكمها ، وإلى يومنا هذا لاتزال هناك مناطق لها أسبقية دون غيرها فى جمع المادة وتحقيق الضوابط التاريخية المتسلسلة *Chronological* [٣٩].

ـ خاتمة :

تناولنا فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات خاصة بالتعريف ومجال البحث وأهميته ، وإنتهينا إلى تعريف الأركيولوجيا بأنها علم وفن فى نفس الوقت فهى علم مستقل وفرع من فروع المعرفة يقوم باجراء دراساته باحثون مدربون تدريبا علميا ، وهى علم له منهج وأساليب فنية متخصصة لجمع وإنتاج المادة وفحصها بموضوعية وإختبارها للتوصل إلى النتائج .

ثم تناولنا ثلاثة أنواع من الأركيولوجيا بالتعريف : الأول هو الأركيولوجيا التاريخية بوصفها علم تاريخى يتعامل مع السلوك الإنسانى الملاحظ خلال الزمن ولهذا تعتمد على المصادر التاريخية اما أركيولوجيا ماقبل التاريخ فتركز على دراسة الثقافات المبكرة فى ضوء بقايا الصناعة الإنسانية ، كما أنها تهتم بدراسة

(38) Hammond, Op.Cit., P. 165 .
(39) Woodburg, Op.Cit., PP. 378 - 379 .

العلاقات الاجتماعية ، ثم الأركيولوچيا الأنثروبولوچية التى أطلقنا عليها أنثروبولوچيا الإنسان القديم وبحيث يعتبر الأركيولوچى باحث أنثروبولوچى ينقب عن الماضى بهدف إعادة تركيب تاريخ الثقافة والتعرف على أساليب الحياة والعمليات الثقافية فى العصور والمناطق المختلفة من العالم ، كما أن الأركيولوچيا هى أحد الأساليب الأساسية التى تستعين بها الأنثروبولوچيا لدراسة التجربة الثقافية للإنسان ، وإنتهينا إلى وجود إرتباط منطقى وعملى بين أنواع الأركيولوچيا الثلاثة وبحيث يمكننا تعريف الأركيولوچيا بأنها الدراسة المنهجية للإنسان من خلال آثار ماقبل التاريخ ، والوثائق التاريخية ونتائج الدراسات الأثنولوچية للثقافات المعاصرة والشعوب البدائية الحالية .

أما مجال البحث : فقد إنتهينا إلى عدم وجود حدود قاطعة بين الأنواع الثلاثة ، ولكنها متداخلة ومتكاملة والتمييز بينها يتم بهدف خدمة أغراض علمية ومع هذا فقد حاولنا تحديد المجال الزمنى للأركيولوچيا التاريخية بحوالى ٥٠٠٠ سنة وهى فترة التاريخ المكتوب ، والمجال الجغرافى لها يتركز فى مناطق الحضارات الكلاسيكية .

ثم أركيولوچيا ماقبل التاريخ : ووجدنا أن مجال الدراسة قد إتسع فيها وإمتد ليشمل معظم مناطق العالم بعد أن كان محصورا فى القارة الأوروبية ومن الناحية الزمنية فإن دراسة ماقبل التاريخ تمثل ٩٩ ٪ من ماضى الإنسان وهى فترة طويلة وغنية بالمنجزات الهامة .

ثم حددنا مجال البحث فى الأركيولوجيا الأنثروبولوچية من الناحية الجغرافية فى المناطق التى توجد بها ثقافات بدائية تعيش الآن ولاتزال تحتفظ بسمات مجتمعات ماقبل التاريخ مثال ذلك بعض مجتمعات افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وقد حدث تحول فى مجال البحث الأركيولوچى من مجرد الإهتمام بالحفر عن الأشياء الغريبة بهدف عرضها فى المتاحف إلى مرتبة البحث العلمى والإجابة عن الأسئلة الكبرى الخاصة بالتطور الثقافى ، كما زادت القدرة على

التـوغل فى الماضى بفضل الأساليب الحديثة للتأريخ المطلق وأصبح البحث الأركيولوجى يشمل العالم بأسره .

وأخيرا تناولنا أهمية البحث الأركيولوجى وأهدافه التى لايحققها أى بحث آخر فى نطاق الأنثروبولوچيا والتى يمكن إختصارها فى النقاط التالية :

١ ـ القدرة على تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل فى ضوء دراسة الماضى.

٢ ـ إنقاذ المواقع التى تتعرض للدمار وإبادة كثير من الأدلة الهامة نتيجة للتطورات الحديثة فى مجالات الصناعة والزراعة والعلم .

٣ ـ ضبط نظريات التطور الثقافي، وتهيئة المادة لاختبار الفروض الخاصة بالبيئة والتطور والتغير الثقافى ، بالإضافة إلى تقديم الحقائق البديلة للتخمين فى موضوعات الأصول والبدايات والمراحل الحاسمة نحو الحضارة .

٤ ـ الكشف عن أنشطة الإنسان فى كل مناطق العالم ، منذ بدايات الجنس البشرى ولهذا يعتبر أساس الفهم العلمى للإنسان .

٥ ـ يسد الثغرات فى التاريخ المكتوب ، ويستكمل جوانب النقص فيه ، بل ويضبط هذا التاريخ ويتحقق من صحته .

٦ ـ تكملة السجل الحفرى ورسم صورة دقيقة لتطور الثقافة وصياغة الفروض الخاصة بالاتجاهات المستقبلية للتطور السوسيوثقافى .

٧ ـ دراسة عصر ماقبل التاريخ الذى حقق الإنسان فيه إنجازات جوهرية لاتزال تؤثر على مجتمع وتكنولوجيا اليوم .

٨ ـ دراسة المراحل التطورية منذ ظهر الإنسان العاقل بصورة أفضل من دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية لها .

٩ ـ يساهم فى إثراء الدراسات الأنثروبولوچية ، وبخاصة فى موضوع إعادة بناء صورة البيئة القديمة ، وتحليل علاقتها بالأنساق السوسيوثقافية .

